صحيح

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى

1427هـ - 2006 م

رقم الإيداع : 2006/13379
الترقيم الدولي : 977-390-088-0
I. S.B.N

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع دار الفوائد

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس 002057441550 جوال : 0122368002
فرع المنصورة : 33 شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : 0020502312068

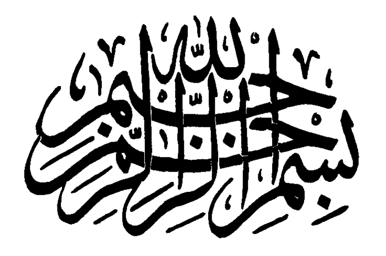
صحيح

تفسير ابن كثير

اختصره وخرّج أحاديثه
أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

الجزء الرابع

دار ابن رجب



تفسير سورة ص

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « **سُورَةِ البَقَرَةِ** » بِمَا أَغْنَى عَنِ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أَيْ : وَالْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ ذِكْرٌ لِلْعِبَادِ ، وَنَفْعٌ لَهُمْ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ . **قَالَ الضَّحَّاكُ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] أَيْ : تَذْكِيرُكُمْ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ ذِي الشَّرَفِ ، **وَقِيلَ** : ذِي الشَّأْنِ وَالمَكَانَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ شَرِيفٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَابِ هَذَا الْقَسَمِ ، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، **وَقِيلَ** : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ حَكَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ ، وَهَذَا الثَّانِي فِيهِ بُعْدٌ كَبِيرٌ وَضَعَّفَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : جَوَابُهُ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقِيلَ** : جَوَابُهُ مَا تَضَمَّنَهُ سِيَاقُ السُّورَةِ بِكَمَالِهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِذِكْرَى لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ أَيْ : اسْتِكْبَارٍ عَنْهُ وَحَمِيَّةٍ ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أَيْ : وَمُخَالَفَةٍ لَهُ وَمُعَانَدَةٍ وَمُفَارَقَةٍ ، ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ قَبْلَهُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ ﴿ فَنَادَوا۟ ﴾

أَيْ : حِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ اسْتَغَاثُوا وَجَأَرُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجْدٍ عَنْهُمْ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٢] أَيْ : يَهْرُبُونَ ، ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ **عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : لَيْسَ بِحِينِ نِدَاءٍ ، وَلَا نَزْوٍ ، وَلَا فِرَارٍ ، **وَقِيلَ** : لَيْسَ بِحِينِ مُغَاثٍ ، **وَقِيلَ أَيْضًا** : نَادَوا النِّدَاءَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ لَيْسَ بِحِينِ فِرَارٍ وَلَا إِجَابَةٍ ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ « **لَاتَ** » هِيَ « **لَا** » الَّتِي لِلنَّفْيِ ، زِيدَتْ مَعَهَا « **التَّاء** » كَمَا تُزَادُ فِي « **ثُمَّ** » فَيَقُولُونَ : « **ثُمَّتْ** » وَ « **رُبَّ** » فَيَقُولُونَ : « **رُبَّتْ** » وَهِيَ مَفْصُولَةٌ وَالْوَقْفُ عَلَيْهَا .

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَجُّبِهِمْ مِنْ بَعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَشِيرًا نَذِيرًا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : ٢] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ : أَزَعَمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؟! أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَى -

وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِالله ، فَإِنَّهُمْ قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا ، وَقَالُوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ ، وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ ﴿ ٱمْشُواْ ﴾ أَيْ : اسْتَمِرُّوا عَلَى دِينِكُمْ ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيد . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : قَالُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٌ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالاسْتِعْلَاءَ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ وَلَسْنَا نُجِيبُهُ إِلَيْهِ . **وَقَوْلُهُمْ** : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، **قِيلَ** : يَعْنُونَ دِينَ قُرَيْشٍ ، **وَقِيلَ** : يَعْنُونَ النَّصْرَانِيَّةَ . **قَالُوا** : لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا لَأَخْبَرَتْنَا بِهِ النَّصَارَى ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴾ كَذِبٌ وَتَخَرُّص ، **وَقَوْلُهُمْ** : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ ، فِي اسْتِبْعَادِهِمْ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَاقُوا - إِلَى حِينِ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ - عَذَابَ الله تَعَالَى وَنِقْمَتَهُ ، سَيَعْلَمُونَ غِبَّ مَا قَالُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا .

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، الَّذِي يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُنَزِّلُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَيَخْتِمُ عَلَى قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ فَلَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ الله ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمُلْكِ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا**

عَلَيْهِمْ : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، الْوَهَّابُ الَّذِي يُعْطِي مَا يُرِيدُ لِمَنْ يُرِيدُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣-٥٥] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا بَعْثَةَ الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ﷺ ، وَكَمَا أَخْبَرَ ﷻ عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ عليه السلام حِينَ قَالُوا : ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر : ٢٥-٢٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْعَدُوا فِي الْأَسْبَابِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ :** طُرُقُ السَّمَاءِ . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ الْمُكَذِّبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ سَيُهْزَمُونَ وَيُغْلَبُونَ ، وَيُكْبَتُونَ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٤-٤٥] ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنَّقِمَاتِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَقَدْ تَقَدَّمَتْ

قِصَصُهُمْ مَبْسُوطَةٌ فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ أَيْ : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، فَمَا دَافَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فَجَعَلَ عِلَّةَ إِهْلَاكِهِمْ هُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالرُّسُلِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ . ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ **قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَيْ** : لَيْسَ لَهَا مَثْنَوِيَّةٌ ، أَيْ : مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، أَيْ : فَقَدِ اقْتَرَبَتْ وَدَنَتْ وَأَزِفَتْ ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ هِيَ : نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، الَّتِي يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ أَنْ يُطَوِّلَهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فَزِعَ ، إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ ، فَإِنَّ الْقِطَّ هُوَ : الْكِتَابُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْحَظُّ وَالنَّصِيبُ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : سَأَلُوا تَعْجِيلَ الْعَذَابِ ، كَمَا قَالُوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : سَأَلُوا تَعْجِيلَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِبْعَادِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ آمِرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ .

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ ذَا أَيْدٍ ، وَالْأَيْدُ : الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، **وَقِيلَ** : الْأَيْدُ : الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ ، فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :

« **أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُد ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ ﷻ صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى ، وَإِنَّهُ كَانَ أَوَّابًا** »[1] وَهُوَ الرَّجَّاعُ إِلَى اللهِ ﷻ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُئُونِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَآخِرِ النَّهَارِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرَجِّعُ بِتَرْجِيعِهِ ، إِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ ، فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرَنَّمُ بِقِرَاءَةِ الزَّبُورِ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ بَلْ يَقِفُ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ ، وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تُرَجِّعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ . **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أَيْ : مَحْبُوسَةً فِي الْهَوَاءِ ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَيْ : مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ مُلْكًا كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَنَّ نَفَرَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَعْدَى أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ إِلَى دَاوُدَ ﷺ ، أَنَّهُ اغْتَصَبَهُ بَقَرًا فَأَنْكَرَ الْآخَرُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُدَّعِي بَيِّنَةٌ فَأَرْجَأَ أَمْرَهُمَا ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أُمِرَ دَاوُدُ ﷺ فِي الْمَنَامِ بِقَتْلِ الْمُدَّعِي ، فَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ طَلَبَهُمَا وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْمُدَّعِي ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ عَلَامَ تَقْتُلُنِي وَقَد اغْتَصَبَنِي هَذَا بَقَرِي ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَنِي بِقَتْلِكَ فَأَنَا قَاتِلُكَ لَا مَحَالَةَ ، فَقَالَ : وَاللهِ يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْكَ بِقَتْلِي لِأَجْلِ هَذَا الَّذِي ادَّعَيْتُ عَلَيْهِ – وَإِنِّي لَصَادِقٌ فِيمَا ادَّعَيْتُ – وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدِ اغْتَلْتُ أَبَاهُ وَقَتَلْتُهُ وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ أَحَدٌ ، فَأَمَرَ بِهِ دَاوُدُ ﷺ فَقُتِلَ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : فَاشْتَدَّتْ هَيْبَتُهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ ﷻ : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي الْفَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْفِطْنَةَ ، **وَقِيلَ** : الْحِكْمَةُ : الْعَدْلُ ، **وَقِيلَ** : كِتَابُ اللهِ وَاتِّبَاعُ مَا فِيهِ ، **وَقِيلَ** : النُّبُوَّةُ . ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ **قِيلَ** : فَصْلُ الْخِطَابِ : الشُّهُودُ وَالْأَيْمَانُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : شَاهِدَانِ عَلَى

(١) البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) ، وقد تقدم .

المُدَّعِي أَوْ يَمِينُ المُدَّعَى عَلَيْهِ هُوَ فَصْلُ الخِطَابِ الَّذِي فَصَلَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ - أَوْ قَالَ : المُؤْمِنُونَ وَالصَّالِحُونَ - وَهُوَ قَضَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ إِصَابَةُ القَضَاءِ وَفَهْمُ ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الفَصْلُ فِي الكَلَامِ وَفِي الحُكْمِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَهُوَ المُرَادُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . **وَقِيلَ** : أَوَّلُ مَنْ قَالَ : « **أَمَّا بَعْدُ** » دَاوُدُ عليه السلام وَهُوَ فَصْلُ الخِطَابِ ، **وَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ** : فَصْلُ الخِطَابِ « **أَمَّا بَعْد** » .

۞ وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

قَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ هَهُنَا قِصَّةً أَكْثَرُهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ المَعْصُومِ حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، فَالأَوْلَى أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ القِصَّةِ ، وَأَنْ يُرَدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللهِ عز وجل ، فَإِنَّ القُرْآنَ حَقٌّ وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ؛ لأَنَّهُ كَانَ فِي مِحْرَابِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي دَارِهِ ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ اليَوْمَ ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ المِحْرَابَ . أَيْ : احْتَاطَا بِهِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا .

وَقَوْلُهُ عز وجل : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أَيْ : غَلَبَنِي ، يُقَالُ عَزَّ يَعِزُّ إِذَا قَهَرَ وَغَلَبَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَاهُ ، ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أَيْ : سَاجِدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَكَعَ أَوَّلًا ، ثُمَّ سَجَدَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ سَاجِدًا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا يُقَالُ

فِيهِ : « إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ » .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي سَجْدَةِ « ص » هَلْ هِيَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : الْجَدِيدُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ ﷺ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ، بَلْ هِيَ سَجْدَةُ شُكْرٍ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **أَنَّهُ قَالَ فِي السَّجْدَةِ فِي « ص » : لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا**[1]. عَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي « ص » وَقَالَ : « **سَجَدَهَا دَاوُدُ** عليه السلام **تَوْبَةً وَنَسْجُدُهَا شُكْرًا** »[2]. **وَعَنِ الْعَوَّامِ**[3] **قَالَ** : سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةِ « ص » ؟ فَقَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ ؟ فَقَالَ : أَوَمَا تَقْرَأُ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فَكَانَ دَاوُدُ عليه السلام مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فَسَجَدَهَا دَاوُدُ عليه السلام فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةٌ يُقَرِّبُهُ اللهُ ﷻ بِهَا ، وَحُسْنُ مَرْجِعٍ ، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ لِنُبُوَّتِهِ وَعَدْلِهِ التَّامِّ فِي مُلْكِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ « **الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا** »[4].

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَ - تَبَارَكَ

---

(١) البخاري (١٠٦٩) ، (٣٤٢٢) .

(٢) **صحيح** : أخرجه النسائي (حديث ٩٥٦) .

(٣) البخاري (حديث ٤٨٠٧) .

(٤) مسلم (حديث ١٨٢٧) .

وَتَعَالَى - مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ . **قَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ بِمَا نَسُوا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا تَرَكُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَمْشَى عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ ، فَاللهُ أعلمُ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَبَثًا ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ فَيُثِيبُ الْمُطِيعَ وَيُعَذِّبُ الْكَافِرَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ بَعْثًا وَلَا مَعَادًا ، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ مِنَ النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ ﷻ مِنْ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ لَا يُسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ أَيْ : لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يُثَابُ فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ يَدُلُّ الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ وَالْفِطَرَ الْمُسْتَقِيمَةَ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ ، فَإِنَّا نَرَى الظَّالِمَ الْبَاغِي يَزْدَادُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَنَعِيمُهُ وَيَمُوتُ ، كَذَلِكَ وَنَرَى الْمُطِيعَ الْمَظْلُومَ يَمُوتُ بِكَمَدِهِ ، فَلَا بُدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ ، الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِنْصَافِ هَذَا مِنْ هَذَا ، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاءِ وَالْمُوَاسَاةِ ، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَآخِذِ الْعَقْلِيَّةِ الصَّرِيحَةِ .
قَالَ تَعَالَى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

أَيْ : ذَوُو الْعُقُولِ وَهِيَ الْأَلْبَابُ ، جَمْعُ لُبٍّ ، وَهُوَ : الْعَقْلُ ، **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : وَاللهِ مَا تَدَبُّرُهُ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ : قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ، مَا يُرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ أَيْ : نَبِيًّا ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أَيْ : فِي النُّبُوَّةِ ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ امْرَأَةٍ حَرَائِرَ **وَقَوْلُهُ** : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ثَنَاءٌ عَلَى سُلَيْمَانَ ، بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ أَيْ : إِذْ عُرِضَ عَلَى سُلَيْمَانَ ﵇ فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْخَيْلُ الصَّافِنَاتُ ، وَهِيَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثٍ وَطَرَفِ حَافِرِ الرَّابِعَةِ . وَالْجِيَادُ : السِّرَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ **ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ** : أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَالَّذِي يُقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نِسْيَانًا ، كَمَا شُغِلَ النَّبِيُّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، حَتَّى صَلَّاهَا بَعْدَ الْغُرُوبِ ، **وَذَلِكَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ**[1] **عَنْ جَابِرٍ** ﵁ **قَالَ** : جَاءَ عُمَرُ ﵁ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ ، وَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا**)) فَقَالَ : فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ ، فَتَوَضَّأَ نَبِيُّ اللهِ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا ، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦) ، ومسلم (٦٣١) .

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانَ سَائِغًا فِي مِلَّتِهِمْ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ لِعُذْرِ الْغَزْوِ وَالْقِتَالِ ، وَالْخَيْلُ تُرَادُ لِلْقِتَالِ ، **وَقَدِ ادَّعَى طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** أَنَّ هَذَا كَانَ مَشْرُوعًا فَنُسِخَ ذَلِكَ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ فِي حَالِ الْمُسَايَفَةِ وَالْمُضَايَقَةِ ، حَيْثُ لَا تُمْكِنُ صَلَاةٌ وَلَا رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ ﷺ فِي فَتْحِ « تُسْتَرَ » ، وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَعَرَاقِيبَهَا بِالسُّيُوفِ ، **وَقِيلَ** : جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا حُبًّا لَهَا ، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ قَالَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُعَذِّبَ حَيَوَانًا بِالْعَرْقَبَةِ ، وَيُهْلِكَ مَالًا مِنْ مَالِهِ بِلَا سَبَبٍ سِوَى أَنَّهُ اشْتَغَلَ عَنْ صَلَاتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا وَلَا ذَنْبَ لَهَا ، وَهَذَا الَّذِي رَجَّحَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي شَرْعِهِمْ جَوَازُ مِثْلِ هَذَا ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ غَضَبًا لِلَّهِ تَعَالَى ، بِسَبَبِ أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ عَنْهَا لِلَّهِ تَعَالَى عَوَّضَهُ اللهُ ﷻ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَهُوَ الرِّيحُ الَّتِي تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، فَهَذَا أَسْرَعُ وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْلِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ ﷻ خَيْرًا مِنْهُ** »[1] .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أَيِ : اخْتَبَرْنَاهُ بِأَنْ سَلَبْنَاهُ الْمُلْكَ مَرَّةً ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي شَيْطَانًا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ إِلَى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَأُبَّهَتِهِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ**[2] : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أَيْ : ابْتَلَيْنَا

---

(١) أحمد في المسند (٥/ ٧٨) .

(٢) هذا الذي سيأتي قول السدي ، ولعله متلقى من الإسرائيليات ، وهذا هو الغالب ، والله أعلم .

سُلَيْمَانَ ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ قَالَ : شَيْطَانًا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . **قَالَ** : كَانَ لِسُلَيْمَانَ عليه السلام مِائَةُ امْرَأَةٍ ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ يُقَالُ لَهَا : ((جَرَادَة)) وَهِيَ آثَرُ نِسَائِهِ وَآمَنُهُنَّ عِنْدَهُ ، وَكَانَ إِذَا أَجْنَبَ أَوْ أَتَى حَاجَةً نَزَعَ خَاتَمَهُ وَلَمْ يَأْمَنْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ غَيْرَهَا ، فَأَعْطَاهَا يَوْمًا خَاتَمَهُ وَدَخَلَ الْخَلَاءَ فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ : هَاتِي الْخَاتَمَ ، فَأَعْطَتْهُ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ عَلَى مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وَخَرَجَ سُلَيْمَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلَهَا أَنْ تُعْطِيَهُ خَاتَمَهُ ، فَقَالَتْ : أَلَمْ تَأْخُذْهُ قَبْلُ ؟ قَالَ : لَا ، وَخَرَجَ كَأَنَّهُ تَائِهٌ ، وَمَكَثَ الشَّيْطَانُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَالَ ، فَأَنْكَرَ النَّاسُ أَحْكَامَهُ ، فَاجْتَمَعَ قُرَّاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعُلَمَاؤُهُمْ فَجَاءُوا حَتَّى دَخَلُوا عَلَى نِسَائِهِ ، فَقَالُوا لَهُنَّ : إِنَّا قَدْ أَنْكَرْنَا هَذَا ، فَإِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ فَقَدْ ذَهَبَ عَقْلُهُ وَأَنْكَرْنَا أَحْكَامَهُ . قَالَ : فَبَكَى النِّسَاءُ عِنْدَ ذَلِكَ ، قَالَ : فَأَقْبَلُوا يَمْشُونَ حَتَّى أَتَوْهُ فَأَحْدَقُوا بِهِ ، ثُمَّ نَشَرُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ ، قَالَ : فَطَارَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَى شُرْفَةٍ وَالْخَاتَمُ مَعَهُ . ثُمَّ طَارَ حَتَّى ذَهَبَ إِلَى الْبَحْرِ فَوَقَعَ الْخَاتَمُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ ، فَابْتَلَعَهُ حُوتٌ مِنْ حِيتَانِ الْبَحْرِ ، قَالَ : وَأَقْبَلَ سُلَيْمَانُ عليه السلام فِي حَالِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى صَيَّادٍ مِنْ صَيَّادِي الْبَحْرِ ، وَهُوَ جَائِعٌ وَقَدِ اشْتَدَّ جُوعُهُ فَسَأَلَهُمْ مِنْ صَيْدِهِمْ ، وَقَالَ : إِنِّي أَنَا سُلَيْمَانُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فَضَرَبَهُ بِعَصًا فَشَجَّهُ ، فَجَعَلَ يَغْسِلُ دَمَهُ وَهُوَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَلَامَ الصَّيَّادُونَ صَاحِبَهُمُ الَّذِي ضَرَبَهُ فَقَالُوا : بِئْسَ مَا صَنَعْتَ حَيْثُ ضَرَبْتَهُ ، قَالَ : إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ سُلَيْمَانُ ، قَالَ : فَأَعْطَوْهُ سَمَكَتَيْنِ مِمَّا قَدْ مَذِرَ عِنْدَهُمْ ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الضَّرْبِ حَتَّى قَامَ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَشَقَّ بُطُونَهُمَا فَجَعَلَ يَغْسِلُ ، فَوَجَدَ خَاتَمَهُ فِي بَطْنِ إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَهُ فَلَبِسَهُ ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَهَاءَهُ وَمُلْكَهُ ، فَجَاءَتِ الطَّيْرُ حَتَّى حَامَتْ عَلَيْهِ ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام ، فَقَامَ الْقَوْمُ يَعْتَذِرُونَ مِمَّا صَنَعُوا ، فَقَالَ : مَا أَحْمَدُكُمْ عَلَى عُذْرِكُمْ وَلَا أَلُومُكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ ، كَانَ هَذَا الْأَمْرُ لَا بُدَّ مِنْهُ . قَالَ : فَجَاءَ حَتَّى أَتَى مُلْكَهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَجِيءَ بِهِ فَأَمَرَ بِهِ فَجُعِلَ فِي صُنْدُوقٍ مِنْ حَدِيدٍ ، ثُمَّ أَطْبَقَ عَلَيْهِ وَقَفَلَ عَلَيْهِ بِقُفْلٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ ، فَهُوَ فِيهِ حَتَّى تَقُومَ

السَّاعَةُ ، وَكَانَ اِسْمُهُ ((حبقيق)) قَالَ : وَسَخَّرَ اللهُ لَهُ الرِّيحَ وَلَمْ تَكُنْ سُخِّرَتْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ قِيلَ : شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ : آصَف ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ ﷺ : كَيْفَ تَفْتِنُونَ النَّاسَ ؟ قَالَ : أَرِنِي خَاتَمَكَ أُخْبِرْكَ ، فَلَمَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ نَبَذَهُ آصَف فِي الْبَحْرِ ، فَسَاحَ سُلَيْمَانُ ﷺ وَذَهَبَ مُلْكُهُ ، وَقَعَدَ آصَف عَلَى كُرْسِيِّهِ وَمَنَعَهُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْ نِسَاءِ سُلَيْمَانَ فَلَمْ يَقْرَبْهُنَّ وَلَمْ يَقْرَبْنَهُ وَأَنْكَرْنَهُ ، قَالَ : فَكَانَ سُلَيْمَانُ ﷺ يَسْتَطْعِمُ فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُونَنِي ؟ أَطْعِمُونِي ، أَنَا سُلَيْمَانُ فَيُكَذِّبُونَهُ ، حَتَّى أَعْطَتْهُ اِمْرَأَةٌ يَوْمًا حُوتًا فَفَتَحَ بَطْنَهُ فَوَجَدَ خَاتَمَه فِي بَطْنِهِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ مُلْكُهُ وَفَرَّ آصَفُ فَدَخَلَ الْبَحْرَ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ قَالَ : أَرَادَ سُلَيْمَانُ ﷺ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ ، فَأَعْطَى الْجَرَادَةَ خَاتَمَهُ ، وَكَانَتِ الْجَرَادَةُ امْرَأَتُهُ وَكَانَتْ أَحَبُّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ ، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ ، فَقَالَ لَهَا : هَاتِي خَاتَمِي فَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا لَبِسَهُ دَانَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ ، فَلَمَّا خَرَجَ سُلَيْمَانُ ﷺ مِنَ الْخَلَاءِ قَالَ لَهَا : هَاتِي خَاتَمِي . قَالَتْ : قَدْ أَعْطَيْتُهُ سُلَيْمَانَ . قَالَ : أَنَا سُلَيْمَانُ . قَالَتْ : كَذَبْتَ مَا أَنْتَ بِسُلَيْمَانَ ، فَجَعَلَ لَا يَأْتِي أَحَدًا يَقُولُ لَهُ : أَنَا سُلَيْمَانُ ، إِلَّا كَذَّبَهُ حَتَّي جَعَلَ الصِّبْيَانُ يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ سُلَيْمَانُ عَرَفَ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﷻ قَالَ : وَقَامَ الشَّيْطَانُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَرُدَّ عَلَى سُلَيْمَانَ سُلْطَانَهُ ، أَلْقَى فِي قُلُوبِ النَّاسِ إِنْكَارَ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ ، قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَى نِسَاءِ سُلَيْمَانَ ، فَقَالُوا لَهُنَّ : أَتُنْكِرْنَ مِنْ سُلَيْمَانَ شَيْئًا ؟ قُلْنَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ يَأْتِينَا وَنَحْنُ حُيَّضٌ وَمَا كَانَ يَأْتِينَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ فُطِنَ لَهُ ، ظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ قَدِ انْقَطَعَ ، فَكَتَبُوا كُتُبًا فِيهَا سِحْرٌ وَكُفْرٌ فَدَفَنُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ أَثَارُوهَا وَقَرَءُوهَا عَلَى النَّاسِ ، وَقَالُوا بِهَذَا كَانَ يَظْهَرُ سُلَيْمَانُ

---

(١) أورد الحافظ ابن كثير - رحمه الله - جملة آثار في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ، وقال : هذه كلها من الإسرائيليات ومن أنكرها ما روى عن ابن عباس ، وساق هذا الأثر وإسناده صحيح إلى ابن عباس كما سيشير إليه الحافظ رحمه الله وكأنه أيضًا متلقى من الإسرائيليات .

عَلَى النَّاسِ وَيَغْلِبهُمْ ، فَأَكْفَرَ النَّاسُ سُلَيْمَانَ ﷺ فَلَمْ يَزَالُوا يُكَفِّرُونَهُ ، وَبَعَثَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ بِالْخَاتَمِ فَطَرَحَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَتَلَقَّتْهُ سَمَكَةٌ فَأَخَذَتْهُ ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ ﵇، يَحْمِلُ عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ بِالْأَجْرِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاشْتَرَى سَمَكًا فِيهِ تِلْكَ السَّمَكَةُ الَّتِي فِي بَطْنِهَا الْخَاتَمُ ، فَدَعَا سُلَيْمَانُ ﵇ فَقَالَ : تَحْمِلُ لِي هَذَا السَّمَكَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . قَالَ : بِكَمْ ؟ قَالَ : بِسَمَكَةٍ مِنْ هَذَا السَّمَكِ . قَالَ : فَحَمَلَ سُلَيْمَانُ ﵇ السَّمَكَ ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ إِلَى بَابِهِ أَعْطَاهُ تِلْكَ السَّمَكَةَ الَّتِي فِي بَطْنِهَا الْخَاتَمُ ، فَأَخَذَهَا سُلَيْمَانُ ﵇، فَشَقَّ بَطْنَهَا فَإِذَا الْخَاتَمُ فِي جَوْفِهَا فَأَخَذَهُ فَلَبِسَهُ ، قَالَ : فَلَمَّا لَبِسَهُ دَانَتْ لَهُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالشَّيَاطِينُ وَعَادَ إِلَى حَالِهِ ، وَهَرَبَ الشَّيْطَانُ حَتَّى لَحِقَ بِجَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ ، فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ ﵇ فِي طَلَبِهِ ، وَكَانَ شَيْطَانًا مَرِيدًا فَجَعَلُوا يَطْلُبُونَهُ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَجَدُوهُ يَوْمًا نَائِمًا ، فَجَاءُوا فَبَنَوْا عَلَيْهِ بُنْيَانًا مِنْ رَصَاصٍ ، فَاسْتَيْقَظَ فَوَثَبَ فَجَعَلَ لَا يَثِبُ فِي مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا انْمَاطَ مَعَهُ مِنَ الرَّصَاصِ ، قَالَ : فَأَخَذُوهُ فَأَوْثَقُوهُ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ ﵇، فَأَمَرَ بِهِ فَنُقِرَ لَهُ تَخْتٌ مِنْ رُخَامٍ ، ثُمَّ أُدْخِلَ فِي جَوْفِهِ ، ثُمَّ سُدَّ بِالنُّحَاسِ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ثُمَّ أَنَابَ ، يَعْنِي : الشَّيْطَانُ الَّذِي كَانَ سُلِّطَ عَلَيْهِ .

إِسْنَادُهُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَوِيٌّ ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - إِنْ صَحَّ عَنْهُ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَفِيهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ سُلَيْمَانَ ﵇ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا كَانَ فِي السِّيَاقِ مُنْكَرَاتٌ مِنْ أَشَدِّهَا ذِكْرُ النِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَشْهُورَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ : أَنَّ ذَلِكَ الْجِنِّيَّ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَى نِسَاءِ سُلَيْمَانَ بَلْ عَصَمَهُنَّ اللهُ ﷻ مِنْهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا لِنَبِيِّهِ ﵇، وَقَدْ رُوِيَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مُطَوَّلَةً عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ ﷺ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَجَمَاعَةٍ آخَرِينَ ، وَكُلُّهَا مُتَلَقَّاةٌ مِنْ قَصَصِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ

أنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، أَيْ : لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْلُبَنِيهِ بَعْدِي ، كَمَا كَانَ مِنْ قَضِيَّةِ الْجَسَدِ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ، لَا أَنَّهُ يَحْجُرُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ مِنَ النَّاسِ ،**والصَّحِيح** : أَنَّهُ سَأَلَ مِنَ الله تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ ، وَبِذَلِكَ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١] ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ** - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - **لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْهُ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ** عليه السلام ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾)) **فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا** .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ[٢] ﷺ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ : ((**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ**)) ثُمَّ قَالَ : ((**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ**)) ثَلَاثًا ، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ ، قَالَ ﷺ : ((**إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي ، فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْتُ : أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ صِبْيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**)) .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو[٣] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ سُلَيْمَانَ** عليه السلام **سَأَلَ اللهَ تَعَالَى ثَلَاثًا فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا الثَّالِثَةُ : سَأَلَهُ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، وَسَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ** عز وجل **قَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهَا**)) .

---

(١) البخاري (٤٨٨) ، ومسلم (٥٤١) .

(٢) مسلم (حديث ٥٤٢) .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ الله** : لَمَّا عَقَرَ سُلَيْمَانُ ﷺ الْخَيْلَ غَضَبًا لله ﷻ عَوَّضَهُ اللهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَسْرَعُ : الرِّيحُ الَّتِي غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أَيْ : حَيْثُ أَرَادَ مِنَ الْبِلَادِ . ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ ، وَطَائِفَةٌ غَوَّاصُونَ فِي الْبِحَارِ يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِيهَا مِنَ اللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا فِيهَا ، ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أَيْ : مُوَثَّقُونَ فِي الْأَغْلَالِ وَالْأَكْبَالِ مِمَّنْ قَدْ تَمَرَّدَ وَعَصَى وَامْتَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ وَأَبَى ، أَوْ قَدْ أَسَاءَ فِي صَنِيعِهِ وَاعْتَدَى .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالسُّلْطَانِ الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتَنَا ، فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرِمْ مَنْ شِئْتَ ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ ، أَيْ : مَهْمَا فَعَلْتَ فَهُوَ جَائِزٌ لَكَ ، احْكُمْ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ ، **وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ الله** ﷺ لَمَّا خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا - وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ قَاسِمٌ يَقْسِمُ بَيْنَ النَّاسِ[1] كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ - وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ بِلَا حِسَابٍ وَلَا جُنَاحٍ : اخْتَارَ الْمَنْزِلَةَ الْأُولَى بَعْدَمَا اسْتَشَارَ جِبْرِيلَ ﷺ فَقَالَ لَهُ : تَوَاضَعْ[2] ، فَاخْتَارَ الْمَنْزِلَةَ الْأُولَى ؛ لِأَنَّهَا أَرْفَعُ قَدْرًا عِنْدَ الله ﷻ وَأَعْلَى مَنْزِلَةً فِي الْمَعَادِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ النُّبُوَّةُ مَعَ الْمُلْكِ عَظِيمَةٌ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَعْطَى سُلَيْمَانَ ﷺ فِي الدُّنْيَا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ وَالْآخِرَةِ .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

---

(١) انظر البخاري (٣١١٥ ، ٣١١٦ ، ٣١١٧) ، ومسلم (١٠٣٧) .
(٢) صحيح : وانظر مسند الإمام أحمد (٢/ ٢٣١) .

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَيُّوبَ عليه السلام وَمَا كَانَ ابْتَلاهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضُّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ جَسَدِهِ مَغْرِزَ إِبْرَةٍ سَلِيمًا سِوَى قَلْبِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَرَضِهِ ، وَمَا هُوَ فِيهِ غَيْرُ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وُدَّهُ لِإِيمَانِهَا بِاللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأُجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةٍ ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طَائِلَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَسُلِبَ جَمِيعُ ذَلِكَ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ أُلْقِيَ عَلَى مَزْبَلَةٍ مِنْ مَزَابِلِ الْبَلْدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا ، وَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ سِوَى زَوْجَتِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهِ قَرِيبًا ، فَلَمَّا طَالَ الْمَطَالُ ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ ، وَانْتَهَى الْقَدَرُ وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ ، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، **وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ** : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ **قِيلَ** : بِنُصْبٍ فِي بَدَنِي ، وَعَذَابٍ فِي مَالِي وَوَلَدِي ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ ، فَفَعَلَ فَأَنْبَعَ اللهُ تَعَالَى عَيْنًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ مِنَ الْأَذَى ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرَ ، فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا ، فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ وَتَكَامَلَتِ الْعَافِيَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[1] رضي الله عنه قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : ((**إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ عليه السلام لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ بِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللهِ ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ**

---

(١) **صحيح** : أخرجه الطبري وغيره .

ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ تَعَالَى ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ عليه السلام : لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ عز وجل يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَعَالَى ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهَ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقٍّ وَقَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا ، فَأَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عليه السلام ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَالْتَفَتَتْ تَنْظُرُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ : أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى ؟ فَوَاللهِ الْقَدِيرِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا ، قَالَ : فَإِنِّي أَنَا هُوَ ، قَالَ : وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ عليه السلام يَحْثُو فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ عز وجل : يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى ؟ قَالَ عليه السلام : بَلَى يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ » ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ : أَحْيَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِأَعْيَانِهِمْ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ .

وَقَوْلُهُ عز وجل ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أَيْ : بِهِ عَلَى صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِنَابَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : لِذَوِي الْعُقُولِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرَجُ وَالْمَخْرَجُ وَالرَّاحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عليه السلام كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرٍ فَعَلَتْهُ ، قِيلَ : بَاعَتْ ضَفِيرَتَهَا بِخُبْزٍ فَأَطْعَمَتْهُ إِيَّاهُ فَلَامَهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَحَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لَيَضْرِبَنَّهَا مِائَةَ

---

(١) البخاري (٢٧٩) .

جَلْدَةٍ ، **وَقِيلَ** : لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَلَمَّا شَفَاهُ اللهُ ﷻ وَعَافَاهُ ، مَا كَانَ جَزَاؤُهَا مَعَ هَذِهِ الْخِدْمَةِ التَّامَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ ، فَأَفْتَاهُ اللهُ ﷻ أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا – وَهُوَ : الشِّمْرَاخُ – فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ فَيَضْرِبَهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ وَخَرَجَ مِنْ حِنْثِهِ ، وَوَفَّى بِنَذْرِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ تَعَالَى وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِأَنَّهُ ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أَيْ : رَجَّاعٌ مُنِيبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢-٣] ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَسَائِلَ فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ أَخَذُوهَا بِمُقْتَضَاهَا .

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فَضَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ ، وَالْقُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْبَصِيرَةَ النَّافِذَةَ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى ﴾ يَقُولُ : أُولِي الْقُوَّةِ ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يَقُولُ : الْفِقْهُ فِي الدِّينِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى ﴾ يَعْنِي : الْقُوَّةُ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يَعْنِي : الْبَصَرُ فِي الْحَقِّ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ** : أُعْطُوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا فِي الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا ، **وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ** : ذِكْرُهُمْ لِلْآخِرَةِ وَعَمَلُهُمْ لَهَا ، **وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ** : نَزَعَ اللهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَذِكْرَهَا وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْآخِرَةِ وَذِكْرِهَا ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْنِي بِالدَّارِ : الْجَنَّةَ ،

يَقُولُ : أَخْلَصْنَاهَا لَهُمْ بِذِكْرِهِمْ لَهَا ، وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ : عُقْبَى الدَّارِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَانُوا يُذَكِّرُونَ النَّاسَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَالْعَمَلَ لَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أَيْ : لَمِنَ الْمُخْتَارِينَ الْمُجْتَبَيْنَ الْأَخْيَار ، فَهُمْ أَخْيَارٌ مُخْتَارُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ مُسْتَقْصَاةً فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أَيْ : هَذَا فَصْلٌ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السُّعَدَاءَ أَنَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ، وَهُوَ : الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : جَنَّات إِقَامَة ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ هَهُنَا بِمَعْنَى الْإِضَافَةِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : « **مُفَتَّحَة لَهُمْ أَبْوَابهَا** » أَيْ : إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا . وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْ وُجُوهٍ عَدِيدَةٍ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ **قِيلَ** : مُتَرَبِّعِينَ عَلَى سُرُرٍ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا وَأُحْضِرَ كَمَا أَرَادُوا ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِهِ شَاءُوا أَتَتْهُمْ بِهِ الْخُدَّامُ ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَلْتَفِتْنَ إِلَى غَيْرِ بُعُولَتِهِنَّ ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أَيْ : مُتَسَاوِيَات فِي السِّنِّ وَالْعُمْرِ . ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ صِفَةِ الْجَنَّةِ هِيَ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ ،

الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ الْجَنَّةِ ، أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا زَوَالَ وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا انْتِهَاءَ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، وَكَقَوْلِهِ تعالى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد : ٣٥] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَآلَ السُّعَدَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَمَرْجِعِهِمْ وَمَآبِهِمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ **فَقَالَ** ﷻ : ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ﷻ الْمُخَالِفُونَ لِرُسُلِ اللهِ ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : لَسُوءِ مُنْقَلَبٍ وَمَرْجِعٍ ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أَيْ : يَدْخُلُونَهَا فَتَغْمُرُهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ **أَمَّا الْحَمِيمُ فَهُوَ** : الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ ، **وَأَمَّا الْغَسَّاقُ** : فَهُوَ ضِدُّهُ وَهُوَ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ الْمُؤْلِمِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أَيْ : وَأَشْيَاءُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : الشَّيْءُ وَضِدُّهُ يُعَاقَبُونَ بِهَا . **وَقِيلَ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أَلْوَانٌ مِنَ الْعَذَابِ ، **وَقِيلَ** : كَالزَّمْهَرِيرِ وَالسَّمُومِ ، وَشُرْبِ الْحَمِيمِ وَأَكْلِ

الزَّقُّوم ، وَالصَّعُودِ وَالْهَوِيِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَضَادَّةِ ، وَالْجَمِيعُ مِمَّا يُعَذَّبُونَ بِهِ وَيُهَانُونَ بِسَبَبِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى عَنْ قِيلِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] يَعْنِي : بَدَلُ السَّلَامِ يَتَلَاعَنُونَ وَيَتَكَاذَبُونَ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَدْخُلُ قَبْلَ الْأُخْرَى إِذَا أَقْبَلَتِ الَّتِي بَعْدَهَا مَعَ الْخَزَنَةِ مِنَ الزَّبَانِيَةِ ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أَيْ : دَاخِلٌ مَعَكُمْ ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أَيْ : لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أَيْ : فَيَقُولُ لَهُمُ الدَّاخِلُونَ : بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا إِلَى مَا أَفْضَى بِنَا إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمَصِيرُ ، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] أَيْ : لِكُلٍّ مِنْكُمْ عَذَابٌ بِحَسَبِهِ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ أَنَّهُمْ يَفْتَقِدُونَ رِجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ - وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ - فِي زَعْمِهِمْ ، قَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَاهُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذَا قَوْلُ أَبِي جَهْلٍ ، يَقُولُ : مَا لِي لَا أَرَى بِلَالًا وَعَمَّارًا وَصُهَيْبًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا . وَهَذَا مَثَلٌ ضُرِبَ وَإِلَّا فَكُلُّ الْكُفَّارِ هَذَا حَالُهُمْ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْكُفَّارُ النَّارَ افْتَقَدُوهُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ فَقَالُوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ يُسَلُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُحَالِ يَقُولُونَ : أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ بَصَرُنَا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ

أن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٤- ٤٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَلَعْنُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ - لَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَه ﷺ أَنْ يَقُول لِلْكُفَّارِ بِالله الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ : هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمُتَصَرِّفٌ فِيهِ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ أَيْ : غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : خَبَرٌ عَظِيمٌ وَشَأْنٌ بَلِيغٌ وَهُوَ إِرْسَالُ الله تَعَالَى إِيَّايَ إِلَيْكُمْ ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : غَافِلُونَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا الْوَحْي مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَدْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى ؟ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ ﷺ وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُود لَهُ وَمُحَاجَّته رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ[1] : احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ ، فَخَرَجَ ﷺ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ ، فَصَلَّى

(١) أهل الحديث في هذين الحديثين مصحح ومضعف ، والوجهان بالتصحيح والتضعيف وجيهان وإن كان الأقرب لي الآن أنه معلول ، والله تعالى أعلم ، وقد أخرجه الترمذي في سننه (حديث ٣٢٣٥) . وأحمد (٥/٢٤٣) ، (٣٢٣٤) .

وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ : « كَمَا أَنْتُمْ على مَصَافِّكُمْ » ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ : « إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي ، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي ﷻ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي يَا رَبِّ - أَعَادَهَا ثَلَاثًا - فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى ؟ قُلْتُ : فِي الْكَفَّارَاتِ . قَالَ : وَمَا الْكَفَّارَاتُ ؟ قُلْتُ : نَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ ، وَالجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ . قَالَ : وَمَا الدَّرَجَاتُ ؟ قُلْتُ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَلِينُ الْكَلَامِ ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ . قَالَ : سَلْ . قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً بِقَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ » وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا » ، فَهُوَ حَدِيثُ المَنَامِ المَشْهُورِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ يَقَظَةً فَقَدْ غَلِطَ ، وَهُوَ فِي السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ وَهَذَا الحَدِيثُ بِعَيْنِهِ قَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَلَيْسَ هَذَا الاخْتِصَامُ هُوَ الاخْتِصَامُ المَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ فُسِّرَ وَأَمَّا الاخْتِصَامُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ فُسِّرَ بَعْدَ هَذَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي « **سُورَةِ الْبَقَرَةِ** » وَفِي أَوَّلِ « **سُورَةِ الْأَعْرَافِ** » وَفِي « **سُورَةِ الْحِجْرِ** ، **وَسُبْحَان** ، **وَالْكَهْفِ** » ، وَهُنَا ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ : مَتَى فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ عز وجل ، فَامْتَثَلَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ذَلِكَ سِوَى إِبْلِيسَ - وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا كَانَ مِنَ الْجِنِّ - فَخَانَهُ طَبْعُهُ وَجِبِلَّتُهُ أَحْوَجُ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، فَاسْتَنْكَفَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ ، وَخَاصَمَ رَبَّهُ عز وجل فِيهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ ، وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فِي زَعْمِهِ . وَقَدْ أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ وَخَالَفَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ عز وجل وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَطَرَدَهُ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ وَمَحَلِّ أُنْسِهِ وَحَضْرَةِ قُدْسِهِ ، وَسَمَّاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أُبْلِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَأَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَدْحُورًا إِلَى الْأَرْضِ ، فَسَأَلَ اللهَ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ ، فَلَمَّا أَمِنَ الْهَلَاكَ إِلَى الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَقَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ عز وجل : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَثْنَوْنَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قَرَأَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ بِرَفْعِ « الْحَقّ » الْأَوَّلُ . وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ بِأَنَّ مَعْنَاهُ : أَنَا الْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : الْحَقُّ مِنِّي وَأَقُولُ الْحَقَّ .

قُلْت : وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ، وَكَقَوْلِهِ عز وجل : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ

مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣]

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا النُّصْحِ أَجْرًا تُعْطُونِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا أُرِيدُ عَلَى مَا أَرْسَلَنِي اللهُ تَعَالَى بِهِ وَلَا أَبْتَغِي زِيَادَةً عَلَيْهِ ، بَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَدَّيْتُهُ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ ﷻ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ .

عَنْ مَسْرُوقٍ[1] قَالَ : أَتَيْنَا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ : اللهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ : اللهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَالَ لِنَبِيِّكُمْ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَكَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ أَيْ : خَبَرَهُ وَصِدْقَهُ ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ أَيْ : عَنْ قَرِيبٍ قَالَ قَتَادَةُ : بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ دَخَلَ فِي حُكْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : يَا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ص وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

تفْسِيرُ سُورَةِ الزمَرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٥] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت : ٤١-٤٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ : الْمَنِيعُ الْجَنَابُ ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : فَاعْبُدِ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَادْعُ الْخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ وَلَا نَدِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ أَيْ : لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أَخْلَصَ فِيهِ الْعَامِلُ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ ﷻ عَنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَصْنَامِ اتَّخَذُوهَا عَلَى صُوَرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي زَعْمِهِمْ ، فَعَبَدُوا تِلْكَ الصُّوَرَ تَنْزِيلًا لِذَلِكَ مَنْزِلَةَ عِبَادَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يَنُوبُهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، فَأَمَّا الْمَعَادُ فَكَانُوا جَاحِدِينَ لَهُ كَافِرِينَ بِهِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أَيْ : لِيَشْفَعُوا لَنَا وَيُقَرِّبُونَا عِنْدَهُ مَنْزِلَةً ، وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ إِذَا حَجُّوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ هِيَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - بِرَدِّهَا ، وَالنَّهْيِ عَنْهَا ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ هَذَا شَيْءٌ اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ فِيهِ وَلَا رَضِيَ بِهِ ، بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَى عَنْهُ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ خَاضِعُونَ للهِ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنِ ارْتَضَى ، وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأُمَرَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّهُ الْمُلُوكُ وَأَبَوْهُ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : سَيَفْصِلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠-٤١]

وَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أَيْ : لَا يُرْشِدُ إِلَى الْهِدَايَةِ مَنْ قَصْدُهُ الْكَذِبَ وَالِافْتِرَاءَ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ ، كَمَا يَزْعُمُهُ جَهَلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْمُعَانِدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْعُزَيْرِ وَعِيسَى ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ

وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا يَزْعُمُونَ ، وَهَذَا شَرْطٌ لَا يَلْزَمُ وُقُوعُهُ وَلَا جَوَازُهُ بَلْ هُوَ مُحَالٌ ، وَإِنَّمَا قُصِدَ تَجْهِيلُهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ وَزَعَمُوهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٧] ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] كُلُّ هَذَا مِنْ بَابِ الشَّرْطِ ، وَيَجُوزُ تَعْلِيقُ الشَّرْطِ عَلَى الْمُسْتَحِيلِ لِقَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ الْأَشْيَاءَ فَدَانَتْ لَهُ وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ .

خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَبِأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ يُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ أَيْ : سَخَّرَهُمَا يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْقَضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴾ أَيْ : مَعَ عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، هُوَ غَفَّارٌ لِمَنْ عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أَيْ : خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ آدَمُ عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ،

وَهِيَ حَوَّاءُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[النساء : ١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِنْ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي « **سُورَةِ الْأَنْعَامِ** » ثَمَانِيَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ أَيْ : قَدَّرَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يَكُونُ أَحَدُكُمْ أَوَّلًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً ، ثُمَّ يُخْلَقُ فَيَكُونُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَصِيرُ خَلْقًا آخَرَ ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ يَعْنِي : فِي ظُلْمَةِ الرَّحِمِ ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ الَّتِي هِيَ كَالْغِشَاوَةِ وَالْوِقَايَةِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَظُلْمَةِ الْبَطْنِ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ هُوَ الرَّبُّ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟ أَيْنَ يُذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ ؟!

إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا قَالَ مُوسَى ؑ : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ

لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أَيْ : لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يُحِبُّهُ لَكُمْ وَيَزِدْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا بَلْ كُلٌّ مُطَالَبٌ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : عِنْدَ الْحَاجَةِ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَغِيثُ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ يَنْسَى ذَلِكَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ الْعَافِيَةِ يُشْرِكُ بِاللهِ وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

يَقُولُ ﷻ أَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ وَجَعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ

---

(١) **صحيح**: وقد تقدم .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] ، **وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا** ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ سُجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْقُنُوتَ هُوَ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ ، لَيْسَ هُوَ الْقِيَامُ وَحْدَهُ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ آخَرُونَ .

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ **قَالَ** : الْقَانِتُ الْمُطِيعُ للهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ جَوْفُ اللَّيْلِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ أَوَّلُهُ وَأَوْسَطُهُ وَآخِرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا ، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّنْ جَعَلَ للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مَنْ لَهُ لُبٌّ ، وَهُوَ الْعَقْلُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ . ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فَهَاجِرُوا فِيهَا وَجَاهِدُوا وَاعْتَزِلُوا الْأَوْثَانَ . ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ **قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ** : لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ ، إِنَّمَا يُغْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ . ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ

أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ .

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ رَسُولُ الله : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا شَرْطٌ ، وَمَعْنَاهُ : التَّعْرِيضُ بِغَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ وَهَذَا أَيْضًا تَهْدِيدٌ وَتَبَرٍّ مِنْهُمْ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلَّ الْخُسْرَانِ ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : تَفَارَقُوا فَلَا الْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا ، وَسَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا النَّارَ وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُورَ ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ .

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ ، فَقَالَ : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُصُّ خَبَرَ هَذَا الْكَائِنِ لَا مَحَالَةَ لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ ، لِيَنْزَجِرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ أَيْ : اِخْشَوْا بَأْسِي وَسَطْوَتِي وَعَذَابِي وَنِقْمَتِي .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ

عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قَالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ الفَارِسِي ، **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنِ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَنَابَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى ﷺ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَاةَ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : ١٤٥] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : ذَوُو الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَفَمَنْ كَتَبَ اللهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ تَقْدِرُ تُنْقِذُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ ؟ أَيْ : لَا يَهْدِيه أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ الله ، لِأَنَّهُ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ ﷻ عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ أَنَّ لَهُمْ غُرَفًا فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ : الْقُصُورُ الشَّاهِقَةُ ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طِبَاقٌ فَوْقَ طِبَاقٍ ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُزَخْرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ** » قَالَ : فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَيَّاشٍ فَقَالَ : سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الَّذِي فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أَوِ الْغَرْبِيِّ** »[1].

---

(١) البخاري (٦٥٥٥) ، ومسلم (٢٨٣٠) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرَفِ ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَارِبَ فِي الْأُفُقِ الطَّالِعِ ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ** » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ ؟ فَقَالَ ﷺ : « **بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الرُّسُلَ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أَيْ : تَسْلُكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِ ذَلِكَ ، كَمَا يَشَاءُونَ وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَعْدٌ وَعَدَهُ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَصْلَ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، فَإِذَا أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ كَمَنَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ كَمَا يَشَاءُ وَيُنْبِعُهُ عُيُونًا مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَاءٌ إِلَّا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَكِنْ عُرُوقٌ فِي الْأَرْضِ تُغَيِّرُهُ . فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعُودَ الْمِلْحُ عَذْبًا فَلْيَصْعَدْهُ . **وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : إِنَّ كُلَّ مَاءٍ فِي الْأَرْضِ فَأَصْلُهُ مِنَ السَّمَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أَيْ : ثُمَّ يُخْرِجُ بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ زَرْعًا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أَيْ : أَشْكَالُهُ وَطُعُومُهُ

(١) حسن : أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٩) ، وغيره .

وَرَوَائِحُهُ وَمَنَافِعُهُ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أَيْ : بَعْدَ نَضَارَتِهِ وَشَبَابِهِ يُكْتَهَلُ ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ قَدْ خَالَطَهُ الْيُبْسُ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾ أَيْ : ثُمَّ يَعُودُ يَابِسًا يَتَحَطَّمُ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا هَكَذَا ، تَكُونُ خَضِرَةٌ نَضْرَةٌ حَسْنَاءُ ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزًا شَوْهَاءُ ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِمًا كَبِيرًا ضَعِيفًا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ الْمَوْتُ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ حَالُهُ بَعْدَهُ إِلَى خَيْرٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ وَيُنْبِتُ بِهِ زُرُوعًا وَثِمَارًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حُطَامًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[الكهف : ٤٥]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ هُوَ قَاسِي الْقَلْبِ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[الأنعام : ١٢٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَلَا تَلِينَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَلَا تَخْشَعَ وَلَا تَعِي وَلَا تَفْهَمَ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللهِ ﷻ لِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ ، وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ تَرْدِيدُ الْقَوْلِ لِيَفْهَمُوا عَنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ** : ثَنَّى اللهُ فِيهِ الْقَضَاءَ ، **زَادَ الْحَسَنُ** : تَكُونُ السُّورَةُ فِيهَا آيَةً وَفِي السُّورَةِ الْأُخْرَى آيَةً تُشْبِهُهَا ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ مُرَدَّدٌ

رُدِّدَ مُوسَى فِي الْقُرْآنِ وَصَالِحٌ وَهُودٌ وَالْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي أَمْكِنَةٍ كَثِيرَةٍ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ قَالَ : الْقُرْآنُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَيُرَدُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : وَيُرْوَى عَنْ **سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ** مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ أَنَّ سِيَاقَاتُ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، فَهَذَانِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَتَارَةً تَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ وَضِدِّهِ ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا ، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣-١٤] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين : ٧-١٨] ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٤٩-٥٥] ، وَنَحْو هَذَا مِنَ السِّيَاقَاتِ ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْمَثَانِي ، أَيْ : فِي مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَهُوَ الْمُتَشَابِهُ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ذَاكَ مَعْنًى آخَرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُجَّارِ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّ سَمَاعَ هَؤُلَاءِ هُوَ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ ، وَسَمَاعُ أُولَئِكَ نَغَمَاتُ الْأَبْيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقَيْنَاتِ . **الثَّانِي** : أَنَّهُمْ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ، بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢-٤]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣]أَيْ : لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا ، بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا فَاهِمِينَ بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا ، فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ . **الثَّالِثُ** : أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ الْأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَخُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَدْحِ مِنَ الرَّبِّ الْأَعْلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، وَيُقْرَعُ فَيُقَالُ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ، كَمَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : ٤٨]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠]، وَاكْتَفَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

يَعْنِي : الْخَيْرَ أَوِ الشَّرَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِلرُّسُلِ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَتَشَفِّي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ ، وَالَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ أَعْظَمَ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يُقَرِّبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم : ٢٨] أَيْ : تَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أَيْ : هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لَبْسَ ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَوُضُوحٌ وَبُرْهَانٌ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى كَذَلِكَ وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ ﴾ أَيْ : يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ

الْعَبْدِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أَيْ : سَالِمًا ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ أَيْ : خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً مَعَ اللهِ وَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هَذِهِ الْآيَةُ ضُرِبَتْ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِ وَالْمُخْلِصِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ ظَاهِرًا بَيِّنًا جَلِيًّا قَالَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اِسْتَشْهَدَ بِهَا الصِّدِّيقُ ﷺ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتَهُ مَعَ قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، **وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ** : أَنَّكُمْ سَتُنْقَلُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مَحَالَةَ ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ ، فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ، فَيُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلَصِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَ سِيَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَذِكْرِ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِكُلِّ مُتَنَازِعَيْنِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ تُعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ أَتُكَرَّرُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ ؟ قَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ**)) قَالَ ﷺ : إِنَّ الْأَمْرَ إِذًا لَشَدِيدٌ[١].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يَقُولُ : يُخَاصِمُ الصَّادِقُ الْكَاذِبَ ، وَالْمَظْلُومُ الظَّالِمَ ، وَالْمُهْتَدِي الضَّالَّ ، وَالضَّعِيفُ الْمُسْتَكْبِرَ .

(١) إسناده حسن .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : أَهْلَ الْقِبْلَةِ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَ الْكُفْرِ ، **وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ الْعُمُومُ** ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ ﷻ مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللهِ وَجَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ ، وَجَعَلُوا للهِ وَلَدًا - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيِ الْبَاطِلِ ، كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالُوا الْبَاطِلَ وَرَدُّوا الْحَقَّ ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، **وَقِيلَ** : هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ قَالَ : مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي : رَسُولَ اللهِ ﷺ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي : الْأَتْبَاعَ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ الْمُؤْمِنُونَ يَجِيئُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : هَذَا مَا أَعْطَيْتُمُونَا ، فَعَمِلْنَا فِيهِ بِمَا أَمَرْتُمُونَا . وَهَذَا الْقَوْلُ يَشْمَلُ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ ، وَالرَّسُولُ ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِالدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَآمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ قَالَ : الْمُسْلِمُونَ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ اِتَّقَوا الشِّرْكَ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ ، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[الأحقاف : ١٦]

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ، **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** : ((عِبَادَهُ)) يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يَكْفِي مَنْ عَبَدَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ . عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول : ((**أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ بِهِ**))[1] ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَصْنَامِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ أَيْ : مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنِ اسْتَنَدَ إِلَى جَنَابِهِ وَلَجَأَ إِلَى بَابِهِ ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ ، وَلَا أَشَدَّ انْتِقَامًا مِنْهُ ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ وَعَانَدَ رَسُولَهُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي :

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم بنحوه (حديث ١٠٥٤) .

الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ لِلأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الأَمْرِ .

وَذَكَرَ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - مَرْفُوعًا : ((**اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اِسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اِجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ ، وَلَوِ اِجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ ، جُفَّتِ الصُّحُفُ وَرُفِعَتِ الأَقْلَامُ ، وَاعْمَلْ للهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**))(١).

﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : اللهُ كَافٍ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . كَمَا قَالَ هُودٌ ﷺ حِينَ قَالَ قَوْمُهُ : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤-٥٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : سَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ وَوَبَالَهُ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ وَمُسْتَمِرٌّ لَا مَحِيدَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا .

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى

(١) **صحيح** : له شواهد ، وقد أخرجه الترمذي (٢٥١٦) دون قوله : ((وَاعْمَلْ للهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا)) .

ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ: لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِتُنْذِرَهُمْ بِهِ ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ: فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ: بِمُوَكَّلٍ أَنْ يَهْتَدُوا ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢] ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الْوَفَاةَ الْكُبْرَى بِمَا يُرْسِلُ مِنَ الْحَفَظَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَهَا مِنَ الْأَبْدَانِ وَالْوَفَاةِ الصُّغْرَى عِنْدَ الْمَنَامِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠-٦١]، فَذَكَرَ الْوَفَاتَيْنِ الصُّغْرَى ثُمَّ الْكُبْرَى، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ الْكُبْرَى ثُمَّ الصُّغْرَى، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ[1]: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا**

(١) البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

تَحْفَظْ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)) . ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : إِلَى بَقِيَّةِ أَجَلِهَا ، وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: يُمْسِكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ وَلَا يَغْلَطُ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اِتِّخَاذِهِمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُمُ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اِتَّخَذُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ هَدَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ ، وَلَا بَصَرٌ تُبْصِرُ بِهِ ، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بِكَثِيرٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُل ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ مَا اِتَّخَذُوهُ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَخْبِرْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا لِمَنِ اِرْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ ، فَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ .

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِعَدْلِهِ وَيَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أَيْ : إِذَا قِيلَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ٱشْمَأَزَّتْ : اِنْقَبَضَتْ ، وَقِيلَ : نَفَرَتْ ، وَقِيلَ : كَفَرَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الصافات : ٣٥] أَيْ : عَنِ الْمُتَابَعَةِ وَالِانْقِيَادِ لَهَا ، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْخَيْرَ ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَيْرَ يَقْبَلُ الشَّرَّ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أَيْ : يَفْرَحُونَ وَيُسَرُّونَ .

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَمَا ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ذَكَرَ، مِنَ الْمَذَمَّةِ لَهُمْ فِي حُبِّهِمُ الشِّرْكَ وَنُفْرَتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: أُدْعُ أَنْتَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفَطَرَهَا، أَيْ: جَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ: فِي دُنْيَاهُمْ سَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1].

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، أَوْ أَقْتَرِفُ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**»[2].

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أَيْ: وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ وَضِعْفَهُ مَعَهُ ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ

(١) مسلم (حديث ٧٧٠)، وقد تكلم عليه الهروي في الأحاديث المعلة في صحيح مسلم.
(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٩٦) بنحوه، والترمذي (مع التحفة ٩/ ٣٣٥)، (٣٥٢٩).

ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَعَ هَذَا لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْفِدَاءُ وَلَوْ كَانَ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أَيْ : وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا اكْتَسَبُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ : أَنَّهُ فِي حَالِ الضَّرَّاءِ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ ﷻ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُـوهُ ، وَإِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ بَغَى وَطَغَى **وَقَالَ** : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : لِمَا يَعْلَمُ اللهُ تَعَالَى مِنِ اسْتِحْقَاقِي لَهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي عِنْدَ اللهِ خِصِّيصٌ لَمَا خَوَّلَنِي هَذَا . **قَالَ** اللهُ ﷻ : ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنَخْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ، أَيُطِيعُ أَمْ يَعْصِي ؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ فَهِيَ فِتْنَةٌ أَي : اخْتِبَارٌ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَدَّعُونَ . ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَزَعَمَ هَذَا الزَّعْمَ ، وَادَّعَى هَذِهِ الدَّعْوَى كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَمِ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : فَمَا صَحَّ قَوْلُهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُخَاطَبِينَ ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : كَمَا أَصَابَ أُولَئِكَ ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ، كَمَا

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ إِنَّهُ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٦-٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٥]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُهُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَعِبَرًا وَحُجَجًا .

۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكَفَرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ ، وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ ، لِأَنَّ الشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(١) - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا ، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا : إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةٌ ، فَنَزَلَ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨]، وَنَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ . وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠]

(١) البخاري (٤٨١٠) .

وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ المُرَادَ أَنَّهُ - تَعَالَى - يُغْفَرُ جَمِيعُ ذَلِكَ مَعَ التَّوْبَةِ ، وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ الله وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ ، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَاسِعٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ المُنَافِقِينَ ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ [النساء : ١٤٥-١٤٦] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ [البروج : ١٠]

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ الله عَلَيْهِ -: اُنْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالمَغْفِرَةِ . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ** ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَدِيثُ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ثُمَّ نَدِمَ ، وَسَأَلَ عَابِدًا مِنْ عُبَّادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ : هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ وَأَكْمَلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ : هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ ثُمَّ أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةٍ يَعْبُدُ اللهَ فِيهَا فَقَصَدَهَا ، فَأَتَاهُ المَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَأَمَرَ اللهُ ﷻ أَنْ يَقِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضِينَ فَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ أَقْرَبُ فَهُوَ مِنْهَا ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِبْرٍ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَذُكِرَ أَنَّهُ نَأَى بِصَدْرِهِ عِنْدَ المَوْتِ ، وَأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ الْبَلْدَةَ الْخَيِّرَةَ أَنْ تَقْتَرِبَ وَأَمَرَ تِلْكَ الْبَلْدَةَ أَنْ تَتَبَاعَدَ . هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَقَدْ كَتَبْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرِ بِلَفْظِهِ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ . قَالَ : قَدْ دَعَا اللهُ تَعَالَى إِلَى مَغْفِرَتِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ المَسِيحَ هُوَ اللهُ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ المَسِيحَ هُوَ ابْنُ الله ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ الله ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ فَقِيرٌ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ يَدَ الله مَغْلُولَةٌ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ

---

(١) البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٤] ، ثُمَّ دَعَا إِلَى التَّوْبَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَوْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ ، مَنْ قَالَ : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » وَقَالَ : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا -: مَنْ آيَسَ عِبَادَ اللهِ مِنَ التَّوْبَةِ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ اللهِ ﷻ . وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ أَنْ يَتُوبَ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا فِي سُورَةِ الْغُرَفِ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَفْوِيضًا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣]

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ : قَدْ كُنْتُ كَتَمْتُ مِنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ ﷻ قَوْمًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** »[1].

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

اسْتَحَثَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ إِلَخْ ، أَيِ : ارْجِعُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَسْلِمُوا لَهُ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ

(١) مسلم (٢٧٤٨) .

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : بَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَشْعُرُونَ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ الْمُجْرِمُ الْمُفَرِّطُ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُطِيعِينَ للهِ ﷻ ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ عَمَلِي فِي الدُّنْيَا عَمَلُ سَاخِرٍ مُسْتَهْزِئٍ غَيْرِ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : تَوَدُّ أَنْ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتُحْسِنَ الْعَمَلَ . وَلَمَّا تَمَنَّى أَهْلُ الْجَرَائِمِ الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصْدِيقِ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ . **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءَتْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّادِمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ آيَاتٌ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَقَامَتْ حُجَجِي عَلَيْكَ ، فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ عَنِ اتِّبَاعِهَا ، وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهَا الْجَاحِدِينَ لَهَا .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ تَسْوَدُّ فِيهِ وُجُوهٌ وَتَبْيَضُّ فِيهِ وُجُوهٌ ، تَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَتَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي دَعْوَاهُمْ لَهُ شَرِيكًا وَوَلَدًا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أَيْ : بِكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَتْ جَهَنَّمُ كَافِيَةً لَهُمْ سِجْنًا وَمَوْئِلًا لَهُمْ ، فِيهَا الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ بِسَبَبِ تَكَبُّرِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْبَاهَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا مِنَ النَّارِ فِي وَادٍ يُقَالُ لَهُ : بُولَسُ ، مِنْ نَارِ الْأَنْيَارِ ، وَيُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ** »(١) .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أَيْ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ عِنْدَ اللهِ ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، بَلْ هُمْ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ فَزَعٍ ، مُزَحْزَحُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ مُؤَمَّلُونَ كُلَّ خَيْرٍ .

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَرَبُّهَا وَمَلِيكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، وَكُلٌّ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ وَكِلَاءَتِهِ ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْمَقَالِيدُ هِيَ الْمَفَاتِيحُ بِالْفَارِسِيَّةِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ : أَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : حُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ **قِيلَ** : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِجَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ إِلَهَهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ

(١) إسناده حسن : وقد أعله بعض العلماء .

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ وَصَدَّقَكَ .

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أَيْ : مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا مَذْهَبُ السَّلَفِ ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ **قَالَ** : جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ ﷻ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أُصْبُعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الْآيَةَ(١).

وَعَنْ **عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ** ﷺ **قَالَ** : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، أَبَلَغَكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْمِلُ الْخَلَائِقَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ ؟ قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ(٢).

---

(١) البخاري (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

(٢) أحمد في المسند (١/ ٣٧٨) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **يَقْبِضُ اللهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟** »[١].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ** »[٢].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ ، يُحَرِّكُهَا ، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ : « **يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ : أَنَا الْجَبَّارُ ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ ، أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الْعَزِيزُ ، أَنَا الْكَرِيمُ** » فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا : لَيَخِرَّنَّ بِهِ[٣].

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ الْهَائِلَةِ ، **فَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هَذِهِ النَّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَةُ ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ ، ثُمَّ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْبَاقِينَ حَتَّى

(١) البخاري (٤٨١٢) .
(٢) البخاري (٧٤١٢) ، ومسلم (٢٧٨٨) .
(٣) أحمد في المسند (٢/ ٧٢) ، ومسلم (٢٧٨٨) .

يَكُونَ آخِرَ مَنْ يَمُوتُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، وَيَنْفَرِدُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالدَّيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ وَيَقُولُ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يُجِيبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ فَيَقُولُ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أَنَا الَّذِي كُنْتُ وَحْدِي وَقَدْ قَهَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحَكَمْتُ بِالْفَنَاءِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ يُحْيِي أَوَّلَ مَنْ يُحْيِي إِسْرَافِيلَ وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفُخَ فِي الصُّورِ أُخْرَى ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ ، قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : أَحْيَاءُ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا صَارُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : قَالَ رَسُولُ اللهِ[١] ﷺ : « **يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي ، فَيَمْكُثُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ – لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً – فَيَبْعَثُ اللهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ – عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، فَيَظْهَرُ فَيُهْلِكُهُ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ** سِنِينَ سَبْعًا لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى أَنْ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ كَانَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ » قَالَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ « وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، قَالَ : فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَّةٌ أَرْزَاقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا ، وَرَفَعَ لِيتًا وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَهُ فَيَصْعَقُ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَعِقَ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى أَوْ يُنْزِلُ اللهُ ﷻ مَطَرًا كَأَنَّهُ الظِّلُّ – أَوِ الطَّلُّ – فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ثُمَّ يُقَالُ :

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٤٠) .

أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، قَالَ : فَيُقَالُ : كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَيَوْمَئِذٍ تُبْعَثُ الْوِلْدَانُ شِيبًا ، وَيَوْمَئِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(١) ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ ﷺ : أَبَيْتُ . قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَبَيْتُ . قَالُوا : أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ « وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبُ ذَنَبِهِ ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ » .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : أَضَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ وَعَلَا لِلْخَلَائِقِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُمْ رِسَالَاتِ اللهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أَيْ : الشُّهَدَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْحَفَظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

---

(١) البخاري (٤٩٣٥) ، ومسلم (٢٩٥٥) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ ، كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ ؟ وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيفًا بِزَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : ١٣] أَيْ : يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا وَهَذَا وَهُمْ عِطَاشٌ ظِمَاءٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٥-٨٦] ، وَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُمٌّ وَبُكْمٌ وَعُمْيٌ ، مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أَيْ : بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا ؛ لِتُعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ هُمْ غِلَاظُ الْأَخْلَاقِ شِدَادُ الْقُوَى - عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّنْكِيلِ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُخَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : يُقِيمُونَ عَلَيْكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ ؟ فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ ﴿ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : قَدْ جَاءُونَا وَأَنْذَرُوا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ كَذَّبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ ، لِمَا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشِّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ، كَمَا قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٨-١٠] أَيْ رَجَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١١] أَيْ : بُعْدًا لَهُمْ وَخَسَارًا .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ رَآهُمْ وَعَلِمَ حَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَذَابِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنِدْ هَذَا

الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ مُعَيَّنٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا حَكَمَ الْعَدْلُ الْخَبِيرُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا ، لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَبِئْسَ الْمَقِيلُ لَكُمْ ، بِسَبَبِ تَكَبُّرِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِبَائِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَهُوَ الَّذِي صَيَّرَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَبِئْسَ الْحَالُ وَبِئْسَ الْمَآلُ .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُسَاقُونَ عَلَى النَّجَائِبِ وَفْدًا إِلَى الْجَنَّةِ ﴿ زُمَرًا ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ : الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الْأَبْرَارُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُمْ : الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالصِّدِّيقُونَ مَعَ أَشْكَالِهِمْ ، وَالشُّهَدَاءُ مَعَ أَضْرَابِهِمْ ، وَالْعُلَمَاءُ مَعَ أَقْرَانِهِمْ ، وَكُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفٍ ، كُلُّ زُمْرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ أَيْ : وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصِّرَاطِ ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا انْتَهَوْا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَشَاوَرُوا فِيمَنْ يَسْتَأْذِنُ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ ، فَيَقْصِدُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى ثُمَّ مُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - كَمَا فَعَلُوا فِي الْعَرَصَاتِ عِنْدَ اسْتِشْفَاعِهِمْ إِلَى اللهِ ﷻ أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ؛ لِيُظْهِرَ شَرَفَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا . عَنْ أَنَسٍ[1] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**)) ، وَفِي

(١) مسلم (حديث ١٩٦) .

لَفْظٍ «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ[1] ﷺ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحَ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللهَ تَعَالَى بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ[4] ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الجَنَّةَ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَعَدَنِي رَبِّي ﷻ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي ﷻ»[5].

---

(١) مسلم (١٩٧).

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٣) البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦)، وانظر أبي يعلى (٦٠٨٤).

(٤) البخاري (٣٢٤٧)، ومسلم (٢١٩).

(٥) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٥/٢٦٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ لَمْ يذْكَرِ الْجَوَابَ هَهُنَا ، **وَتَقْدِيرُهُ** : حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ فَتْحِ الْأَبْوَابِ لَهُمْ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا ، وَتَلَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْخَزَنَةُ بِالْبِشَارَةِ وَالسَّلَامِ وَالثَّنَاءِ ، لَا كَمَا تَلَقَّى الزَّبَانِيَةُ الْكَفَرَةَ بِالتَّثْرِيبِ وَالتَّأْنِيبِ ، **فَتَقْدِيرُهُ** : إِذَا كَانَ هَذَا سَعِدُوا وَطَابُوا وَسُرُّوا وَفَرِحُوا بِقَدْرِ كُلِّ مَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ نَعِيمٌ . وَإِذَا حُذِفَ الْجَوَابُ هَهُنَا ذَهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ .

وَيُسْتَفَادُ كَوْنُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**)) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ ضَرُورَةٍ دُعِيَ مِنْ أَيِّهَا دُعِيَ ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**))[1].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ[2] ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ**)) .

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**))[3].

---

(١) البخاري (١٨٩٧) .

(٢) البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) .

(٣) مسلم (٢٣٤) .

ذِكْرُ سَعَةِ أَبْوَابِ الجَنَّةِ نَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ : ((**فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ - مَا بَيْنَ عِضَادَتِي الْبَابِ - لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ - أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ**)) وَفِي رِوَايَةٍ ((**مَكَّةَ وَبُصْرَى**)) .

وَعَنْ عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ[2] أَنَّهُ خَطَبَهُمْ فَقَالَ : وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ : ((**مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**)) .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أَيْ : طَابَتْ أَعْمَالُكُمْ وَأَقْوَالُكُمْ وَطَابَ سَعْيُكُمْ وَطَابَ جَزَاؤُكُمْ ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا عَايَنُوا فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْوَافِرَ ، وَالْعَطَاءَ الْعَظِيمَ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ وَالْمُلْكَ الْكَبِيرَ ، يَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : الَّذِي كَانَ وَعَدَنَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ ، كَمَا دَعَوْا فِي الدُّنْيَا ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران : ١٩٤] ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف : ٤٣] ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[فاطر : ٣٤-٣٥]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَيْ : أَرْضَ الْجَنَّةِ . فَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٥] ،

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .
(٢) مسلم (٢٩٦٧) .

وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أَيْ : أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا فَنِعْمَ الْأَجْرُ أَجْرُنَا عَلَى عَمَلِنَا .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ(١) ﷺ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ ابْنَ صَائِدٍ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ فَقَالَ : دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((صَدَقَ)) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَيْضًا قَالَ : إِنَّ ابْنَ صَائِدٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ((دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ))(٢) .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ قَالَ : سِيقُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَوَجَدُوا عِنْدَهَا شَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ سَاقِهَا عَيْنَانِ ، فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهُمَا فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا ، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ ، فَلَمْ تُغَيَّرْ أَبْشَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَلَمْ تَشْعَثْ أَشْعَارُهُمْ أَبَدًا بَعْدَهَا ، كَأَنَّمَا دُهِنُوا بِالدِّهَانِ ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الْأُخْرَى كَأَنَّمَا أُمِرُوا بِهَا فَشَرِبُوا مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ مَا كَانَ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ أَذًى أَوْ قَذًى ، وَتَلَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ ، وَيَلْقَى كُلَّ غِلْمَانٍ صَاحِبَهُمْ يُطِيفُونَ بِهِ ، فِعْلَ الْوِلْدَانِ بِالْحَمِيمِ جَاءَ مِنَ الْغَيْبَةِ : أَبْشِرْ ، قَدْ أَعَدَّ اللهُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ كَذَا وَكَذَا ، قَدْ أَعَدَّ اللهُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : وَيَنْطَلِقُ غُلَامٌ مِنْ غِلْمَانِهِ إِلَى أَزْوَاجِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فَيَقُولُ : هَذَا فُلَانٌ - بِاسْمِهِ فِي الدُّنْيَا - فَيَقُلْنَ : أَنْتَ رَأَيْتَهُ ، فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَسْتَخِفُّهُنَّ الْفَرَحُ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى أُسْكُفَّةِ الْبَابِ ، قَالَ : فَيَجِيءُ ، فَإِذَا هُوَ بِنَمَارِقَ مَصْفُوفَةٍ وَأَكْوَابٍ مَوْضُوعَةٍ وَزَرَابِيَّ مَبْثُوثَةٍ ، قَالَ : ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى تَأْسِيسِ بُنْيَانِهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى جَنْدَلِ اللُّؤْلُؤِ بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَأَصْفَرَ وَأَبْيَضَ ، وَمِنْ كُلِّ لَوْنٍ ، ثُمَّ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى سَقْفِهِ ، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَهُ لَهُ لَذَهَبَ بِبَصَرِهِ ، إِنَّهُ لَمِثْلُ الْبَرْقِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ثُمَّ يَتَّكِئُ عَلَى أَرِيكَةٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٢٨) .

(٢) صحيح : وقد تقدم . مسلم (حديث ٢٩٢٨) .

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَأَنَّهُ كُلًّا فِي المَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيَصْلُحُ لَهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُحْدِقُونَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ المَجِيدِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيُنَزِّهُونَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجَوْرِ ، وَقَدْ فَصَلَ الْقَضِيَّةَ ، وَقَضَى الْأَمْرَ ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ أَيْ : بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نَطَقَ الْكَوْنُ أَجْمَعُهُ نَاطِقُهُ وَبَهِيمُهُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنِدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ بَلْ أَطْلَقَهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ المَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ . قَالَ قَتَادَةُ : افْتَتَحَ الْخَلْقَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّمَرِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ غَافِرٍ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَنْ يُقَالَ : « **الحَوَامِيم** » وَإِنَّمَا يُقَالُ : « **آل حم** » **وَقَالَ مِسْعَرُ بْنُ كِدَام** : كَانَ يُقَالُ لَهُنَّ : « **الْعَرَائِسُ** » رَوَى ذَلِكَ كُلَّهُ الْإِمَامُ الْعَلَمُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي كِتَابِ « **فَضَائِلِ الْقُرْآنِ** » ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ[1] : إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ يَرْتَادُ لِأَهْلِهِ مَنْزِلًا ، فَمَرَّ بِأَثَرِ غَيْثٍ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِيهِ وَيَتَعَجَّبُ ، إِذْ هَبَطَ عَلَى رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ ، فَقَالَ : عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ فَهَذَا أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ مَثَلَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ مَثَلُ عِظَمِ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّ مَثَلَ هَؤُلَاءِ الرَّوْضَات الدَّمِثَات مَثَلُ « آلِ حم » فِي الْقُرْآنِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةُ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « **سُورَةِ البَقَرَةِ** » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا ، **وَقَدْ قِيلَ** إِنَّ ﴿ حم ﴾ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ ﷻ ، **وَأَنْشَدُوا** فِي ذَلِكَ بَيْتًا .

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وَعَنِ المُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ **يَقُولُ** : « **إِنْ بُيِّتُّمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا : حم لَا يُنْصَرُونَ** » وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرُّ وَإِنْ تَكَاثَفَ حِجَابُهُ .

---

(١) الإسناد الذي أورده ابن كثير إسنادٌ صحيح .

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٤/ ٦٥ ، ٥/ ٣٧٧) ، وأبو داود (٢٥٩٧) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَعَتَا عَنْ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى وَبَغَى .

وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩-٥٠] يَقْرِنُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، لِيَبْقَى الْعَبْدُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : السَّعَةُ وَالْغِنَى ، **وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْأَصَمِّ** : ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾ يَعْنِي : الْخَيْرُ الْكَثِيرُ ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾ ذِي الْمَنِّ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ذِي النِّعَمِ وَالْفَوَاضِلِ ، **وَالْمَعْنَى** : أَنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ ، الْمُتَطَوِّلُ عَلَيْهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمِنَنِ وَالْإِنْعَامِ الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا نَظِيرَ لَهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَدْفَعُ الْحَقَّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : الْجَاحِدُونَ لِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أَيْ : فِي أَمْوَالِهَا وَنَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] ، وَقَالَ

ﷺ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، بِأَنَّ لَهُ أُسْوَةً مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَمُهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَقَالَ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أَيْ : حَرَصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أَيْ : مَا حَلُوا بِالشُّبْهَةِ لِيَرُدُّوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ . ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أَيْ : أَهْلَكْتُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعِظَامِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَذَابِي لَهُمْ وَنَكَالِي بِهِمْ ؟ قَدْ كَانَ شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا . قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ وَاللهِ شَدِيدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ : أَي : كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَخَالَفُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وُثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ .

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرُوبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَقْرِنُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالِّ عَلَى نَفْيِ النَّقَائِصِ ، وَالتَّحْمِيدِ الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ :

خَاشِعُونَ لَهُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَّهُمْ ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيْ : مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ ، فَقَيَّضَ اللهُ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانُوا يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : ((**إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ : آمِينَ ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ**))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أَيْ : رَحْمَتُكَ تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أَيْ : فَاصْفَحْ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَزَحْزِحْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمُوجِعُ الْأَلِيمُ .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أَيْ : اجْمَعْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلَ مُتَجَاوِرَةٍ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] أَيْ : سَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي الْمَنْزِلَةِ ، لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَمَا نَقَصْنَا الْعَالِيَ حَتَّى يُسَاوِيَ الدَّانِيَ ، بَلْ رَفَعْنَا نَاقِصَ الْعَمَلِ فَسَاوَيْنَاهُ بِكَثِيرِ الْعَمَلِ ، تَفَضُّلًا مِنَّا وَمِنَّةً .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ ، مِنْ شَرْعِكَ وَقَدَرِكَ . ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أَيْ : فِعْلَهَا ، أَوْ وَبَالَهَا مِمَّنْ وَقَعَتْ مِنْهُ ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أَيْ : لَطَفْتَ بِهِ وَنَجَّيْتَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا

(١) مسلم (حديث ٢٧٣٢) .

ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يُنَادَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ النِّيرَانِ يَتَلَظَّوْنَ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا بَاشَرُوا مِنْ عَذَابِ الله تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، فَمَقَتُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْغَضُوهَا غَايَةَ الْبُغْضِ ، بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ دُخُولِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَأَخْبَرَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَالِيًا ، نَادَوْهُمْ نِدَاءً بِأَنَّ مَقْتَ الله تَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا - حِينَ كَانَ يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فَيَكْفُرُونَ - أَشَدُّ مِنْ مَقْتِكُمْ أَيُّهَا الْمُعَذَّبُونَ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يَقُولُ : لَمَقْتُ الله أَهْلَ الضَّلَالَةِ حِينَ عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فِي الدُّنْيَا فَتَرَكُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهُ ، أَكْبَرُ مِمَّا مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ عَايَنُوا عَذَابَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة : ٢٨] ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ : أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ وُقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ الله ﷻ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة : ١٢] ، فَلَا يُجَابُونَ ، ثُمَّ إِذَا رَأَوُا النَّارَ وَعَايَنُوهَا وَوَقَفُوا عَلَيْهَا وَنَظَرُوا إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، سَأَلُوا الرَّجْعَةَ أَشَدَّ مِمَّا سَأَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَلَا يُجَابُونَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام : ٢٧-٢٨] ، فَإِذَا دَخَلُوا النَّارَ وَذَاقُوا مَسَّهَا وَحَسِيسَهَا وَمَقَامِعَهَا

وَأَغْلَالَهَا ، كَانَ سُؤَالُهُمْ لِلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر : ٣٧] ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون : ١٠٧-١٠٨] ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَلَطَّفُوا فِي السُّؤَالِ وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِهِمْ مُقَدِّمَةً وَهِيَ قَوْلُهُمْ ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أَيْ : قُدْرَتُكَ عَظِيمَةٌ ، فَإِنَّكَ أَحْيَيْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا أَمْوَاتًا ، ثُمَّ أَمَتَّنَا ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا ، فَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ ، وَقَدِ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، وَإِنَّنَا كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ أَنْتَ مُجِيبُنَا إِلَى أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ، فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدِكُمْ وَمَرْجِعِكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ عُلِّلَ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُ الْحَقَّ وَلَا تَقْتَضِيهِ بَلْ تَجْحَدُهُ وَتَنْفِيهِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ هَكَذَا تَكُونُونَ وَإِنْ رُدِدْتُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام : ٢٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : يُظْهِرُ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي خَلْقِهِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا وَمُنْشِئِهَا ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ ، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ بِالْحِسِّ ، مِنِ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَطُعُومِهِ وَرَوَائِحِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ وَهُوَ مَاءٌ وَاحِدٌ ، فَبِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَاوَتَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أَيْ : يَعْتَبِرُ وَيَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ بَصِيرٌ مُنِيبٌ إِلَى اللهِ ﷻ

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أَيْ : فَأَخْلِصُوا لله وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ وَالدُّعَاءَ وَخَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ فِي مَسْلَكِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ . كَانَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ(١) فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهِلُّ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَارْتِفَاعِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ كَالسَّقْفِ لَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٣-٤] ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ مَسَافَةُ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَهُوَ الْأَرْجَحُ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٤] ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ قِيلَ : يَوْمُ التَّلَاقِ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَذَّرَ اللهُ مِنْهُ عِبَادَهُ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَلْتَقِي فِيهِ آدَمُ وَآخِرُ وَلَدِهِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَلْتَقِي فِيهِ الْعِبَادُ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ ،

---

(١) مسلم (حديث ٥٩٤) .

وَقَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا : يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَالْخَالِقُ وَالْخَلْق ، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : يَلْتَقِي الظَّالِمُ وَالمَظْلُومُ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ يَوْمَ التَّلَاقِ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَيَشْمَلُ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ سَيَلْقَى مَا عَمِلَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كَمَا قَالَهُ آخَرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرُونَ بَادُونَ كُلُّهُمْ لَا شَيْءَ يُكِنُّهُمْ وَلَا يُظِلُّهُمْ وَلَا يَسْتُرُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ[1] ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - « أَنَّهُ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَنَا الجَبَّارُ ، أَنَا المُتَكَبِّرُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أَيْ الَّذِي هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَلَا مِنْ شَرٍّ بَلْ يَجْزِي بِالحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا وَبِالسَّيِّئَةِ وَاحِدَةً ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[2] عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عز وجل أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » إِلَى أَنْ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » .

وَقَوْلُهُ عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠]

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ

(١) صحيح : وقد تقدم

(٢) مسلم (٢٥٧٧) .

حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يَوْمَ الْآزِفَةِ : اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٧-٥٨] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَقَفَتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا ، وَمَعْنَى ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أَيْ : سَاكِتِينَ ، لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أَيْ : بَاكِينَ .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ بِاللهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ ، بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يُخْبِرُ ﷻ عَنْ عِلْمِهِ التَّامِّ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا ، لِيَحْذَرَ النَّاسُ عِلْمَهُ فِيهِمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ ، وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَيُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ ، فَإِنَّهُ ﷻ يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبْدَتْ أَمَانَةً ، وَيَعْلَمَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ خَبَايَا الصُّدُورِ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ هُوَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ وَفِيهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ - أَوْ تَمُرُّ بِهِ وَبِهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ - فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ إِلَيْهَا فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ بَصَرَهُ عَنْهَا ، فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ ، وَقَدِ اطَّلَعَ اللهُ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ وَدَّ أَنْ لَوِ اطَّلَعَ عَلَى فَرْجِهَا .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ هُوَ الْغَمْزُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ . أَوْ لَمْ أَرَ وَقَدْ رَأَى ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - يَعْلَمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْعَيْنِ فِي نَظَرِهَا هَلْ تُرِيدُ الْخِيَانَةَ أَمْ لَا ؟ ، **وَقَالَ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يَعْلَمُ إِذَا أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهَا هَلْ تَزْنِي بِهَا أَمْ لَا ؟ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْوَسْوَسَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ : قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أَيْ : لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْكُمُونَ بِشَيْءٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ خَلْقِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ .

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَ لَمْ يَسِرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِرِسَالَتِكَ يا مُحَمَّدُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالأَنْبِيَاءِ ، مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَثَّرُوا فِي الأَرْضِ مِنَ الْبِنَايَاتِ والْمَعَالِمِ والدِّيَارَاتِ ، مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم : ٩] أَيْ : وَمَعَ هذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ ، أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَهِيَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ

مِن وَاقٍ﴾ أَيْ : وَمَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ الله أَحَدٌ ، وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ .

ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا واجْتَرَمُوهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : أَهْلَكَهُمْ ، وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ وَهُوَ ، ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ . أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَرَى لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وَالسُّلْطَانُ : هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وَهُوَ مَلِكُ الْقِبْطِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ﴿ وَهَٰمَٰنَ ﴾ ، وَهُوَ وَزِيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ﴿ وَقَٰرُونَ ﴾ وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَالًا وَتِجَارَةً ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوهُ سَاحِرًا مَجْنُونًا مُمَوِّهًا كَذَّابًا فِي أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

[الذاريات : ٥٢-٥٣]

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أَيْ : بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَانَ لِأَجْلِ الِاحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى ، أَوْ لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَتَقْلِيلِ عَدَدِهِمْ ، أَوْ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَلِلْعِلَّةِ الثَّانِيَةِ وَلِإِهَانَةِ هَذَا الشَّعْبِ ، وَلِكَيْ يَتَشَاءَمُوا بِمُوسَى ﵇ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ .

قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ أَيْ : وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمْ الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِئَلَّا يُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ . ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ ، وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى - عَلَى قَتْلِ مُوسَى ﵇ أَيْ : قَالَ لِقَوْمِهِ : دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا أُبَالِي مِنْهُ . وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجَهْرُمِ وَالْعِنَادِ .

وَقَوْلُهُ قَبَّحَهُ اللهُ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى ، يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى النَّاسَ وَيُغَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ : صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكِّرًا ، - يَعْنِي : وَاعِظًا - يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى ﵇ . وَقَرَأَ الْأَكْثَرُونَ : « أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وَقَرَأَ آخَرُونَ « أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : « يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ » بِالضَّمِّ .

وَقَالَ مُوسَى : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قَالَ مُوسَى ﵇ : اِسْتَجَرْتُ بِاللهِ وَعُذْتُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ أَمْثَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ مُجْرِمٌ ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن

يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

الْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ كَانَ قِبْطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ الْقِبْطِ ، فَلَمْ يَظْهَرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فَأَخَذَتِ الرَّجُلَ غَضْبَةٌ لله ﷻ « **وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ** »[1] ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[2] فِي صَحِيحِهِ : عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - قَالَ : قُلْتُ لِعَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكَوْنِهِ يَقُولُ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمُ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ؟ ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ صِحَّةُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ فَمِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ فَلَا تُؤْذُوهُ ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَيُجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ يَكُ

(١) حسن : وقد تقدم .
(٢) البخاري (٤٨١٥) .

صَادِقًا وَقَدْ آذَيْتُمُوهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدَكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَمِنَ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا ، فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنْ لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ ، بَلِ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتَّبِعُونَهُ .

وَهَكَذَا أَخْبَرَ اللهُ ﷻ عَنْ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمُوَادَعَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ [الدخان : ١٧-٢١] ، وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِقُرَيْشٍ أَنْ يَتْرُكُوهُ يَدْعُو إِلَى اللهِ تَعَالَى عِبَادَ اللهِ وَلَا يَمَسُّوهُ بِسُوءٍ وَيَصِلُوا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ فِي تَرْكِ أَذِيَّتِهِ ، قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى : ٢٣] أَيْ : أَنْ لَا تُؤْذُونِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ ، فَلَا تُؤْذُونِي وَتَتْرُكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَعَلَى هَذَا وَقَعَتِ الْهُدْنَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَكَانَ فَتْحًا مُبِينًا .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا - كَمَا تَزْعُمُونَ - لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الِاخْتِلَافِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمَنْهَجَهُ مُسْتَقِيمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنِ انْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَذِّرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللهِ عَنْهُمْ وَحُلُولَ نِقْمَةِ اللهِ بِهِمْ : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ ، بِالْكَلِمَةِ النَّافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ ، فَرَاعُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللهِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أَيْ : لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ ، وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لِقَوْمِهِ رَادًّا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ ، الَّذِي كَانَ أَحَقَّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ مَآ أُرِيكُمْ

إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أَيْ : مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي ، وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى عليه السلام فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، فَقَوْلُهُ : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى ، وَخَانَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيَّتَهُ ، فَغَشَّهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أَيْ : وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرَّشَدِ ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ . قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : ٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٩] ، وَفِي الْحَدِيثِ « مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »[1].

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ - مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ - أَنَّهُ حَذَّرَ قَوْمَهُ بَأْسَ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ

(١) البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) بنحوه.

ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ ، كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللهِ ؟ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ . ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ، فَأَنْفَذَ فِيهِمْ قَدَرَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ : لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ : إِنَّ الْأَرْضَ إِذَا زُلْزِلَتْ وَانْشَقَّتْ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمَاجَتْ وَارْتَجَّتْ فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى ذَلِكَ ، ذَهَبُوا هَارِبِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمُ الضَّحَّاكُ : بَلْ ذَلِكَ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ ذَهَبَ النَّاسُ هِرَابًا مِنْهَا ، فَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَتَرُدُّهُمْ إِلَى مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [الحاقة : ١٧] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣]

وَقَالَ قَتَادَةُ : يُنَادِي كُلُّ قَوْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ يُنَادِي أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ أَهْلَ النَّارِ ، وَقِيلَ : سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمُنَادَاةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ﴾ [الأعراف : ٤٤] ، وَمُنَادَاةُ أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠] ، وَلِمُنَادَاةِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » . وَاخْتَارَ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ : أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَجْمُوعِ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أَيْ : ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١١-١٢] ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أَيْ : لَا مَانِعَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ أَيْ : مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيْرُهُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ

مِصْرَ ، قَدْ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ مُوسَى ﷺ وَهُوَ يُوسُفُ ﷺ ، كَانَ عَزِيزُ أَهْلِ مِصْرَ ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَى اللهِ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ ، فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْوَزَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أَيْ : يَئِسْتُمْ فَقُلْتُمْ طَامِعِينَ ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ ، وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أَيْ : كَحَالِكُمْ هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يُضِلُّهُ اللهُ ؛ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ قَلْبِهِ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَمْقُتُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يُبْغِضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أَيْ : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ وَافْتِرَائِهِ فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ ﴿ صَرْحًا ﴾ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ وَكَانَ اتِّخَاذُهُ مِنَ الْآجُرِّ الْمَضْرُوبِ مِنَ الطِّينِ الْمَشْوِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ [القصص : ٣٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ** : كَانُوا يَكْرَهُونَ الْبِنَاءَ بِالْآجُرِّ وَأَنْ يَجْعَلُوهُ فِي قُبُورِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو**

صَالِح : أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ ، وَقِيلَ : طُرُقُ السَّمَاوَاتِ ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى ﷺ فِي أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : بِصُنْعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ يَعْنِي : إِلَّا فِي خَسَارٍ .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لَا كَمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ آثَرُوهَا عَلَى الْأُخْرَى وَصَدَّتْهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِرَسُولِ اللهِ مُوسَى ﷺ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ ، أَيْ : قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ عَنْ قَرِيبٍ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ أَيْ : الدَّارُ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا ظَعْنَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ، بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا جَحِيمٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أَيْ : وَاحِدَةً مِثْلَهَا ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَيْ : لَا يَتَقَدَّرُ بِجَزَاءٍ ، بَلْ يُثِيبُهُ اللهُ ﷻ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا نَفَادَ .

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ

إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُ : مَا بَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَصْدِيقُ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ ﴿ وَتَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : عَلَى جَهْلٍ بِلَا دَلِيلٍ ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ أَيْ : هُوَ فِي عِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ يَقُولُ : حَقًّا وَقِيلَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : حَقًّا ، وَقِيلَ : بَلَى ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : لَا كَذِبَ ، وَقِيلَ : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : يَعْنِي بَلَى ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الْوَثَنُ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي الْوَثَنَ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : لَا يُجِيبُ دَاعِيهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦] ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ [فاطر : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : خَالِدِينَ فِيهَا بِإِسْرَافِهِمْ ، وَهُوَ شِرْكُهُمْ بِاللهِ ﷻ ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، وَنَصَحْتُكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ ، وَتَتَذَكَّرُونَهُ وَتَنْدَمُونَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُكُمُ النَّدَمُ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وَأَسْتَعِينُهُ وَأُقَاطِعُكُمْ وَأُبَاعِدُكُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ – تَعَالَى

وَتَقَدَّسَ - فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْقَدَرُ النَّافِذُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مَعَ مُوسَى ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَبِالْجَنَّةِ ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، وَهُوَ : الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ .

وَلَكِنْ هَاهُنَا سُؤَالٌ وَهُوَ : أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَقَدِ اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الْبَرْزَخِ . وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا [1] - سَأَلَتْهَا امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ فَأَعْطَتْهَا فَقَالَتْ لَهَا : أَعَاذَكِ اللهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، فَأَنْكَرَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ لَهُ : فَقَالَ ﷺ : « لَا » قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: ثُمَّ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ : « **وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ** » ، فَيُقَالُ : فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً ، وَفِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ ؟.

وَالْجَوَابُ : أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَرْضِ الْأَرْوَاحِ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي الْبَرْزَخِ ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى اتِّصَالِ تَأَلُّمِهَا بِأَجْسَادِهَا فِي الْقُبُورِ ، إِذْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِالرُّوحِ ، فَأَمَّا حُصُولُ ذَلِكَ لِلْجَسَدِ فِي الْبَرْزَخِ وَتَأَلُّمُهُ بِسَبَبِهِ فَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إِلَّا السُّنَّةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَرْضِيَّةِ الْآتِي ذِكْرُهَا .

وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْكُفَّارِ فِي الْبَرْزَخِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعَذَّبَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ بِذَنْبٍ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ [2] ،

(١) صحيح لشواهده : أخرجه مسلم (حديث٥٨٤) بنحوه ، وانظر المسند (٦/ ٢٣٨) .
(٢) أحمد في المسند (٦/ ٢٣٨) ، ومسلم (حديث ٥٨٤) .

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَهِيَ تَقُولُ أَشَعَرْتُ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ ؟ فَارْتَاعَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ : ((**إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ**)) قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**أَشَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ ؟**)) ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : أَعَاذَكِ اللهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - رَسُولَ الله ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، فَقَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ ، عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ**)) قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[1] . وَأَحَادِيثُ عَذَابِ الْقَبْرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا ، يُقَالُ لَهُمْ : يَا آلَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ ، تَوْبِيخًا وَنِقْمَةً وَصَغَارًا لَهُمْ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَيُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ ﷻ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))[2].

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾

(١) البخاري (٣٧٢) ، ومسلم (٥٨٦) .
(٢) البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٦٦) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَحَاجِّ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَتَخَاصُمِهِمْ - وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ - فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ - وَهُمُ الْأَتْبَاعُ - لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا - وَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ - ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أَيْ : أَطَعْنَاكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : قِسْطًا تَتَحَمَّلُونَهُ عَنَّا ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أَيْ : لَا نَتَحَمَّلُ عَنْكُمْ شَيْئًا ، كَفَى بِنَا مَا عِنْدَنَا وَمَا حُمِّلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : فَقَسَمَ بَيْنَنَا الْعَذَابَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلٌّ مِنَّا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ٣٨]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللهَ ﷻ لَا يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَمِعُ لِدُعَائِهِمْ ، بَلْ قَدْ قَالَ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون : ١٠٨] سَأَلُوا الْخَزَنَةَ - وَهُمْ كَالْبَوَّابِينَ لِأَهْلِ النَّارِ - أَنْ يَدْعُوا لَهُمُ اللهَ تَعَالَى فِي أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ رَادِّينَ عَلَيْهِمْ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : أَوْ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَنَحْنُ لَا نَدْعُو لَكُمْ ، وَلَا نَسْمَعُ مِنْكُمْ ، وَلَا نَوَدُّ خَلَاصَكُمْ ، وَنَحْنُ مِنْكُمْ بُرَآءُ ، ثُمَّ نُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ سَوَاءٌ دَعَوْتُمْ أَوْ لَمْ تَدْعُوا ، لَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْكُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أَيْ : إِلَّا فِي ذَهَابٍ ، وَلَا يُتَقَبَّلُ وَلَا يُسْتَجَابُ .

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾

قَدْ أَوْرَدَ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ سُؤَالًا، فَقَالَ: قَدْ عُلِمَ أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَتَلَهُ قَوْمُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، كَيَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَشَعْيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِمَّا مُهَاجِرًا كَإِبْرَاهِيمَ وَإِمَّا إِلَى السَّمَاءِ كَعِيسَى فَأَيْنَ النُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا؟ ثُمَّ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِجَوَابَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ خَرَجَ عَامًّا، وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَعْضَ، قَالَ: وَهَذَا سَائِغٌ فِي اللُّغَةِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالنَّصْرِ الِانْتِصَارُ لَهُمْ مِمَّنْ آذَاهُمْ، وَسَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِحَضْرَتِهِمْ أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، كَمَا فُعِلَ بِقَتَلَةِ يَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَشَعْيَاءَ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ مَنْ أَهَانَهُمْ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ النَّمْرُوذَ أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ رَامُوا صَلْبَ الْمَسِيحِ ﷺ مِنَ الْيَهُودِ فَسَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الرُّومَ فَأَهَانُوهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ، وَأَظْهَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ سَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ إِمَامًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَهَذِهِ نُصْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، أَنَّهُ يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَيُقِرُّ أَعْيُنَهُمْ مِمَّنْ آذَاهُمْ. فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»[1].

وَلِهَذَا أَهْلَكَ اللهُ ﷻ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَهْلَ مَدْيَنَ وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَضْرَابَهُمْ، مِمَّنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ وَخَالَفَ الْحَقَّ، وَأَنْجَى اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَعَذَّبَ الْكَافِرِينَ فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ يَبْعَثِ اللهُ ﷻ رَسُولًا قَطُّ إِلَى قَوْمٍ فَيَقْتُلُونَهُ - أَوْ قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه البخاري وقد تقدم.

يَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ فَيُقْتَلُونَ - فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الْقَرْنُ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَطْلُبُ بِدِمَائِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، قَالَ : فَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ يُقْتَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَنْصُورُونَ فِيهَا ، وَهَكَذَا نَصَرَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ وَكَذَّبَهُ وَعَادَاهُ ، فَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا وَدِينَهُ هُوَ الظَّاهِرِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَأَمَرَهُ بِالْهِجْرَةِ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْ قَوْمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَجَعَلَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا ، ثُمَّ مَنَحَهُ أَكْتَافَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَنَصَرَهُ عَلَيْهِمْ وَخَذَلَهُمْ لَهُ ، وَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ ، وَأَسَرَ سَرَاتَهُمْ ، فَاسْتَاقَهُمْ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِأَخْذِهِ الْفِدَاءَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ فَتَحَ عَلَيْهِ مَكَّةَ فَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِبَلَدِهِ - وَهُوَ الْبَلَدُ الْمُحَرَّمُ الْحَرَامُ الْمُشَرَّفُ الْمُعَظَّمُ - فَأَنْقَذَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، وَفَتَحَ لَهُ الْيَمَنَ ، وَدَانَتْ لَهُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِكَمَالِهَا ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ لِمَا لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ الْعَظِيمَةِ ، فَأَقَامَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَصْحَابَهُ خُلَفَاءَ بَعْدَهُ ، فَبَلَّغُوا عَنْهُ دِينَ اللهِ ﷺ ، وَدَعَوْا عِبَادَ اللهِ تَعَالَى إِلَى اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَفَتَحُوا الْبِلَادَ وَالرَّسَاتِيقَ وَالْأَقَالِيمَ وَالْمَدَائِنَ وَالْقُرَى وَالْقُلُوبَ ، حَتَّى انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلَّ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْأَشْهَادُ : الْمَلَائِكَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ ، **وَقَرَأَ آخَرُونَ** : « يَوْمُ » بِالرَّفْعِ ، كَأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِهِ « **يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ : يَوْمُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ** » وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عُذْرٌ وَلَا فِدْيَةٌ ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أَيْ : الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ ، وَهِيَ النَّارُ قَالَهُ السُّدِّيُّ . بِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أَيْ : سُوءُ الْعَاقِبَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللهُ ﷺ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَأَوْرَثْنَاهُمْ بِلَادَ

فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُ وَحَوَاصِلَهُ وَأَرْضَهُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُوسَى ﷺ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أُورِثُوهُ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وَهِيَ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ: وَعَدْنَاكَ أَنَّا سَنُعْلِي كَلِمَتَكَ وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ أَيْ: فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾، وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وَأَوَاخِرُ اللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أَيْ: يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ الله ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ أَيْ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارٌ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يَرُومُونَهُ مِنْ إِخْمَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ، وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ: مِنْ حَالِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَوْ: مِنْ شَرِّ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ. هَذَا تَفْسِيرُ ابْنِ جَرِيرٍ.

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلْقُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدْأَةً وَإِعَادَةً، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الأحقاف : ٣٣] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا لَا يَتَدَبَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا ، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ اِسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ، وَقَدِ اِعْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَى مِمَّا أَنْكَرُوا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ أَيْ : كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا ، وَالْبَصِيرُ الَّذِي يَرَى مَا اِنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ وَالْكَفَرَةُ الْفُجَّارُ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أَيْ : لَكَائِنَةٌ وَوَاقِعَةٌ ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمِهِ ، أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ : يَا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ ، وَيَا مَنْ أَبْغَضُ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ :

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**))[1] ثُمَّ قَرَأَ ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٥/ ٣٧٤) ، وأبو داود (٣٥٩) ، وأحمد (٤/ ٢٧١) وغيرهم .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أَيْ : عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ . عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ[1] عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ : عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ** » .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ ، بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْكُنُونَ فِيهِ ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرَدُّدِهِمْ فِي الْمَعَايِشِ بِالنَّهَارِ ، وَجَعَلَ النَّهَارَ ﴿ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ : مُضِيئًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْأَسْفَارِ وَقَطْعِ الْأَقْطَارِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الصِّنَاعَاتِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ .

قَالَ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوتَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا ضَلَّ

---

(١) إسناده حسن : وقد تقدم .

هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ الله كَذَلِكَ أُفِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى وَجَحَدُوا حُجَجَ الله وَآيَاتِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا لَكُمْ مُسْتَقَرًّا بِسَاطًا مِهَادًا تَعِيشُونَ عَلَيْهَا وَتَتَصَرَّفُونَ فِيهَا وَتَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أَيْ : سَقْفًا لِلْعَالَمِ مَحْفُوظًا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أَيْ : فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَمَنَحَكُمْ أَكْمَلَ الصُّوَرِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ فِي الدُّنْيَا ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الدَّارَ وَالسُّكَّانَ وَالْأَرْزَاقَ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١-٢٢] . وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا بَعْدَ خَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : فَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ . .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَيُّ أَزَلًا وَأَبَدًا ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : مُوَحِّدِينَ لَهُ مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَأْمُرُونَ مَنْ قَالَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » أَنْ يُتْبِعَهَا بِالْحَمْدِ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ عَمَلًا بِهَذِهِ الْآيَةِ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : إِذَا قَرَأْتَ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فَقُلْ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » وَقُلْ : عَلَى أَثَرِهَا « الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ » ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْهَى أَنْ يَعْبُدَ أَحَدٌ سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَقَدْ بَيَّنَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُقَلِّبُكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوجَدَ وَيَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ بَلْ تُسْقِطُهُ أُمُّهُ سَقْطًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتَوَفَّى صَغِيرًا وَشَابًّا ، وَكَهْلًا قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : ٥] ، وَقَالَ ﷻ هَهُنَا : ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : تَتَذَكَّرُونَ الْبَعْثَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مَحَالَةَ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ

جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَلَا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ الله ، وَيُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، كَيْفَ تُصْرَفُ عُقُولُهُمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - لِهَؤُلَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ ﴾ أَيْ : مُتَّصِلَةٌ بِالْأَغْلَالِ بِأَيْدِي الزَّبَانِيَةِ ، يَسْحَبُونَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٣-٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ أَكْلِهِمُ الزَّقُّومَ وَشُرْبِهِمُ الْحَمِيمَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٦٨] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣-٥٠] أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّحْقِيرِ وَالتَّصْغِيرِ وَالتَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ الْيَوْمَ ؟ ﴿ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُونَا ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ جَزَاءٌ عَلَى فَرَحِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَرَحِكُمْ وَأَشَرِكُمْ وَبَطَرِكُمْ ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى

ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهَوَانُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ ، لِمَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ دَلَائِلِهِ وَحُجَجِهِ .

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى قَوْمِكَ ، وَجَعْلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَعُظَمَائِهِمْ أُبِيدُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ ، ثُمَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَنُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لَهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي « سُورَةِ النِّسَاءِ » سَوَاءً ، أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَهُمْ وَقَصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ ، ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِأَضْعَافِ أَضْعَافٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ فِي «سُورَةِ النِّسَاءِ» ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ ، وَهُوَ عَذَابُهُ وَنَكَالُهُ الْمُحِيطُ بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فَيُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ وَيُهْلِكَ الْكَافِرِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] . فَالْإِبِلُ تُرْكَبُ وَتُؤْكَلُ وَتُحْلَبُ وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرِّحَالِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ ، وَالْبَقَرُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَتَحْرُثُ عَلَيْهَا الْأَرْضَ ، وَالْغَنَمُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَالْجَمِيعُ تُجَزُّ أَصْوَافُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا ، فَيُتَّخَذُ مِنْهَا الْأَثَاثُ وَالثِّيَابُ وَالْأَمْتِعَةُ ، كَمَا فُصِّلَ وَبُيِّنَ فِي أَمَاكِنَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي ((سُورَةِ الْأَنْعَامِ)) و((سُورَةِ النَّحْلِ)) وَغَيْرِ ذَلِكَ ، **وَلِذَا قَالَ ﷻ هَهُنَا** : ﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ ، إِلَّا أَنْ تُعَانِدُوا وَتُكَابِرُوا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَعَ شِدَّةِ قُوَاهُمْ وَمَا أَثَرُوهُ فِي الْأَرْضِ وَجَمَعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ

ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ بَأْسِ الله ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَغْنَوْا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ ، لَنْ نُبْعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِجَهَالَتِهِمْ فَأَتَاهُمْ مِنْ بَأْسِ الله تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أَيْ : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أَيْ : عَايَنُوا وُقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : وَحَّدُوا اللهَ ﷻ وَكَفَرُوا بِالطَّاغُوتِ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تُقَالُ الْعَثَرَاتُ وَلَا تَنْفَعُ الْمَعْذِرَةُ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] قَالَ اللهُ تَبَارَكَ تَعَالَى ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] أَيْ : فَلَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ ؛ لأَنَّهُ قَدِ اسْتَجَابَ لِنَبِيِّهِ مُوسَى ﷺ دُعَاءَهُ عَلَيْهِ حِينَ قَالَ : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُ الله فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ، أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ** »[1] أَيْ : فَإِذَا غَرْغَرَ ، وَبَلَغَتِ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ ، وَعَايَنَ الْمَلَكَ ، فَلَا تَوْبَةَ حِينَئِذٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ غَافِرٍ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) قد تقدم .

تفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ
وَهِيَ مكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أَيْ : بُيِّنَتْ مَعَانِيهِ وَأُحْكِمَتْ أَحْكَامُهُ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بَيِّنًا وَاضِحًا ، فَمَعَانِيه مُفَصَّلَةٌ وَأَلْفَاظُهُ وَاضِحَةٌ غَيْرُ مُشْكِلَةٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] أَيْ : هُوَ مُعْجِزٌ مِنْ حَيْثُ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا الْبَيَانَ وَالْوُضُوحَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : تَارَةً يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَارَةً يُنْذِرُ الْكَافِرِينَ ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : أَكْثَرُ قُرَيْشٍ فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا مَعَ بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ . ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ أَيْ : فِي غُلْفٍ مُغَطَّاةٍ ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أَيْ : صَمَمٌ عَمَّا جِئْتَنَا بِهِ ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُ ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ أَيْ : اِعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ وَنَحْنُ عَلَى

طَرِيقَتِنَا لَا نُتَابِعُكَ .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَٰؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَى مِنْوَالِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أَيْ : لِسَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : دَمَارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ **قِيلَ فِي مَعْنَاهَا** : يَعْنِي : الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤-١٥]

وَالْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا : طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيَتْ زَكَاةٌ ، لِأَنَّهَا تُطَهِّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِزِيَادَتِهِ وَبَرَكَتِهِ وَكَثْرَةِ نَفْعِهِ ، وَتَوْفِيقًا إِلَى اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّاعَاتِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : لَا يَدِينُونَ بِالزَّكَاةِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَمْنَعُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ إِيجَابَ الزَّكَاةِ إِنَّمَا كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ : لَا يَبْعُدَ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الصَّدَقَةِ وَالزَّكَاةِ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي ابْتِدَاءِ الْبَعْثَةِ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، فَأَمَّا الزَّكَاةُ ذَاتُ النُّصُبِ وَالْمَقَادِيرِ فَإِنَّمَا بَيَّنَ أَمْرَهَا بِالْمَدِينَةِ ، وَيَكُونُ هَذَا جَمْعًا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، كَمَا أَنَّ أَصْلَ الصَّلَاةِ كَانَ وَاجِبًا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فِي ابْتِدَاءِ الْبَعْثَةِ ، فَلَمَّا كَانَ

لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ وَنِصْفٍ فَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَفَصَّلَ شُرُوطَهَا وَأَرْكَانَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِد وَغَيْره** : لَا مَقْطُوع وَلَا مَجْبُوب ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف : ٣] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨]

۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُقَدِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، **فَقَالَ** : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أَيْ : نُظَرَاءَ وَأَمْثَالًا تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ . وَهَذَا الْمَكَانُ فِيهِ تَفْصِيلٌ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، فَفَصَّلَ هَهُنَا مَا يَخْتَصّ بِالْأَرْضِ مِمَّا اِخْتَصَّ بِالسَّمَاءِ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْض أَوَّلًا ؛ لِأَنَّهَا كَالْأَسَاسِ ، وَالْأَصْلُ أَنْ يَبْدَأَ بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بَعْدَهُ بِالسَّقْفِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] . فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٢٧-٣٣] ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ دَحْوَ الْأَرْضِ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ

السَّمَاءِ ، فَالدَّحْوُ هُوَ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ، وَكَانَ هَذَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ ، فَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَقَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ بِالنَّصِّ ، **وَبِهَذَا أَجَابَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ**(١) **عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صَحِيحِهِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : وَقَالَ الْمِنْهَالُ : عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ** : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - إِنِّي لَأَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ ، قَالَ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات : ٢٧-٣٠] ، فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ ، فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ ، قَالَ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ، فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ فِي النَّفْخَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ ، فَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ : تَعَالَوْا نَقُولُ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ فَيُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا ، وَعِنْدَهُ ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [النساء : ٤٢] وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ، ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ ، وَدَحْيُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَادَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ دَحَاهَا ﴾ وَقَوْلُهُ :

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فَخُلِقَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٦] سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ ، أَيْ : لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ ، فَلَا يَخْتَلِفَنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ ، فَإِنَّ كُلًّا مَنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الِاثْنَيْنِ . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا مُبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبَذْرِ وَالْغِرَاسِ ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ ، وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي تُزْرَعُ وَتُغْرَسُ ، يَعْنِي يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ ، فَهُمَا مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : مَعْنَاهُ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى وَفْقِ مُرَادِهِ مَنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُشْبِهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ، وَهُوَ بُخَارُ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدُ مِنْهُ حِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ : اِسْتَجِيبَا لِأَمْرِي وَانْفَعِلَا لِفِعْلِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ : أَطْلِعِي شَمْسِي وَقَمَرِي وَنُجُومِي ، وَقَالَ لِلْأَرْضِ شَقِّقِي أَنْهَارَكِ وَأَخْرِجِي ثِمَارَكِ ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِمَا فِينَا مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ ، **قَالَ** : **وَقِيلَ** : تَنْزِيلًا لَهُنَّ مُعَامَلَةَ مَنْ يَعْقِلُ بِكَلَامِهِمَا ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : لَوْ أَبَيَا عَلَيْهِ أَمْرَهُ لَعَذَّبَهُمَا عَذَابًا يَجِدَانِ أَلَمَهُ .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أَيْ : فَفَرَغَ مِنْ تَسْوِيَتِهِنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . أَيْ : آخَرَيْنِ وَهُمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾

أَيْ : وَرَتَّبَ مُقَرَّرًا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أَيْ : حَرَسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَغَلَبَهُ وَقَهَرَهُ ، الْعَلِيمُ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَنَاتِهِمْ .

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ : إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى فَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللهِ بِكُمْ ، كَمَا حَلَّتْ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمُرْسَلِينَ ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ : وَمَنْ شَاكَلَهُمَا مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمَا ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ [الأحقاف : ٢١] أَيْ : فِي الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَرَأَوْا مَا أَحَلَّ اللهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النِّقَمِ ، وَمَا أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّعَمِ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَّقُوا بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا ، **وَقَالُوا** : ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أَيْ :

لَوْ شَاءَ أَرْسَلَ اللهُ رُسُلًا لَكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نَتَّبِعُكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَغَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أَيْ : مَنُّوا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَاهُمْ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللهِ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أَيْ : أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ ؟ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا ، وَإِنَّ بَطْشَهُ شَدِيدٌ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات : ٤٧] ، فَبَارَزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رَسُولَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : وَهِيَ الشَّدِيدَةُ الْهُبُوبُ ، **وَقِيلَ** : الْبَارِدَةُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الَّتِي لَهَا صَوْتٌ ، **وَالْحَقُّ** : أَنَّهَا مُتَّصِفَةٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قَوِيَّةً لِتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ قُوَاهُمْ ، وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةَ الْبَرْدِ جِدًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[الحاقة : ٦] أَيْ : بَارِدَةً شَدِيدَةً ، وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُزْعِجٍ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ النَّهَرُ الْمَشْهُورُ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ ((صَرْصَر)) لِقُوَّةِ صَوْتِ جَرْيِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أَيْ : مُتَتَابِعَاتٍ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾[الحاقة : ٧] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾[القمر : ١٩] أَيْ : ابْتُدِئُوا بِهَذَا الْعَذَابِ فِي يَوْمِ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ خِزْيًا لَهُمْ ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : فِي الْأُخْرَى ، كَمَا لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ وَيَدْرَأُ عَنْهُمُ النَّكَالَ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : بَيَّنَّا لَهُمْ ، **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ** : دَعَوْنَاهُمْ ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : بَصَّرْنَاهُمْ وَبَيَّنَّا لَهُمْ

وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِمْ ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أَيْ : بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً وَذُلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنَكَالًا ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ ، بَلْ نَجَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ ﷺ بِإِيمَانِهِمْ وَبِتَقْوَاهُمْ للهِ ﷻ.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ يُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٦] أَيْ : عِطَاشًا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أَيْ : وُقِفُوا عَلَيْهَا ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِهِمْ مِمَّا قَدَّمُوهُ وَأَخَّرُوهُ لَا يُكْتَمُ مِنْهُ حَرْفٌ . ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : لَامُوا أَعْضَاءَهُمْ وَجُلُودَهُمْ حِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَجَابَتْهُمُ الْأَعْضَاءُ ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : فَهُوَ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ[١] : ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْتَبَسَّمَ ، فَقَالَ ﷺ : ((**أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ ؟**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ ؟ قَالَ ﷺ : ((**عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : أَيْ رَبِّي ، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَظْلِمَنِي ؟ قَالَ : بَلَى ، فَيَقُولُ : فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَوَلَيْسَ كَفَى بِي شَهِيدًا وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ؟ قَالَ : فَيُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ مِرَارًا ، قَالَ : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، عَنْكُنَّ كُنْتُ أُجَادِلُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُمُ الْأَعْضَاءُ وَالْجُلُودُ حِينَ يَلُومُونَهَا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ : مَا كُنْتُمْ تَتَكَتَّمُونَ مِنَّا الَّذِي كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ ، بَلْ كُنْتُمْ تُجَاهِرُونَ اللهَ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَلَا تُبَالُونَ مِنْهُ فِي زَعْمِكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَفْعَالِكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ - وَهُوَ اعْتِقَادُكُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ - هُوَ الَّذِي أَتْلَفَكُمْ وَأَرْدَاكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ[٢] رضي الله عنه **قَالَ** : كُنْتُ مُسْتَتِرًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ : قُرَشِيٌّ وَخِتْنَاهُ ثَقَفِيَّانِ - أَوْ ثَقَفِيٌّ وَخِتْنَاهُ قُرَشِيَّانِ - كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا ؟ فَقَالَ الْآخَرُ : إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ وَإِذَا لَمْ نَرْفَعْهُ لَمْ يَسْمَعْهُ ، فَقَالَ الْآخَرُ : إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ - قَالَ - فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَن يَشْهَدَ

---

(١) مسلم بنحوه (حديث ٢٩٦٩) .

(٢) البخاري (حديث ٤٨١٧) ، ومسلم (٢٧٧٥) .

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قَالَ : ((**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفَدَّمًا عَلَى أَفْوَاهِكُمْ بِالْفِدَامِ فَأَوَّلُ شَيْءٍ يُبِيِّنُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ**))[1].

قَالَ مَعْمَرٌ : وَتَلَا الْحَسَنُ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**))[2]. ثُمَّ أَفْتَرَّ الْحَسَنُ يَنْظُرُ فِي هَذَا ، فَقَالَ : أَلَا إِنَّمَا عَمَلُ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ ظُنُونِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَأَسَاءَا الظَّنَّ بِاللهِ فَأَسَاءَا الْعَمَلَ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَصَبَرُوا أَمْ لَمْ يَصْبِرُوا هُمْ فِي النَّارِ ، لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . وَإِنْ طَلَبُوا أَنْ يَسْتَعْتِبُوا وَيُبْدُوا أَعْذَارًا فَمَا لَهُمْ أَعْذَارٌ وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثَرَاتٌ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أَيْ : يَسْأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا جَوَابَ لَهُمْ ، قَالَ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون : ١٠٦-١٠٨]

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا

(١) سنده حسن .

(٢) قوله تعالى في الحديث القدسي (وأنا مع عبدي عند ظنه بي ....) مرسل من هذا الطريق لكنه ثابت صحيح من طريقٍ آخر فأخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ وَكَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ ، بِمَا قَيَّضَ لَهُمْ مِنَ الْقُرَنَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ : حَسَّنُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَاضِي ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ فَلَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا مُحْسِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦-٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أَيْ : كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، كَمَا حَقَّ عَلَى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ كَفِعْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : اِسْتَوَوْا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي الْخَسَارِ وَالدَّمَارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أَيْ : تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ وَلَا يَنْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أَيْ : إِذَا تُلِيَ لَا تَسْتَمِعُوا لَهُ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ ، يَعْنِي : بِالْمُكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ هَذَا حَالُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤]

ثُمَّ قَالَ ﷻ مُنْتَصِرًا لِلْقُرْآنِ وَمُنْتَقِمًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرَانِ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اِعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ وَعِنْدَ سَمَاعِهِ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئِ أَفْعَالِهِمْ .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾

إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أَيْ : أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي ((الْأَعْرَافِ)) فِي سُؤَالِ الْأَتْبَاعِ مِنَ الله تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ قَادَتَهُمْ أَضْعَافَ عَذَابِهِمْ ، قَالَ : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] أَيْ : إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَإِفْسَادِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨]

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أَيْ : أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لله وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ الله تَعَالَى عَلَى مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ نِمْرَانَ قَالَ : قَرَأْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ ، قَالَ : هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ ، **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ** : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ : أَخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ وَالْعَمَلَ . **وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِيِّ قَالَ** : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ ﷺ : ((**قُلْ : آمَنْتُ بِالله ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**))(١) ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي : عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَقْدَمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾

(١) مسلم (حديث ٣٨) .

عَلَى مَا خَلَفْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلٍ ، وَمَالٍ أَوْ دَيْنٍ ، فَإِنَّا نَخْلُفُكُمْ فِيهِ ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فَيُبَشِّرُونَهُمْ بِذَهَابِ الشَّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ ، **وَقِيلَ** : إِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ وَحِينَ يُبْعَثُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، وَهُوَ حَسَنٌ جِدًّا ، وَهُوَ الْوَاقِعُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ أَيْ : تَقُولُ المَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ : نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ ، أَيْ : قُرَنَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُكُمْ وَنُوَفِّقُكُمْ وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ الله ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ نُؤْنِسُ مِنْكُمُ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ ، وَعِنْدَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ ، وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَنُجَاوِزُ بِكُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَنُوَصِّلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ وَتَقَرُّ بِهِ الْعُيُونُ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ ، وَحَضَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أَيْ : ضِيَافَةً وَعَطَاءً ، وَإِنْعَامًا مِنْ غَفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ رَحِيمٍ بِكُمْ ، رَءُوفٍ حَيْثُ غَفَرَ وَسَتَرَ وَرَحِمَ وَلَطَفَ .

عَنْ أَنَسٍ[1] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**)) قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله كُلُّنَا نَكْرَهُ المَوْتَ ؟ قَالَ ﷺ : ((**لَيْسَ ذَلِكَ كَرَاهِيَةُ المَوْتِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ جَاءَهُ الْبَشِيرُ مِنَ الله تَعَالَى بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، قَالَ : وَإِنَّ الْفَاجِرَ أَوِ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ جَاءَهُ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ أَوْ مَا يَلْقَى مِنَ الشَّرِّ فَكَرِهَ لِقَاءَ الله فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**)) .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٧) ، وانظر شواهده في البخاري (٦٥٠٧) ، (٦٥٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٣) ، (٢٦٨٤) ، (٢٦٨٥) .

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يَقُول ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : دَعَا عِبَادَ الله إِلَيْهِ ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ ، فَنَفْعُهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَلَا يَأْتُونَهُ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ، بَلْ يَأْتَمِرُ بِالخَيْرِ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ ، وَيَدْعُو الخَلْقَ إِلَى الخَالِقِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى خَيْرٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ ، وَرَسُولُ الله ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِهَا : المُؤَذِّنُونَ الصُّلَحَاءُ ، لِقَولِهِ ﷺ ((**المُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ القِيَامَةِ**))[1].

وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فِي المُؤَذِّنِينَ وَفِي غَيْرِهِمْ ، فَأَمَّا حَالُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الأَذَانُ مَشْرُوعًا بِالْكُلِّيَّةِ ؛ لأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَالأَذَانُ إِنَّمَا شُرِعَ بِالمَدِينَةِ بَعْدَ الهِجْرَةِ ، حِينَ أُرِيَهُ عَبْدُ الله بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الأَنْصَارِيُّ ﷺ فِي مَنَامِهِ ، فَقَصَّهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيهِ عَلَى بِلَالٍ ﷺ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، فَالصَّحِيحُ إِذَنْ أَنَّهَا عَامَّةٌ ، **تَلَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ هَذِهِ الآيَةَ** ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، **فَقَالَ** : هَذَا حَبِيبُ الله ، هَذَا وَلِيُّ الله ، هَذَا صَفْوَةُ الله ، هَذَا خِيرَةُ الله ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى الله ، أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ الله فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ ، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ، هَذَا خَلِيفَةُ الله .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ أَيْ : فَرْقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ : مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعْهُ عَنْكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى الله فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهَ فِيهِ .

---

(١) مسلم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما -.

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، وَهُوَ الصَّدِيقُ ، أَيْ : إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ قَادَتْهُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَى مُصَافَاتِكَ وَمَحَبَّتِكَ وَالْحُنُوِّ عَلَيْكَ ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ لَكَ حَمِيمٌ ، أَيْ قَرِيبٌ إِلَيْكَ ، مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ .

قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ** : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ – إِذَا وَسْوَسَ – إِلَّا الِاسْتِعَاذَةُ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَّطَهُ عَلَيْكَ ، فَإِذَا اسْتَعَذْتَ بِاللهِ وَالْتَجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ : ((**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**))[1] ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي ((سُورَةِ الْأَعْرَافِ)) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأعراف : ١٩٩-٢٠٠] ، وَفِي ((سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ)) عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[المؤمنون : ٩٦-٩٨]

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه** : أخرجه أبو داود (٧٦٤) وغيره .

﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا خَلْقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ ، وَهُمَا مُتَعَاقِبَانِ لَا يَقِرَّانِ ، وَالشَّمْسَ وَنُورَهَا وَإِشْرَاقَهَا ، وَالْقَمَرَ وَضِيَاءَهُ وَتَقْدِيرَ مَنَازِلِهِ فِي فُلْكِهِ ، وَاخْتِلَافَ سَيْرِهِ فِي سَمَائِهِ ؛ لِيُعْرَفَ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ مَقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْجُمَعُ وَالشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ ، وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحُقُوقِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنُ الْأَجْرَامِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ عَبْدَانِ مِنْ عَبِيدِهِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ، فَمَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : عَنْ إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمَوْتَى ﴿ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ أَيْ : هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، بَلْ هِيَ مَيِّتَةٌ ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أَيْ : أَخْرَجَتْ مِنْ جَمِيلِ أَلْوَانِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾

قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: الْإِلْحَادُ: وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ**: هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَنْ يُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ: أَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ. **ثُمَّ قَالَ** ﷻ **تَهْدِيدًا لِلْكَفَرَةِ**﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ**: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ وَعِيدٌ: أَيْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِكُمْ وَبَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ وَهُوَ: الْقُرْآنُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾ أَيْ: مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُرَامُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ. ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ أَيْ: لَيْسَ لِلْبُطْلَانِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ لِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ أَيْ: حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَمِيدٌ بِمَعْنَى: مَحْمُودٌ، أَيْ: فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، الْجَمِيعُ مَحْمُودَةٌ عَوَاقِبُهُ وَغَايَاتُهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: مَا يُقَالُ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ إِلَّا كَمَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، فَكَمَا كُذِّبْتَ كُذِّبُوا، وَكَمَا صَبَرُوا عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ لَهُمْ فَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ لَكَ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴾ أَيْ: لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَشِقَاقِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ ۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ ، وَإِحْكَامَهُ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهِ كُفْرُ عِنَادٍ وَتَعَنُّتٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٨-١٩٩] ، كَذَلِكَ لَوْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ ؛ لَقَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أَيْ : لَقَالُوا : هَلَّا أُنْزِلَ مُفَصَّلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلَأَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، أَيْ : كَيْفَ يَنْزِلُ كَلَامٌ أَعْجَمِيٌّ عَلَى مُخَاطَبٍ عَرَبِيٍّ لَا يَفْهَمُهُ ؟ **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أَيْ : هَلَّا أُنْزِلَ بَعْضُهَا بِالْأَعْجَمِيِّ وَبَعْضُهَا بِالْعَرَبِيِّ ؟ هَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَكَانَ يَقْرَؤُهَا كَذَلِكَ بِلَا اسْتِفْهَامٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ ءَا۬عْجَمِىٌّ ﴾ ، وَهُوَ فِي الْعِنَادِ أَبْلَغُ ، **ثُمَّ قَالَ** ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ هُدًى لِقَلْبِهِ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أَيْ : لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢]

﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : بَعِيدٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ : كَأَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ يُنَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ . **قُلْتُ** : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : يُنَادَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَشْنَعِ أَسْمَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أَيْ : كُذِّبَ وَأُوذِيَ ﴿ فَٱصْبِرْ

كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الشورى : ١٤] بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَعُجِّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أَيْ : وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لِمَا قَالُوا ، بَلْ كَانُوا شَاكِّينَ فِيمَا قَالُوهُ غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِشَيْءٍ كَانُوا فِيهِ . هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَهُوَ مُحْتَمَلٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ ، وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَهُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ - لِجِبْرِيلَ عليه السلام - وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ - حِينَ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ : ((**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**))[1] ، وَكَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ ، وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ بِعِلْمِهِ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ

---

(١) البخاري (حديث ٥٠) ، ومسلم (حديث ٨) .

عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد : ٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادِي اللهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ عَبَدْتُمُوهُمْ مَعِي ؟ ﴿ قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ ﴾ أَيْ : أَعْلَمْنَاكَ ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَشْهَدُ الْيَوْمَ أَنَّ مَعَكَ شَرِيكًا . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : وَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا بِمَعْنَى الْيَقِينِ ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ عَذَابِ اللهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[الكهف : ٥٣]

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ ، وَهُوَ : الْمَالُ وَصِحَّةُ الْجِسْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ ، وَهُوَ الْبَلَاءُ أَوِ الْفَقْرُ ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أَيْ : يَقَعُ فِي ذِهْنِهِ أَنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ بَعْدَ هَذَا خَيْرٌ . ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرِزْقٌ بَعْدَمَا كَانَ فِي شِدَّةٍ لَيَقُولَنَّ : هَذَا لِي ، إِنِّي كُنْتُ أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ رَبِّي ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أَيْ : يَكْفُرُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، أَيْ : لِأَجْلِ أَنَّهُ خُوِّلَ نِعْمَةً ، يَبْطَرُ وَيَفْخَرُ ،وَيَكْفُرُ ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ ، فَلَيُحْسِنَنَّ إِلَيَّ رَبِّي كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، يَتَمَنَّى عَلَى اللهِ ﷻ مَعَ إِسَاءَتِهِ الْعَمَلَ وَعَدَمِ الْيَقِينِ ، **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يَتَهَدَّدُ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَاعْتِقَادُهُ بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أَيْ : أَعْرَضَ عَنِ الطَّاعَةِ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الانْقِيَادِ لِأَوَامِرِ الله ﷻ ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أَيْ : الشِّدَّةُ ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أَيْ : يُطِيلُ المَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، فَالْكَلَامُ الْعَرِيضُ مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ ، وَالْوَجِيز عَكْسُهُ : وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس : ١٢]

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ؟ **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلْحَقِّ وَمَسْلَكٍ بَعِيدٍ مِنَ الْهُدَى .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : سَنُظْهِرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنَا وَحُجَجَنَا عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ الله عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِدَلَائِلَ خَارِجِيَّةٍ ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ مِنَ الْفُتُوحَاتِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقَالِيمِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : وَدَلَائِلُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : وَقْعَةُ بَدْرٍ ، وَفَتْحُ مَكَّةَ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ ، نَصَرَ اللهُ فِيهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَصَحْبَهُ ، وَخَذَلَ فِيهَا الْبَاطِلَ وَحِزْبَهُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْهُ وَفِيهِ ، وَعَلَيْهِ مِنَ الْمَوَادِّ وَالْأَخْلَاطِ وَالْهَيْئَاتِ الْعَجِيبَةِ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي عِلْمِ التَّشْرِيحِ الدَّالِّ عَلَى حِكْمَةِ الصَّانِعِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَكَذَلِكَ مَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحْتَ الْأَقْدَارِ

الَّتِي لَا يَقْدِرُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَحِيلِهِ وَحَذَرِهِ أَنْ يَجُوزَهَا وَلَا يَتَعَدَّاهَا ، كَمَا أَنْشَدَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ « التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ » عَنْ شَيْخِهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْقُرَشِيِّ حَيْثُ قَالَ وَأَحْسَنَ الْمَقَالَةَ :

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرًا ... فَانْظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أَنْتَ الَّذِي يُمْسِي وَيُصْبِحُ ... فِي الدُّنْيَا وَكُلُّ أُمُورِهِ عِبَرُ
أَنْتَ الْمُصَرِّفُ كَانَ فِي صِغَرٍ ... ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِشَخْصِكَ الْكِبَرُ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خِلْقَتُهُ ... يَنْعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرُ
أَنْتَ الَّذِي تُعْطَى وَتُسْلَبُ لَا ... يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُسْلَبَ الْحَذَرُ
أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَهُ ... وَأَحَقُّ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدَرُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَا يَحْذَرُونَ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ هَدَرٌ لَا يَعْبَئُونَ بِهِ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرِّرًا أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيْهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى . ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أَيْ : الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ طَيِّ عِلْمِهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلِّهَا بِحُكْمِهِ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((حم السَّجْدَة)) ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة الشورى
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ[1].

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : كَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ كَذَلِكَ أَنْزَلَ الْكُتُبَ وَالصُّحُفَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ** » قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ ﷺ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ ، وَمُلْكٌ لَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ .

---

(١) في أول تفسير سورة البقرة .

(٢) البخاري (حديث ٢) ، ومسلم (حديث ٢٣٣٣) .

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** : أَيْ : فَرَقًا مِنَ الْعَظَمَةِ ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إِعْلَامٌ بِذَلِكَ وَتَنْوِيهٌ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، يُحْصِيهَا وَيَعُدُّهَا عَدًّا ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَاضِحًا جَلِيًّا بَيِّنًا ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ، وَهِيَ مَكَّةُ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَى ؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ ، لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَمِنْ أَوْجَزِ ذَلِكَ وَأَدَلِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ : ((**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**))[1].

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ . ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) ، والترمذي (٥/ ٧٢٢) ، وعبد بن حميد (٤٩٠) .

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[التغابن : ٩] أَيْ : يَغْبِنُ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[هود : ١٠٣-١٠٥]

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ(١) **قَالَ** : إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ : أَبُو عَبْدِ اللهِ دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ - يَعْنِي يَزُورُونَهُ - فَوَجَدُوهُ يَبْكِي ، فَقَالُوا لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي**)) ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى ، قَالَ : هَذِهِ لِهَذِهِ ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ ، وَلَا أُبَالِي**)) فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : إِمَّا عَلَى الْهِدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، وَلَكِنَّهُ - تَعَالَى - فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ وَأَضَلَّ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمُخْبِرًا أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

---

(١) إسناده صحيح : وأخرجه أحمد (٤/ ١٧٦) .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أَيْ : الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أَيْ : أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : خَالِقُهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ ، مِنَّةً عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلًا جَعَلَ مِنْ جِنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : يَخْلُقُكُمْ فِيهِ ، أَيْ : فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَنَسْلًا بَعْدَ نَسْلٍ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ، **وَقَالَ الْبَغَوِيُّ** : ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي الرَّحِمِ ، **وَقِيلَ** : فِي الْبَطْنِ ، **وَقِيلَ** : فِي هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْخِلْقَةِ ، **وَقِيلَ** : ((**فِي**)) بِمَعْنَى ((**الْبَاء**)) أَيْ : يَذْرَؤُكُمْ بِهِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ . ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ ((الزُّمَرِ)) ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُّ ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ ﷺ وَهُوَ نُوحٌ ﷺ وَآخِرُهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ وَهُمْ : إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَظَمَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ « الْأَحْزَاب » عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧] . وَالدِّينُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وَفِي الْحَدِيثِ « **نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ** »[1] أَيْ : الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ أَيْ : أَوْصَى اللهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالِائْتِلَافِ وَالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : شَقَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهِدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ الضَّلَالَةَ عَلَى مَنْ آثَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] أَيْ : إِنَّمَا كَانَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمُشَاقَّةُ ، **ثُمَّ قَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِإِنْظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حِسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَّلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْجِيلَ الْمُتَأَخِّرَ بَعْدَ الْقَرْنِ

---

(١) البخاري (٣٤٤٢ ، ٣٤٤٣) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

الْأَوَّلِ الْمُكَذِّبِ لِلْحَقِّ ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أَيْ : لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ مُقَلِّدُونَ لِآبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مُرِيبٍ وَشِقَاقٍ بَعِيدٍ .

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّاتٍ ، كُلٌّ مِنْهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا ، حُكْمٌ بِرَأْسِهِ ، قَالُوا : وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشْرُ فُصُولٍ كَهَذِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أَيْ : فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ ، أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ الْمُتَّبَعَةِ كَأُولِي الْعَزْمِ وَغَيْرِهِمْ فَادْعُ النَّاسَ إِلَيْهِ . ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أَيْ : وَاسْتَقِمْ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ ﷻ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَذَّبُوهُ وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ . ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ أَيْ : صَدَّقْتُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ . ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أَيْ : فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللهُ ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَعْبُودُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَنَحْنُ نُقِرُّ بِذَلِكَ اخْتِيَارًا ، وَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ اخْتِيَارًا فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ طَوْعًا وَإِجْبَارًا . ﴿ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ أَيْ : نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : لَا خُصُومَةَ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ السَّيْفِ ، وَهَذَا مُتَّجَهٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَآيَةُ

السَّيْفِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ . ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦]، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : المَرْجِعُ وَالمَآبُ يَوْمَ الْحِسَابِ .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ بِهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : يُجَادِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لله وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَمَّا سَلَكُوهُ مِنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : بَاطِلَةٌ عِنْدَ الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أَيْ : مِنْهُ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : جَادَلُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَمَا اسْتَجَابُوا لله وَلِرَسُولِهِ ، لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَطَمِعُوا أَنْ تَعُودَ الْجَاهِلِيَّةُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، قَالُوا لَهُمْ : دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوْلَى بِالله مِنْكُمْ ، وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ، وَهُوَ : الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ ، **قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥]، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ فِيهَا وَتَرْهِيبٌ مِنْهَا وَتَزْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا . ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : ﴿ مَتَى

هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[الملك : ٢٥] ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ وَجِلُونَ مِنْ وُقُوعِهَا ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ فَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهَا عَامِلُونَ مِنْ أَجْلِهَا . **وَفِي الصَّحِيحِ**[1] أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَنَادَاهُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْحَوًا مِنْ صَوْتِهِ : ((هَاؤُمُ)) ، فَقَالَ : لَهُ مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**وَيْحَكَ ، إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟**)) فَقَالَ : حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَقَالَ ﷺ : ((**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)) .

فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ ((**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)) هَذَا مُتَوَاتِرٌ لَا مَحَالَةَ ، وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ يُجِبْهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ بَلْ أَمَرَهُ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : يُجَادِلُونَ فِي وُجُودِهَا وَيَدْفَعُونَ وُقُوعَهَا ﴿ لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي جَهْلٍ بَيِّنٍ ؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[الروم : ٢٧]

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي رِزْقِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْهُمْ سَوَاءٌ فِي رِزْقِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

---

(١) انظر من ذلك البخاري (٦١٧١) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وَلَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُوَسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ . ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : عَمَلَ الْآخِرَةِ ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ﴾ أَيْ نُقَوِّيهِ وَنُعِينُهُ عَلَى مَا هُوَ بِصَدَدِهِ ، وَنُكْثِرُ نَمَاءَهُ وَنَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أَيْ : وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعْيُهُ لِيُحَصِّلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هِمَّةٌ الْبَتَّةَ بِالْكُلِّيَّةِ ، حَرَمَهُ اللهُ الْآخِرَةَ وَالدُّنْيَا إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يُحَصِّلْ لَا هَذِهِ وَلَا هَذِهِ . وَفَازَ السَّاعِي بِهَذِهِ النِّيَّةِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هَهُنَا مُقَيَّدَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي « سُبْحَان » ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٨-٢١]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَالْقِمَارِ ، إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ ، الَّتِي كَانُوا قَدِ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَمْوَالِ الْفَاسِدَةِ . **وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ**[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ** » ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٦٢٤) ، ومسلم (٢٨٥٦) .

السَّوَائِبَ ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ أَحَدُ مُلُوكِ خُزَاعَةَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ قُرَيْشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ - لَعَنَهُ اللهُ وَقَبَّحَهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَعُوجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ ، لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أَيْ : فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا ؟ أَيْ : أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقَّقِ عَلَيْهِ بِظُلْمِهِ ، مِمَّنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَنَاظِرَ وَمَنَاكِحَ وَمَلَاذَّ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَيْتَ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أَيْ : الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنِّعْمَةُ التَّامَّةُ السَّابِغَةُ الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ .

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : هَذَا حَاصِلٌ لَهُمْ ، كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ بِبِشَارَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ مَالًا

تُعْطُونِيهِ ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكُفُّوا شَرَّكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**[1] - **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** - أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَجِلْتَ ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ ، فَقَالَ : إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ .

تَفْسِيرٌ بِقَوْلٍ ثَانٍ : كَأَنَّهُ يَقُولُ : ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : إِلَّا أَنْ تَعْمَلُوا بِالطَّاعَةِ الَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللهِ زُلْفَى .

وَقَوْلٌ ثَالِثٌ : وَهُوَ مَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ رِوَايَةً عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - مَا مَعْنَاهُ - أَنَّهُ قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَوَدُّونِي فِي قَرَابَتِي ، أَيْ : تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ وَتَبَرُّوهُمْ .

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبِيعِيُّ : سَأَلْتُ عَمْرَو بْنَ شُعَيْبٍ عَنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، فَقَالَ : قُرْبَى النَّبِيِّ ﷺ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْحَقُّ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَلَا نُنْكِرُ الْوَصَاةُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ وَالْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ ، وَإِكْرَامِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ طَاهِرَةٍ مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ وُجِدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَخْرًا وَحَسَبًا وَنَسَبًا ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِلسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيَّةِ ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ كَالْعَبَّاسِ وَبَنِيهِ وَعَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ **قَالَ** : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ[2]. **وَفِي الصَّحِيحِ** أَنَّ الصِّدِّيقَ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ : وَاللهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي[3].

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - وَاللهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ . فَحَالُ الشَّيْخَيْنِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - هُوَ

---

(١) البخاري (٤٨١٨) .

(٢) البخاري (٣٧١٣) .

(٣) البخاري (٣٧١١) ، ومسلم (١٧٥٩) .

الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ ، وَلِهَذَا كَانَا أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ **قَالَ**[1] : قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا خَطِيبًا فِينَا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَّرَ وَوَعَظَ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : ((**أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا : كِتَابُ اللهِ تَعَالَى فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**)) فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ وَقَالَ ﷺ : ((**وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**)) فَقَالَ لَهُ حُصَيْنُ بنُ مَيْسَرَةَ وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟ قَالَ : إِنَّ نِسَاءَهُ لَسْنَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حَرُمَ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ ، قَالَ : وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عُقَيْلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ الْعَبَّاسِ ﷺ ، قَالَ : أَكُلُّ هَؤُلَاءِ حَرُمَ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَقَدْ أَوْرَدْنَا أَحَادِيثَ أُخَرَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب ٣٣] بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَهُنَا ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، أَيْ : أَجْرًا وَثَوَابًا : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا ، وَمِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَيُكَثِّرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ وَيُضَاعِفُ فَيُشْكَرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيْ : لَوِ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أَيْ : يَطْبَعْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَسَلَبَكَ مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

---

(١) مسلم (٢٤٠٨) .

ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] أَيْ : لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ أَشَدَّ الانْتِقَامِ ، وَمَا قَدَرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ ﴾ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَخۡتِمۡ ﴾ فَيَكُونَ مَجْزُومًا بَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى الِابْتِدَاءِ . قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، قَالَ : وَحُذِفَتْ مِنْ كِتَابَتِهِ الْوَاوُ فِي رَسْمِ مُصْحَفِ الْإِمَامِ كَمَا حُذِفَتْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ ﴾ أَيْ : يُحَقِّقُهُ وَيُثْبِتُهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُهُ ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : بِمَا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ .

وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ إِلَيْهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ ، إِنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَحِلْمِهِ أَنَّهُ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء : ١١٠]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[١] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**للهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا - قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ - فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ :- مِنْ**

(١) مسلم (٢٧٤٧) .

شِدَّةِ الْفَرَحِ - اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ - أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ : يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ . ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ، **وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ : يَسْتَجِيبُ لَهُمُ الدُّعَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَحَكَاهُ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ ، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٩٥]، وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ ﴾ [الزمر : ١٨]أَيْ : هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ وَيَتَّبِعُونَهُ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٣٦]، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ . **وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي قَوْلِهِ** ﷻ: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ قَالَ : يُشَفَّعُونَ فِي إِخْوَانِهِمْ ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ قَالَ : يُشَفَّعُونَ فِي إِخْوَانِ إِخْوَانِهِمْ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُوجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَوْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ ، لَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَشَرًا وَبَطَرًا . ﴿ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَخْتَارُهُ مِمَّا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ فَيُغْنِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَيُفْقِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ إِيَاسِ النَّاسِ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ ، يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ وَإِن

كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾[الروم : ٤٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ أَيْ : يَعُمُّ بِهَا الْوُجُود عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْقُطْرِ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ لِخَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةَ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ أَيْ : ذَرَأَ فِيهِمَا ، أَيْ : فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَهُوَ ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَصَائِبِ فَإِنَّمَا هِيَ عَنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنَ السَّيِّئَاتِ فَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو عَنْهَا ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[فاطر : ٤٥]

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ ، حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا** »[1].

---

(١) البخاري (٥٦٤١) ، ومسلم (٢٥٧٣) .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ فِيهِ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، أَيْ : كَالْجِبَالِ . **قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ** ، أَيْ : هَذِهِ فِي الْبَحْرِ كَالْجِبَالِ فِي الْبَرِّ ، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ أَيْ : الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ لَوْ شَاءَ لَسَكَّنَهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ السُّفُنُ بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَجِيءُ وَلَا تَذْهَبُ بَلْ وَاقِفَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، أَيْ : عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيْ : فِي الشَّدَائِدِ ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ وَإِجْرَائِهِ فِي الْهَوَى بِقَدْرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِسَيْرِهِمْ لَدَلَالَاتٌ عَلَى نِعَمِهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيْ : فِي الشَّدَائِدِ ، ﴿ شَكُورٍ ﴾ فِي الرَّخَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أَيْ : وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ السُّفُنَ وَغَرَّقَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَلَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ ، **وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ** : مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ لَأَرْسَلَ الرِّيحَ قَوِيَّةً عَاتِيَةً فَأَخَذَتِ السُّفُنَ وَأَحَالَتْهَا عَنْ سَيْرِهَا الْمُسْتَقِيمِ ، فَصَرَفَتْهَا ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، آبِقَةً لَا تَسِيرُ عَلَى طَرِيقٍ وَلَا إِلَى جِهَةِ مَقْصِدٍ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ يَتَضَمَّنُ هَلَاكَهَا وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِلْأَوَّلِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ لَسَكَّنَ الرِّيحَ فَوَقَفَتْ ، أَوْ لَقَوَّاهُ فَشَرَدَتْ وَأَبَقَتْ وَهَلَكَتْ ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُهُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ، كَمَا يُرْسِلُ الْمَطَرَ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ ، وَلَوْ أَنْزَلَهُ كَثِيرًا جِدًّا لَهَدَمَ الْبُنْيَانَ ، أَوْ قَلِيلًا لَمَا أَنْبَتَ الزَّرْعَ وَالثِّمَارَ ، حَتَّى إِنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى مِثْلِ بِلَادِ مِصْرَ سَيْحًا مِنْ أَرْضٍ أُخْرَى غَيْرِهَا لِأَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَطَرٍ ، وَلَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ لَهَدَمَ بُنْيَانَهُمْ وَأَسْقَطَ جُدْرَانَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ

عَنْ بَأْسِنَا وَنِقْمَتِنَا فَإِنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِنَا .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقِّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَانِي **بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا حَصَّلْتُمْ وَجَمَعْتُمْ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ ، فَإِنَّمَا هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهِيَ دَارٌ دَنِيئَةٌ فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : وَثَوَابُ الله تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ بَاقٍ سَرْمَدِيٌّ فَلَا تُقَدِّمُوا الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : لِلَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الْمَلَاذِّ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : لِيُعِينَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » . ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أَيْ : سَجِيَّتُهُمْ تَقْتَضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ ، لَيْسَ سَجِيَّتُهُمُ الِانْتِقَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ الله** »[1]. **عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ** : كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَذِلُّوا ، وَكَانُوا إِذَا قَدَرُوا عَفَوْا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : اتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ وَاجْتَنَبُوا زَجْرَهُ ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ لله ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ لِيَتَسَاعَدُوا بِآرَائِهِمْ فِي مِثْلِ الْحُرُوبِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ الْآيَةَ ، وَلِهَذَا كَانَ ﷺ

(١) البخاري (٦١٢٦) ، ومسلم (٢٣٢٧) .

يُشَاوِرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا لِيُطَيِّبَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ ، وَهَكَذَا لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ الْوَفَاةُ حِينَ طُعِنَ جَعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ شُورَى فِي سِتَّةِ نَفَرٍ وَهُمْ : عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ ﷺ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَيْهِمْ ﷺ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِ اللهِ ، الْأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ فَالْأَقْرَبُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أَيْ : فِيهِمْ قُوَّةُ الِانْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَيْسُوا بِالْعَاجِزِينَ وَلَا الْأَذَلِّينَ ، بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الِانْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا إِذَا قَدَرُوا عَفَوْا ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ ﷺ لِإِخْوَتِهِ ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف : ٩٢]مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ إِلَيْهِ ، وَكَمَا عَفَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَدَدٍ مِمَّنْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَنَالُوا مِنْهُ ، فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِمْ مَنَّ عَلَيْهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الِانْتِقَامِ . وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤]، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل : ١٢٦]فَشَرَعَ الْعَدْلَ وَهُوَ الْقِصَاصُ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ وَهُوَ الْعَفْوُ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا :** ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَضِيعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ

((**وَمَا زَادَ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**))[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُعْتَدِينَ وَهُوَ الْمُبْتَدِئُ بِالسَّيِّئَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي الِانْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ . ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْحَرَجُ وَالْعَنَتُ ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَبْدَءُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ((**الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ**))[٢] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ مُوجِعٌ .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَمَّ الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ وَشَرَعَ الْقِصَاصَ ، قَالَ نَادِبًا إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أَيْ : صَبَرَ عَلَى الْأَذَى وَسَتَرَ السَّيِّئَةَ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْنِي : لَمِنْ حَقِّ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا ، أَيْ لَمِنَ الْأُمُورِ الْمَشْكُورَةِ وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ وَثَنَاءٌ جَمِيلٌ .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَلَا رَادَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَلَا مُوجِدَ لَهُ ، وَأَنَّهُ مَنْ هَدَاهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧]، ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَمَنَّوْا

---

(١) **صحيح**: (مسلم ٢٥٨٨) .

(٢) **صحيح**: مسلم (٢٥٨٧) .

الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧-٢٨]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : عَلَى النَّارِ ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدِ اعْتَرَاهُمْ بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ عِصْيَانِ اللهِ تَعَالَى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : ذَلِيلٌ ، أَيْ : يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مُسَارَقَةً خَوْفًا مِنْهَا ، وَالَّذِي يَحْذَرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا فِي نُفُوسِهِمْ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : الْخَسَارُ الْأَكْبَرُ ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَعَدِمُوا لَذَّتَهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ فَخَسِرُوهُمْ ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ أَبَدِيٌّ ، لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ خَلَاصٌ .

ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ الْهَائِلَةِ حَذَّرَ مِنْهُ وَأَمَرَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ **فَقَالَ** : ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ فَإِنَّهُ كَلَمْحِ الْبَصَرِ يَكُونُ وَلَيْسَ لَهُ دَافِعٌ وَلَا مَانِعٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ حِصْنٌ تَتَحَصَّنُونَ فِيهِ وَلَا مَكَانٌ يَسْتُرُكُمْ وَتَتَنَكَّرُونَ فِيهِ ، فَتَغِيبُونَ عَنْ بَصَرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ بِعِلْمِهِ وَبَصَرِهِ وَقُدْرَتِهِ فَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠-١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ . ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَيْ : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، **وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَاهُنَا :** ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَلَّفْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، **ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :** ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ رَخَاءٌ وَنِعْمَةٌ فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ يَعْنِي : النَّاسَ ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيْ : جَدْبٌ وَنِقْمَةٌ وَبَلَاءٌ وَشِدَّةٌ ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أَيْ : يَجْحَدُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا السَّاعَةَ الرَّاهِنَةَ ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ أَشِرَ وَبَطِرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ يَئِسَ وَقَنِطَ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ[1] : ((**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**)) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَلِمَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ ﷺ: ((**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشِّكَايَةَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ تَرَكْتَ يَوْمًا ، قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**)) ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النِّسَاءِ إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَالْمُؤْمِنُ كَمَا قَالَ ﷺ: ((**إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**))[2].

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ

(١) صحيح: وقد تقدم .
(٢) صحيح: وقد نقدم .

إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ أَيْ : يَرْزُقُهُ الْبَنَاتِ فَقَطْ . قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَمِنْهُمْ لُوطٌ عليه السلام ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ أَيْ : يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطْ . قَالَ الْبَغَوِيُّ : كَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام لَمْ يُولَدْ لَهُ أُنْثَى . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ أَيْ : وَيُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَيْ : مِنْ هَذَا وَهَذَا ، قَالَ الْبَغَوِيُّ : كَمُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ أَيْ : لَا يُولَدُ لَهُ . قَالَ الْبَغَوِيُّ : كَيَحْيَى وَعِيسَى - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَجَعَلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنَاتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ مِنَ النَّوْعَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ هَذَا وَهَذَا فَيَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا نَسْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ لَهُ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ ، وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ فَآدَمُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَحَوَّاءُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - مَخْلُوقَةٌ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَسَائِرُ الْخَلْقِ - سِوَى عِيسَى عليه السلام - مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَعِيسَى عليه السلام مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، فَتَمَّتِ الدَّلَالَةُ بِخَلْقِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فَهَذَا الْمَقَامُ فِي الْآبَاءِ ، وَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ فِي الْأَبْنَاءِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ ، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ .

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن

جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَنَابِ اللهِ ﷻ وَهُوَ أَنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَارَةً يَقْذِفُ فِي رَوْعِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا لَا يَتَمَارَى فِيهِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ ﴾ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عليه السلام فَإِنَّهُ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ بَعْدَ التَّكْلِيمِ فَحُجِبَ عَنْهَا ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ كَمَا يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ فَهُوَ عَلِيٌّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ أَيْ : عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شُرِعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ ﴿ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وَهُوَ الْخُلُقُ الْقَوِيمُ . ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرْعُهُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهُ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : رَبُّهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : تَرْجِعُ الْأُمُورُ فَيَفْصِلُهَا وَيَحْكُمُ فِيهَا .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّورَى وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير سورة الزخرف
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أَيْ: الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ لِلتَّخَاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ ﴾ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ: بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَصِيحًا وَاضِحًا ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أَيْ: تَفْهَمُونَهُ وَتَتَدَبَّرُونَهُ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ بَيَّنَ شَرَفَهُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى لِيُشَرِّفَهُ وَيُعَظِّمَهُ وَيُطِيعهُ أَهْلُ الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أَيْ: اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ أَيْ: عِنْدَنَا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أَيْ: ذُو مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ وَشَرَفٍ وَفَضْلٍ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ.

وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ ﴾ [عبس: ١١-١٦]

وَلِهَذَا اسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ الْمُحْدِث لَا يَمَسُّ

المُصْحَفَ ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الحَدِيثُ إِنْ صَحَّ ؛ لأَنَّ المَلاَئِكَةَ يُعَظِّمُونَ المَصَاحِفَ المُشْتَمِلَةَ عَلَى القُرْآنِ فِي المَلإِ الأَعْلَى ، فَأَهْلُ الأَرْضِ بِذَلِكَ أَوْلَى وَأَحْرَى ؛ لأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِمْ وَخِطَابُهُ مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُقَابِلُوهُ بِالإِكْرَامِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَالانْقِيَادِ لَهُ بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ **اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا ، فَقِيلَ** : مَعْنَاهَا : أَتَحْسَبُونَ أَنْ نَصْفَحَ عَنْكُمْ فَلَا نُعَذِّبُكُمْ وَلَمْ تَفْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ؟ **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ ، وَاللهِ لَوْ أَنَّ هَذَا القُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ لَهَلَكُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى عَادَ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَكَرَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عِشْرِينَ سَنَة ، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ ، **وَقَوْلُ قَتَادَةَ لَطِيفُ المَعْنَى جِدًّا ، وَحَاصِلُهُ** : أَنَّهُ يَقُولُ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الخَيْرِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ – وَهُوَ القُرْآنُ – وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ ، بَلْ أَمَرَ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ وَتَقُومُ الحُجَّةُ عَلَى مَنْ كَتَبَ شَقَاوَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَآمِرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أَيْ : فَأَهْلَكْنَا المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشًا مِنْ هَؤُلَاءِ المُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : سُنَّتُهُمْ **وَقَالَ قَتَادَةُ** : عُقُوبَتُهُمْ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمَا** : عِبْرَتُهُمْ ، أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ المُكَذِّبِينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْأَخِرِينَ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾[غافر : ٨٥] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب : ٦٢]

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَئِنْ سَأَلْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : لَيَعْتَرِفُنَّ بِأَنَّ الْخَالِقَ لِذَلِكَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أَيْ : فِرَاشًا قَرَارًا ثَابِتَةً ، يَسِيرُونَ عَلَيْهَا وَيَقُومُونَ وَيَنَامُونَ وَيَتَصَرَّفُونَ مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ ، لَكِنَّهُ أَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيْ : طُرُقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : فِي سَيْرِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ . ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ أَيْ : بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ ؛ لِزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ، ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أَيْ : أَرْضًا مَيْتَةً فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ؛ ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا **فَقَالَ** : ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أَيْ : مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ ، مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَأَزَاهِيرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾ أَيْ : السُّفُنِ ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أَيْ : ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَيَسَّرَهَا لِأَكْلِكُمْ لُحُومَهَا ، وَشُرْبِكُمْ أَلْبَانَهَا ، وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أَيْ :

لِتَسْتَوُوا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى ظُهُورِ هَذَا الْجِنْسِ ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ أَيْ : مُقَاوِمِينَ ، وَلَوْلَا تَسْخِيرُ اللهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ . ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أَيْ : مُطِيقِينَ . ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أَيْ : لَصَائِرُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا ، وَإِلَيْهِ سَيْرُنَا الْأَكْبَرُ . وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِسَيْرِ الدُّنْيَا عَلَى سَيْرِ الْآخِرَةِ ، كَمَا نَبَّهَ بِالزَّادِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الزَّادِ الْأُخْرَوِيِّ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، وَبِاللِّبَاسِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الْأُخْرَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَكِبَ رَاحِلَتَهُ كَبَّرَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : « **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** - ثُمَّ يَقُولُ - **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِ لَنَا الْبَعِيدَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا** » وَكَانَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ قَالَ : « **آيِبُونَ ، تَائِبُونَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ** » .

وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ وَكَذَّبُوهُ ، فِي جَعْلِهِمْ بَعْضَ الْأَنْعَامِ لِطَوَاغِيتِهِمْ وَبَعْضَهَا للهِ تَعَالَى ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ﷻ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ :

(١) مسلم بنحوه (١٣٤٢) .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[الأنعام : ١٣٦] ، وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ قِسْمَةِ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ أَخَسَّهُمَا وَأَرْدَأَهُمَا وَهُوَ الْبَنَاتُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[النجم : ٢١-٢٢] ، **وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا** : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ ، وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةَ الْإِنْكَارِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْإِنْكَارِ **فَقَالَ** : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أَيْ : إِذَا بُشِّرَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلُوهُ للهِ مِنَ الْبَنَاتِ يَأْنَفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الْأَنَفَةِ ، وَتَعْلُوهُ كَآبَةٌ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ خَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ ، يَقُولُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَكَيْفَ تَأْنَفُونَ أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَنْسُبُونَهُ إِلَى اللهِ ﷻ ؟!

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أَيْ : الْمَرْأَةُ نَاقِصَةٌ يَكْمُلُ نَقْصُهَا بِلُبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً ، وَإِذَا خَاصَمَتْ فَلَا عِبَارَةَ لَهَا ، بَلْ هِيَ عَاجِزَةٌ عَيِيَّةٌ ، أَوَمَنْ يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى جَنَابِ اللهِ الْعَظِيمِ ؟ فَالْأُنْثَى نَاقِصَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى ، فَيَكْمُلُ نَقْصُ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلُبْسِ الْحُلِيِّ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ، لِيُجْبَرَ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ :

وَمَا الْحُلِيُّ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيصَةٍ ... يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرَا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مُوَفَّرَا ... كَحُسْنِكِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يُزَوَّرَا

وَأَمَّا نَقْصُ مَعْنَاهَا : فَإِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ عَنِ الِانْتِصَارِ عِنْدَ الِانْتِصَارِ ، لَا عِبَارَةَ لَهَا وَلَا هِمَّةَ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ وَقَدْ بُشِّرَ بِبِنْتٍ : مَا هِيَ بِنِعْمَ الْوَلَدِ : نَصْرُهَا بُكَاءٌ وَبِرُّهَا سَرِقَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ أَيْ : اِعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ ، **فَقَالَ** : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أَيْ : شَاهَدُوهُ وَقَدْ

خَلَقَهُمُ اللهُ إِنَاثًا ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أَيْ : بِذَلِكَ ﴿ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ . ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ أَيْ : لَوْ أَرَادَ اللهُ لَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللهِ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ ، وَهُوَ يُقَرِّرُنَا عَلَيْهِ فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَطَأِ . **أَحَدُهَا** : جَعْلُهُمْ للهِ تَعَالَى وَلَدًا تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا . **الثَّانِي** : دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ، فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا . **الثَّالِثُ** : عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَلَا إِذْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالتَّقْلِيدِ لِلْأَسْلَافِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْآبَاءِ ، وَالْخَبْطِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهَلَاءِ . **الرَّابِعُ** : احْتِجَاجُهُمْ بِتَقْدِيرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْرًا وَقَدْ جَهِلُوا فِي هَذَا الِاحْتِجَاجِ جَهْلًا كَبِيرًا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، فَإِنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ يَأْمُرُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حُجَّتَهُمْ هَذِهِ ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : بِصِحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاحْتَجُّوا بِهِ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ وَيَتَقَوَّلُونَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يَعْنِي : مَا يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – عَلَى ذَلِكَ .

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ

كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ : ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡ كِتَـٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ شِرْكِهِمْ ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا هُمْ فِيهِ، أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴾[الروم : ٣٥] أَيْ : لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أُمَّةٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا : الدِّينَ هَاهُنَا ، وَفِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[الأنبياء : ٩٢]

وَقَوْلِهِمْ : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم ﴾ أَيْ : وَرَائِهِمْ ﴿ مُّهۡتَدُونَ ﴾ دَعْوَى مِنْهُمْ بِلَا دَلِيلٍ ، ثُمَّ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَشْبَاهُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات : ٥٢-٥٣]

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ قُلۡ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ ، لِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا فَصَّلَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي قَصَصِهِمْ ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا ، وَكَيْفَ نَجَّى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا

جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، وَوَالِدِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، الَّذِي تُنْتَسَبُ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبِهَا: أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ، **فَقَالَ**: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَهِيَ: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » أَيْ: جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذُرِّيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهِ فِيهَا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ: إِلَيْهَا. **قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** عز وجل: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ يَعْنِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَقُولُهَا، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ**: كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ الْجَمَاعَةُ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أَيْ: فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: بَيِّنَ الرِّسَالَةِ وَالنِّذَارَةِ. ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ: كَابَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالصُّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أَيْ: كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ: هَلَّا كَانَ إِنْزَالُ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ

مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ ؟ يَعْنُونَ : مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، **وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قتادةُ :** أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ . **وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَهُمْ** رَجُلٌ كَبِيرٌ مِنْ أَيِّ الْبَلْدَتَيْنِ كَانَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الاعْتِرَاضِ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ ، بَلْ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُنَزِّلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتًا ، وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ قَدْ فَاوَتَ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ ، مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، **فَقَالَ :** ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ **قِيلَ :** مَعْنَاهُ لِيُسَخِّرَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ لِاحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا وَهَذَا إِلَى هَذَا ، **ثُمَّ قَالَ :** ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ : رَحْمَةُ اللهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهَلَةِ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أَيْ : سَلَالِمَ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أَيْ : يَصْعَدُونَ ، ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أَيْ : أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِضَّةً ، ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أَيْ : وَذَهَبًا ، ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، أَيْ : يُعَجِّلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَآكِلَ وَمَشَارِبَ ، لِيُوَافُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ .

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : هِيَ لَهُمْ خَاصَّةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، لِهَذَا لَمَّا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ صَعِدَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَشْرَبَةِ لَمَّا آلَى ﷺ مِنْ نِسَائِهِ ، فَرَآهُ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ ،

فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ؛ هَذَا كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ صَفْوَةُ الله مِنْ خَلْقِهِ ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ ، وَقَالَ : ((**أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟**)) ثُمَّ قَالَ ﷺ : ((**أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا**))[1] ، وَفِي رِوَايَةٍ ((**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟**))[2] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا وَغَيْرِهِمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ**))[3] ، وَإِنَّمَا خَوَّلَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا لِحَقَارَتِهَا .

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أَيْ : يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وَالعَشَا فِي الْعَيْنِ ضَعْفُ بَصَرِهَا ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا : عَشَا الْبَصِيرَةِ ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : ٢٥] ،

---

(١) البخاري (٢٤٦٨) ، وانظر مسلم (١٤٧٩) .

(٢) البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) .

(٣) البخاري (٥٤٢٦) ، ومسلم (٢٠٦٧) .

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَغَافَلَ عَنِ الْهُدَى نُقَيِّضُ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . فَإِذَا وَافَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّمُ بِالشَّيْطَانِ الَّذِي وُكِّلَ بِهِ ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ ، **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** : « حَتَّى إِذَا جَاءَانَا » **يَعْنِي** الْقَرِينُ وَالْمُقَارَنُ . **وَالْمُرَادُ بِالْمَشْرِقَيْنِ هَاهُنَا هُوَ** : مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَ هَهُنَا تَغْلِيبًا ، كَمَا يُقَالُ : الْقَمَرَانِ ، وَالْعُمَرَانِ ، وَالْأَبَوَانِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُغْنِي عَنْكُمُ اجْتِمَاعُكُمْ فِي النَّارِ وَاشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ . ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبُهُمْ ، وَلَوْ ذَهَبْتَ أَنْتَ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا ، وَلَمْ يَقْبِضِ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ حَتَّى أَقَرَّ عَيْنَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِيهِمْ ، وَمَلَّكَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ صَيَاصِيهِمْ . هَذَا مَعْنَى قَوْلِ السُّدِّيِّ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَفِي الْحَدِيثِ : « **النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ** »[(١)].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوصِّلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَأَوْرَدَ الْبَغَوِيُّ هُنَا عَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ ، لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ** »[(٢)] ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ شَرَفٌ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ

---

(١) مسلم (٢٥٣١) .
(٢) البخاري (٣٥٠٠) .

إِنَّهُ أُنْزِلَ بِلُغَتِهِمْ ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارُهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَّصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَمَنْ شَابَهَهُمْ وَتَابَعَهُمْ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أَيْ : لَتَذْكِيرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ سِوَاهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠] ، وَكَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء : ٢١٤]

﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ ؟.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الرُّسُلِ دَعَوْا إِلَى مَا دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[النحل : ٣٦] **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ : ((وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا)) وَهَذَا كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَا تِلَاوَةٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ اِبْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْقَادَةِ ، وَالْأَتْبَاعِ وَالرَّعَايَا ، مِنَ الْقِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ آيَاتٍ عِظَامًا ، كَيَدِهِ وَعَصَاهُ ، وَمَا أُرْسِلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ ، وَمِنْ نَقْصِ الزُّرُوعِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ

اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالانْقِيَادِ لَهَا ، وَكَذَّبُوهَا وَسَخِرُوا مِنْهَا وَضَحِكُوا مِمَّنْ جَاءَهُمْ بِهَا ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وَمَعَ هَذَا مَا رَجَعُوا عَنْ غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَجَهْلِهِمْ وَخَبَالِهِمْ . وَكُلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَضْرَعُونَ إِلَى مُوسَى ﷺ وَيَتَلَطَّفُونَ لَهُ فِي الْعِبَارَةِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ أَيْ : الْعَالِمُ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمُ السَّحَرَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ السِّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ مَذْمُومًا عِنْدَهُمْ ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الانْتِقَاصِ مِنْهُمْ ، لأَنَّ الْحَالَ حَالُ ضَرُورَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ لَا تُنَاسِبُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ فِي زَعْمِهِمْ فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَعِدُونَ مُوسَى ﷺ إِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ هَذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْكُثُونَ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣-١٣٥]

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ وَكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ : أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ ، فَنَادَى فِيهِمْ مُتَبَجِّحًا مُفْتَخِرًا بِمُلْكِ مِصْرَ وَتَصَرُّفِهِ فِيهَا : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : قَدْ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتٌ وَأَنْهَارُ مَاءٍ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ أَيْ : أَفَلَا تَرَوْنَ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْمُلْكِ ؟، يَعْنِي : وَمُوسَى

وَأَتْبَاعُهُ فُقَرَاءُ ضُعَفَاءُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٣-٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَقُولُ : بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ، وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ نُحَاةِ الْبَصْرَةِ : إِنَّ « أَمْ » هَهُنَا بِمَعْنَى « بَلْ » وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا حَكَاهُ الْفَرَّاءُ عَنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ أَنَّهُ قَرَأَهَا : « أَمَّا أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَلَوْ صَحَّتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ لَكَانَ مَعْنَاهَا صَحِيحًا وَاضِحًا ، وَلَكِنَّهَا خِلَافُ قِرَاءَةِ الْأَمْصَارِ ، فَإِنَّهُمْ قَرَءُوا : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ عَلَى الاسْتِفْهَامِ . **قُلْتُ** : وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَإِنَّمَا يَعْنِي فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - بِذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ مُوسَى عليه السلام ، وَقَدْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا كَذِبًا بَيِّنًا وَاضِحًا ، فَعَلَيْهِ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ ﴿ مَهِينٌ ﴾ **قِيلَ** : حَقِيرٌ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي : ضَعِيفٌ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي : لَا مُلْكَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا مَالَ ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يَعْنِي : لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ ، فَهُوَ عَيِيٌّ حَصِرٌ . **وَقِيلَ** : لَا يَكَادُ يُفْهِمُ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : عَيِيُّ اللِّسَانِ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي فِي لِسَانِهِ شَيْءٌ ، مِنَ الْجَمْرَةِ حِينَ وَضَعَهَا فِي فَمِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - كَذِبٌ وَاخْتِلَاقٌ ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام بِعَيْنٍ كَافِرَةٍ شَقِيَّةٍ ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى عليه السلام مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْبَهَاءِ فِي صُورَةٍ يُبْهِرُ أَبْصَارَ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَهِينٌ ﴾ كَذِبٌ ، بَلْ هُوَ الْمَهِينُ الْحَقِيرُ خِلْقَةً وَخُلُقًا وَدِينًا ، وَمُوسَى هُوَ الشَّرِيفُ الرَّئِيسُ الصَّادِقُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افْتِرَاءً أَيْضًا ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَصَابَ لِسَانَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ شَيْءٌ مِنْ جِهَةِ تِلْكَ الْجَمْرَةِ ، فَقَدْ سَأَلَ اللهَ عز وجل أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ لِيَفْقَهُوا قَوْلَهُ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦]

وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ لَمْ يَسْأَلْ إِزَالَتَهُ ، كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ، وَإِنَّمَا سَأَلَ زَوَالَ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْإِبْلَاغُ وَالْإِفْهَامُ ، فَالْأَشْيَاءُ الْخُلُقِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ لَا يُعَابُ بِهَا وَلَا يُذَمُّ عَلَيْهَا ، وَفِرْعَوْنُ - وَإِنْ كَانَ يَفْهَمُ وَلَهُ عَقْلٌ - فَهُوَ

يَدْرِي هَذَا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّرْوِيجَ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا جَهَلَةً أَغْبِيَاءَ ، **وَهَكَذَا قَوْلُهُ**: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أَيْ : وَهِيَ مَا يُجْعَلُ فِي الْأَيْدِي مِنَ الْحُلِيِّ ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أَيْ : يَكْتَنِفُونَهُ خِدْمَةً لَهُ وَيَشْهَدُونَ بِتَصْدِيقِهِ ، نَظَرَ إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ ، وَلَمْ يَفْهَمِ السِّرَّ الْمَعْنَوِيَّ الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ مِمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أَيْ : اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ﴿ ءَاسَفُونَا ﴾ أَسْخَطُونَا ، **وَقَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَغْضَبُونَا . ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ **قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ** : ﴿ سَلَفًا ﴾ لِمِثْلِ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ ، **وَقَالَ هُوَ وَمُجَاهِدٌ** : ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أَيْ : عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ وَتَعَمُّدِهِمُ الْعِنَادَ وَالْجَدَلَ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَضْحَكُونَ . أَيْ : أُعْجِبُوا بِذَلِكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَجْزَعُونَ وَيَضْحَكُونَ ، **وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ** : يُعْرِضُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : يَقُولُونَ : آلِهَتُنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا ؟. يَعْنُونَ : مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أَيْ : مِرَاءً ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْآيَةِ ، لأَنَّهَا لِمَا لَا يَعْقِلُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] ، ثُمَّ هِيَ خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ ، وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ حَتَّى يُورِدُوهُ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَقَالَتَهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ جَدَلًا مِنْهُمْ لَيْسُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُورِثُوا الْجَدَلَ** ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي : عِيسَى ﷺ مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ ﷻ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى مَا نَشَاءُ . ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أَيْ : بَدَلَكُمْ ﴿ مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَخْلُفُونَكَ فِيهَا ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ** : يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا الْقَوْلُ يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ بَدَلَكُمْ . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الصَّحِيحُ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِهِ ، ثُمَّ الْمُرَادُ بِذَلِكَ : نُزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء : ١٥٩] أَيْ : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ﷺ ، ثُمَّ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى « وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ » أَيْ : أَمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ السَّاعَةِ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : آيَةٌ لِلسَّاعَةِ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى ﷺ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢) .

عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا [١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أَيْ : لَا تَشُكُّوا فِيهَا ، إِنَّهَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ أَيْ : فِيمَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أَيْ : عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أَيْ : بِالنُّبُوَّةِ ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَا الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ ، ثُمَّ رَدَّ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ « بَعْضَ » هَاهُنَا بِمَعْنَى « كُلّ » وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ لَبِيدٍ الشَّاعِرِ حَيْثُ قَالَ :

تُـرَاكُ أَمْكِنَـةٌ إِذَا لَمْ أَرْضَهَـا ... أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ جَمِيعَ النُّفُوسِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَإِنَّمَا أَرَادَ نَفْسَهُ فَقَطْ ، وَعَبَّرَ بِالْبَعْضِ عَنْهَا . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُحْتَمَلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ لَهُ ، فُقَرَاءُ إِلَيْهِ ، مُشْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ ﷻ وَحْدَهُ . ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أَيْ : اخْتَلَفَتِ الْفِرَقُ وَصَارُوا شِيَعًا فِيهِ ، مِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلَدُ اللهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ اللهُ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم

(١) انظر بعضها في البخاري (٣٤٤٨ ، ٣٤٤٩) ، ومسلم (١٥٥) .

بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ فَإِذَا جَاءَتْ إِنَّمَا تَجِيءُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا ، فَحِينَئِذٍ يَنْدَمُونَ كُلَّ النَّدَمِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً ، إِلَّا مَا كَانَ للهِ ﷻ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِهِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﵇ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ ، وَانْقَادَتْ لِشَرْعِ اللهِ جَوَارِحُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ . ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أَيْ : نُظَرَاؤُكُمْ ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أَيْ : تَتَنَعَّمُونَ وَتَسْعَدُونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الرُّومِ[1].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أَيْ : زَبَادِي آنِيَةِ الطَّعَامِ ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وَهِيَ : آنِيَةُ الشَّرَابِ ، أَيْ : مِنْ ذَهَبٍ لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَى ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ((تَشْتَهِي الْأَنْفُس)) ﴿ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ أَيْ : طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ وَحُسْنَ الْمَنْظَرِ .﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفَضُّلِ وَالِامْتِنَانِ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ

(١) الآية : (١٥) .

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : أَعْمَالُكُمُ الصَّالِحَةُ كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللهِ إِيَّاكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ يُنَالُ تَفَاوُتُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ . ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ ، وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ لِتَتِمَّ النِّعْمَةُ وَالْغِبْطَةُ .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ ، ثَنَّى بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا ، فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وِفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ ، وَهُوَ : خَازِنُ النَّارِ .

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[1] أَيْ : يَقْبِضُ أَرْوَاحَنَا فَيُرِيحَنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى : ١١-١٣] ، فَلَمَّا سَأَلُوا أَنْ يَمُوتُوا أَجَابَهُمْ مَالِكٌ : ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ أَيْ : لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ شِقْوَتِهِمْ وَهُوَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ وَمُعَانَدَتُهُمْ لَهُ ، فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَكُمْ وَوَضَّحْنَاهُ وَفَسَّرْنَاهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ

(١) البخاري (حديث ٣٢٣٠) ، ومسلم (حديث ٨٧١) .

كَانَتْ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا تَنْقَادُ لِلْبَاطِلِ وَتُعَظِّمُهُ ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَتَأْبَاهُ ، وَتُبْغِضُ أَهْلَهُ . فَعُودُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ وَانْدَمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُكُمُ النَّدَامَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَرَادُوا كَيْدَ شَرٍّ فَكِدْنَاهُمْ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَيَّلُونَ فِي رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحِيَلٍ وَمَكْرٍ يَسْلُكُونَهُ ، فَكَادَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، وَرَدَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قَالَ : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ أَيْ : سِرُّهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : لَوْ فُرِضَ هَذَا لَعَبَدْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ، لِأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِهِ ، مُطِيعٌ لِجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ ، لَيْسَ عِنْدِي اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِبَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَوْ فُرِضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا ، وَلَكِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] . **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ **أَيْ** : الْآنِفِينَ ، **مِنْهُم الْبُخَارِيُّ حَكَاهُ فَقَالَ** : وَيُقَالُ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ : الْجَاحِدِينَ ، مِنْ عَبَدَ يَعْبَدُ . وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ ؛ لأَنَّهُ كَيْفَ يَلْتَئِمُ مَعَ الشَّرْطِ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ : إِنْ كَانَ هَذَا فَأَنَا مُمْتَنِعٌ مِنْهُ ؟ هَذَا فِيهِ نَظَرٌ ، فَلْيُتَأَمَّلْ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّ « إِنْ » لَيْسَتْ شَرْطًا ، وَإِنَّمَا هِيَ نَافِيَةٌ ، **كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ يَقُولُ : لَمْ يَكُنْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ، فَأَنَا أَوَّلُ الشَّاهِدِينَ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هِيَ كَلِمَةٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فَلَا يَنْبَغِي ، **وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ عَبَدَهُ بِأَنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَأَوَّلُ مَنْ وَحَّدَهُ ، وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ **أَيْ** : أَوَّلُ مَنْ عَبَدَهُ وَوَحَّدَهُ وَكَذَّبَكُمْ ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ **الْآنِفِينَ** ، وَهُمَا لُغَتَانِ : رَجُلٌ عَابِدٌ وَعَبِدٌ[1] ، وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ عَلَى أَنَّهُ شَرْطٌ وَجَزَاءٌ ، وَلَكِنْ هُوَ مُمْتَنِعٌ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَبَدَهُ بِأَنَّ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَكِنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَرَدَّ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ « إِنْ » نَافِيَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنَّهُ فَرْدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ ، لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ ، فَلَا وَلَدَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ ﴾ أَيْ : فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَيْ : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ ، وَمَآلُهُمْ ، وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ أَيْ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهُمَا ، وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ ، أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ

---

(١) البخاري في التفسير ، باب قوله : « ونادوا يا مالك » الآية .

مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٣] أَيْ : هُوَ الْمَدْعُوُّ الله فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا ، بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ ﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ أَيْ : اِسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ ٱلشَّفَـٰعَةَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ لَهُمْ ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيْ : لَكِنْ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ عَلَى بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، فَإِنَّهُ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُ عِنْدَهُ بِإِذْنِهِ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالله الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَاهَةِ وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلِهِ ، أَيْ : شَكَا إِلَى رَبِّهِ شَكْوَاهُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] ، **قَالَ الْبُخَارِيُّ** : وَقَرَأَ عَبْدُ الله يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ ((وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ))[١] ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قَالَ : فَأَبَرَّ اللهُ ﷻ قَوْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هُوَ قَوْلُ نَبِيِّكُمْ ﷺ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى رَبِّهِ ﷻ ، **ثُمَّ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ ﴾ قِرَاءَتَيْنِ ، **إِحْدَاهُمَا** : النَّصْبُ ، وَلَهَا تَوْجِيهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى

(١) البخاري في التفسير باب قوله : ((ونادوا يا مالك)) الآية .

قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ ، وَالثَّانِي : أَنْ يُقَدَّرَ فِعْلٌ ، وَقَالَ : قِيلَهُ ، وَالثَّانِيَةُ : الْخَفْضُ ، وَقِيلِهِ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَعِلْمُ قِيلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ أَيْ : لَا تُجَاوِبْهُمْ بِمِثْلِ مَا يُخَاطِبُونَكَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ ، وَلَكِنْ تَأَلَّفْهُمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ ، وَلِهَذَا أَحَلَّ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، وَأَعْلَى دِينَهُ وَكَلِمَتَهُ ، وَشَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِهَادَ وَالْجِلَادَ ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ : إِنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ شَرْعًا لِتَقُومَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، أَيْ : فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ يُفْصَلُ مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ إِلَى الْكَتَبَةِ أَمْرُ السَّنَةِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْآجَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا . **وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أَيْ : مُحْكَمٌ ، لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ مَا يَكُونُ وَيُقَدِّرُهُ اللهُ تَعَالَى وَمَا يُوحِيهِ فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى النَّاسِ ، رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَّةً إِلَيْهِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ مُتَحَقِّقِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : بَلْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، أَيْ : قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْيَقِينُ ، وَهُمْ يَشُكُّونَ فِيهِ وَيَمْتَرُونَ ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا** : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ**[1] ﷺ **قَالَ** : **إِنَّ اللهَ** ﷻ قَالَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] وَإِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا أَبْطَأَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاسْتَعْصَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ ، وَجَعَلُوا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا الدُّخَانَ . وَفِي رِوَايَةٍ : فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ ، فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ . فَاسْتَسْقَى ﷺ لَهُمْ فَسُقُوا ، فَنَزَلَتْ ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : فَيُكْشَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قَالَ : يَعْنِي يَوْمَ

(١) انظر البخاري في هذه المواطن (٤٨١ ، ٤٨٢٢ ، ٤٨٢٣ ، ٤٨٢٤) ، ومسلم (٢٧٩٩) .

بَدْرٍ . قَالَ : فَقَدْ مَضَى خَمْسَةٌ : الدُّخَانُ ، وَالرُّومُ ، وَالْقَمَرُ ، وَالْبَطْشَةُ ، وَاللِّزَامُ .

وَقَدْ وَافَقَ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى تَفْسِيرِ الآيَةِ بِهَذَا ، وَأَنَّ الدُّخَانَ مَضَى جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَمْ يَمْضِ الدُّخَانُ بَعْدُ ، بَلْ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَرِيحَةَ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ ﷺ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٍ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٍ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٍ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ -: تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلَ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا** »[(١)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[(٢)] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ : « **إِنِّي خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا** » قَالَ : هُوَ الدُّخُّ ، فَقَالَ ﷺ لَهُ : « **اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ** » قَالَ : وَخَبَّأَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ . وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمُرْتَقَبِ ، وَابْنُ صَيَّادٍ كَاشِفٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُهَّانِ بِلِسَانِ الْجَانِّ ، وَهُمْ يُقَرْطِمُونَ الْعِبَارَةَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : هُوَ الدُّخُّ ، يَعْنِي : الدُّخَانُ ، فَعِنْدَهَا عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّتَهُ وَأَنَّهَا شَيْطَانِيَّةٌ ، فَقَالَ ﷺ : « **اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ** » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ ؛ قَالَ : غَدَوْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : مَا نِمْتُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ . قُلْتُ : لِمَ ؟ قَالَ : قَالُوا : طَلَعَ الْكَوْكَبُ ذُو الذَّنَبِ ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ الدُّخَانُ قَدْ طَرَقَ ، فَمَا نِمْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ[(٣)].

وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ، وَهَكَذَا قَوْلُ مَنْ وَافَقَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ﷺ أَجْمَعِينَ مَعَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ مِنَ الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ وَغَيْرِهِمَا الَّتِي أَوْرَدُوهَا مِمَّا فِيهِ مَقْنَعٌ وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ ، مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ .

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٠١) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٥٥) ، ومسلم (٢٩٣٠) .

(٣) رجاله ثقات .

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ، وَعَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ رَأَوْهُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ : يَتَغَشَّاهُمْ وَيُعْمِيهِمْ ، وَلَوْ كَانَ أَمْرًا خَيَالِيًّا يَخُصُّ أَهْلَ مَكَّةَ الْمُشْرِكِينَ لَمَا قِيلَ فِيهِ ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : ١٣-١٤] أَوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ سَائِلِينَ رَفْعَهُ وَكَشْفَهُ عَنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧] ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ يَقُولُ : كَيْفَ لَهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيِّنَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَمَا وَافَقُوهُ ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر : ٢٣] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ : ٥١-٥٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٥] ، وَكَقَوْلِهِ :

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، **وَالثَّانِي** : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِنَّا مُؤَخِّرُو الْعَذَابِ عَنْكُمْ قَلِيلًا بَعْدَ انْعِقَادِ أَسْبَابِهِ وَوُصُولِهِ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالضَّلَالِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْكَشْفِ عَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَاشَرَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] ، وَلَمْ يَكُنِ الْعَذَابُ بَاشَرَهُمْ وَاتَّصَلَ بِهِمْ ، بَلْ كَانَ قَدِ انْعَقَدَ سَبَبُهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَقْلَعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ ثُمَّ عَادُوا إِلَيْهِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ** عليه السلام **أَنَّهُ** قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَالُوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ٨٨-٨٩] ، وَشُعَيْبٌ عليه السلام لَمْ يَكُنْ قَطُّ عَلَى مِلَّتِهِمْ وَطَرِيقَتِهِمْ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إِلَى عَذَابِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فَسَّرَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ يَوْمُ بَطْشَةٍ أَيْضًا . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**[1] **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَنَا أَقُولُ : هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنْهُ .

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) صحيح : عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدِ اخْتَبَرْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَهُمْ قِبْطُ مِصْرَ ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى كَلِيمَهُ ﷺ ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷺ ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه : ٤٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ : مَأْمُونٌ عَلَى مَا أُبَلِّغُكُمُوهُ ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لِحُجَجِهِ وَالْإِيمَانِ بِبَرَاهِينِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر : ٦٠]

﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَاضِحَةٍ ، وَهِيَ مَا أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ الشَّتْمُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الرَّجْمُ بِالْحِجَارَةِ ، أَيْ : أَعُوذُ بِاللهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ أَيْ : فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي وَدَعُوا الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُسَالَمَةً إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَنَا ، فَلَمَّا طَالَ مَقَامُهُ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا ، دَعَا رَبَّهُ عَلَيْهِمْ دَعْوَةً نَفَذَتْ فِيهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾[يونس : ٨٨-٨٩] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وَمُشَاوَرَتِهِ وَاسْتِئْذَانِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا

تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ كَهَيْئَتِهِ وَامْضِهِ . **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ رَهْوًا ﴾ طَرِيقًا يَبَسًا كَهَيْئَتِهِ ، يَقُولُ : لَا تَأْمُرُهُ يَرْجِعُ ، أُتْرُكْهُ حَتَّى يَرْجِعَ آخِرَهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ ﴾ وَهِيَ الْبَسَاتِينُ ﴿ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ ﴾ ، وَالْمُرَادُ بِهَا : الْأَنْهَارُ وَالْآبَارُ ، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ، وَهِيَ الْمَسَاكِنُ الْأَنِيقَةُ وَالْأَمَاكِنُ الْحَسَنَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾ أَيْ : عِيشَةٌ ، كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا ، وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا ، مَعَ الْأَمْوَالِ أَوِ الْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ ، فَسُلِبُوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتِلْكَ الْحَوَاصِلِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ ، وَالْمَمَالِكِ الْقِبْطِيَّةِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، كَمَا قَالَ وَتَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرِ : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أَيْ : لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَتَبْكِي عَلَى فَقْدِهِمْ ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبَدُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا فَقَدَتْهُمْ ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا أَنْ لَا يُنْظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ ، وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَبَا

الْعَبَّاسِ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَى أَحَدٍ ؟ قَالَ ﷺ : نَعَمْ ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا وَلَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأُغْلِقَ بَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ فَفَقَدَهُ بَكَى عَلَيْهِ ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا وَيَذْكُرُ اللهَ ﷻ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَى اللهِ ﷻ مِنْهُمْ خَيْرٌ ، فَلَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . **وَعَنْهُ أَيْضًا** ﷺ **قَالَ** : كَانَ يُقَالُ تَبْكِي الْأَرْضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَانُوا أَهْوَنَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنْ أَنْ تَبْكِي عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى بِذَلِكَ ، حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ إِهَانَةِ فِرْعَوْنَ وَإِذْلَالِهِ لَهُمْ ، وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْمُهِينَةِ الشَّاقَّةِ . ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أَيْ : مُسْتَكْبِرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص : ٤] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ : سَرِفًا فِي أَمْرِهِ ، سَخِيفُ الرَّأْيِ عَلَى نَفْسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : عَلَى مَنْ هُمْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اُخْتِيرُوا عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ذَلِكَ . **وَكَانَ يُقَالُ** : إِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالِمًا وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أَيْ : أَهْلِ زَمَانِهِ ، ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﷻ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ : ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] أَيْ : فِي زَمَنِهَا ، فَإِنَّ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إِمَّا أَفْضَلُ مِنْهَا أَوْ مُسَاوِيَةٌ لَهَا فِي الْفَضْلِ ، وَكَذَا آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ

---

(١) انظر البخاري (٣٧٦٩) ، ومسلم (٢٤٣١) .

﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : اخْتِبَارٌ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ لِمَنِ اهْتَدَى بِهِ .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالمَعَادَ ، وَأَنَّهُ مَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ المَمَاتِ ، وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ ، وَيَحْتَجُّونَ بِآبَائِهِمُ المَاضِينَ الَّذِينَ ذَهَبُوا فَلَمْ يَرْجِعُوا ، فَإِنْ كَانَ الْبَعْثُ حَقًّا ﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَشُبْهَةٌ فَاسِدَةٌ ، فَإِنَّ المَعَادَ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا بَلْ بَعْدَ انْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَفَرَاغِهَا ، يُعِيدُ اللهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا جَدِيدًا وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودًا يَوْمَ تَكُونُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ ، وَمُتَوَعِّدًا وَمُنْذِرًا لَهُمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، كَمَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ، كَقَوْمِ تُبَّعٍ - وَهُمْ سَبَأٌ - حَيْثُ أَهْلَكَهُمُ اللهُ ﷻ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ ، وَشَرَّدَهُمْ فِي الْبِلَادِ ، وَفَرَّقَهُمْ شَذَرَ مَذَرَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ ، وَهِيَ مُصَدَّرَةٌ بِإِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَعَادِ ، وَكَذَلِكَ هَهُنَا شَبَّهَهُمْ بِأُولَئِكَ ، وَقَدْ كَانُوا عَرَبًا مِنْ قَحْطَانَ ، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ عَرَبٌ مِنْ عَدْنَانَ ، وَقَدْ كَانَتْ حِمْيَرُ - وَهُمْ سَبَأٌ - كُلَّمَا مَلَكَ فِيهِمْ رَجُلٌ سَمَّوْهُ تُبَّعًا ، كَمَا يُقَالُ : كِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ ، وَقَيْصَر لِمَنْ مَلَكَ الرُّومَ ، وَفِرْعَوْنَ لِمَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا ، وَالنَّجَاشِيَّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ الْأَجْنَاسِ .

وَلَكِنِ اتُّفِقَ أَنَّ بَعْضَ تَبَابِعَتِهِمْ خَرَجَ مِنَ الْيَمَنِ وَسَارَ فِي الْبِلَادِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ ، وَاشْتَدَّ مُلْكُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَجَيْشُهُ ، وَاتَّسَعَتْ مَمْلَكَتُهُ وَبِلَادُهُ ، وَكَثُرَتْ رَعَايَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي مَصَّرَ الْحِيرَةَ فَاتَّفَقَ أَنَّهُ مَرَّ بِالمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَرَادَ قِتَالَ أَهْلِهَا فَمَانَعُوهُ وَقَاتَلُوهُ بِالنَّهَارِ ، وَجَعَلُوا يَقْرُونَهُ اللَّيْلَ فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ وَكَفَّ عَنْهُمْ ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودٍ كَانَا قَدْ نَصَحَاهُ وَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُ

لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْبَلْدَةِ ، فَإِنَّهَا مَهَاجِرُ نَبِيٍّ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، فَرَجَعَ عَنْهَا ، وَأَخَذَهُمَا مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ ، فَلَمَّا اجْتَازَ بِمَكَّةَ أَرَادَ هَدْمَ الْكَعْبَةِ فَنَهَيَاهُ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَأَخْبَرَاهُ بِعَظَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَأَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ عَلَى يَدَيْ ذَلِكَ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، فَعَظَّمَهَا وَطَافَ بِهَا ، وَكَسَاهَا الْمُلَاءَ وَالْوَصَائِلَ وَالْحُبُرَ . ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ ، وَدَعَا أَهْلَهَا إِلَى التَّهَوُّدِ مَعَهُ ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ دِينُ مُوسَى ﷺ فِيهِ مَنْ يَكُونُ عَلَى الْهِدَايَةِ قَبْلَ بَعْثَةِ الْمَسِيحِ ﷺ ، فَتَهَوَّدَ مَعَهُ عَامَّةُ أَهْلِ الْيَمَنِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطُولِهَا الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِهِ السِّيرَةِ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ وَتَنْزِيهِهِ نَفْسَهُ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥-١١٦] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :** ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، فَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَيُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : يَجْمَعُهُمْ كُلَّهُمْ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ قَرِيبًا ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١]، وَكَقَوْلِهِ ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠-١١]أَيْ : لَا يَسْأَلُ أَخًا لَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ عِيَانًا .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْصُرُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ ، وَلَا يَأْتِيهِ نَصْرُهُ مِن الخَارِجِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَحْمَةُ اللهِ ﷻ بِخَلْقِهِ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : هُوَ عَزِيزٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ .

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُعَذِّبُ بِهِ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ لِلِقَائِهِ : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ وَالْأَثِيمُ . أَيْ : فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَهُوَ الْكَافِرُ ، **وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ ، وَلَا شَكَّ فِي دُخُولِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ قَالُوا : كَعَكَرِ الزَّيْتِ ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أَيْ : مِنْ حَرَارَتِهَا وَرَدَاءَتِهَا ، ﴿ خُذُوهُ ﴾ أَيْ : الْكَافِرُ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ لِلزَّبَانِيَةِ ﴿ خُذُوهُ ﴾ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ ، ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أَيْ : سُوقُوهُ سَحْبًا وَدَفْعًا فِي ظَهْرِهِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أَيْ : خُذُوهُ فَادْفَعُوهُ . ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَسَطِهَا ، ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج : ١٩-٢٠] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمَلَكَ يَضْرِبُهُ بِمِقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ، فَتَفْتَحُ دِمَاغَهُ ثُمَّ يُصَبُّ الْحَمِيمُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَنْزِلُ فِي بَدَنِهِ ، فَيَسْلُتُ مَا فِي بَطْنِهِ مِنْ أَمْعَائِهِ ، حَتَّى تَمْرُقَ مِنْ كَعْبَيْهِ ، أَعَاذَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أَيْ : قُولُوا لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهَكُّمِ وَالتَّوْبِيخِ . ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣-١٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ - وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ مَثَانِي - فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ: للهِ فِي الدُّنْيَا ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أَيْ: فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْجَنَّةُ قَدْ أَمِنُوا فِيهَا مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحُزْنٍ وَجَزَعٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، وَسَائِرِ الْآفَاتِ وَالْمَصَائِبِ ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾، وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا أُولَئِكَ فِيهِ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، وَشُرْبِ الْحَمِيمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾، وَهُوَ: رَفِيعُ الْحَرِيرِ، كَالْقُمْصَانِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾، وَهُوَ: مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَذَلِكَ كَالرِّيَاشِ، وَمَا يُلْبَسُ عَلَى أَعَالِي الْقُمَاشِ ﴿ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أَيْ: عَلَى السُّرُرِ، لَا يَجْلِسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَظَهْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ. ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أَيْ: هَذَا الْعَطَاءُ مَعَ مَا قَدْ مَنَحْنَاهُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْحِسَانِ الْحُورِ الْعِينِ اللَّاتِي ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾، ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٥٦-٦٠]

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ أُحْضِرَ لَهُمْ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنِ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ بَلْ يُحْضَرُ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا أَرَادُوا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يُؤَكِّدُ النَّفْيَ، فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ،**

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ))(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَا : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا**))(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ قَدْ وَقَاهُمْ ، وَسَلَّمَهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَزَحْزَحَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ ، فَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْمَرْهُوبِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**)) قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ ﷺ : ((**وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**))(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا بِلِسَانِكَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْلَاهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُسَلِّيًا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ ، وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَهُ بِالْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ : ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ ، أَيْ انْتَظِرْ ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ، أَيْ : فَسَيَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ النُّصْرَةُ وَالظَّفَرُ وَعُلُوُّ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلِإِخْوَانِكَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١-٥٢]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدُّخَانِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) صحيح : وقد تقدم في سورة مريم .
(٢) مسلم (٢٨٣٧) .
(٣) البخاري (٦٤٦٧) .

تفسير سورة الجاثية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يُرْشِدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آلَائِهِ وَنِعَمِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَالدَّوَابِّ وَالطُّيُورِ وَالْوُحُوشِ وَالسِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي تَعَاقُبِهِمَا دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، هَذَا بِظَلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَسَمَّاهُ رِزْقًا ؛ لِأَنَّ بِهِ يَحْصُلُ الرِّزْقُ ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أَيْ : بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ . ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أَيْ : جَنُوبًا ، وَشِمَالًا ، وَدَبُورًا وَصَبًا ، بَرِّيَّةً وَبَحْرِيَّةً ، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلِّقَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يُنْتِجُ ، **وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوَّلًا** : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ثُمَّ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ ، ثُمَّ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ ، وَهُوَ تَرَقٍّ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى . هَذِهِ الْآيَاتُ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ ((الْبَقَرَةِ)) ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤]

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذِهِ آيَاتُ الله يَعْنِي الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : مُتَضَمِّنَةٌ الْحَقَّ مِنَ الْحَقِّ ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَنْقَادُونَ لَهَا ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟! **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :** ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : أَفَّاكٍ فِي قَوْلِهِ كَذَّابٍ ، حَلَّافٍ مَهِينٍ ، أَثِيمٍ فِي فِعْلِهِ وَقَلْبِهِ ، كَافِرٍ بِآيَاتِ الله ، **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ :تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أَيْ : عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فَأَخْبِرْهُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ الله تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أَيْ : إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا وَهُزُوًا ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ ؛ وَلِهَذَا رَوَى مُسْلِمٌ[1] فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : **نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُسَافِرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ .**

ثُمَّ فَسَّرَ الْعَذَابُ الْحَاصِلُ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ **فَقَالَ :** ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : وَلَا تُغْنِي عَنْهُمُ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ الله شَيْئًا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا هُدًى ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ

(١) مسلم (١٨٦٩) ، وأخرجه البخاري (٢٩٩٠) ، وليس فيه ((مخافة أن يناله العدو)) .

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ ، وَهُوَ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾ ، وَهِيَ السُّفُنُ فِيهِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، أَيْ : عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْآفَاقِ الْقَاصِيَةِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ ، وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ ، أَيْ : الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَذَى مِنْهُمْ ، وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالتَّأْلِيفِ لَهُمْ ، ثُمَّ لَمَّا أَصَرُّوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ . هَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ لَا يَنَالُونَ نِعَمَ اللهِ تَعَالَى ، ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ ﷻ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُعْرَضُونَ

بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ ، فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَجَعْلُهُ الْمُلْكَ فِيهِمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : فِي زَمَانِهِمْ ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : حُجَجًا وَبَرَاهِينَ وَأَدِلَّةً قَاطِعَاتٍ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ ، وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَسْلُكَ مَسْلَكَهُمْ ، وَأَنْ تَقْصِدَ مَنْهَجَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا** : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : وَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ وِلَايَتُهُمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا خَسَارًا وَدَمَارًا وَهَلَاكًا ، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وَهُوَ تَعَالَى يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ هَٰذَا

بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]، **وَقَالَ هَاهُنَا**: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ: عَمِلُوهَا وَكَسَبُوهَا ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أَيْ: نُسَاوِيهِمْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ: سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَنْ نُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ.

عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، **وَقَالَ** ﷻ: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ: بِالْعَدْلِ، ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَأْتَمِرُ بِهَوَاهُ، فَمَهْمَا رَآهُ حَسَنًا فَعَلَهُ، وَمَهْمَا رَآهُ قَبِيحًا تَرَكَهُ، وَهَذَا قَدْ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِالتَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ الْعَقْلِيَّيْنِ. **وَعَنْ مَالِكٍ** - فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ مِنَ التَّفْسِيرِ - لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا عَبَدَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ يُحْتَمَلُ قَوْلَيْنِ: **أَحَدُهُمَا**: وَأَضَلَّهُ اللهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، **وَالْآخَرُ**: وَأَضَلَّهُ اللهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ،

وَالثَّانِي : يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ، وَلَا يَنْعَكِسُ ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أَيْ : فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْفَعُهُ ، وَلَا يَعِي شَيْئًا يَهْتَدِي بِهِ ، وَلَا يَرَى حُجَّةً يَسْتَضِيءُ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٦]

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أَيْ : مَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ ، يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَعِيشُ آخَرُونَ ، وَمَا ثَمَّ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ . وَهَذَا يَقُولُهُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الْمُنْكِرُونَ الْمَعَادَ ، وَيَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الْإِلَهِيُّونَ مِنْهُمْ ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ الْبُدَاءَةَ وَالرَّجْعَةَ ، وَيَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الدَّهْرِيَّةُ الدَّوْرِيَّةُ الْمُنْكِرُونَ لِلصَّانِعِ ، الْمُعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي كُلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا قَدْ تَكَرَّرَ مَرَّاتٍ لَا تَتَنَاهَى ، فَكَابَرُوا الْعُقُولَ وَكَذَّبُوا الْمَنْقُولَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أَيْ : يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ .

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ صَاحِبَا الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَقُولُ تَعَالَى : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ » ، وَفِي رِوَايَةٍ « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ »[1].

قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا

---

(١) البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) .

الدَّهر ، **فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ** » كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ نَكْبَةٌ ، قَالُوا : يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ . فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ وَيَسُبُّونَهُ ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا هُوَ اللهُ تَعَالَى ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللهَ ﷻ ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلِهَذَا نَهَى عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا الاعْتِبَارِ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَعْنُونَهُ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالَ ، هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، **وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدِّهِمُ الدَّهْرَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَخْذًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ .**

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفَرُّقِهَا ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : أَحْيُوهُمْ إِنْ كَانَ مَا تَقُولُونَهُ حَقًّا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَيْ : كَمَا تُشَاهِدُونَ ذَلِكَ ، يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] أَيْ : الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا : ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ [التغابن : ٩] ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ [المرسلات : ١٢-١٣] ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ ، وَيَسْتَبْعِدُونَ قِيَامَ الْأَجْسَادِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج : ٦-٧] أَيْ : يَرَوْنَ وُقُوعَهُ بَعِيدًا وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ ذَلِكَ سَهْلًا قَرِيبًا .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ

تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِالله الْجَاحِدُونَ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أَيْ : عَلَى رُكَبِهَا مِنَ الشِّدَّةِ وَالْعَظَمَةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ هَذَا إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام ، وَيَقُولُ : **نَفْسِي ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي . وَحَتَّى أَنَّ عِيسَى** عليه السلام **لَيَقُولُ : لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي ، لَا أَسْأَلُكَ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدَتْنِي**[1].

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ يَعْنِي : كِتَابَ أَعْمَالِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : تُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٣-١٥] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

(١) سبق كلُّ ذلك في حديث الشفاعة الطويل .

فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ ، وَهِيَ الْجَنَّةُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[1] « **أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي ، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ** » ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : أَمَا قُرِئَتْ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ تَعَالَى فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهَا ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ؟ ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : فِي أَفْعَالِكُمْ ، مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ ؟. ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أَيْ : إِذَا قَالَ لَكُمُ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ : لَا نَعْرِفُهَا ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أَيْ :إِنْ نَتَوَهَّمُ وُقُوعَهَا إِلَّا تَوَهُّمًا ، أَيْ مَرْجُوحًا ؛ **وَلِهَذَا قَالُوا** ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أَيْ : بِمُتَحَقِّقِينَ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ : وَظَهَرَ لَهُمْ عُقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أَيْ : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : نُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي

(١) البخاري (٤٨٥٠) .

لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ أَيْ : فَلَمْ تَعْمَلُوا لَهُ لأَنَّكُمْ لَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ، ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِبَعْضِ الْعَبِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ((**أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟! فَيَقُولُ : بَلَى ، يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ ؟ فَيَقُولُ : لَا . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**))[1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَازَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ لأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ حُجَجَ اللهِ عَلَيْكُمْ سِخْرِيًّا ، تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : خَدَعَتْكُمْ فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : مِنَ النَّارِ ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى ، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِتَابٍ ، كَمَا تَدْخُلُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ .

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ قَالَ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْمَالِكُ لَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : السُّلْطَانُ ، أَيْ : هُوَ الْعَظِيمُ الْمُمَجَّدُ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : الْعَظَمَةُ إِزَارِي ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَسْكَنْتُهُ نَارِي**))[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) مسلم (٢٩٦٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) ، ولفظه قال رسول الله ﷺ : ((الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ)) .

تفسير سورة الأحقاف
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: وَإِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مَضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ أَيْ: لَاهُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَيْ: وَسَيَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَيْ: لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَرْشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أَيْ: وَلَا شِرْكَ لَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، إِنِ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ كُلُّهُ إِلَّا للهِ ﷻ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ؟ مَنْ أَرْشَدَكُمْ إِلَى هَذَا؟ مَنْ

دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ؟ أَهُوَ أَمَرَكُمْ بِهِ ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ ﴾ أَيْ : هَاتُوا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ﴿ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى هَذَا الْمَسْلَكِ الَّذِي سَلَكْتُمُوهُ ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا نَقْلِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ : « أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ » أَيْ : أَوْ عِلْمٍ صَحِيحٍ يَأْثُرُونَهُ عَنْ أَحَدٍ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أَوْ أَحَدٌ يَأْثُرُ عِلْمًا . وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ : أَوْ بَقِيَّةٌ مِنْ عِلْمٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ خَاصَّةً مِنْ عِلْمٍ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ وَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ أَيْ : لَا أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ أَصْنَامًا ، وَيَطْلُبُ مِنْهَا مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَبْطِشُ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ ، حِجَارَةٌ صُمٌّ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢] أَيْ : سَيَخُونُونَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ الْخَلِيلُ ﵇ : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥]

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩

يَقُولَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ : أَنَّهُمْ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ بَيِّنَاتٌ ، أَيْ : فِي حَالِ بَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا وَجَلَائِهَا ، يَقُولُونَ : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : سِحْرٌ وَاضِحٌ ، وَقَدْ كَذَبُوا ، وَافْتَرَوْا ، وَضَلُّوا ، وَكَفَرُوا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يَعْنُونَ : مُحَمَّدًا ﷺ . قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَوْ كَذَبْتُ عَلَيْهِ وَزَعَمْتُ أَنَّهُ أَرْسَلَنِي - وَلَيْسَ كَذَلِكَ - لَعَاقَبَنِي أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، لَا أَنْتُمْ وَلَا غَيْرُكُمْ ، أَنْ يُجِيرَنِي مِنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن : ٢٢-٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَتَرْهِيبٌ شَدِيدٌ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ إِنْ رَجَعْتُمْ وَتُبْتُمْ تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، وَغَفَرَ وَرَحِمَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﷻ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥-٦]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ ، بَلْ قَدْ جَاءَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِي ، فَمَا أَنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ حَتَّى تَسْتَنْكِرُونِي وَتَسْتَبْعِدُونَ بَعْثَتِي إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا قَبْلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ أَيْ : مَا أَدْرِي بِمَاذَا أُومَرُ وَبِمَاذَا أُنْهَى

بَعْدَ هَذَا ؟. **وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ قَالَ : أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَمَعَاذَ اللهُ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَلَكِنْ قَالَ : لَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، أُخْرَجُ كَمَا أُخْرِجَتِ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ قَبْلِي ؟ أَمْ أُقْتَلُ كَمَا قُتِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَلَا أَدْرِي أَيُخْسَفُ بِكُمْ أَوْ تُرْمَوْنَ بِالْحِجَارَةِ ؟. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ اِبْنُ جَرِيرٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ جَازِمٌ أَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ هُوَ وَمَنِ اتَّبَعَهُ ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَدْرِ مَا كَانَ يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَأَمْرُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ إِلَى مَاذَا ؟ أَيُؤْمِنُونَ أَمْ يَكْفُرُونَ فَيُعَذَّبُونَ فَيُسْتَأْصَلُونَ بِكُفْرِهِمْ ؟ فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] : عَنْ أُمِّ العَلَاءِ - وَكَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ - قَالَتْ : طَارَ لَهُمْ فِي السُّكْنَى - حِينَ اقْتَرَعَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ - عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونَ ، فَاشْتَكَى عُثْمَانُ عِنْدَنَا فَمَرَّضْنَاهُ ، حَتَّى إِذَا تُوُفِّيَ أَدْرَجْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ؛ شَهَادَتِي عَلَيْكَ ، لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ ﷻ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَكْرَمَهُ ؟** » فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ، وَاللهِ مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللهِ - مَا يُفْعَلُ بِي** » قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا ، وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ ، فَنِمْتُ فَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ذَاكَ عَمَلُهُ** » .

فَقَدِ انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ : « **مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا يُفْعَلُ بِهِ** » ، وَهَذَا أَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَحْفُوظُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهَا : فَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ ، وَفِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُقْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بِالْجَنَّةِ إِلَّا الَّذِي نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى تَعْيِينِهِمْ ، كَالْعَشَرَةِ ، وَابْنِ سَلَامٍ ، وَالْغُمَيْصَاءِ ، وَبِلَالٍ ، وَسُرَاقَةَ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ وَالِدِ جَابِرٍ ، وَالْقُرَّاءِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَجَعْفَرَ ، وَابْنِ رَوَاحَةَ ، وَمَا أَشْبَهَ هَؤُلَاءِ .

---

(١) البخاري (١٢٤٣) ، وأحمد (٦/ ٤٣٦) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُنَزِّلُهُ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : بَيِّنُ النِّذَارَةِ ، أَمْرِي ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ؛ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّ اللهَ صَانِعٌ بِكُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ لِأُبَلِّغَكُمُوهُ ، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكَذَّبْتُمُوهُ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَقَدْ شَهِدَتْ بِصِدْقِهِ وَصِحَّتِهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، بَشَّرَتْ بِهِ وَأَخْبَرَتْ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ هَذَا الْقُرْآنُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَـَٔامَنَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَقِّيَّتِهِ ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أَنْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، **وَقَالَ مَسْرُوقٌ** : فَآمَنَ هَذَا الشَّاهِدُ بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ ، وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا الشَّاهِدُ اسْمُ جِنْسٍ يَعُمُّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ وَغَيْرَهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٣] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧- ١٠٨] **قَالَ مَسْرُوقٌ وَالشَّعْبِيُّ** : لَيْسَ بِعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ ، هَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَإِسْلَامُ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ كَانَ بِالْمَدِينَةِ .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ **قَالَ**[١] : مَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ : ((**إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)) إِلَّا لِعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ ﷺ ، قَالَ : وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : قَالُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ ، يَعْنُونَ : بِلَالًا وَعَمَّارًا وَصُهَيْبًا وَخَبَّابًا ﷺ ، وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَضْرَابَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ - عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ - يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ الله وَجَاهَةً ، وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ . وَقَدْ غَلِطُوا فِي ذَلِكَ غَلَطًا فَاحِشًا ، وَأَخْطَئُوا خَطَأً بَيِّنًا ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام : ٥٣] أَيْ : يَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ اهْتَدَى هَؤُلَاءِ دُونَنَا ؛ **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ، وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ هُوَ بِدْعَةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْقُرْآنِ ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ ﴾ أَيْ : كَذِبٌ ﴿ قَدِيمٌ ﴾ أَيْ : مَأْثُورٌ عَنِ النَّاسِ الْأَقْدَمِينَ ، فَيَنْتَقِصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ الَّذِي قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ**))[٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ أَيْ : لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا ، ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : مُشْتَمِلٌ عَلَى النِّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ .

---

(١) البخاري (٣٨١٢) ، ومسلم (٢٤٨٣) .

(٢) مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ « حم السَّجْدَة » ، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، عَلَى مَا خَلَّفُوا ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : الْأَعْمَالُ سَبَبٌ لِنَيْلِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَسُبُوغِهَا عَلَيْهِمْ .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى التَّوْحِيدَ لَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ إِلَيْهِ ، عَطَفَ بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ ، كَمَا هُوَ مَقْرُونٌ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ . وَقَالَ ﷻ هَاهُنَا : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ[1] : قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ لِسَعْدٍ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ ، فَلَا آكُلُ طَعَامًا ، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى تَكْفُرَ بِاللهِ تَعَالَى ، فَامْتَنَعَتْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حَتَّى جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاهَا بِالْعَصَا ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ الْآيَةَ .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ أَيْ : قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا ، مِنْ وَحَامٍ وَغَثَيَانٍ وَثِقَلٍ وَكَرْبٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ ﴿ وَوَضَعَتْهُ

---

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٢٨-٢٩) في سعد بن أبي وقاص ﷺ ، ونحوه عند مسلم (١٧٤٨) في فضائل الصحابة ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ .

كُرْهًا ﴾ أَيْ : بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلْقِ وَشِدَّتِهِ ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ . وَقَدِ اِسْتَدَلَّ عَلِيٌّ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لُقْمَانَ : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : ١٤] ، وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] عَلَى أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ اِسْتِنْبَاطٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أَيْ : قَوِيَ وَشَبَّ وَارْتَجَلَ ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أَيْ : تَنَاهَى عَقْلُهُ وَكَمُلَ فَهْمُهُ وَحِلْمُهُ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ غَالِبًا عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ اِبْنُ الْأَرْبَعِينَ . ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ أَيْ : أَلْهِمْنِي ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أَيْ : فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ أَيْ : نَسْلِي وَعَقِبِي ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وَهَذَا فِيهِ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللهِ ﷻ وَيَعْزِمَ عَلَيْهَا . **قَالَ اللهُ** ﷻ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا ، التَّائِبُونَ إِلَى اللهِ الْمُنِيبُونَ إِلَيْهِ ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا فَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، هُمُ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَيُغْفَرُ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ ، وَنَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : هُمْ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، كَمَا وَعَدَ اللهُ ﷻ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِّينَ بِهِمَا وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ، عَطَفَ بِحَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْعَاقِّينَ لِلْوَالِدَيْنِ، **فَقَالَ**: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ زَمَانِهِ.

عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ[1] **قَالَ**: كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَخَطَبَ وَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾، فَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عُذْرِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أَيْ: أُبْعَثُ ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ أَيْ: قَدْ مَضَى النَّاسُ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ: يَسْأَلَانِ اللهَ فِيهِ أَنْ يَهْدِيَهُ، وَيَقُولَانِ لِوَلَدِهِمَا ﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ: دَخَلُوا فِي زُمْرَةِ أَشْبَاهِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ جِنْسٌ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ: لِكُلٍّ عَذَابٌ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ: لَا يَظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا،

---

(١) البخاري (٤٨٢٧).

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : دَرَجَاتُ النَّارِ تَذْهَبُ سَفَالًا وَدَرَجَاتُ الْجَنَّةِ تَذْهَبُ عُلُوًّا .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، وَقَدْ تَوَرَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ طَيِّبَاتِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْهَا وَيَقُولُ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَقَرَّعَهُمْ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ، وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ : لَيَفْقِدَنَّ أَقْوَامٌ حَسَنَاتٍ كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَيُقَالُ لَهُمْ ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ ، فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، فَكَمَا مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَتَعَاطَوُا الْفِسْقَ وَالْمَعَاصِيَ ، جَازَاهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعَذَابِ الْهُونِ ، وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالْخِزْيُ وَالْآلَامُ الْمُوجِعَةُ ، وَالْحَسَرَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ ، وَالْمَنَازِلُ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُفْظِعَةِ أَجَارَنَا اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ وَهُوَ هُودٌ ﷺ بَعَثَهُ اللهُ ﷻ إِلَى عَادٍ الْأُولَى ، ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ – جَمْعُ حِقْفٍ وَهُوَ : الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ – قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ :

الْأَحْقَافُ : الْجَبَلُ وَالْغَارُ ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ يَعْنِي : وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ [البقرة : ٦٦] ، وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [فصلت : ١٣ - ١٤]

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : قَالَ لَهُمْ هُودٌ ذَلِكَ ، فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أَيْ : لِتَصُدَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ الله وَعُقُوبَتَهُ ، اِسْتِبْعَادًا مِنْهُمْ وُقُوعَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨]

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اللهُ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ فَسَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أَيْ : لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ ، اِعْتَقَدُوا أَنَّهُ عَارِضٌ مُمْطِرٌ ، فَفَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَقَدْ كَانُوا مُمْحِلِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى الْمَطَرِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي قُلْتُمْ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أَيْ : تُخَرِّبُ ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ بِلَادِهِمْ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْخَرَابُ ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : بِإِذْنِ الله لَهَا فِي ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات ٤٢] أَيْ : كَالشَّيْءِ الْبَالِي .

وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ بَادُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُنَا فِيمَنْ كَذَّبَ رُسُلَنَا ، وَخَالَفَ أَمْرَنَا .

عَنْ عَائِشَةَ[1] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ** : مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا

(١) البخاري (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) ، أحمد (٦/ ٦٦) .

ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ ، وَقَالَتْ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا - أَوْ رِيحًا - عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**يَا عَائِشَةُ ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**)) .

وَعَنْ عَائِشَةَ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ : ((**اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**)) قَالَتْ : وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، فَإِذَا أَمْطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَسَأَلَتْهُ ، فَقَالَ : ((**لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ** : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ مَكَّنَّا الأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ ، أَيْ : فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ،

(١) مسلم (٨٩٩) .

فَيُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ، قَدْ أَهْلَكَ اللهُ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ بِالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَادٍ ، وَكَانُوا بِالْأَحْقَافِ بِحَضْرَمَوْتَ عِنْدَ الْيَمَنِ ، وَثَمُودَ وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ ، وَكَذَلِكَ سَبَأٌ وَهُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ ، وَمَدْيَنُ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرُّهُمْ إِلَى غَزَّةَ ، وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ ، كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا أَيْضًا ، ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهَا وَأَوْضَحْنَاهَا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾ أَيْ : فَهَلْ نَصَرُوهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ ؟ ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : بَلْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أَيْ : كَذِبُهُمْ ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : وَافْتِرَاؤُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ آلِهَةً ، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝

عَنِ الزُّبَيْرِ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ قَالَ : بِنَخْلَةَ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] **قَالَ سُفْيَانُ** : أَلْبَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَاللِّبَدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ[1] : مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ

(١) البخاري (حديث ٧٧٣) ، ومسلم (٤٤٩) .

إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ . قَالُوا : مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَبْتَغُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدًا إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١-٢] ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن : ١] ، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[١] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ الْجِنُّ يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا ، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا وَمَا زَادُوا بَاطِلًا ، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلَّا رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ ، فَبَثَّ جُنُودَهُ ، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ[٢] : هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِبَطْنِ نَخْلَةَ ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ قَالَ : صَه ، وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إِلَى ﴿ ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

فَهَذَا مَعَ الْأَوَّلِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - يَقْتَضِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَشْعُرْ بِحُضُورِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، وَإِنَّمَا اسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَدُوا إِلَيْهِ أَرْسَالًا قَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ ، وَفَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ ، كَمَا سَتَأْتِي بِذَلِكَ

---

(١) **إسناده صحيح** : أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤) .
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٦) .

الْأَخْبَارُ فِي مَوْضِعِهَا ، وَالْآثَارُ مِمَّا سَنُورِدُهَا هَهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ .

فَأَمَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ جَمِيعًا[1] ، عَنْ مَعْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ ، سَأَلْتُ مَسْرُوقًا : مَنْ آذَنَ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ ؟ فَقَالَ : حَدَّثَنِي أَبُوكَ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ - أَنَّهُ آذَنَتْهُ بِهِمْ شَجَرَةٌ . فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، وَيَكُونُ إِثْبَاتًا مُقَدَّمًا عَلَى نَفْيِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأُولَى ، وَلَكِنْ لَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ حَالَ اسْتِمَاعِهِمْ حَتَّى آذَنَتْهُ بِهِمُ الشَّجَرَةُ ، أَيْ : أَعْلَمَتْهُ بِاجْتِمَاعِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي بَعْضِ الْمَرَّاتِ الْمُتَأَخِّرَاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ : وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - إِنَّمَا هُوَ أَوَّلُ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَعَلِمَتْ حَالَهُ ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَرَهُمْ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ، كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ .

ذِكْرُ الرِّوَايَةِ عَنْهُ بِذَلِكَ

ذَكَرَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ عَامِرٍ قَالَ[2] : سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ : هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ ؟ قَالَ : فَقَالَ عَلْقَمَةُ : أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ ، فَقُلْتُ : هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَفَقَدْنَاهُ ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ ، فَقِيلَ : اسْتُطِيرَ ؟ اغْتِيلَ ؟ قَالَ : فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاء قَالَ : فَقُلْنَا : يارَسُولَ اللهِ ؛ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَقَالَ : « **أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ ، فَذَهَبْتُ مَعَهُمْ ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ** » قَالَ : فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ : « **كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ** »

---

(١) البخاري (حديث ٣٨٥٩) ، ومسلم (٤٥٠) .

(٢) أحمد في المسند (١/ ٤٣٦) ، ومسلم (٤٥٠) .

قَالَ : رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ** » .

فَهَذِهِ الطُّرُقُ[1] كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ ذَهَبَ إِلَى الْجِنِّ قَصْدًا ، فَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَشَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَا هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَمِعُوهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَدُوا إِلَيْهِ ، كَمَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ ، وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَالَ مُخَاطَبَتِهِ الْجِنَّ وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ سِوَاهُ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَشْهَدْ حَالَ الْمُخَاطَبَةِ ، هَذِهِ طَرِيقَةُ الْبَيْهَقِيِّ . وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَرَّةٍ خَرَجَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَلَا غَيْرُهُ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ سِيَاقِ الرِّوَايَةِ الْأُولَى مِنْ طَرِيقِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، وَهِيَ عِنْدَ مُسْلِمٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِإِدَاوَةٍ لِوُضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَأَدْرَكَهُ يَوْمًا فَقَالَ : « **مَنْ هَذَا ؟** » قَالَ : أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ . قَالَ ﷺ : « **اِئْتِنِي بِأَحْجَارٍ أَسْتَنْجِ بِهَا ، وَلَا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلَا رَوْثَةٍ** » فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ فِي ثَوْبِي فَوَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَقَامَ اتَّبَعْتُهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ ؟ قَالَ ﷺ : « **أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ ، فَدَعَوْتُ اللهَ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِرَوْثَةٍ وَلَا عَظْمٍ إِلَّا وَجَدُوهُ طَعَامًا** » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ[3] – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ مَا سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ لِشَيْءٍ قَطُّ : إِنِّي لَأَظُنُّهُ هَكَذَا ، إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ ، بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ ، فَقَالَ : لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ ، عَلَيَّ بِالرَّجُلِ ، فَدُعِيَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اُسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ . قَالَ : فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي . قَالَ : كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ : فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ ؟ . قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا

---

(١) أورد الحافظ ابن كثير – قَبْلُ – طائفة من الأحاديث والطرق تم حذفها لأن في سند أغلبها مقال .
(٢) البخاري (٣٨٦٠) .
(٣) البخاري (٣٨٦٦) .

فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ ، فَقَالَتْ : أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا ، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا ، وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا . قَالَ عُمَرُ ﷺ : صَدَقَ ، بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ ، لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ ، يَقُولُ : يَا جَلِيحْ ، أَمْرٌ نَجِيحْ ، رَجُلٌ فَصِيحْ ، يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . قَالَ : فَوَثَبَ الْقَوْمُ فَقُلْتُ : لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا ؟ ثُمَّ نَادَى : يَا جَلِيحْ ؛ أَمْرٌ نَجِيحْ ، رَجُل فَصِيحْ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَقُمْتُ ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ : هَذَا نَبِيٌّ . هَذَا سِيَاقُ الْبُخَارِيِّ ، وَقَدْ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِنَحْوِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَظَاهِرُ هَذِهِ الرِّوَايَةِ يُوهِمُ أَنَّ عُمَرَ ﷺ بِنَفْسِهِ سَمِعَ الصَّارِخَ يَصْرُخُ مِنَ الْعِجْلِ الَّذِي ذُبِحَ ، وَكَذَلِكَ هُوَ صَرِيحٌ فِي رِوَايَةٍ ضَعِيفَةٍ عَنْ عُمَرَ ﷺ فِي إِسْلَامِهِ ، وَسَائِرِ الرِّوَايَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكَاهِنَ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ بِذَلِكَ عَنْ رُؤْيَتِهِ وَسَمَاعِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْبَيْهَقِيُّ هُوَ الْمُتَّجَهُ ، وَهَذَا الرَّجُلُ هُوَ سَوَادُ بْن قَارِبٍ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذَا مُسْتَقْصًى فِي سِيرَةِ عُمَرَ ﷺ فَمَنْ أَرَادَهُ فَلْيَأْخُذْهُ مِنْ ثَمَّ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّة .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أَيْ : طَائِفَةً مِنَ الْجِنِّ ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ أَيْ : اِسْتَمِعُوا وَهَذَا أَدَبٌ مِنْهُمْ . ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أَيْ : فَرَغَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ [الجمعة : ١٠] ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠٠]

﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أَيْ : رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، **وَقَدِ اُسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجِنِّ نُذُرٌ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رُسُلٌ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِنَّ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ رَسُولًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت :٢٧] ، فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ

فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَسُلَالَتِهِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَنْعَامِ ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، فَالْمُرَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الْجِنْسَيْنِ ، فَيَصْدُقُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَهُوَ الْإِنْسُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٢٢] أَيْ : أَحَدِهِمَا ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فَسَّرَ إِنْذَارَ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى ؛ لِأَنَّ عِيسَى عليه السلام أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْقِيقَاتٌ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمُتَمِّمِ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ ، فَالْعُمْدَةُ هُوَ التَّوْرَاةُ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ، وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، حِينَ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ نُزُولِ جِبْرِيلَ عليه السلام أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ : بَخٍ بَخٍ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهَا جَذَعًا[١].

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : فِي الِاعْتِقَادِ وَالْإِخْبَارِ ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فِي الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْئَيْنِ : خَبَرٌ وَطَلَبٌ ، فَخَبَرُهُ صِدْقٌ ، وَطَلَبُهُ عَدْلٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، فَالْهُدَى : هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَدِينُ الْحَقِّ : هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، **وَلِهَذَا قَالَتِ الْجِنُّ** : ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ فِي الِاعْتِقَادَاتِ ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الْعَمَلِيَّاتِ .

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ السُّورَةَ الَّتِي فِيهَا خِطَابُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَكْلِيفُهُمْ وَوَعْدُهُمْ وَوَعِيدُهُمْ ، وَهِيَ « سُورَةُ الرَّحْمَنِ » ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّ « مِنْ » هَهُنَا زَائِدَةٌ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ ، **وَقِيلَ** : إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا لِلتَّبْعِيضِ ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(١) البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) .

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : وَيَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيم .

مَسْأَلَة

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْجِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَإِنَّمَا جَزَاءُ صَالِحِيهِمْ أَنْ يُجَارُوا مِنْ عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالُوا هَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَهُوَ مَقَامُ تَبَجُّحٍ وَمُبَالَغَةٍ ، فَلَوْ كَانَ لَهُمْ جَزَاءٌ عَلَى الْإِيمَانِ أَعْلَى مِنْ هَذَا لَأَوْشَكَ أَنْ يَذْكُرُوهُ . وَالْحَقُّ أَنَّ مُؤْمِنِيهِمْ كَمُؤْمِنِي الْإِنْسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ لِهَذَا بِقَوْلِهِ ﷺ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٧٤] ، وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ نَظَرٌ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦-٤٧] ، فَقَدِ امْتَنَّ تَعَالَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِأَنْ جَعَلَ جَزَاءَ مُحْسِنِهِمُ الْجَنَّةَ ، وَقَدْ قَابَلَتِ الْجِنُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِالشُّكْرِ الْقَوْلِيِّ أَبْلَغَ مِنَ الْإِنْسِ ، فَقَالُوا : « **وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ** » ، فَلَمْ يَكُنْ تَعَالَى لِيَمْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِجَزَاءٍ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُجَازِي كَافِرَهُمْ بِالنَّارِ - وَهُوَ مَقَامُ عَدْلٍ - فَلَأَنْ يُجَازِيَ مُؤْمِنَهُمْ بِالْجَنَّةِ - وَهُوَ مَقَامُ فَضْلٍ - بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

وَمِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَقَدْ أَفْرَدْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي جُزْءٍ عَلَى حِدَةٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَهَذِهِ الْجَنَّةُ لَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئُ اللهُ تَعَالَى لَهَا خَلْقًا ، أَفَلَا يَسْكُنُهَا مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ لَهُ صَالِحًا ؟ وَمَا ذَكَرُوهُ هَهُنَا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ وَالْإِجَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، هُوَ يَسْتَلْزِمُ دُخُولَ الْجَنَّةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ ، فَمَنْ أُجِيرَ مِنَ النَّارِ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَا مَحَالَةَ ، وَلَمْ يَرِدْ مَعَنَا نَصٌّ صَرِيحٌ وَلَا ظَاهِرٌ عَنِ الشَّارِعِ أَنَّ مُؤْمِنِي الْجِنِّ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَإِنْ أُجِيرُوا مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ صَحَّ لَقُلْنَا بِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَهَذَا نُوحٌ ﷺ يَقُولُ لِقَوْمِهِ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[نوح : ٤] ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُؤْمِنِي قَوْمِهِ فِي الْجَنَّةِ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ .

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَلْ قُدْرَةُ الله شَامِلَةٌ لَهُ وَمُحِيطَةٌ بِهِ ، ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وَهَذَا مَقَامُ تَهْدِيدٍ وَتَرْهِيبٍ ، فَدَعَوْا قَوْمَهُمْ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَلِهَذَا نَجَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وُفُودًا وُفُودًا ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَلله الْحَمْدُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي : هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَكْرِثْهُ خَلْقُهُنَّ ، بَلْ قَالَ لَهَا : ((كُونِي)) فَكَانَتْ ، بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُخَالَفَةٍ ، بَلْ طَائِعَةً مُجِيبَةً خَائِفَةً وَجِلَةً ، أَفَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى ؟ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر : ٥٧] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ : أَمَا هَذَا حَقٌّ ؟ أَفَسِحْرٌ هَذَا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أَيْ : لَا يَسَعُهُمْ إِلَّا الِاعْتِرَافُ ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أَيْ : عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي تَعْدَادِ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى أَقْوَالٍ ، وَأَشْهَرُهَا أَنَّهُمْ : نُوحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَسْمَائِهِمْ مِنْ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَتَي « الْأَحْزَابِ » وَ « الشُّورَى » ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأُولِي الْعَزْمِ جَمِيعَ الرُّسُلِ ، فَتَكُونُ « مِنْ » فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : ١١] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٧]

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ :** يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : وَذَلِكَ لُبْثٌ بَلَاغٍ ، وَآخَرُ : أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ : هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ . وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ ﷻ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورَةِ مُحمدٍ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : بِآيَاتِ الله ﴿ وَصَدُّواْ ﴾ غَيْرَهُمْ ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْطَلَهَا وَأَذْهَبَهَا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا ثَوَابًا ، وَلَا جَزَاءً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ ، وَانْقَادَتْ لِشَرْعِ الله جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ، ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ عَطْفُ خَاصٍّ عَلَى عَامٍّ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ بَعْثَتِهِ ﷺ ، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ حَسَنَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْرَهُمْ ، وَقِيلَ : شَأْنَهُمْ ، وَقِيلَ : حَالَهُمْ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ ((**يَهْدِيكُمُ اللهُ ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**))[1].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبْطَلْنَا أَعْمَالَ الْكُفَّارِ ، وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الْأَبْرَارِ ، وَأَصْلَحْنَا شُؤُونَهُمْ ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، أَيْ : اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ لَهُمْ مَآلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ .

---

(١) البخاري (٦٢٢٤) .

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أَيْ : إِذَا وَاجَهْتُمُوهُمْ فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا بِالسُّيُوفِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أَيْ : أَهْلَكْتُمُوهُمْ قَتْلًا ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ الْأُسَارَى الَّذِينَ تَأْسِرُونَهُمْ ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ وَانْفِصَالِ الْمَعْرَكَةِ مُخَيَّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ إِنْ شِئْتُمْ مَنَنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَأَطْلَقْتُمْ أُسَارَاهُمْ مَجَّانًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ بِمَالٍ تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتُشَاطِرُونَهُمْ عَلَيْهِ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَاتَبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأُسَارَى يَوْمَئِذٍ لِيَأْخُذُوا مِنْهُمُ الْفِدَاءَ ، وَالتَّقْلِيلُ مِنَ الْقَتْلِ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧-٦٨] ، ثُمَّ قَدِ ادَّعَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْمُخَيِّرَةَ بَيْنَ مُفَادَاةِ الْأَسِيرِ وَالْمَنِّ عَلَيْهِ مَنْسُوخَةٌ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] ، **وَقَالَ الْآخَرُونَ - وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ -**: لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ ، ثُمَّ قَالَ **بَعْضُهُمْ** : إِنَّمَا الْإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْمَنِّ عَلَى الْأَسِيرِ وَمُفَادَاتِهِ فَقَطْ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ .

وَقَالَ آخَرُونَ : مِنْهُمْ بَلْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ إِنْ شَاءَ ، لِحَدِيثِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ النَّضْرَ بْنَ

الحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ ، **وَقَالَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ**(١) لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ : ((**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟**)) فَقَالَ : إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تَمْنُنْ تَمْنُنْ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ ، فَاسْأَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ . **وَزَادَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ – فَقَالَ** : الإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ قَتْلِهِ أَوِ المَنِّ عَلَيْهِ أَوْ مُفَادَاتِهِ أَوِ اسْتِرْقَاقِهِ أَيْضًا . وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مُحَرَّرَةٌ فِي عِلْمِ الْفُرُوعِ ، وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا ((الأَحْكَام)) ، وَللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : حَتَّى لَا يَبْقَى شِرْكٌ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[البقرة : ١٩٣] ، **ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أَيْ : أَوْزَارَ المُحَارِبِينَ ، وَهُمُ المُشْرِكُونَ ، بِأَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللهِ ﷻ ، **وَقِيلَ** : أَوْزَارُ أَهْلِهَا بِأَنْ يَبْذُلُوا الْوُسْعَ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَانْتَقَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَنَكَالٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ شَرَعَ لَكُمُ الجِهَادَ وَقِتَالَ الأَعْدَاءِ لِيَخْتَبِرَكُمْ ، وَلِيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ، كَمَا ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي شَرْعِيَّةِ الجِهَادِ فِي سُورَتَيْ ((**آلِ عِمْرَانَ**)) وَ ((**بَرَاءَة**)) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَة : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة : ١٤-١٥] ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقِتَالِ أَنْ يُقْتَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، **قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : لَنْ يُذْهِبَهَا بَلْ يُكَثِّرُهَا وَيُنَمِّيهَا وَيُضَاعِفُهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ طُولَ بَرْزَخِهِ ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الحَدِيثُ ، **عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ الْكِنْدِيِّ**(٢)

---

(١) البخاري (٤٣٧٢) ، وانظر أيضا (موارد الظمآن لابن حبان ٢٢٨١) .

(٢)**صحيح** : أخرجه الترمذي (حديث ١٦٦٣) .

ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ : أَنْ يَغْفِرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْقَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الحُورِ الْعِينِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ مُرَصَّعٌ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ الْعِينِ ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ**)) .

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : إِلَى الجَنَّةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

[يونس : ٩]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْرَهُمْ وَحَالَهُمْ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أَيْ : عَرَّفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَهْتَدِي أَهْلُهَا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ ، وَحَيْثُ قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنْهَا ، لَا يُخْطِئُونَ كَأَنَّهُمْ سَاكِنُوهَا مُنْذُ خُلِقُوا ، لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا أَحَدًا ، **وَرَوَى مَالِكٌ** عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ نَحْوَ هَذَا ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : يَعْرِفُونَ بُيُوتَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ ، كَمَا تَعْرِفُونَ بُيُوتَكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنَ الجُمُعَةِ .

وَقَدْ وَرَدَ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ بِذَلِكَ أَيْضًا ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، يَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا**))[2].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج : ٤٠] ، فَإِنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ عَكْسَ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ للهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي

---

(١) مسلم (١٨٨٦) .
(٢) البخاري (٢٤٤٠) .

الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**))[1] ، أَيْ : فَلَا شَفَاهُ اللهُ ﷻ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : أَحْبَطَهَا وَأَبْطَلَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يُحِبُّونَهُ ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ .

۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَاقَبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، أَيْ : وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ[2] رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَلَمْ يُجِبْ ، وَقَالَ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ هَلَكُوا . وَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ الله ، بَلْ أَبْقَى اللهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ ، وَإِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ : أُعْلُ هُبَلْ ، أُعْلُ هُبَلْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**أَلَا تُجِيبُوهُ ؟**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : ((**قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**)) ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَان :

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) انظر البخاري (٤٠٤٣) ، وأحمد (٤/ ٢٩٣) .

لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَلَا تُجِيبُوهُ ؟**)) قَالُوا : وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : ((**قُولُوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**)) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أَيْ : فِي دُنْيَاهُمْ ، يَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا كَأَكْلِ الْأَنْعَامِ ، خَضْمًا وَقَضْمًا ، وَلَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : ((**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**))(١) ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :** ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ جَزَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا كَانَ اللهُ ﷻ قَدْ أَهْلَكَ الْأُمَمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بِسَبَبِهِمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَمَاذَا ظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى ؟ فَإِنْ رَفَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لِبَرَكَةِ وُجُودِ الرَّسُولِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوفَرُ عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ فِي مَعَادِهِمْ ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : ٢٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَخْرَجُوكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْغَارِ أُرَاهُ قَالَ فَالْتَفَتَ إِلَى مَكَّةَ ، وَقَالَ : ((**أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَى اللهِ ، وَأَنْتِ أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخْرَجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكِ**))(٢) فَأَعْدَى الْأَعْدَاءِ مَنْ عَدَا عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي حَرَمِهِ ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ ، أَوْ قَتَلَ بِذُحُولِ(٣) الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ .

---

(١) البخاري (حديث ٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦٠ ، ٢٠٦١) .
(٢) **إسناده** حسن .
(٣) الذحل : الثأر ، يقال طلب بذحله أي بثأره .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ فِي أَمْرِ اللهِ وَدِينِهِ ، بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، وَبِمَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ : لَيْسَ هَذَا كَهَذَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد : ١٩] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : نَعْتُهَا ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ يَعْنِي : غَيْرُ مُتَغَيِّرٍ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ مُنْتِنٍ ، **وَالْعَرَبُ تَقُولُ** : أَسِنَ الْمَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : الصَّافِي الَّذِي لَا كَدَرَ فِيهِ ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ أَيْ : بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالدُّسُومَةِ ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ كَرِيهَةُ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا ، بَلْ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : ٤٧] ، ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٩] ، ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [الصافات : ٤٦] ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أَيْ : وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ ، وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ . وَفِي الصَّحِيحِ : « **إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ تَعَالَى فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ** »[1] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ

---

(١) البخاري (حديث ٢٧٩٠) .

فَاكِهَة آمِنِينَ ﴾ [الدخان : ٥٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَة زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٢]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أَيْ : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مَنْزِلَتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ؟ لَيْسَ هَؤُلَاءِ كَهَؤُلَاءِ ، وَلَيْسَ مَنْ هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أَيْ : حَارًّا شَدِيدَ الْحَرِّ لَا يُسْتَطَاعُ ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ أَيْ : قَطَّعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالْأَحْشَاءِ عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي بَلَادَتِهِمْ وَقِلَّةِ فَهْمِهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا يَجْلِسُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أَيْ : السَّاعَةَ . لَا يَعْقِلُونَ مَا يُقَالُ ، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهُ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَيْ : فَلَا فَهْمٌ صَحِيحٌ ، وَلَا قَصْدٌ صَحِيحٌ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَصَدُوا الْهِدَايَةَ وَفَّقَهُمُ اللهُ - تَعَالَى - لَهَا فَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا ، وَزَادَهُمْ مِنْهَا ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أَيْ : أَلْهَمَهُمْ رُشْدَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أَيْ : أَمَارَاتُ اقْتِرَابِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ [النجم : ٥٦ - ٥٧] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ

﴿ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وَقَوْلِهِ وَتَعَالَى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، فَبَعْثَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؛ لأَنَّهُ خَاتَمُ الرُّسُلِ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ ، وَأَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ بِأَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، وَأَبَانَ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهُ بِمَا لَمْ يُؤْتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ . **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : بَعْثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي أَسْمَائِهِ ﷺ أَنَّهُ نَبِيُّ التَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ ، وَالْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ[1] . **عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** رضي الله عنه **قَالَ** : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِأُصْبُعَيْهِ هَكَذَا - بِالْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِيهَا - : ((**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**))[2] .

ثُمَّ **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْقِيَامَةُ ، حَيْثُ لا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر : ٢٣] ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَتَأَتَّى كَوْنُهُ آمِرًا بِعِلْمِ ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ** ﷻ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي ، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي ، وَخَطَئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**))[3] .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ : ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**))[4] ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي**

---

(١) انظر صحيح مسلم رقم (٢٣٥٤ ، ٢٣٥٥) .

(٢) البخاري (٤٩٣٦) .

(٣) البخاري (حديث ٦٣٩٨ ، ٦٣٩٩) ، ومسلم (٢٧١٩) .

(٤) أخرجه مسلم في حديث طويل (٧٧١) مطلعه ((وجهت وجهي ...)) .

أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ))[1].

وَعَنْ عَبْد الله بْن سَرْجَس[2] قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَكَلْتُ مَعَهُ مِنْ طَعَامِهِ ، فَقُلْتُ : غَفَرَ الله لَكَ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ ﷺ : ((وَلَكَ)) ، فَقُلْتُ : أَسْتَغْفِرُ لَكَ ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((نَعَمْ ، وَلَكُمْ)) ، وَقَرَأَ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى بَعْضِ كَتِفِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ - شُعْبَةُ الَّذِي شَكَّ - فَإِذَا هُوَ كَهَيْئَةِ الْجُمْعِ عَلَيْهِ الثَّآلِيلُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ فِي نَهَارِكُمْ وَمُسْتَقَرَّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦]

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا شَرْعِيَّةَ الْجِهَادِ ، فَلَمَّا فَرَضَهُ اللهُ ﷻ وَأَمَرَ بِهِ نَكَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَقَالَ ﷻ هَاهُنَا : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أَيْ :

---

(١) البخاري (٦٣٠٧) .
(٢) مسلم (٢٣٤٦) ، وانظر أحمد أيضًا (٥/ ٨٢) .

مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُكْمِ الْقِتَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَيْ : مِنْ فَزَعِهِمْ وَرُعْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ .

ثُمَّ قَالَ مُشَجِّعًا لَهُمْ : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أَيْ : وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا ، أَيْ : فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : جَدَّ الْحَالُ ، وَحَضَرَ الْقِتَالُ ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : أَخْلَصُوا لَهُ النِّيَّةَ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْجِهَادِ ، وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أَيْ : تَعُودُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ ، وَتُقَطِّعُونَ الْأَرْحَامَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ ، وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا ، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا ، بَلْ قَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْأَفْعَالِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ وَالْحِسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ طُرُقٍ عَدِيدَةٍ ، وَوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : : « **خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوَيِ الرَّحْمَنِ** ﷻ **فَقَالَ : مَهْ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ** » . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ : اِقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ[2] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ** » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ**

---

(١) البخاري (٤٨٣٠) ، ومسلم (٢٥٥٤) .

(٢) **صحيح** : أخرجه أحمد (٥/ ٣٨) ، وغيره .

رَحِمُهُ وَصَلَهَا »[1].

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ ، وَنَاهِيًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أَيْ : بَلْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ، فَهِيَ مُطْبَقَةٌ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم ﴾ أَيْ : فَارَقُوا الْإِيمَانَ وَرَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : زَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ وَحَسَّنَهُ ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : غَرَّهُمْ وَخَدَعَهُمْ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : مَالَئُوهُمْ وَنَاصَحُوهُمْ فِي الْبَاطِنِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أَيْ : مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُخْفُونَ ، اللهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ [النساء : ٨١]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ حَالُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَتَعَاصَّتِ الْأَرْوَاحُ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْعُنْفِ وَالْقَهْرِ وَالضَّرْبِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١) بدون اللفظة الأولى ، وهي صحيحة أيضًا ، وأخرجه أحمد (٢/ ١٦٣) ، وأشار البخاري إلى من وقفه ومن رفعه .

وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] أَيْ : بِالضَّرْبِ ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣]

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَيَعْتَقِدُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟! بَلْ سَيُوَضِّحُ أَمْرَهُمْ وَيُجَلِّيهِ حَتَّى يُفْهِمَهُمْ ذَوُو الْبَصَائِرِ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ « بَرَاءَة » فَبَيَّنَ فِيهَا فَضَائِحَهُمْ وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةُ . وَالْأَضْغَانُ : جَمْعُ ضِغْنٍ ، وَهُوَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ نَشَاءُ - يَا مُحَمَّدُ - لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ ، فَعَرَفْتَهُمْ عِيَانًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَحَمْلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ ، وَرَدًّا لِلسَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ ، يُفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْحِزْبَيْنِ هُوَ ، بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ ، **كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ** ﷺ : مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ تَعْيِينُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أَيْ : لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ

مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، وَلَيْسَ فِي تَقَدُّمِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ ، **فَالْمُرَادُ** : حَتَّى نَعْلَمَ وُقُوعَهُ ؛ **وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – فِي مِثْلِ هَذَا** : إِلَّا لِنَعْلَمَ ، أَيْ : لِنَرَى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَّهُ وَارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، أَنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَخْسَرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا ، وَسَيُحْبِطُ اللهُ عَمَلَهُ فَلَا يُثِيبُهُ عَلَى سَالِفِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَقَّبَهُ بِرِدَّتِهِ مِثْقَالَ بَعُوضَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، بَلْ يُحْبِطُهُ وَيَمْحَقُهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا مَقْبُولٌ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ ، فَقُلْنَا : مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا ؟ فَقُلْنَا : الْكَبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ ، حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء : ٤٨] ، فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ ، وَنَرْجُو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا .

ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الَّتِي هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الِارْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ أَيْ : بِالرِّدَّةِ . **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ فَلَا تَهِنُواْ ﴾ أَيْ : لَا تَضْعُفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ ﴿ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ أَيْ : الْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَوَضْعِ الْقِتَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَعُدَّتِكُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ عُلُوِّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةٌ وَكَثْرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمُهَادَنَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ مَصْلَحَةً ، فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ صَدَّهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَنْ مَكَّةَ ، وَدَعَوْهُ إِلَى الصُّلْحِ وَوَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ ، فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أَيْ : وَلَنْ يُحْبِطَهَا وَيُبْطِلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا ، بَلْ يُوَفِّيكُمْ ثَوَابَهَا وَلَا يُنْقِصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَحْقِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَتَهْوِينًا لِشَأْنِهَا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أَيْ : حَاصِلُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا للهِ ﷻ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مُوَاسَاةً لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءِ ، لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَيَرْجِعُ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ أَيْ : يُحْرِجُكُمْ تَبْخَلُوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ :** قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ فِي إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ إِخْرَاجُ الْأَضْغَانِ ،

وَصَدَقَ قَتَادَةُ ، فَإِنَّ المَالَ مَحْبُوبٌ ، وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيبُ إِلَى ذَلِكَ ، ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَقَصَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَجْرِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أَيْ : عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ أَيْ : بِالذَّاتِ إِلَيْهِ . فَوَصْفُهُ بِالْغَنِيِّ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُ ، وَوَصْفُ الْخَلْقِ بِالْفَقْرِ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُمْ ، لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أَيْ : عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يَكُونُونَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَهُ وَلِأَوَامِرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِتَالِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

تفْسيرُ سُورَةِ الْفَتحِ

وَهِيَ مَدَنيةٌ

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنَ قُرَّةٍ سَمِعْتُ عَبْد الله بْن مُغَفَّلٍ يَقُولُ : قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرِهِ ، سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، فَرَجَّعَ فِيهَا . قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَوْلَا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْنَا لَحَكَيْتُ لَكمْ قِرَاءَتَهُ[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ ، حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِيَقْضِي عُمْرَتَهُ فِيهِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ هَذَا ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ قَابِلٍ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ عَلَى تَكَرُّهٍ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى - فَلَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ حَيْثُ أُحْصِرَ وَرَجَعَ ، أَنْزَلَ اللهُ ﷻ هَذِهِ السُّورَةَ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتْحًا بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَمَا آلَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ ، **كَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ :** إِنَّكُمْ تَعُدُّونَ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ . **وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ :** مَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَتْحَ إِلَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ[2] ﷺ **قَالَ :** تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨١) ، ومسلم (٧٩٤) ، وكذا انظر أحمد (٥/ ٥٤) .
(٢) البخاري (٤١٥٠) .

مِائَةٍ وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ ، فَنَزَحْنَاهَا فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَدَعَا ، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا ، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرَكَائِبنَا .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[1] ﷺ **قَالَ** : كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ ، قَالَ : فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ ، قَالَ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ نَزَرْتَ رَسُولَ الله ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ، فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ ، قَالَ : فَإِذَا أَنَا بِمُنَادٍ يَا عُمَرُ قَالَ : فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ ، قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[2] ﷺ **قَالَ** : نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ**)) ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا : هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ الله ، لَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ﷻ مَا يَفْعَلُ بِكَ ، فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا ؟ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ ﷺ ﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ ﷺ : ((**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟**))[3].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَتَفَطَّرَ رِجْلَاهُ ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : يَا رَسُولَ الله أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ ﷺ : ((**يَا عَائِشَةُ ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟**))[4].

---

(١) البخاري (٤١٧٧) .
(٢) البخاري (٤١٧٢) ، ومسلم (١٧٨٦) .
(٣) البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) .
(٤) مسلم (٢٨٢٠) .

فَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أَيْ : بَيِّنًا ظَاهِرًا ، وَالْمُرَادُ بِهِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ، فَإِنَّهُ حَصَلَ بِسَبَبِهِ خَيْرٌ جَزِيلٌ ، وَآمَنَ النَّاسُ وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُ مَعَ الْكَافِرِ ، وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْإِيمَانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ لِغَيْرِهِ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ ﷺ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنَلْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ ، لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ ، وَهُوَ ﷺ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللهِ للهِ ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، قَالَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ النَّاقَةُ « **حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ** » ثُمَّ قَالَ ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعَظِّمُونَ بِهِ حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا** »[1] .

فَلَمَّا أَطَاعَ اللهَ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَيْ : بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ وَالدِّينِ الْقَوِيمِ ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ خُضُوعِكَ لِأَمْرِ اللهِ ﷻ ، يَرْفَعُكَ اللهُ وَيَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ ﷻ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى** »[2].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ

(١) انظر البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) صحيح : وقد تقدم مرارًا .

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أَيْ : جَعَلَ الطُّمَأْنِينَةَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ :** الْوَقَارَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِينَ اِسْتَجَابُوا لله وَلِرَسُولِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ الله وَرَسُولِهِ ، فَلَمَّا اِطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ ، زَادَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، **وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ .**

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَلَكًا وَاحِدًا لَأَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . **وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسٍ**[1] ﷺ : قَالُوا : هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ الله هَذَا لَكَ فَمَا لَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أَيْ : خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ ، فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : يَتَّهِمُونَ اللهَ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :** ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ ﷻ مُؤَكِّدًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى الانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي : عَلَى الخَلْقِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي : لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي : لِلْكَافِرِينَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي « سُورَةِ الأَحْزَابِ »[1]. ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرُ وَاحِدٍ** : تُعَظِّمُوهُ ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ : مِنَ التَّوْقِيرِ ، وَهُوَ الاحْتِرَامُ وَالإِجْلَالُ وَالإِعْظَامُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيْ : تُسَبِّحُونَ اللهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠]

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ : هُوَ حَاضِرٌ مَعَهُمْ يَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ وَيَرَى مَكَانَهُمْ وَيَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ وَظَوَاهِرَهُمْ ، فَهُوَ تَعَالَى هُوَ المُبَايِعُ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ ﷺ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الحَجَرِ : « **وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ . وَيَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِالحَقِّ ، فَمَنِ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ تَعَالَى** »[2] ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى

---

(١) الآية : رقم (٤٥) .
(٢) أحمد في المسند (١ / ٢٤٧) .

النَّاكِثِ ، وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا ، وَهَذِهِ الْبَيْعَةُ هِيَ : **بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ** ، وَكَانَتْ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرٍ بِالْحُدَيْبِيَةِ ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ ، **قِيلَ** : أَلْفًا وَثَلَاثَمِائَةٍ ، **وَقِيلَ** : وَأَرْبَعَمِائَةٍ ، **وَقِيلَ** : وَخَمْسَمِائَةٍ ، وَالْأَوْسَطُ أَصَحُّ .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ[1] ﷺ **قَالَ** : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ ﷺ : أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ[2].

وَعَنْ نَافِعٍ[3] ﷺ **قَالَ** : إِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّ عُمَرَ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَرْسَلَ عَبْدَ اللهِ إِلَى فَرَسٍ لَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، أَنْ يَأْتِيَ بِهِ لِيُقَاتِلَ عَلَيْهِ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُبَايِعُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ ، وَعُمَرُ ﷺ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْفَرَسِ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ ﷺ ، وَعُمَرُ ﷺ يَسْتَلْئِمُ لِلْقِتَالِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُبَايِعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَانْطَلَقَ فَذَهَبَ مَعَهُ حَتَّى بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَهِيَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[4] - **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** -: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ قَدْ تَفَرَّقُوا فِي ظِلَالِ الشَّجَرِ ، فَإِذَا النَّاسُ مُحْدِقُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ :- يَعْنِي : عُمَرُ ﷺ - يَا عَبْدَ اللهِ ، أُنْظُرْ مَا شَأْنُ النَّاسِ قَدْ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَوَجَدَهُمْ يُبَايِعُونَ فَبَايَعَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عُمَرَ ﷺ فَخَرَجَ فَبَايَعَ .

وَعَنْ جَابِرٍ[5] ﷺ **قَالَ** : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ فَبَايَعْنَاهُ ، وَعُمَرُ ﷺ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ ، قَالَ : بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ .

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ **قَالَ** : لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيَّ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ

---

(١) البخاري (٤٨٤٠) ، ومسلم (١٨٥٦) .
(٢) البخاري (٥٦٣٩) ، ومسلم (١٨٥٦) في بعض طرقه .
(٣) البخاري (٤١٨٦) .
(٤) البخاري (٤١٨٧) .
(٥) مسلم (١٨٥٦) .

وَأَنَا رَافِعٌ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً ، قَالَ : وَلَمْ نُبَايِعهُ عَلَى المَوْتِ ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ [1].

عَنْ يَزِيدَ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ **قَالَ** : بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، قَالَ يَزِيدُ : قُلْتُ : يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : عَلَى المَوْتِ [2].

عَنْ يَزِيد بْنِ أَبِي عُبَيْد عَنْ سَلَمَة [3] ﷺ **قَالَ** : بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ ثُمَّ تَنَحَّيْتُ فَقَالَ ﷺ : « **يَا سَلَمَةَ أَلَا تُبَايِعُ ؟** » قُلْتُ : قَدْ بَايَعْتُ ، قَالَ ﷺ : « **أَقْبِلْ فَبَايِعْ** » فَدَنَوْتُ فَبَايَعْتُهُ ، قُلْتُ : عَلَامَ بَايَعْتَهُ يَا سَلَمَةَ ؟ قَالَ : عَلَى المَوْتِ .

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ [4] ﷺ قَالَ : قَدِمْنَا الحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةٍ ، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا ، فَقَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَبَاهَا - يَعْنِي الرُّكِيِّ - فَإِمَّا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا ، فَجَاشَتْ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ ، فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسَطِ النَّاسِ قَالَ ﷺ : « **بَايِعْنِي يَا سَلَمَةُ** » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ ، قَالَ ﷺ : « **وَأَيْضًا** » قَالَ : وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلًا فَأَعْطَانِي حَجَفَةً - أَوْ دَرَقَةً - ، ثُمَّ بَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ قَالَ ﷺ : « **أَلَا تُبَايِعُ يَا سَلَمَةُ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَأَوْسَطِهِمْ ، قَالَ ﷺ : « **وَأَيْضًا** » فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَا سَلَمَةُ أَيْنَ حَجَفَتُكَ - أَوْ دَرَقَتُكَ - الَّتِي أَعْطَيْتُكَ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ لَقِيَنِي عَامِرٌ عَزِلًا فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : « **إِنَّك كَالَّذِي قَالَ الأَوَّلُ : اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي** » قَالَ : ثُمَّ إِنَّ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَاسَلُونَا فِي الصُّلْحِ ، حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ فَاصْطَلَحْنَا ، قَالَ : وَكُنْتُ خَادِمًا لِطَلْحَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ ، أَسْقِي فَرَسَهُ وَأَحُسُّهُ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي

---

(١) مسلم (١٨٥٨) .

(٢) البخاري (٢٩٦٠) .

(٣) البخاري (٢٩٦٠) ، ومسلم (١٨٦٠) .

(٤) مسلم بنحوه (١٨٠٧) .

مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ ، أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا ، ثُمَّ اضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا فِي ظِلِّهَا ، فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَبْغَضْتُهُمْ وَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى ، فَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ ، فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي فَشَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ وَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي ، ثُمَّ قُلْتُ : وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ ، قَالَ : ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ : وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ يُقَالُ لَهُ : مِكْرَزٌ ، مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَقُودُهُ حَتَّى وَقَفْنَا بِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَقَالَ : « **دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ** » فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ[1] قَالَ : كَانَ أَبِي مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، قَالَ : فَانْطَلَقْنَا مِنْ قَابِلٍ حَاجِّينَ فَخَفِيَ عَلَيْنَا مَكَانُهَا ، فَإِنْ كَانَ تَبَيَّنَتْ لَكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ .

وَعَنْ جَابِرٍ[2] رضي الله عنه **قَالَ** : لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ ، وَجَدْنَا رَجُلًا مِنَّا يُقَالُ لَهُ : الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ مُخْتَبِئًا تَحْتَ إِبْطِ بَعِيرِهِ .

وَعَنْ جَابِرٍ[3] رضي الله عنه **قَالَ** : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ** » قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه : لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ .

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** »[4].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ ، فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ**

---

(١) البخاري (٤١٦٣) ، ومسلم (١٨٥٩) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (١٨٥٦) .

(٣) مسلم أيضًا (١٨٥٦) .

(٤) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠) .

مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَ خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ ، ثُمَّ تَبَادَرَ النَّاسُ بَعْدُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبُ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ** » فَقُلْنَا : تَعَالَ يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : وَاللهِ لأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً[1].

وَعَنْ جَابِرٍ[2] **قَالَ** : أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: « **لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا أَحَدٌ** » قَالَتْ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، فَانْتَهَرَهَا ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] » .

وَعَنْ جَابِرٍ[3] ﷺ **قَالَ** : إِنَّ عَبْدًا لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ جَاءَ يَشْكُو حَاطِبًا ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كَذَبْتَ ، لَا يَدْخُلُهَا ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ** » .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ

(١) مسلم (٢٧٨٠) .
(٢) صحيح : وقد تقدم .
(٣) مسلم (٢٤٩٥) .

أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ ﷺ ، بِمَا يَعْتَذِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمُقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشَغْلِهِمْ ، وَتَرَكُوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاعْتَذَرُوا بِشَغْلِهِمْ بِذَلِكَ ، وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ ، وَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الاعْتِقَادِ بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمُصَانَعَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ اللهُ فِيكُمْ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسَرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَتَابَعْتُمُونَا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُكُمْ تَخَلُّفَ مَعْذُورٍ وَلَا عَاصٍ بَلْ تَخَلُّفَ نِفَاقٍ ، وَاعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ وَتُسْتَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ ، وَتُسْتَبَادُ خَضْرَاؤُهُمْ ، وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أَيْ : هَلْكَى . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : مَنْ لَمْ يُخْلِصِ الْعَمَلَ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لله ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ ، وَإِنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الأَمْرِ . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ وَخَضَعَ لَدَيْهِ .

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا ، أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُمْ إِلَى المَغْنَمِ ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ ، فَأَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، مُعَاقَبَةً لَهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَنْبِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ بِمَغَانِمِ خَيْبَرَ وَحْدَهُمْ ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ المُتَخَلِّفِينَ ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدَرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : وَعَدَ اللهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ قَبْلَ سُؤَالِكُمُ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أَيْ : أَنْ نُشْرِكَكُمْ فِي المَغَانِمِ ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، عَلَى أَقْوَالٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُمْ هَوَازِنُ . **الثَّانِي** : ثَقِيفُ . **الثَّالِثُ** : بَنُو حَنِيفَةَ . **الرَّابِعُ** : هُمْ أَهْلُ فَارِسٍ ، **وَقِيلَ** : هُمُ الرُّومُ ، **وَقِيلَ** : هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ ، **وَقِيلَ** : هُمْ أَهْلُ الْأَوْثَانِ ، وَقِيلَ : هُمْ رِجَالٌ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَلَمْ يُعَيِّنْ فِرْقَةً ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ[1] ﷺ قَالَ : ((**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا صِغَارَ الْأَعْيُنِ ذُلْفَ الْآنُفِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ**)) قَالَ سُفْيَانُ : هُمُ التُّرْكُ .

---

(١) مسلم (٢٩١٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ يَعْنِي : شُرِعَ لَكُمْ جِهَادُهُمْ وَقِتَالُهُمْ ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ ، وَلَكُم النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ ، بَلْ بِاخْتِيَارٍ ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ أَيْ : تَسْتَجِيبُوا وَتَنْفِرُوا فِي الْجِهَادِ وَتُؤَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ يَعْنِي : زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَيْثُ دُعِيتُمْ فَتَخَلَّفْتُمْ ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَعْذَارَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، فَمِنْهَا لَازِمٌ كَالْعَمَى وَالْعَرَجِ الْمُسْتَمِرِّ ، وَعَارِضٌ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَطْرَأُ أَيَّامًا ثُمَّ يَزُولُ ، فَهُوَ فِي حَالِ مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بِذَوِي الْأَعْذَارِ اللَّازِمَةِ حَتَّى يَبْرَأَ ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، مُرَغِّبًا فِي الْجِهَادِ وَطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أَيْ : يَنْكُلْ عَنِ الْجِهَادِ وَيُقْبِلْ عَلَى الْمَعَاشِ ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَذَلَّةِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ عُدَّتِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمُرَةً بِأَرْضِ الْحُدَيْبِيَةِ .

عَنْ طَارِقِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ[1] قَالَ : انطَلَقْتُ حَاجًّا فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ فَقُلْتُ : مَا هَذَا الْمَسْجِدُ ؟ قَالُوا : هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ سَعِيدٌ : حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، قَالَ : فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ ؟ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ .

---

(١) البخاري (٤١٦٣) ، ومسلم (١٨٥٩) ، وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ ، وَهِيَ الطُّمَأْنِينَةُ ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ، وَهُوَ مَا أَجْرَى اللهُ ﷻ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنْ الْخَيْرِ الْعَامِّ وَالْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ ، ثُمَّ فَتْحِ سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هِيَ جَمِيعُ الْمَغَانِمِ إِلَى الْيَوْمِ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يَعْنِي : فَتْحَ خَيْبَرَ ، **قِيلَ** : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يَعْنِي : صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ ، ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَنَلْكُمْ سُوءٌ مِمَّا كَانَ أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالْقِتَالِ ، وَكَذَلِكَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ الَّذِينَ خَلَّفْتُمُوهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ عَنْ عِيَالِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : يَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللهِ هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ الْعَلِيمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَأَنَّ الْخِيَرَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَرِهُوهُ فِي الظَّاهِرِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة : ٢١٦]

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ انْقِيَادِكُمْ لِأَمْرِهِ ، وَاتِّبَاعِكُمْ طَاعَتَهُ ،

وَمُوَافَقَتِكُمْ رَسُولَهُ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ أَيْ : وَغَنِيمَةٌ أُخْرَى وَفَتْحًا آخَرَ مُعَيَّنًا ، لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا قَدْ يَسَّرَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ عِبَادَهُ - الْمُتَّقِينَ لَهُ - مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ مَا الْمُرَادُ بِهَا ؟ **فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : هِيَ خَيْبَرُ وَهَذَا عَلَى قَوْلِهِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ إِنَّهَا صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ، **وَقِيلَ** : هِيَ مَكَّةُ ، وَقِيلَ : هِيَ فَارِسُ وَالرُّومُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** : هَذِهِ الْفُتُوحُ الَّتِي تُفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يَقُولُ ﷻ مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ، وَلَانْهَزَمَ جَيْشُ الْكُفْرِ فَارًّا مُدْبِرًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ ، مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيْصَلٍ إِلَّا نَصَرَ اللهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ ، فَرَفَعَ الْحَقَّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَى يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدَدِهِمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَعُدَدِهِمْ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ كَفَّ أَيْدِيَ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، بَلْ صَانَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ صُلْحًا فِيهِ خِيَرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، **وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ** ﷺ حِينَ جَاءُوا بِأُولَئِكَ السَّبْعِينَ الْأُسَارَى

فَأَوْثَقُوهُمْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : « **أَرْسِلُوهُمْ ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ** » **قَالَ** : « **وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ** ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ »[1].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[2] ﷺ **قَالَ** : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالسِّلَاحِ ، مِنْ قِبَلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ يُرِيدُونَ غِرَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأُخِذُوا ، قَالَ : فَعَفَا عَنْهُمْ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمَنْ مَالَأَهُمْ عَلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : هُمُ الْكُفَّارُ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أَيْ : وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أَيْ : وَصَدُّوا الْهَدْيَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَحِلِّهِ ، وَهَذَا مِنْ بَغْيِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَكَانَ الْهَدْيُ : سَبْعِينَ بَدَنَةً ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بَيَانُهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ أَيْ : بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِمَّنْ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْهُمْ خِيفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، لَكُنَّا سَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) مسلم (١٨٠٨) .

فَقَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبَدْتُمْ خَضْرَاءَهُمْ ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْنَائِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَقْوَامٌ لَا تَعْرِفُونَهُمْ حَالَةَ الْقَتْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أَيْ : إِثْمٌ وَغَرَامَةٌ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرَ عُقُوبَتَهُمْ لِيُخَلِّصَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَرْجِعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ أَيْ : لَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : لَسَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَتَلْتُمُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا . ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ ، وَذَلِكَ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، وَأَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا « هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، وَهِيَ : قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ** »[1].

وَقَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّد رَسُولُ اللهِ ، فَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا وَاسْتَكْبَرَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَكَاتَبَهُمْ رَسُول اللهِ ﷺ عَلَى قَضِيَّةِ الْمُدَّةِ . وَقِيلَ : ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : الْإِخْلَاصُ ، وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَحَقَّ بِهَا وَكَانُوا أَهْلَهَا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخَيْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّرَّ . عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ[2] - يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ - قَالَا : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي بِضْعَ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ ،

(١) البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) .
(٢) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ وَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ : إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا ، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ وَمَانِعُوكَ ، فَقَالَ ﷺ : « **أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ ، أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ ؟** » وَفِي لَفْظٍ : « **تَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى ذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْزُونِينَ** » وَفِي لَفْظٍ : « **فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مَحْرُوبِينَ ، وَإِنْ نَجَوْا يَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللهُ ﷻ أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نَؤُمَّ الْبَيْتَ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ ؟** » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبًا فَتَوَجَّهْ لَهُ ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ ، وَفِي لَفْظٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ : إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **فَرُوحُوا إِذَنْ** » وَفِي لَفْظٍ « **فَامْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى** » حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ ، فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ ، فَقَالَ النَّاسُ : حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ ، فَقَالُوا : خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ ، خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ** » ثُمَّ قَالَ ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا** » ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ ، فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا ، فَلَمْ يَلْبَثِ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشُ ، فَانْتَزَعَ ﷺ مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمًا ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ ، فَقَالَ : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ ابْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادًا مِيَاهَ الْحُدَيْبِيَةِ مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ ، وَهُمْ

مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ فَأَضَرَّتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرْ ، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي ، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ** » قَالَ بُدَيْلٌ : سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا ، فَقَالَ : إِنَّا قَدْ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا ، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ : هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ، قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ : أَيْ قَوْمِ ، أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَهَلْ تَتَّهِمُونِي ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ ، قَالُوا : ائْتِهِ ، فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ : أَيْ مُحَمَّدُ ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ ؟ وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا ، وَإِنِّي لَأَرَى أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أُمْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ ، أَنَحْنُ نَفِرُّ وَنَدَعُهُ ؟ قَالَ : مَنْ ذَا ؟ قَالُوا : أَبُو بَكْرٍ ، قَالَ : أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ ، قَالَ : وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ﷺ ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ﷺ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ ، وَقَالَ لَهُ : أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ وَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، قَالَ : أَيْ غُدَرُ ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ ؟ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ﷺ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

((**أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ**)) ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذْ تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ ﷺ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَيْ قَوْمِ ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ اِبْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ : دَعُونِي آتِهِ ، فَقَالُوا : ائْتِهِ ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**هَذَا فُلَانٌ ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ**)) فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ : رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ : مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ : دَعُونِي آتِهِ ، فَقَالُوا : اِئْتِهِ ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**هَذَا مِكْرَزٌ ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ**)) فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو . قَالَ مَعْمَرٌ : فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**))[1] قَالَ مَعْمَرٌ : قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ : فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ : هَاتِ أَكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيٍّ رضي الله عنه وَقَالَ : ((**أُكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)) فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ . كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أُكْتُبْ**

---

(١) هذا القدر من الحديث مرسل ، وكذلك ففي رواية معمر عن أيوب نظر .

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)) ثُمَّ قَالَ : ((**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**)) فَقَالَ سُهَيْلٌ : وَالله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((**وَالله إِنِّي لَرَسُولُ الله ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ، اُكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله**)) قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ : ((**وَالله لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله تَعَالَى إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**)) فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**)) فَقَالَ سُهَيْلٌ : وَالله لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ ، فَكَتَبَ ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : وَعَلَى أَنْ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : سُبْحَانَ الله كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ ، قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**)) قَالَ : فَوَالله إِذًا لَا أُصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**فَأَجِزْهُ لِي**)) قَالَ : مَا أَنَا بِمُجِيزٍ ذَلِكَ لَكَ ، قَالَ : ((**بَلَى فَافْعَلْ**)) قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، قَالَ مِكْرَزٌ : بَلَى قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ : قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ : أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الله ﷻ قَالَ عُمَرُ ﷺ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ فَقُلْتُ : أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا ؟ قَالَ ﷺ : ((بَلَى)) قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ ﷺ : ((بَلَى)) قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ ﷺ : ((**إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**)) قُلْتُ : أَوَ لَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ ﷺ : ((بَلَى ، **أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ ؟**)) قُلْتُ : لَا ، قَالَ ﷺ : ((**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**)) قَالَ : فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ الله حَقًّا ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ رَسُولُ الله ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ ، وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ ، فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ ، قُلْتُ : أَوَ لَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا

سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ تَأْتِيهِ وَتَطُوفُ بِهِ ، قَالَ الزُّهْرِيُّ : قَالَ عُمَرُ ﷺ : فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا ، قَالَ : فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : ((**قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**)) قَالَ : فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ﷺ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، قَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ أُخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ، نَحَرَ بُدْنَهُ ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة : ١٠] ، فَطَلَّقَ عُمَرُ ﷺ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ - فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ ، فَقَالُوا : الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ : وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا ، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ ، فَقَالَ : أَجَلْ وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ مِنْهُ ثُمَّ جَرَّبْتُ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ : أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ ، وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ : ((**لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**)) فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي . وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ نَجَّانِي اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ**)) فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ ، قَالَ : وَتَفَلَّتَ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ

مِنْهُمْ عِصَابَةٌ ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ اللهَ وَالرَّحِمَ لَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ .

وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ[1] **قَالَ** : أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ ، فَقَالَ كُنَّا بِصِفِّينَ فَقَالَ رَجُلٌ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ : نَعَمْ ، فَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ : اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ - يَعْنِي الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ - وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا ، فَجَاءَ عُمَرُ ﷺ فَقَالَ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ ؟ فَقَالَ : « بَلَى » قَالَ : فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَنَا ؟ فَقَالَ ﷺ : « **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا** » فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا ، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ ﷺ ، فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ فَقَالَ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا ، فَنَزَلَتْ سُورَةُ « الْفَتْحِ » وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ .

وعَنْ أَنَسٍ[2] ﷺ **قَالَ** : إِنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وَفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ ﷺ : « **اُكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فَقَالَ ﷺ : « **اُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ** » قَالَ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَاتَّبَعْنَاكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ

---

(١) البخاري (٤٨٤٤) ، ومسلم (١٧٨٥) .

(٢) مسلم (١٧٨٤) ، وأحمد في المسند (٣/ ٢٦٨) .

أَبِيكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**اُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله**)) وَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله أَنَكْتُبُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ**)) .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ رَأَى فِي المَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالمَدِينَةِ ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ ، وَقَعَ فِي نَفْسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، حَتَّى سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : ((**بَلَى ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا ؟**)) قَالَ : لَا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**))[1] ، وَبِهَذَا أَجَابَ الصِّدِّيقُ ﷺ أَيْضًا حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هَذَا لِتَحْقِيقِ الخَبَرِ وَتَوْكِيدِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الاِسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ دُخُولِكُمْ ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ، لأَنَّهُمْ فِي حَالِ حَرَمِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي ثَانِي الحَالِ ، كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَّرَهُ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[2] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ**)) قَالُوا : وَالمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ ﷺ : ((**رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ**)) ، قَالُوا : وَالمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم قريبًا .
(٢) **صحيح** : وقد تقدم .

قَالَ ﷺ : « رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ » ، قَالُوا : وَالمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ ﷺ : « وَالمُقَصِّرِينَ » فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ فِي المَعْنَى ، فَأَثْبَتَ لَهُمُ الأَمْنَ حَالَ الدُّخُولِ ، وَنَفَى عَنْهُمُ الخَوْفَ حَالَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي البَلَدِ لَا يَخَافُونَ مِنْ أَحَدٍ ، وَهَذَا كَانَ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ فِي ذِي القَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي القَعْدَةِ ، رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ فَأَقَامَ بِهَا ذَا الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمَ وَخَرَجَ فِي صَفَرٍ إِلَى خَيْبَرَ فَفَتَحَهَا اللهُ عَلَيْهِ ، بَعْضَهَا عَنْوَةً وَبَعْضَهَا صُلْحًا ، وَهِيَ إِقْلِيمٌ عَظِيمٌ كَثِيرُ النَّخْلِ وَالزُّرُوعِ ، فَاسْتَخْدَمَ مَنْ فِيهَا مِنَ اليَهُودِ عَلَيْهَا عَلَى الشَّطْرِ ، وَقَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِ الحُدَيْبِيَةِ وَحْدَهُمْ وَلَمْ يَشْهَدْهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، إِلَّا الَّذِينَ قَدِمُوا مِنَ الحَبَشَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ وَأَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ وَأَصْحَابُهُ ﷺ ، وَلَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : إِلَّا أَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمَّا كَانَ فِي ذِي القَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ خَرَجَ ﷺ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا هُوَ وَأَهْلُ الحُدَيْبِيَةِ ، فَأَحْرَمَ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ وَسَاقَ مَعَهُ الهَدْيَ ، قِيلَ : كَانَ سِتِّينَ بَدَنَةً ، فَلَبَّى وَسَارَ أَصْحَابُهُ يُلَبُّونَ ، فَلَمَّا كَانَ ﷺ قَرِيبًا مِنْ مَرِّ الظَّهْرَانِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ بِالخَيْلِ ، وَالسِّلَاحُ أَمَامَهُ ، فَلَمَّا رَآهُ المُشْرِكُونَ رُعِبُوا رُعْبًا شَدِيدًا ، وَظَنُّوا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَغْزُوهُمْ وَأَنَّهُ قَدْ نَكَثَ العَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ وَضْعِ القِتَالِ عَشْرَ سِنِينَ ، فَذَهَبُوا فَأَخْبَرُوا أَهْلَ مَكَّةَ ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَنَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الحَرَمِ ، بَعَثَ السِّلَاحَ مِنَ القِسِيِّ وَالنَّبْلِ وَالرِّمَاحِ إِلَى بَطْنِ يَأْجَجَ ، وَسَارَ إِلَى مَكَّةَ بِالسُّيُوفِ مُغْمَدَةً فِي قِرَبِهَا ، كَمَا شَارَطَهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَا عَرَفْنَاكَ تَنْقُضُ العَهْدَ ، فَقَالَ ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قَالَ : دَخَلْتَ عَلَيْنَا بِالسِّلَاحِ وَالقِسِيِّ وَالرِّمَاحِ ، فَقَالَ ﷺ : « لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَى يَأْجَجَ ؟ » فَقَالَ : بِهَذَا عَرَفْنَاكَ بِالبِرِّ وَالوَفَاءِ . وَخَرَجَتْ رُءُوسُ الكُفَّارِ مِنْ مَكَّةَ لِئَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَإِلَى أَصْحَابِهِ ﷺ غَيْظًا وَحَنَقًا ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ فَجَلَسُوا فِي الطُّرُقِ

وَعَلَى الْبُيُوتِ يَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، فَدَخَلَهَا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَصْحَابُهُ يُلَبُّونَ ، وَالْهَدْيُ قَدْ بَعَثَهُ إِلَى ذِي طُوًى ، وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ الَّتِي كَانَ رَاكِبُهَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ آخِذٌ بِزِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُودُهَا وَهُوَ يَقُولُ :

بِاسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ ... بِاسْمِ الَّذِي مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ
خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ ... ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ ... قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ ... بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

فَهَذَا مَجْمُوعٌ مِنْ رِوَايَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ ، وَلَقُوا مِنْهَا سُوءًا ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ وَلَقُوا مِنْهَا شَرًّا ، وَجَلَسَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِي الْحِجْرَ فَأَطْلَعَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا قَالُوا ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ ، قَالَ : فَرَمَلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَمْشُوا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ حَيْثُ لَا يَرَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، وَلَمْ يَمْنَعِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا إِبْقَاءً عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا . **وَفِي لَفْظٍ** : قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ ، يَعْنِي : مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فَقَالَ ، الْمُشْرِكُونَ : إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءُ عَلَيْهِمْ .

---

(١) البخاري (١٦٠٢) ، ومسلم (١٢٦٦) .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ ، فَنَحَرَ هَدْيَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ ، وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ وَلَا يَحْمِلُ سِلَاحًا عَلَيْهِمْ إِلَّا سُيُوفًا ، وَلَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحَبُّوا ، فَاعْتَمَرَ ﷺ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالَحَهُمْ ، فَلَمَّا أَنْ قَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يَخْرُجَ فَخَرَجَ ﷺ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ[2] رضي الله عنه **قَالَ** : اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمُوا بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا : ((**هَذَا مَا قَاضَانَا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**)) قَالُوا : لَا نُقِرُّ بِهَذَا ، وَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ ﷺ : ((**أَنَا رَسُولُ اللهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**)) ، ثُمَّ قَالَ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه : ((**أُمْحُ رَسُولَ اللهِ**)) قَالَ رضي الله عنه : لَا وَاللهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكِتَابَ وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ فَكَتَبَ : ((**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، لَا يُدْخِلُ مَكَّةَ السِّلَاحَ إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا**)) ، فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلُ أَتَوْا عَلِيًّا فَقَالُوا : قُلْ لِصَاحِبِكَ اُخْرُجْ عَنَّا فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَبِعَتْهُ اِبْنَةُ حَمْزَةَ رضي الله عنه ، تُنَادِي : يَا عَمِّ يَا عَمِّ ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ رضي الله عنه فَأَخَذَ بِيَدِهَا ، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: دُونَكِ اِبْنَةُ عَمِّكِ ، فَحَمَلَتْهَا ، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ رضي الله عنهم ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ اِبْنَةُ عَمِّي ، وَقَالَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه : اِبْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي ، وَقَالَ زَيْدٌ رضي الله عنه : اِبْنَةُ أَخِي ، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ : ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**)) ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : ((**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**)) وَقَالَ لِجَعْفَرٍ رضي الله عنه : ((**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**)) ، وَقَالَ ﷺ لِزَيْدٍ رضي الله عنه : ((**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**)) ، قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : أَلَا تَتَزَوَّجُ اِبْنَةَ حَمْزَةَ رضي الله عنه ؟ قَالَ ﷺ : ((**إِنَّهَا اِبْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ**)) .

---

(١) البخاري (٤٢٥٢) ، ومسلم (١٢٢٧) .

(٢) البخاري (٤٢٥١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أَيْ : فَعَلِمَ اللهُ ﷻ مِنَ الْخِيرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : قبل دُخُولِكُمُ الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَهُوَ الصُّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِنُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِ وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عِلْمٍ وَعَمَلٍ ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمُسْلِمِينَ وَمُشْرِكِينَ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ رَسُولُهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ .

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَقَالَ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ، وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ ، ثُمَّ ثَنَّى بِالثَّنَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة : ٥٤] ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكُفَّارِ رَحِيمًا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ ، غَضُوبًا عَبُوسًا فِي وَجْهِ الْكَافِرِ ، ضَحُوكًا بَشُوشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم

مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : ١٢٣] ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ** »[١].

وَقَالَ ﷺ : « **الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا** » وَشَبَّكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[٢].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ، وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لله ﷻ وَالِاحْتِسَابِ عِنْدَ الله تَعَالَى جَزِيلَ الثَّوَابِ ، وَهُوَ : الْجَنَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى فَضْلِ الله ﷻ وَهُوَ سَعَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي السَّمْتَ الْحَسَنَ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : الْخُشُوعَ وَالتَّوَاضُعَ . **وَعَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ** ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قَالَ : الْخُشُوعُ ، قُلْتُ : مَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا هَذَا الْأَثَرَ فِي الْوَجْهِ ، فَقَالَ : رُبَّمَا كَانَ بَيْنَ عَيْنَيْ مَنْ هُوَ أَقْسَى قَلْبًا مِنْ فِرْعَوْنَ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الصَّلَاةُ تُحَسِّنُ وُجُوهَهُمْ ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَالْغَرَضُ أَنَّ الشَّيْءَ الْكَامِنَ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَجْهِ ، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا كَانَتْ سَرِيرَتُهُ صَحِيحَةً مَعَ الله تَعَالَى أَصْلَحَ اللهُ ﷻ ظَاهِرَهُ لِلنَّاسِ .

فَالصَّحَابَةُ ﷺ خَلَصَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ ، **وَقَالَ مَالِكٌ** ؓ : بَلَغَنِي أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا إِذَا رَأَوُا الصَّحَابَةَ ﷺ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ ، يَقُولُونَ : وَالله لَهَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ فِيمَا بَلَغَنَا ، وَصَدَقُوا

(١) البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .
(٢) البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعَظَّمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ ، وَقَدْ نَوَّهَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوَلَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أَيْ : فِرَاخَهُ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أَيْ : شَدَّهُ ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ أَيْ : شَبَّ وَطَالَ ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أَيْ : فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ ، فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطْءِ مَعَ الزَّرْعِ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ ، **وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَزَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ – فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ – بِتَكْفِيرِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ** ﷺ قَالَ : لِأَنَّهُمْ يَغِيظُونَهُمْ ، وَمَنْ غَاظَ الصَّحَابَةَ ﷺ فَهُوَ كَافِرٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَوَافَقَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ، وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ بِمَسَاوِيهِمْ كَثِيرَةٌ ، وَيَكْفِيهِمْ ثَنَاءُ الله عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم ﴾ ، « مِنْ » هَذِهِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ﴿ مَّغْفِرَةً ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : ثَوَابًا جَزِيلًا وَرِزْقًا كَرِيمًا ، وَوَعْدُ الله حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ ، وَكُلُّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّبْقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – وَأَرْضَاهُمْ وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ** »[1].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) مسلم (٢٥٤٠) .

تفسيرُ سورةِ الحُجُراتِ
وَهِيَ مَدَنيةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾

هَذِهِ آدَابٌ أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالْإِعْظَامِ ، **فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا تُسْرِعُوا فِي الْأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَيْ : قَبْلَهُ ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِكُمْ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِأَقْوَالِكُمْ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِنِيَّاتِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ هَذَا أَدَبٌ ثَانٍ أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ لَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **فَفِي الْبُخَارِيِّ**(١) : عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : كَادَ الْخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ﷺ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ ، فَقَالَ

---

(١) البخاري (٧٣٠٢) والسند صورته مرسل ، ولكن انظر سنن الترمذي (٣٢٦٦) فهناك ما يفيد الاتصال .

أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي ، قَالَ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** : فَمَا كَانَ عُمَرُ ﷺ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﷺ .

ثُمَّ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ[1] **عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ** ؛ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ ابْنَ مَعْبَدٍ ، وَقَالَ عُمَرُ ﷺ : بَلْ أَمِّرِ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا ، فَنَزَلَتْ فِي ذَلِكَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَعَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[2] ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ﷺ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : شَرٌّ ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ مُوسَى : فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ : ((**اذْهَبْ إِلَيْهِ ، فَقُلْ لَهُ : إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[3] ﷺ **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ، وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ ، فَقَالَ : أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَبِطَ عَمَلِي ، وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا ، فَفَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ ،

---

(١) البخاري (٤٣٦٧) .

(٢) البخاري (حديث ٤٨٤٦) .

(٣) مسلم (حديث ١١٩) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٧) .

فَقَالُوا لَهُ : تَفَقَّدَكَ رَسُولُ الله ﷺ ، مَالَكَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَبِطَ عَمَلِي أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَتَوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَا بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَمَامَةِ كَانَ فِينَا بَعْضُ الإِنْكِشَافِ ، فَجَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ، وَقَدْ تَحَنَّطَ وَلَبِسَ كَفَنَهُ فَقَالَ : بِئْسَمَا تُعَوِّدُونَ أَقْرَانَكُمْ ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رضي الله عنه .

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ رَجُلَيْنِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ قَدِ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فَجَاءَ ، فَقَالَ : أَتَدْرِيَانِ أَيْنَ أَنْتُمَا ؟ ثُمَّ قَالَ : مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا ؟ قَالَا : مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، فَقَالَ : لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَأَوْجَعْتُكُمَا ضَرْبًا . **قَالَ الْعُلَمَاءُ** : يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ عِنْدَ قَبْرِهِ ﷺ كَمَا كَانَ يُكْرَهُ فِي حَيَاتِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – لأَنَّهُ مُحْتَرَمٌ حَيًّا وَفِي قَبْرِهِ ﷺ دَائِمًا ، ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُخَاطِبِهِ مِمَّنْ عَدَاهُ ، بَلْ يُخَاطَبُ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَهَيْنَاكُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَغْضَبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَغْضَبُ اللهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ ، فَيَحْبَطَ عَمَلُ مَنْ أَغْضَبَهُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يُكْتَبُ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** »[1].

ثُمَّ نَدَبَ اللهُ تَعَالَى إِلَى خَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أَيْ : أَخْلَصَهَا لَهَا وَجَعَلَهَا أَهْلًا وَمَحَلًّا ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

---

(١) البخاري (٦٤٧٨) .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

ثُمَّ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ وَهِيَ بُيُوتُ نِسَائِهِ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلَافُ الْأَعْرَابِ، فَقَالَ: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

ثُمَّ أَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾ أَيْ: لَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخِيَرَةُ وَالْمَصْلَحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، ثُمَّ قَالَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالتَّثَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ لِيُحْتَاطَ لَهُ، لِئَلَّا يُحْكَمَ بِقَوْلِهِ فَيَكُونُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَاذِبًا أَوْ مُخْطِئًا، فَيَكُونُ الْحَاكِمُ بِقَوْلِهِ قَدِ اقْتَفَى وَرَاءَهُ، وَقَدْ نَهَى اللهُ ﷻ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ، وَمِنْ أَحْسَنِهَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] **عَنِ الْحَارِثِ بْنِ ضِرَارٍ الْخُزَاعِيِّ** ؓ **قَالَ**: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَدَخَلْتُ فِيهِ، وَأَقْرَرْتُ بِهِ، وَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، وَتُرْسِلُ إِلَيَّ يَا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥) من طرق فيها مقال، ولكن له شواهد يُحسَّن بها. انظر معجم الطبراني الكبير (١٨/٦-٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٤ - ٥٥). والله أعلم.

رَسُولَ الله رَسُولًا لإِبَّانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ بِمَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لَهُ ، وَبَلَغَ الإِبَّانُ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ ، احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ وَلَمْ يَأْتِهِ ، وَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ مِنَ الله تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ الْخُلْفُ ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ ، فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِي رَسُولَ الله ﷺ ، وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ - أَيْ خَافَ - فَرَجَعَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله إِنَّ الْحَارِثَ قَدْ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي ، فَضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ ﷺ ، وَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ ، فَقَالُوا : هَذَا الْحَارِثُ ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ ، قَالَ لَهُمْ : إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ ؟ قَالُوا : إِلَيْكَ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالُوا : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ ، قَالَ ﷺ : لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً وَلَا أَتَانِي ، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : « **مَنَعْتَ الزَّكَاةَ ، وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي ؟** » قَالَ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي ، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةٌ مِنَ الله تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، قَالَ : فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ حَكِيمٞ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اِعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَسُولَ الله ، فَعَظِّمُوهُ ، وَوَقِّرُوهُ ، وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَتَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ **فَقَالَ** : ﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ أَيْ : لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١]

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ: حَبَّبَهُ إِلَى نُفُوسِكُمْ وَحَسَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ. ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ أَيْ: وَبَغَّضَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَهِيَ: الذُّنُوبُ الْكِبَارُ، وَالْعِصْيَانُ وَهِيَ: جَمِيعُ المَعَاصِي، وَهَذَا تَدْرِيجٌ لِكَمَالِ النِّعْمَةِ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أَيْ: الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ قَدْ آتَاهُمُ اللهُ رُشْدَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أَيْ: هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنَحَكُمُوهُ هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ، وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ الْبَاغِيَتَيْنِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الِاقْتِتَالِ، **وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ**، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْخَوَارِجُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، وَهَكَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ؓ **قَالَ**: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ يَوْمًا وَمَعَهُ عَلَى الْمِنْبَرِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً وَإِلَى النَّاسِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»[1] فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ، أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ، بَعْدَ الْحُرُوبِ

---

(١) البخاري (٣٧٤٦).

الطَّوِيلَةِ وَالْوَاقِعَاتِ الْمَهُولَةِ ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَسْمَعَ لِلْحَقِّ وَتُطِيعَهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا نَصَرْتُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ ﷺ : « تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ »[(١)].

وَعَنْ أَنَسٍ[(٢)] قَالَ : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا ، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ قَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذَانِي رِيحُ حِمَارِكَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ ، قَالَ : فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ فَغَضِبَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ ، قَالَ : فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ ، فَبَلَغَنَا أَنَّهُ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أَيْ : اِعْدِلُوا بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانَ أَصَابَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْقِسْطِ ، وَهُوَ الْعَدْلُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ ﷻ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا »[(٣)].

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الْعَرْشِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وُلُّوا »[(٣)].

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ »[(٤)] ، وَفِي الصَّحِيحِ « وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »[(٥)] ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا « إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ

---

(١) البخاري (٢٤٤٤ ، ٢٩٥٢) .

(٢) البخاري (٢٦٩١) ، ومسلم (١٧٩٩) ، وانظر أحمد في المسند (٣/ ١٥٧) .

(٣) مسلم بنحوه (حديث ١٨٢٧) .

(٤) البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

(٥) مسلم (٢٦٩٩) .

بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، قَالَ الْمَلَكُ : آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ »(١) ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَفِي الصَّحِيحِ « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ »(٢) ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا »(٣) ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْفِئَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَحْقِيقٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنِ اتَّقَاهُ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ احْتِقَارُهُمْ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ - وَيُرْوَى - وَغَمْطُ النَّاسِ »(٤) ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ احْتِقَارُهُمْ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَهَذَا حَرَام ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُحْتَقِرُ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَهْيِ الرِّجَالِ وَعَطَفَ بِنَهْيِ النِّسَاءِ ، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ ، وَالْهَمَّازُ اللَّمَّازُ مِنَ الرِّجَالِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] ، فَالْهَمْزُ بِالْفِعْلِ ، وَاللَّمْزُ بِالْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] أَيْ : يَحْتَقِرُ النَّاسَ وَيَهْمِزُهُمْ طَاعِنًا عَلَيْهِمْ ، وَيَمْشِي بَيْنَهُمْ بِالنَّمِيمَةِ ، وَهِيَ : اللَّمْزُ

---

(١) مسلم (٢٧٣٢) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

(٤) مسلم (حديث ٩١) .

بِالْمَقَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] أَيْ : لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيْ : لَا يَطْعَنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أَيْ : لَا تَتَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ وَهِيَ الَّتِي يَسُوءُ الشَّخْص سَمَاعُهَا . ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الصِّفَةُ وَالِاسْمُ الْفُسُوقُ وَهُوَ : التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ بَعْدَمَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ وَهُوَ : التُّهَمَةُ وَالتَّخَوُّنُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا ، فَلْيُجْتَنَبْ كَثِيرٌ مِنْهُ احْتِيَاطًا . **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**))[١].

وَعَنْ زَيْدٍ ﷺ **قَالَ** : أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ بِرَجُلٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ ﷺ : إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرَ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ ، سَمَّاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي رِوَايَتِهِ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ . ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، وَالتَّجَسُّسُ غَالِبًا يُطْلَقُ فِي الشَّرِّ ، وَمِنْهُ الْجَاسُوسُ ، وَأَمَّا التَّحَسُّسُ فَيَكُونُ غَالِبًا فِي الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ ﷺ إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٧] ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي الشَّرِّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**))[٢] ،

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣) .
(٢) **صحيح** : وقد تقدم .

وَقَالَ **الْأَوْزَاعِيُّ** : التَّجَسُّسُ : الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَالتَّحَسُّسُ : الِاسْتِمَاعُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، أَوْ يَتَسَمَّعُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ . وَالتَّدَابُرُ : الصَّرْمُ ، ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْغِيبَةِ ، وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّارِعُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالَ : ﷺ : ((**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**)) قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : ((**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**))[1].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا ((تَعْنِي قَصِيرَةً)) فَقَالَ ﷺ : ((**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**)) قَالَتْ : وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ ﷺ : ((**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**))[2]. **وَالْغِيبَةُ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِجْمَاعِ** لَا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا رُجِّحَتْ مَصْلَحَتُهُ ، كَمَا فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالنَّصِيحَةِ ، كَقَوْلِهِ ﷺ لَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَاجِرُ ((**ائْذَنُوا لَهُ ، بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ**))[3] ، وَكَقَوْلِهِ ﷺ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَقَدْ خَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو الْجَهْمِ ((**أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ**))[4] ، وَكَذَا مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، ثُمَّ بَقِيَّتُهَا عَلَى التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا الزَّجْرُ الْأَكِيدُ ؛ وَلِهَذَا شَبَّهَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ ، **كَمَا قَالَ** ﷻ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أَيْ : كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا فَاكْرَهُوا ذَاكَ شَرْعًا ، فَإِنَّ عُقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا ، وَهَذَا مِنَ التَّنْفِيرِ عَنْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْعَائِدِ فِي هِبَتِهِ ((**كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ**))[5] ، وَقَدْ قَالَ : ((**لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوْءِ**))[6].

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٨٩) .
(٢) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) .
(٣) البخاري (٦١٣١) ، ومسلم (٢٥٩١) .
(٤) مسلم (١٤٨٠) .
(٥) البخاري (٢٦٢٢) ، ومسلم (١٦٢٢) .
(٦) البخاري (٢٦٢٢) ، وهو جزء من الحديث السابق .

وَثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ « **إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ . هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا** »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ** »(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ ، قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرَائِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ** »(٣).

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَرَاقِبُوهُ فِي ذَلِكَ وَاخْشَوْا مِنْهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ، رَحِيمٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، **قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : طَرِيقُ الْمُغْتَابِ لِلنَّاسِ فِي تَوْبَتِهِ ، أَنْ يُقْلِعَ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَعْزِمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ ، وَهَلْ يُشْتَرَطُ النَّدَمُ عَلَى مَا فَاتَ ؟ فِيهِ نِزَاعٌ ، وَأَنْ يَتَحَلَّلَ مِنَ الَّذِي اغْتَابَهُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَتَحَلَّلَهُ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِذَلِكَ رُبَّمَا تَأَذَّى أَشَدَّ مِمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِمَا كَانَ مِنْهُ ، فَطَرِيقُهُ إِذًا أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ فِي الْمَجَالِسِ الَّتِي كَانَ يَذُمُّهُ فِيهَا ، وَأَنْ يَرُدَّ عَنْهُ الْغِيبَةَ بِحَسَبِهِ وَطَاقَتِهِ لِتَكُونَ تِلْكَ بِتِلْكَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهُمَا آدَمُ وَحَوَّاءُ وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا ، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَبَعْدَ الْقَبَائِلِ مَرَاتِبُ أُخَرُ كَالْفَصَائِلِ وَالْعَشَائِرِ وَالْعَمَائِرِ وَالْأَفْخَاذِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِالشُّعُوبِ : بُطُونُ الْعَجَمِ ، وَبِالْقَبَائِلِ : بُطُونُ الْعَرَبِ ، كَمَا أَنَّ الْأَسْبَاطَ : بُطُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ لَخَّصْتُ هَذَا فِي مُقَدِّمَةٍ مُفْرَدَةٍ جَمَعْتُهَا مِنْ كِتَابِ « **الْأَشْبَاهِ** » لِأَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ،

---

(١) البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤) ، وأبو داود (٤٨٧٨) .

وَمِنْ كِتَابِ « الْقَصْد وَالْأَمَم فِي مَعْرِفَةِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَم » فَجَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّرَفِ بِالنِّسْبَةِ الطِّينِيَّة إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - سَوَاءٌ ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَهِيَ طَاعَةُ الله تَعَالَى وَمُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْي عَنِ الْغِيبَةِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا ، مُنَبِّهًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ أَيْ : لِيَحْصُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ كُلٌّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ . ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ الله تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ قَالَ : « **أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاهُمْ** » قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ : « **فَأَكْرَمُ النَّاسِ : يُوسُفُ نَبِيُّ الله ابْنُ نَبِيِّ الله ابْنِ نَبِيِّ الله ابْنِ خَلِيلِ الله** » قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ : « **فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي** ؟ » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « **فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا** »[1]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** »[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِكُمْ خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) مسلم (٢٥٦٤) .

أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَتَمَكَّنِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.

وَقَدِ اسْتُفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ الْإِسْلَامِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ[1] عليه السلام حِينَ سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ ، فَتَرَقَّى مِنَ الْأَعَمِّ إِلَى الْأَخَصِّ ثُمَّ لِلْأَخَصِّ مِنْهُ . **وَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ**[2] عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجَالًا وَلَمْ يُعْطِ رَجُلًا مِنْهُمْ شَيْئًا ، فَقَالَ سَعْدٌ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا وَلَمْ تُعْطِ فُلَانًا شَيْئًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَوْ مُسْلِمٌ**)) حَتَّى أَعَادَهَا سَعْدٌ رضي الله عنه : ثَلَاثًا ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ ((**أَوْ مُسْلِمٌ**)) ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**إِنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا وَأَدَعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ ، فَلَا أُعْطِيهِ شَيْئًا مَخَافَةَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**)) ، فَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ بِأَدِلَّتِهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ مُسْلِمًا لَيْسَ مُنَافِقًا ، لِأَنَّهُ تَرَكَهُ مِنَ الْعَطَاءِ وَوَكَلَهُ إِلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسُوا بِمُنَافِقِينَ ، وَإِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ لَمْ يَسْتَحْكِمِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ فَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامًا أَعْلَى مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ ، فَأُدِّبُوا فِي ذَلِكَ . **وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ** أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أَيْ : اسْتَسْلَمْنَا خَوْفَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ،

---

(١) مسلم (حديث ٨) .

(٢) البخاري (حديث ٢٧) ، ومسلم (حديث ١٥٠ ص ١٣٢) .

وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ قَوْمٌ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ بَعْدُ ، فَأُدِّبُوا وَأُعْلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بَعْدُ ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَعُنِّفُوا وَفُضِحُوا ، كَمَا ذُكِرَ الْمُنَافِقُونَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ تَأْدِيبًا : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدُ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يُنْقِصُكُمْ مِنْ أُجُورِكُمْ شَيْئًا ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْكُمَّلُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَشُكُّوا وَلَا تَزَلْزَلُوا ، بَلْ ثَبَتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْمَحْضُ ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ لَا كَبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أَيْ أَتُخْبِرُونَهُ بِمَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ يَعْنِي : الْأَعْرَابُ الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَيْكُمْ ، وَللهِ الْمِنَّةُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِي دَعْوَاكُمْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ : « **يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي ؟** » كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ .

ثم كَرَّرَ الْإِخْبَارَ بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، وَبَصَرِهِ بِأَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ ((ق))
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ أَوَّلُ الْحِزْبِ الْمُفَصَّلِ عَلَى الصَّحِيحِ ، **وَقِيلَ** : مِنَ الْحُجُرَاتِ .

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ الْعَوَامُّ إِنَّهُ مِنْ ﴿ عَمَّ ﴾ فَلَا أَصْلَ لَهُ ، وَلَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ فِيمَا نَعْلَمُ .

إِذَا عُلِمَ هَذَا فَإِذَا عَدَدْتَ ثَمَانِيًا وَأَرْبَعِينَ سُورَةً فَالَّتِي بَعْدَهُنَّ سُورَةُ ((ق)) ، بَيَانُهُ **ثَلَاثٌ** : الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءُ .

وَخَمْسٌ : الْمَائِدَةُ وَالْأَنْعَامُ وَالْأَعْرَافُ وَالْأَنْفَالُ وَبَرَاءَةُ .

وَسَبْعٌ : يُونُسُ وَهُودُ وَيُوسُفُ وَالرَّعْدُ وَإِبْرَاهِيمُ وَالْحِجْرُ وَالنَّحْلُ .

وَتِسْعٌ : سُبْحَانَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْحَجُّ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالنُّورُ وَالْفُرْقَانُ .

وَإِحْدَى عَشْرَةَ : الشُّعَرَاءُ وَالنَّمْلُ وَالْقَصَصُ وَالْعَنْكَبُوتُ وَالرُّومُ وَلُقْمَانُ وَ ﴿ الم ﴾ السَّجْدَةُ وَالْأَحْزَابُ وَسَبَأٌ وَفَاطِرُ وَ ﴿ يس ﴾ .

وَثَلَاثَ عَشْرَةَ : الصَّافَّاتُ وَ ﴿ ص ﴾ وَالزُّمَرُ وَغَافِرُ وَ ﴿ حم ﴾ السَّجْدَةُ وَ ﴿ حم عسق ﴾ وَالزُّخْرُفُ وَالدُّخَانُ وَالْجَاثِيَةُ وَالْأَحْقَافُ وَالْقِتَالُ وَالْفَتْحُ وَالْحُجُرَاتُ .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْحِزْبُ الْمُفَصَّلُ ، كَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ ﷺ فَتَعَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَهُ سُورَةُ ((ق)) ، وَهُوَ الَّذِي قُلْنَاهُ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ ؟ قَالَ : بِـ ﴿ قٓ ﴾ [1].

وَعَنْ أُمِّ هِشَامٍ[2] **بِنْتِ حَارِثَةَ قَالَتْ** : لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ النَّبِيِّ ﷺ وَاحِدًا ، سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً ، وَبَعْضَ سَنَةٍ ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ إِلَّا عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ .

---

(١) مسلم (٨٩١) .

(٢) مسلم (٨٧٣) .

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ[1] : مَا حَفِظْتُ ﴿ قٓ ﴾ إِلَّا مِنْ فِيِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ ، قَالَتْ : وَكَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحِدًا .

وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ كَالْعِيدِ وَالْجُمَعِ ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ ، وَالْقِيَامِ وَالْحِسَابِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿ قٓ ﴾ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ص ﴾ - وَ ﴿ ن ﴾ - وَ ﴿ الم ﴾ - وَ ﴿ حم ﴾ - وَ ﴿ طس ﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أَيْ : الْكَرِيمُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت : ٤٢]

وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَابِ الْقَسَمِ مَا هُوَ ؟ فَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ أَنَّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ ؛ بَلِ الْجَوَابُ هُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقَسَمِ ، وَهُوَ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ ، وَإِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَتَقْرِيرُهُ وَتَحْقِيقُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَسَمُ مُتَلَقًّى لَفْظًا ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[ص : ١ - ٢]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أَيْ : تَعَجَّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[يونس : ٢] أَيْ : وَلَيْسَ هَذَا

(١) مسلم (٨٧٣) .

بِعَجِيبٍ فَإِنَّ الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ المَعَادِ وَاسْتِبْعَادِهِمْ لِوُقُوعِهِ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : أَئِذَا مِتْنَا وَبَلِينَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تُرَابًا ، كَيْفَ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْبِنْيَةِ وَالتَّرْكِيبِ ؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ أَيْ : بَعِيدُ الْوُقُوعِ . **وَالمَعْنَى** : أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ إِمْكَانِهِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ** ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مَا تَأْكُلُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ فِي الْبِلَى ، نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ ، وَأَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَإِلَى أَيْنَ صَارَتْ ؟ ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أَيْ : حَافِظٌ لِذَلِكَ ، فَالْعِلْمُ شَامِلٌ ، وَالْكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوطَةٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِبْعَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ ؛ **فَقَالَ**: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أَيْ : وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَالمَرِيجُ : المُخْتَلِفُ المُضْطَرِبُ المُلْتَبِسُ المُنْكَرُ خِلَالُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾

[الذاريات : ٨-٩]

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لِلْعِبَادِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَعَجَّبُوا مُسْتَبْعِدِينَ لِوُقُوعِهِ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أَيْ : بِالمَصَابِيحِ ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي مِنْ شُقُوقٍ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : فُتُوقٍ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : مِنْ صُدُوعٍ ، وَالمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[الملك : ٣-٤] أَيْ : كَلِيلٌ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا أَوْ نَقْصًا .

وَقَولُهُ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أَيْ : وَسَّعْنَاهَا وَفَرَشْنَاهَا ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ وَهِيَ الْجِبَالُ لِئَلَّا تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَتَضْطَرِبُ ، فَإِنَّهَا مُقَرَّةٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ الْمُحِيطِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَنْوَاعِ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات : ٤٩] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : حَسَنٍ نَضِرٍ ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : وَمُشَاهَدَةُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا جُعِلَ فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ تَبْصِرَةً وَدَلَالَةً وَذِكْرَى ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : خَاضِعٍ خَائِفٍ وَجِلٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَقَولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أَيْ : نَافِعًا ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ ، أَيْ : حَدَائِقَ مِنْ بَسَاتِينَ وَنَحْوِهَا ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ وَهُوَ الزَّرْعُ الَّذِي يُرَادُ لِحَبِّهِ وَادِّخَارِهِ ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أَيْ : طِوَالٍ شَاهِقَاتٍ ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أَيْ : مَنْضُودٌ ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : لِلْخَلْقِ ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ هَامِدَةً ، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ مِنْ أَزَاهِيرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا يَحَارُ الطَّرْفُ فِي حُسْنِهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا كَانَتْ لَا نَبَاتَ بِهَا فَأَصْبَحَتْ تَهْتَزُّ خَضْرَاء ، فَهَذَا مِثَالٌ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ، وَهَذَا الْمُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالْحِسِّ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الْجَاحِدُونَ لِلْبَعْثِ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر : ٥٧] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت : ٣٩]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، بِمَا أَحَلَّهُ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ ، مِنَ النِّقْمَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَصْحَابِ الرَّسِّ وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتهمْ فِي ((سُورَةِ الْفُرْقَانِ)) .

﴿ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ ، وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ سَدُوم وَمُعَامَلتها مِنَ الْغَوْرِ ، وَكَيْفَ خَسَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِمُ الْأَرْضَ ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ ، ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السلام ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وَهُوَ الْيَمَانِيُّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهِ فِي ((سُورَةِ الدُّخَانِ))[1] مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَللهِ الْحَمْدُ . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أَيْ : كُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَّبَ رَسُولَهُ ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أَيْ : أَفَأَعْجَزَنَا ابْتِدَاء الْخَلْقِ ، حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَالْمَعْنَى : أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾ [الروم : ٢٧] ، وَقَالَ اللهُ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ - ٧٩] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ، يَقُولُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ**))[2].

---

(١) الآية رقم : (٣٧) .

(٢) البخاري (٤٩٧٤) .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نُفُوسُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ** »[1].

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يَعْنِي : مَلَائِكَتُهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرَّ لِئَلَّا يَلْزَم حُلُولٌ أَوِ اتِّحَادٌ وَهُمَا مَنْفِيَّانِ بِالْإِجْمَاعِ - تَعَالَى اللهُ وَتَقَدَّسَ - وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَقْتَضِيهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضَرِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥] يَعْنِي : مَلَائِكَتُهُ ، وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، فَالْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ - بِإِذْنِ اللهِ ﷻ - وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ ، وَكَذَلِكَ « **الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ** »[2] كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتُبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أَيْ : مُتَرَصِّدٌ .

---

(١) البخاري (٢٠٣٥) .
(٢) البخاري (٢٠٣٥) .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أَيْ : اِبْنُ آدَمَ ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أَيْ : مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أَيْ : إِلَّا وَلَهَا مَنْ يُرَقِبُهَا ، مُعْتَدٌّ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا ، لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] ، **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ ، هَلْ يَكْتُبُ الْمَلَكُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ ؟ أَوْ إِنَّمَا يَكْتُبُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ ؟** ، عَلَى قَوْلَيْنِ : وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْأَوَّلُ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ ﷻ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ، يَكْتُبُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يَقُولُ ﷻ وَجَاءَتْ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، أَيْ : كَشَفَتْ لَكَ عَنِ الْيَقِينِ الَّذِي كُنْتَ تَمْتَرِي فِيهِ ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الَّذِي كُنْتَ تَفِرُّ مِنْهُ قَدْ جَاءَكَ فَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا فِكَاكَ وَلَا خَلَاصَ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ **فَالصَّحِيحُ** : أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، **وَقِيلَ** : الْكَافِرُ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ ذَلِكَ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا تَغَشَّاهُ الْمَوْتُ جَعَلَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : ((**سُبْحَانَ اللهِ ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ**))[2] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ((مَا)) هَهُنَا مَوْصُولَةٌ ، أَيْ : الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، بِمَعْنَى : تَبْتَعِدُ وَتَنَأى وَتَفِرُّ قَدْ حَلَّ بِكَ وَنَزَلَ بِسَاحَتِكَ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّ ((مَا)) نَافِيَةٌ ، بِمَعْنَى ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْفِرَارِ مِنْهُ وَلَا الْحَيْدِ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى

---

(١) **صحيح لغيره** : أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩) ، وأخرجه بنحوه البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) .
(٢) البخاري (٦٥١٠) ، ولفظه هناك : ((لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات)) .

حَدِيثِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَالْفَزَعِ وَالصَّعْقِ وَالْبَعْثِ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ هَذَا الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ؟**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ ﷺ : ((**قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**)) ، فَقَالَ الْقَوْمُ : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[1].

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أَيْ : مَلَكٌ يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . **وَقِيلَ** : السَّائِقُ : الْمَلَكُ ، وَالشَّهِيدُ : الْعَمَلُ ، **وَقِيلَ** : السَّائِقُ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَالشَّهِيدُ : الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ .

حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْخِطَابِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ **أَحَدُهَا** : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : الْكَافِرُ . **وَالثَّانِي** : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : كُلُّ أَحَدٍ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدُّنْيَا كَالْيَقَظَةِ وَالدُّنْيَا كَالْمَنَامِ ، **وَالثَّالِثُ** : أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ : النَّبِيُّ ﷺ ، **وَالْمَعْنَى** : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْكَ ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ بِإِنْزَالِهِ إِلَيْكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . **وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ** خِلَافُ هَذَا ، بَلِ الْخِطَابُ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، **وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا ﴾ يَعْنِي : مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أَيْ : قَوِيٌّ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا حَتَّى الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] ، **وَقَالَ** ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢]

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ

(١) **إسناده صحيح لشواهده** : وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٣٣٩) ، وغيره .

فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ المَلَكِ المُوَكَّلِ بِعَمَلِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ **وَيَقُولُ** : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أَيْ : مُعْتَدٌّ مُحْضَرٌ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذَا كَلَامُ المَلَكِ السَّائِقِ ، يَقُولُ : هَذَا ابْنُ آدَمَ الَّذِي وَكَّلْتَنِي بِهِ قَدْ أَحْضَرْتُهُ . **وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَنْ يَعُمَّ السَّائِقَ وَالشَّهِيدَ ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ وَقُوَّةٌ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْكُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الْخَلِيقَةِ بِالْعَدْلِ ، **فَيَقُولُ** : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هِيَ لُغَةٌ لِبَعْضِ الْعَرَبِ يُخَاطِبُونَ الْمُفْرَدَ بِالتَّثْنِيَةِ . **وَقِيلَ** : بَلْ هِيَ نُونُ التَّأْكِيدِ سُهِّلَتْ إِلَى الْأَلِفِ ، وَهَذَا بَعِيدٌ ، لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْوَقْفِ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّهَا مُخَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ ، فَالسَّائِقُ أَحْضَرَهُ إِلَى عَرْصَةِ الْحِسَابِ ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ ، أَمَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى بِإِلْقَائِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ أَيْ : كَثِيرُ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ ، مُعَارِضٌ لَهُ بِالْبَاطِلِ مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ . ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أَيْ : لَا يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَلَا بِرٌّ فِيهِ وَلَا صِلَةٌ وَلَا صَدَقَةٌ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أَيْ : فِيمَا يُنْفِقُهُ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَزُ فِيهِ الْحَدَّ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مُعْتَدٍ فِي مَنْطِقِهِ وَسَيْرِهِ وَأَمْرِهِ ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ أَيْ : شَاكٌّ فِي أَمْرِهِ ، مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ . ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أَيْ : أَشْرَكَ بِاللهِ فَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي وُكِّلَ بِهِ ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أَيْ : يَقُولُ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَدْ وَافَى الْقِيَامَةَ كَافِرًا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ فَيَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أَيْ : مَا أَضْلَلْتُهُ ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا

تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لِلْإِنْسِيِّ وَقَرِينِهِ مِنَ الْجِنِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا يَخْتَصِمَانِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَقِّ تَعَالَى ، فَيَقُولُ الْإِنْسِيُّ : يَا رَبِّ هَذَا أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لَهُمَا : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ أَيْ : عِنْدِي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أَيْ : قَدْ أَعْذَرْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ وَأَنْزَلْتُ الْكُتُبَ وَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ وَالْبَيِّنَاتُ وَالْبَرَاهِينُ . ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ يَعْنِي : قَدْ قَضَيْتُ مَا أَنَا قَاضٍ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ أُعَذِّبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ لَا أُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلَؤُهَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَأْمُرُ بِمَنْ يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقَى ، وَهِيَ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ، أَيْ : هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي ؟ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ** »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ**

---

(١) البخاري (٤٨٤٨) .
(٢) البخاري (٤٨٥٠) .

النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ، قَالَ اللهُ ﷻ ، لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَقَالَ لِلنَّارِ : إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فِيهَا ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ)) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ[1] رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ ، فَقَضَى بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لِلْجَنَّةِ : إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَقَالَ لِلنَّارِ : إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أُدْنِيَتْ وَقُرِّبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ ، لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ قَرِيبٌ .

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أَيْ : رَجَّاعٍ تَائِبٍ مُقْلِعٍ ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أَيْ : يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُثُهُ .قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَرَ : الْأَوَّابُ الْحَفِيظُ : الَّذِي لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا حَتَّى يَسْتَغْفِرَ اللهَ ﷻ . ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مَنْ خَافَ اللهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ﷻ كَقَوْلِهِ ﷺ : ((وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))[2].

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أَيْ : وَلَقِيَ اللهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٍ لَدَيْهِ . ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أَيْ : الْجَنَّةَ ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ اللهِ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أَيْ : يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَظْعَنُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا اخْتَارُوا وَجَدُوا مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ طَلَبُوا أُحْضِرَ لَهُمْ . ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

---

(١) مسلم (٢٨٤٧) .
(٢) البخاري (٦٨٠٦) ، ومسلم (١٠٣١) .

[يونس : ٢٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ : أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الله الْكَرِيمِ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُنكِرِينَ . ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ **قِيلَ** : أَثَّرُوا فِيهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ، **وَقِيلَ** : فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ ، أَيْ : سَارُوا فِيهَا يَبْتَغُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا طُفْتُمْ أَنْتُمْ فِيهَا ، وَيُقَالُ لِمَنْ طَوَّفَ فِي الْبِلَادِ : نَقَّبَ فِيهَا ، **وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ** :

لَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : هَلْ مِنْ مَفَرٍّ كَانَ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ ؟ وَهَلْ نَفَعَهُمْ مَا جَمَعُوهُ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ عَذَابَ الله إِذْ جَاءَهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ فَأَنْتُمْ أَيْضًا لَا مَفَرَّ لَكُمْ وَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا مَحِيصَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَعِبْرَةً ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أَيْ : لُبٌّ يَعِي بِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : عَقْلٌ ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَعَ الْكَلَامَ فَوَعَاهُ وَتَعَقَّلَهُ بِقَلْبِهِ وَتَفَهَّمَهُ بِلُبِّهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ يَعْنِي : لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قَالَ : شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ ، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْيَ

بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى . ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أَيْ : مِنْ إِعْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ ، كَمَا قَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وَكَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُكَذِّبِينَ ، اِصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ : ثِنْتَانِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا ، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وُجُوبُهُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ ، وَلَكِنْ مِنْهُنَّ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ فَهُمَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ .

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ[1] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ : ((**أَمَا إِنَّكُمْ سَتُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّكُمْ ، فَتَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُّونَ فِيهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**)) ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أَيْ : فَصَلِّ لَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قِيلَ : هُوَ التَّسْبِيحُ بَعْدَ الصَّلَاةِ . **وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ**[2] **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ **أَنَّهُ قَالَ** : جَاءَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ

(١) البخاري (حديث ٥٧٣) ، ومسلم (٦٣٣) .
(٢) البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**وَمَا ذَاكَ ؟**)) قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُوم ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّق ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نَعْتِقُ قَالَ ﷺ : ((**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ ، إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ ؟ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**)) قَالَ : فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فَقَالَ ﷺ : ((**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**)) .

وَقِيلَ : أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ هُمَا الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ المَغْرِبِ .

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : **قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ** : يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى مَلَكًا أَنْ يُنَادِيَ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ : أَيَّتُهَا العِظَامُ البَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ المُتَقَطِّعَةُ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : النَّفْخَةَ فِي الصُّورِ ، الَّتِي تَأْتِي بِالحَقِّ الَّذِي كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ يُنْزِلُ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ يُنْبِتُ أَجْسَادَ الْخَلَائِقِ كُلَّهَا فِي قُبُورِهَا ، كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الثَّرَى بِالمَاءِ ، فَإِذَا تَكَامَلَتِ الْأَجْسَادُ ، أَمَرَ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ ، وَقَدْ أُودِعَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ثُقْبٍ فِي الصُّورِ ، فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِيهِ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ

تَعْمُرُهُ ، فَتَرْجِعُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا ، فَتَدِبُّ فِيهِ كَمَا يَدِبُّ السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ، فَيَقُومُونَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ سِرَاعًا مُبَادِرِينَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﷻ : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٨] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ**))(١).

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : تِلْكَ إِعَادَةٌ سَهْلَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرَةٌ لَدَيْنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : ٢٨]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ عِلْمُنَا مُحِيطٌ بِمَا يَقُولُ لَكَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ ، فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٧ - ٩٩]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أَيْ : وَلَسْتَ بِالَّذِي تُجْبِرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْهُدَى ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَا كُلِّفْتُ بِهِ . بِمَعْنَى : وَمَا أَنْتَ بِمُجْبِرِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ . **ثُمَّ قَالَ** ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ مَنْ يَخَافُ اللهَ وَوَعِيدَهُ وَيَرْجُو وَعْدَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ - ٢٢] ، ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ **كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ** : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَكَ وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ ، يَا بَارُّ يَا رَحِيمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((ق)) وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

---

(١) مسلم (٢٢٧٨) ، ولفظه : ((وأول من ينشق عنه القبر)) .

تفسيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

ثَبَتَ[1] **عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** ﷺ **أَنَّهُ صَعِدَ مِنْبَرَ الْكُوفَةِ فَقَالَ** : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَلَا عَنْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قَالَ : الرِّيحُ . ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ قَالَ : السَّحَابُ . ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ قَالَ : السُّفُنُ ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ قَالَ : الْمَلَائِكَةُ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ **بِالذَّارِيَاتِ** : الرِّيحُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، **وَبِالْحَامِلَاتِ وِقْرًا** : السَّحَابُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْمَاءَ ، **كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ** :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

فَأَمَّا الْجَارِيَاتُ يُسْرًا : فَالْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا السُّفُنُ تَجْرِي مُيَسَّرَةً فِي الْمَاءِ جَرْيًا سَهْلًا ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هِيَ النُّجُومُ تَجْرِي يُسْرًا فِي أَفْلَاكِهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرَقِّيًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ ، فَالرِّيَاحُ فَوْقَهَا السَّحَابُ ، وَالنُّجُومُ فَوْقَ ذَلِكَ ، **وَالْمُقَسِّمَاتُ أَمْرًا** : الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ ذَلِكَ ، تَنْزِلُ بِأَوَامِرِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ ، وَهَذَا قَسَمٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) ثبت ذلك من غير وجهٍ عند الطبري ، وغيره .

تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أَيْ : لَخَبَرٌ صِدْقٍ ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ أَيْ : لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ذَاتُ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ وَالِاسْتِوَاءِ .

عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ** »[1] يَعْنِي : بِالْحُبُكِ : الْجُعُودَةُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ الشِّدَّةُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ذَاتُ الصِّفَاقَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أَيْ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ لَا يَلْتَئِمُ وَلَا يَجْتَمِعُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مَا بَيْنَ مُصَدِّقٍ بِالْقُرْآنِ وَمُكَذِّبٍ بِهِ .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرُوجُ عَلَى مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ ، إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَضِلُّ بِسَبَبِهِ وَيُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ ضَالٌّ غُمْرٌ ، لَا فَهْمَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات ١٦١ : ١٦٣]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَالسُّدِّيُّ : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يَضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : يُصْرَفُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ مَنْ كَذَّبَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْكَذَّابُونَ ، قَالَ : وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَبَسَ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] ، وَالْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا نُبْعَثُ ، وَلَا يُوقِنُونَ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أَيْ : لُعِنَ الْمُرْتَابُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ **قِيلَ** : فِي الْكُفْرِ وَالشَّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشَكًّا وَاسْتِبْعَادًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يُعَذَّبُونَ ، كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يُحْرَقُونَ .

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ عَذَابَكُمْ ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ

---

(١) رجاله ثقات .

تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَّقِينَ لله ﷻ إِنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَيْ : عَامِلِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ الْفَرَائِضِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمُ الْفَرَائِضُ كَانُوا مُحْسِنِينَ فِي الْأَعْمَالِ أَيْضًا ، وَالَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فَالْمُتَّقُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، أَيْ : مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ ، **فَقَالَ** : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ، **اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا** : أَنَّ « مَا » نَافِيَةٌ ، تَقْدِيرُهُ : كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ لَا يَهْجَعُونَهُ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّ « مَا » مَصْدَرِيَّةٌ ، تَقْدِيرُهُ : كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هُجُوعُهُمْ وَنَوْمُهُمْ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَقُولُ : عَرَضْتُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ بَايَنُونَا بَوْنًا بَعِيدًا ، إِذَا قَوْمٌ لَا نَبْلُغُ أَعْمَالَهُمْ ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَعَرَضْتُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ يُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَبِرُسُلِ اللهِ مُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَوَجَدْتُ مِنْ خَيْرِنَا

مَنْزِلَةً قَوْمًا خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا .

وَقَالَ **عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ** ﷺ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**))[1].

وَقَالَ **مَعْمَرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ **كَانَ الزُّهْرِيُّ وَالْحَسَنُ يَقُولَانِ** : كَانُوا كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يُصَلُّونَ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا ﴾ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ : ﴿ مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ **قِيلَ** : يُصَلُّونَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : قَامُوا اللَّيْلَ وَأَخَّرُوا الاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] ، فَإِنْ كَانَ الاسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ[2] وَغَيْرِهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ**)) .

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ إِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٩٨] **قَالُوا** : أَخَّرَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالصَّلَاةِ ثَنَّى بِوَصْفِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أَيْ : جُزْءٌ مَقْسُومٌ قَدْ أَفْرَزُوهُ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ .

أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالسُّؤَالِ وَلَهُ حَقٌّ . وَأَمَّا المَحْرُومُ فَقِيلَ :

---

(١) صحيح لشواهده : وأخرجه أحمد (٥ / ٤٥١) وانظر الترمذي (٢٤٨٥) .

(٢) صحيح : وقد تقدم مرارًا .

هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ ، يَعْنِي : لَا سَهْمَ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَلَا كَسْبَ لَهُ ، وَلَا حِرْفَةَ يَتَقَوَّتُ مِنْهَا ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ** »[١] ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمَحْرُومَ : الَّذِي لَا مَالَ لَهُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ وَقَدْ ذَهَبَ مَالُهُ ، سَوَاءٌ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَسْبِ ، أَوْ قَدْ هَلَكَ مَالُهُ أَوْ نَحْوُهُ بِآفَةٍ أَوْ نَحْوِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أَيْ : فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ ، مِمَّا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمِهَادِ وَالْجِبَالِ وَالْقِفَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَأَلْوَانِهِمْ ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوَى ، وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحِكَمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ فِي الْمَحِلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ ، وَلُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ، يَعْنِي : الْمَطَرُ ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَهُوَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ فَلَا تَشُكُّوا فِيهِ ، كَمَا لَا تَشُكُّوا فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطِقُونَ وَكَانَ مُعَاذٌ ﷺ إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَذَا الْحَقُّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ « هُودٍ » وَ « الْحِجْرِ » أَيْضًا ، فَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَرْصَدَ لَهُمُ الْكَرَامَةَ ، وَقَدْ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وُجُوبِ الضِّيَافَةِ لِلنَّزِيلِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ ، فَرَدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[النساء : ٨٦] فَالْخَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُوَرِ شُبَّانٍ حِسَانٍ ، عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أَيْ : انْسَلَّ خُفْيَةً فِي سُرْعَةٍ ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أَيْ : مِنْ خِيَارِ مَالِهِ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] أَيْ : مَشْوِيٍّ عَلَى الرَّضْفِ ، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَدْنَاهُ مِنْهُمْ ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تَلَطُّفٌ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرْضٌ حَسَنٌ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَظَمَتْ آدَابَ الضِّيَافَةِ ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمْ يَمْتَنَّ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا ، فَقَالَ : نَأْتِيكُمْ بِطَعَامٍ ؟ بَلْ جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ ، وَأَتَى بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ وَهُوَ عِجْلٌ فَتِيٌّ سَمِينٌ مَشْوِيٌّ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ لَمْ يَضَعْهُ وَقَالَ : اقْتَرِبُوا ، بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَى سَامِعِهِ بِصِيغَةِ الْجَزْمِ ، بَلْ قَالَ : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْعَرْضِ وَالتَّلَطُّفِ ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتُحْسِنَ وَتَتَصَدَّقَ فَافْعَلْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود : ٧٠ - ٧١] أَيْ : اسْتَبْشَرَتْ بِهَلَاكِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، فَعِنْدَ

ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا المَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود ٧٢ - ٧٣] ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ فَالْبِشَارَةُ لَهُ هِيَ بِشَارَةٌ لَهَا ؛ لأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُمَا فَكُلٌّ مِنْهُمَا بُشِّرَ بِهِ . ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أَيْ : فِي صَرْخَةٍ عَظِيمَةٍ وَرَنَّةٍ ، وَهِيَ قَوْلُهَا ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أَيْ : ضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى جَبِينِهَا ، **وَقِيلَ** : لَطَمَتْ ، أَيْ : تَعَجُّبًا ، كَمَا تَتَعَجَّبُ النِّسَاءُ مِنَ الأَمْرِ الْغَرِيبِ ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أَيْ : كَيْفَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ، وَقَدْ كُنْتُ فِي حَالِ الصِّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ ؟.

﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكَرَامَةِ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : ٧٤ - ٧٦] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : مَا شَأْنُكُمْ ، وَفِيمَ جِئْتُمْ ؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يَعْنُونَ : قَوْمَ لُوطٍ . ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَيْ : مُعَلَّمَةً ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ : مُكْتَتَبَةً عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ كُلُّ حَجَرٍ عَلَيْهِ اسْمُ صَاحِبِهِ ، فَقَالَ فِي سُورَةِ ((الْعَنْكَبُوتِ)) ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢]

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَهُمْ لُوطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ احْتَجَّ بِهَذِهِ مِنْ ذَهَبَ إِلَى رَأْيِ الْمُعْتَزِلَةِ مِمَّنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا الاسْتِدْلَالُ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا مُؤْمِنِينَ ، وَعِنْدَنَا أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٌ لَا يَنْعَكِسُ ، فَاتَّفَقَ الِاسْمَانِ هَهُنَا لِخُصُوصِيَّةِ الْحَالِ ، وَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ فِي كُلِّ حَالٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً لِمَا أَنْزَلْنَا بِهِمَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ ، وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً ، فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ﴿ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٤٦)

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أَيْ : فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَى مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : تَعَزَّزَ بِأَصْحَابِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : غَلَبَ عَدُوُّ اللهِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أَيْ : بِجُمُوعِهِ الَّتِي مَعَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ قَوِيٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج : ٩] ، أَيْ : مُعْرِضٌ عَنِ الْحَقِّ مُسْتَكْبِرٌ ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أَيْ : لَا يَخْلُو أَمْرُكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مَجْنُونًا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَاهُمْ

﴿ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ ، وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ مَلُومٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَانِدٌ .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ أَيْ : **الْمُفْسِدَةَ الَّتِي لَا تُنْتِجُ شَيْئًا** . **قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا** ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : مِمَّا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ أَيْ : كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي إِلَى وَقْتِ فَنَاءِ آجَالِكُمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ [فصلت : ١٧] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمُ انْتَظَرُوا الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكْرَةَ النَّهَارِ ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ ﴾ أَيْ : مِنْ هَرَبٍ وَلَا نُهُوضٍ ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ ، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْقَصَصِ قَدْ تَقَدَّمَتْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا ﴿ بِأَيْيْدٍ ﴾ أَيْ : بِقُوَّةٍ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ

(١) البخاري (١٠٣٥)

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجٌ ، سَمَاءٌ وَأَرْضٌ ، وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ ، وَضِيَاءٌ وَظَلَامٌ ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ ، وَمَوْتٌ وَحَيَاةٌ ، وَشَقَاءٌ وَسَعَادَةٌ ، وَجَنَّةٌ وَنَارٌ ، حَتَّى الحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لِتَعْلَمُوا أَنَّ الخَالِقَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اِلْجَئُوا إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أَيْ : لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وَكَمَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ قَالَ المُكَذِّبُونَ الأَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ المَقَالَةِ ؟ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أَيْ : لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طُغَاةٌ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ ، كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ . ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ يَعْنِي : فَمَا نَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا القُلُوبُ المُؤْمِنَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِآمُرُهُمْ بِعِبَادَتِي لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أَيْ :

إِلَّا لِيُقِرُّوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ ، بَلْ هُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ﴾ أَيْ : نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أَيْ : فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم[1] : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا - أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ - .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي ، فَقَالَ : « **طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ** » ، فَطُفْتُ ، وَرَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ ، يَقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ[2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يُقْسِمُ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، أَنَّ عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ ، فَالطُّور هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ ، مِثْلَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى ، وَأَرْسَلَ مِنْهُ عِيسَى ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّى طُورًا ، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ : جَبَلٌ . ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ ، **وَقِيلَ** : الْكُتُبُ

---

(١) البخاري (٧٦٥) ، ومسلم (٤٦٣) .

(٢) البخاري (٤٦٤) ، ومسلم (١٢٧٦) .

الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ جِهَارًا، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[١] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: « **ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ** » يَعْنِي: يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ وَيَطُوفُونَ بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ، كَذَلِكَ ذَاكَ الْبَيْتُ هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَلِهَذَا وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ؛ لِأَنَّهُ بَانِي الْكَعْبَةَ الْأَرْضِيَّةَ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، وَفِي كُلِّ سَمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ يَعْنِي: السَّمَاءُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، **وَقِيلَ**: يَعْنِي أَنَّهُ سَقْفُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ **قَالَ الْجُمْهُورُ**: هُوَ هَذَا الْبَحْرُ، وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ ٱلْمَسْجُورِ ﴾، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ**: الْمُرَادُ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦] أَيْ: أُضْرِمَتْ، فَتَصِيرُ نَارًا تَتَأَجَّجُ مُحِيطَةً بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ، **وَقِيلَ**: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ يَعْنِي: الْمُرْسَلُ، **وَقِيلَ**: الْمَسْجُورُ الْمَمْلُوءُ. ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، أَيْ: وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ **قِيلَ**: تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا، **وَقِيلَ**: هُوَ تَشَقُّقُهَا، وَقِيلَ: تَدُورُ دَوْرًا ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أَيْ: تَذْهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًّا، وَتُنْسَفُ نَسْفًا، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ: وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَنَكَالِهِ بِهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ: هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخُوضُونَ فِي الْبَاطِلِ، وَيَتَّخِذُونَ دِينَهُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أَيْ: يُدْفَعُونَ وَيُسَاقُونَ ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يُدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا.

---

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (حديث ١٦٤).

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : تَقُولُ لَهُ الزَّبَانِيَةُ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا ﴾ أَيْ : أُدْخُلُوهَا دُخُولَ مَنْ تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا لَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ ، وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا أُولَئِكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَيْ : يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعِيمِ ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهَا عَلَى حِدَتِهَا ، مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، الَّتِي فِيهَا مِنَ السُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

وَقَوْلُهُ ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] أَيْ : هَذَا بِذَاكَ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ ، وَمَعْنَى ﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ أَيْ : وُجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الصافات : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا لَهُمْ قَرِينَاتٍ صَالِحَاتٍ ، وَزَوْجَاتٍ حِسَانٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم ﴾ أَنْكَحْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ

عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ ، أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا عَمَلَهُمْ لِتَقَرَّ أَعْيُنُ الْآبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ ، بِأَنْ يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلَ ، بِكَامِلِ الْعَمَلِ ، وَلَا يَنْقُصُ ذَاكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ .

هَذَا فَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى الْأَبْنَاءِ بِبَرَكَةِ عَمَلِ الْآبَاءِ ، وَأَمَّا فَضْلُهُ عَلَى الْآبَاءِ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ الْأَبْنَاءِ . فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ ؟ فَيَقُولُ : بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ** »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ** »[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ - وَهُوَ رَفْعُ دَرَجَةِ الذُّرِّيَّةِ إِلَى مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ - أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ ، بَلْ ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أَيْ : مُرْتَهِنٌ بِعَمَلِهِ ، لَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، سَوَاءٌ كَانَ أَبًا أَوِ ابْنًا ، كَمَا قَالَ

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٢ / ٥٠٩) .

(٢) مسلم (١٦٣١) .

تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدثر : ٣٨-٤١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : وَأَلْحَقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهَ وَلُحُومٍ مِنْ أَنْوَاعٍ شَتَّى مِمَّا يُسْتَطَابُ وَيُشْتَهَى . ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أَيْ : يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ، أَيْ : مِنَ الْخَمْرِ ، ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أَيْ : لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا بِكَلَامٍ لَاغٍ ، أَيْ : هَذَيَانٍ وَإِثْمٍ ، أَيْ : فُحْشٍ ، كَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الشَّرَبَةُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا . **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : اللَّغْوُ : الْبَاطِلُ ، وَالتَّأْثِيمُ : الْكَذِبُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : لَا يَسْتَبُّونَ وَلَا يُؤَثِّمُونَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَعَ الشَّيْطَانِ فَنَزَّهَ اللهُ خَمْرَ الْآخِرَةِ عَنْ قَاذُورَاتِ خَمْرِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا ، فَنَفَى - كَمَا تَقَدَّمَ - عَنْهَا صُدَاعَ الرَّأْسِ وَوَجَعَ الْبَطْنِ وَإِزَالَةَ الْعَقْلِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا تَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكَلَامِ السَّيِّئِ الْفَارِغِ عَنِ الْفَائِدَةِ الْمُتَضَمِّنِ هَذَيَانًا وَفُحْشًا ، وَأَخْبَرَ بِحُسْنِ مَنْظَرِهَا وَطِيبِ طَعْمِهَا وَمَخْبَرِهَا فَقَالَ : ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : ٤٦- ٤٧] ، وَقَالَ : ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٩] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ خَدَمِهِمْ وَحَشَمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ الْمَكْنُونُ ، فِي حُسْنِهِمْ وَبَهَائِهِمْ وَنَظَافَتِهِمْ وَحُسْنِ مَلَابِسِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : ١٧- ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أَيْ : أَقْبَلُوا يَتَحَادَثُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا كَمَا يَتَحَدَّثُ أَهْلُ الشَّرَابِ عَلَى شَرَابِهِمْ - إِذَا أَخَذَ فِيهِمُ الشَّرَابُ - بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أَيْ : كُنَّا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بَيْنَ أَهْلِينَا خَائِفِينَ مِنْ رَبِّنَا مُشْفِقِينَ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ ، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، أَيْ : فَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا وَأَجَارَنَا مِمَّا نَخَافُ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أَيْ : نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ

فَاسْتَجَابَ لَنَا وَأَعْطَانَا سُؤَالَنَا ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ . قِيلَ لِلأَعْمَش : فِي الصَّلاةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَى عِبَادِهِ وَأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُ مَا يَرْمِيهِ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ ، فَقَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أَيْ : لَسْتَ بِحَمْدِ اللهِ بِكَاهِنٍ ، كَمَا تَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَالْكَاهِنُ : الَّذِي يَأْتِيهِ الرَّئِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّاهَا مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرَّسُولِ ﷺ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أَيْ : قَوَارِعَ الدَّهْرِ ، وَالْمَنُونُ : الْمَوْتُ ، يَقُولُونَ : نَنْتَظِرُهُ وَنَصْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظِرٌ مَعَكُمْ وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ﴾ أَيْ : عُقُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيكَ ، مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ وَزُورٌ ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ضُلَّالٌ مُعَانِدُونَ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ فِيكَ . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، يَعْنُونَ : الْقُرْآنَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : كُفْرُهُمْ هُوَ الَّذِي

حَمَلَهُمْ عَلَى هَذِهِ المَقَالَةِ ، ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ : تَقَوَّلَهُ وَافْتَرَاهُ ، فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ .

أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هَذَا المَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ أَيْ : أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ ؟ ، أَيْ : لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، بَلِ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا . **عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ**[1] : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ . وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأَسَارَى ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا ، فَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : أَهُمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَكِنَّ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، ﴿ أَمْ

(١) البخاري (٤٨٥٤) .

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أَيْ : أَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ ، وَبِيَدِهِمْ مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أَيْ : الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ اللهُ ﷻ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِرْقَاةٌ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : فَلْيَأْتِ الَّذِي يَسْتَمِع لَهُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، أَيْ : وَلَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ ، فَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا لَهُمْ دَلِيلٌ . ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ وَجَعْلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا ، وَاخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ عَلَى الْإِنَاثِ ، بِحَيْثُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتَ اللهِ ، وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللهِ ، فَقَالَ : ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أَيْ : أُجْرَةً عَلَى إِبْلَاغِكَ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ اللهِ ؟ أَيْ لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أَيْ : فَهُمْ مِنْ أَدْنَى شَيْءٍ يَتَبَرَّمُونَ مِنْهُ وَيُثْقِلُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَمْ يُرِيدُ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا فِي الرَّسُولِ وَفِي الدِّينِ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيْدَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، وَهَذَا إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللهِ ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ وَيُشْرِكُونَ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ لِلْمَحْسُوسِ ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أَيْ : عَلَيْهِمْ يُعَذَّبُونَ بِهِ لَمَا صَدَّقُوا وَلَمَا أَيْقَنُوا ، بَلْ يَقُولُونَ : هَذَا ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمٌ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر ١٤ - ١٥]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا مَكْرُهُمُ الَّذِي اِسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا لَا يُجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : نُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَنَبْتَلِيهِمْ فِيهَا بِالْمَصَائِبِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُنِيبُونَ فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يُرَادُ بِهِمْ ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ عَادُوا إِلَى أَسْوَإِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ . ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : اِصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ وَلَا تُبَالِهِمْ ، فَإِنَّكَ بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ كِلَاءَتِنَا ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ **قَالَ الضَّحَّاكُ** : أَيْ : إِلَى الصَّلَاةِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اِسْمُكَ ، وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ . وَقَدْ رُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١) **عَنْ عُمَرَ** أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ . وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ(٢). **وَقَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ** : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيْ : مِنْ نَوْمِكَ مِنْ فِرَاشِكَ ، وَاخْتَارَهُ اِبْنُ جَرِيرٍ ، وَيَتَأَيَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِمَا وَرَدَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ اللهِ

---

(١) مسلم في طرق حديث (٣٩٩) .

(٢) حسن : أحمد في المسند (٣/ ٥٠) ، وأبو داود (٧٧٥) ، والترمذي (٢٤٢) ، والنسائي (٢/ ١٣٢) ، وابن ماجة (٨٠٤) .

ﷺ قَالَ : ((مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، سُبْحَانَ اللهِ ، وَالحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، ثُمَّ قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ قَالَ : ثُمَّ دَعَا - اُسْتُجِيبَ لَهُ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ))(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قِيلَ : مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ ، وَعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قَالَ : إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَالَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ .

وَعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِآخِرِ عُمُرِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ المَجْلِسِ : ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)) ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى قَالَ : ((كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي المَجْلِسِ))(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ بِالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ قِيلَ : إِنَّهُمَا الرَّكْعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِدْبَارِ النُّجُومِ ، أَيْ : عِنْدَ جُنُوحِهَا لِلْغَيْبُوبَةِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(٣) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكْعَتَي الْفَجْرِ . وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ : ((رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)) .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (١١٥٤) .
(٢) حسن : أخرجه أبو داود (٥ / ١٨٢) .
(٣) البخاري (١١٦٩) ، ومسلم (٧٢٤) .

تفسير سورة النجم

وهي مكية

عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ[1] قَالَ : أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ قَالَ : فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ : الْخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ . وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، **فَقِيلَ** : يَعْنِي بِالنَّجْمِ : الثُّرَيَّا إِذَا سَقَطَتْ مَعَ الْفَجْرِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ إِذَا رَمَى بِهِ الشَّيَاطِينَ ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَهُ اتِّجَاهٌ . **وَقِيلَ** : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ إِذَا نَزَلَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة ٧٥ - ٨٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ لَيْسَ بِضَالٍّ وَهُوَ : الْجَاهِلُ الَّذِي يَسْلُكُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَالْغَاوِي : هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَادِلُ عَنْهُ قَصْدًا إِلَى غَيْرِهِ ، فَنَزَّهَ اللهُ رَسُولَهُ وَشَرْعَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَى وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ ، وَهِيَ عِلْمُ الشَّيْءِ وَكِتْمَانُهُ وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ بَلْ هُوَ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَمَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أَيْ : مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوًى وَغَرَضٍ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

---

(١) البخاري (٤٨٦٣) ، ومسلم (٥٧٦) .

أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ ، يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ .

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ : عَلَّمَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاس ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير١٩ - ٢١]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أَيْ : ذُو قُوَّةٍ ، **وَقِيلَ** : ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُ عليه السلام ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ يَعْنِي : جِبْرِيلُ عليه السلام ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يَعْنِي : جِبْرِيلُ اسْتَوَى فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى . وَالْأُفُقُ الْأَعْلَى : الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الصُّبْحُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أَيْ : فَاقْتَرَبَ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ - حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابَ قَوْسَيْنِ ، أَيْ : بِقَدْرِهِمَا إِذَا مُدَّا . **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بُعْدَ مَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ إِلَى كَبِدِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللُّغَةِ لِإِثْبَاتِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَنَفْيِ مَا زَادَ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] أَيْ : مَا هِيَ بِأَلْيَنَ مِنَ الْحِجَارَةِ ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ ، وَكَذَا قَوْلِهِ : ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٧]

أَيْ : لَيْسُوا أَقَلَّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِائَةُ أَلْفٍ حَقِيقَةً أَوْ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا ، فَهَذَا تَحْقِيقٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ لَا شَكٌّ وَلَا تَرَدُّدَ فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ هَهُنَا ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ هَذَا الْمُقْتَرِبَ الدَّانِي الَّذِي صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ قَوْلُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، كَمَا سَنُورِدُ أَحَادِيثَهُمْ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ[1] **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ** : رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ ، فَجَعَلَ هَذِهِ إِحْدَاهُمَا ، وَجَاءَ فِي حَدِيثِ شَرِيكِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ عَنْ أَنَسٍ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ : « **ثُمَّ دَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى** » ، وَلِهَذَا قَدْ تَكَلَّمَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي مَتْنِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فِيهَا مِنَ الْغَرَابَةِ ، فَإِنْ صَحَّ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى وَقْتٍ آخَرَ وَقِصَّةٍ أُخْرَى ، لَا أَنَّهَا تَفْسِيرٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ كَانَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ لَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ** : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ فَهَذِهِ هِيَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ ، وَالْأُولَى كَانَتْ فِي الْأَرْضِ .

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيِّ[2] **قَالَ** : سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ[3] ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ حُلَّتَا رَفْرَفٍ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ يَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ مَعْنَاهُ : فَأَوْحَى جِبْرِيلُ إِلَى عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى ، أَوْ فَأَوْحَى اللهُ إِلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَى بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قَالَ : رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ[4].

---

(١) مسلم (حديث ١٧٦) .
(٢) البخاري (٣٢٣٢) ، ومسلم (١٧٤) .
(٣) البخاري (٣٢٣٣).
(٤) مسلم (حديث ١٧٦) .

وَقَدْ خَالَفَهُ اِبْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّهُ أَطْلَقَ الرُّؤْيَةَ ، وَهِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمُقَيَّدَةِ بِالْفُؤَادِ ، وَمَنْ رُوِيَ عَنْهُ بِالْبَصَرِ فَقَدْ أَغْرَبَ ، فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ[١] : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : ((**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**)) ، وَفِي رِوَايَةٍ ((**رَأَيْتُ نُورًا**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ . وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ بِطُرُقِهَا وَأَلْفَاظِهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ ((سُبْحَانَ)) بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

وَتَقَدَّمَ أَنَّ اِبْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - كَانَ يُثْبِتُ الرُّؤْيَةَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَيَسْتَشْهِدُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَتَابَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَقَدْ خَالَفَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ .

عَنْ عَامِرٍ[٢] **قَالَ** : أَتَى مَسْرُوقٌ عَائِشَةَ فَقَالَ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ ﷻ ؟ قَالَتْ : سُبْحَانَ اللهِ ، لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي لِمَا قُلْتَ ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ : مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] ، وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٤٣] الْآيَةَ . وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ .

---

(١) مسلم (حديث ١٧٨) .

(٢) البخاري بنحوه (٤٨٥٥) ، وأحمد (٦/ ٤٩) .

وَعَنْ مَسْرُوقٍ[1] **قَالَ** : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْهَا فَقَالَ : « **إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ** » لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ ، رَآهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عُظْمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ شَقِيقٍ[2] **قَالَ** : قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ ، لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ لَسَأَلْتُهُ ، قَالَ : وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُهُ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَسْأَلُهُ : هَلْ رَأَى رَبَّهُ ﷻ ؟ فَقَالَ : إِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ فَقَالَ : « **قَدْ رَأَيْتُهُ نُورًا أَنَّى أَرَاهُ** » .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ[3] : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : « **نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ** » . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[4] ﷺ : أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قَالَ : رَأَى جِبْرِيلَ ؈ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ غَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلُ الْغِرْبَانِ ، وَغَشِيَهَا نُورُ الرَّبِّ ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ مَا أَدْرِي مَا هِيَ ؟ **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ**[5] : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قَالَ : فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ : وَأُعْطِيَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثًا : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ قِيلَ : مَا ذَهَبَ يَمِينًا ، وَلَا شِمَالًا ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَهَذِهِ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أُمِرَ

---

(١) البخاري (٧٣٨٠) ، ومسلم (حديث ١٧٧) .

(٢) مسلم (حديث ١٧٨) .

(٣) مسلم (١٧٨) .

(٤) مسلم (١٧٥) .

(٥) أحمد في المسند (١/ ٤٢٢) ، ومسلم (١٧٣) .

بِهِ ، وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ النَّاظِمُ :

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا وَلَوْ ... رَأَى غَيْرُهُ مَا قَدْ رَآهُ لَتَاهَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه : ٢٣] أَيْ : الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا ، وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ تَقَعْ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ، وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ لَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ، وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ « سُبْحَانَ ».

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ، وَاتِّخَاذِهِمْ لَهَا الْبُيُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عليه السلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ ، وَكَانَتِ « **اللَّاتُ** » صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً ، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ وَحَوْلَهُ فِنَاءٌ مُعَظَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَكَانُوا قَدِ اشْتَقُّوا اسْمَهَا مِنَ اسْمِ اللهِ فَقَالُوا : اللَّاتَ ، يَعْنُونَ مُؤَنَّثَةً مِنْهُ - تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** - « اللَّاتُّ » بِتَشْدِيدِ التَّاءِ ، وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ : كَانَ رَجُلًا يَلُتُّ لِلْحَجِيجِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السَّوِيقَ ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ « اللَّاتِ وَالْعُزَّى » قَالَ** : كَانَ اللَّاتُّ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ سَوِيقَ الْحَاجِّ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَكَذَا **الْعُزَّى** مِنَ الْعَزِيزِ ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةِ

وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يُعَظِّمُونَهَا ، كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ : لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قُولُوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**))[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ حَلَفَ ، فَقَالَ فِي حَلِفِهِ : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أُقَامِرْكَ ، فَلْيَتَصَدَّقْ**))[2].

فَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ سَبَقَ لِسَانُهُ فِي ذَلِكَ ، كَمَا كَانَتْ أَلْسِنَتُهُمْ قَدِ اعْتَادَتْهُ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَأَمَّا مَنَاة : فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعَظِّمُونَهَا ، وَيُهِلُّونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ نَحْوَهُ[3].

وَقَدْ كَانَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا . طَوَاغِيتُ أُخَرُ ، تُعَظِّمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ غَيْرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهَا أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهَا .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ : وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ اتَّخَذَتْ مَعَ الْكَعْبَةِ طَوَاغِيتَ ، وَهِيَ بُيُوتٌ تُعَظِّمُهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ ، لَهَا سَدَنَةٌ وَحُجَّابٌ وَتُهْدِي لَهَا كَمَا تُهْدِي لِلْكَعْبَةِ ، وَتَطُوفُ بِهَا كَطَوَافِهَا بِهَا ، وَتَنْحَرُ عِنْدَهَا ، وَهِيَ تَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَمَسْجِدُهُ . **فَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ وَلِبَنِي كِنَانَةَ الْعُزَّى بِنَخْلَةٍ** ، وَكَانَ سَدَنَتُهَا وَحُجَّابُهَا بَنِي شَيْبَانَ مِنْ سُلَيْمٍ حُلَفَاءَ بَنِي هَاشِمٍ . **قُلْتُ** : بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَهَدَمَهَا وَجَعَلَ يَقُولُ :

يَا عُزَّى كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ

عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ[4] **قَالَ** : لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ ، بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةَ وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ فَقَطَعَ

---

(١) البخاري (٤٠٤٣) .
(٢) البخاري (٤٨٦٠) .
(٣) البخاري (٤٨٦١) .
(٤) حسن : أخرجه أبو يعلي (٢/ ١٩٦) .

السَّمُرَاتَ وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : ((**ارْجِعْ فَإِنَّك لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا**)) فَرَجَعَ خَالِدٌ ، فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُ السَّدَنَةُ - وَهُمْ حَجَبَتُهَا - أَمْعَنُوا فِي الْحِيَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا عُزَّى يَا عُزَّى ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا ، فَغَمَسَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : ((**تِلْكَ الْعُزَّى**)) .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَتِ اللَّاتُ لِثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ ، وَكَانَ سَدَنَتُهَا وَحُجَّابُهَا بَنِي مُعتبٍ . **قَالَ : وَكَانَتْ مَنَاةُ لِلأَوْسِ وَالخَزْرَجِ** ، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُشَلَّلِ بِقُدَيْدٍ ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهَا أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ ابْنَ حَرْبٍ فَهَدَمَهَا ، وَيُقَالُ : عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، **قَالَ : وَكَانَتْ ذُو الخَلَصَةِ لِدَوْسٍ** ، وَخَثْعَمَ ، وَبَجِيلَةَ ، وَمَنْ كَانَ بِبِلَادِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِتَبَالَةَ .

قُلْتُ : وَكَانَ يُقَالُ لَهَا الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَةُ ، وَلِلْكَعْبَةِ الَّتِي بِمَكَّةَ الْكَعْبَةُ الشَّامِيَّةُ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ فَهَدَمَهُ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ أَيْ : أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أُنْثَى وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذُّكُورَ ، أَيْ : لَوِ اقْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أَيْ : جَوْرًا بَاطِلَةً فَكَيْفَ تُقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقِينَ كَانَتْ جَوْرًا وَسَفَهًا .

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الكَذِبِ والافْتِرَاءِ وَالكُفْرِ ، مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أَيْ : مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ حُجَّةٍ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكُوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ قَبْلَهُمْ ، وَإِلَّا حَظَّ نُفُوسِهِمْ فِي رِيَاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمُ الْأَقْدَمِينَ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَمَعَ هَذَا مَا اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ وَلَا انْقَادُوا لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أَيْ : لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَمَنَّى خَيْرًا حَصَلَ لَهُ ﴿ لَّيْسَ

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء : ١٢٣] مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ كَمَا قَالَ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لله ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣] ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ الله ، وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَذِنَ فِيهَا ، بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهَا عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ ، وَأَنْزَلَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ ؟!

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ، وَجَعْلِهِمْ لَهَا أَنَّهَا بَنَاتُ الله - تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ بِصِدْقِ مَا قَالُوهُ ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَزُورٌ وَافْتِرَاءٌ وَكُفْرٌ شَنِيعٌ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يُجْدِي شَيْئًا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**))[1].

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أَيْ : أَعْرِضْ عَنِ الَّذِي أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ ، ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا ، فَذَاكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أَيْ : طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا ، هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالْعَالِمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا لَا فِي شَرْعِهِ وَلَا فِي قَدَرِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ أَيْ : يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَسَّرَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْكَبَائِرَ ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء : ٣١] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] قَالَ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) البخاري (٦٣٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) .

قَالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » . وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قَالَ : الَّذِي يُلِمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَدَعُهُ قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا أَيَّ عَبْـدٍ لَكَ مَـا أَلَمَّـا

وَعَنِ الحَسَنِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قَالَ : اللَّمَمُ مِنَ الزِّنَا أَوِ السَّرِقَةِ أَوْ شُرْبِ الخَمْرِ ثُمَّ لَا يَعُودُ . وَعَنْهُ أَيْضًا فِي هَذِهِ الآيَةِ قَالَ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ : هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ اللَّمَّةَ مِنَ الزِّنَا ، وَاللَّمَّةَ مِنَ شُرْبِ الخَمْرِ ، فَيَجْتَنِبُهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أَيْ : رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي سَتَصْدُرُ عَنْكُمْ وَتَقَعُ مِنْكُمْ ، حِينَ أَنْشَأَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ صُلْبِهِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، ثُمَّ قَسَمَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا لِلْجَنَّةِ وَفَرِيقًا لِلسَّعِيرِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ : قَدْ كَتَبَ المَلَكُ الَّذِي يُوَكَّلُ بِهِ : رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : تَمْدَحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتَمُنُّوا بِأَعْمَالِكُمْ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩]

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ : سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ » ، فَقَالُوا : بِمَ نُسَمِّيهَا ؟ قَالَ :

((**سَمُّوهَا زَيْنَبَ**))[١] .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللهُ حَسِيبُهُ ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى الله أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ**))[٢].

وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُثْمَانَ فَأَثْنَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ ، قَالَ : فَجَعَلَ المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ ، وَيَقُولُ : أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ إِذَا لَقِينَا المَدَّاحِينَ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ [٣].

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ الله ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة : ٣١-٣٢] ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : أَطَاعَ قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ ، كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا يَحْفِرُونَ بِئْرًا فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الحَفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ تَمَامِ العَمَلِ ، فَيَقُولُونَ : أَكْدَيْنَا ، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَعِنْدَ هَذَا الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ ، حَتَّى قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ ، فَهُوَ يَرَى ذَلِكَ عِيَانًا ؟ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ بُخْلًا وَشُحًّا وَهَلَعًا . وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩]

---

(١) مسلم (٢١٤٢) .

(٢) البخاري (٢٦٦٢) بنحوه .

(٣) مسلم (٢٢٩٧) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ ﴾ **قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ ، وَالثَّوْرِيُّ** : أَيْ : بَلَّغَ جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ . **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : ﴿ وَفَّىٰ ﴾ لله بِالْبَلَاغِ **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** ﴿ وَفَّىٰ ﴾ مَا أُمِرَ بِهِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَفَّىٰ ﴾ طَاعَةَ الله ، وَأَدَّى رِسَالَتَهُ إِلَى خَلْقِهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الَّذِي قَبْلَهُ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، فَقَامَ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، فَاسْتَحَقَّ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣]

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، فَقَالَ : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وِزْرُهَا لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر : ١٨] ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ وِزْرُ غَيْرِهِ ، كَذَلِكَ لَا يُحَصِّلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ ، **وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ الله – وَمَنِ اتَّبَعَهُ : أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَى الْمَوْتَى** ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا كَسْبِهِمْ ، وَلِهَذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيمَاءٍ ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَبَابُ الْقُرُبَاتِ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى النُّصُوصِ وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيِسَةِ وَالْآرَاءِ ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَى وُصُولِهِمَا ، وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ** »[1].

فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنَّ أَطْيَبَ

---

(١) مسلم (١٦٣١) .

مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ »[1].

وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ وَنَحْوِهِ ، هِيَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾[يس : ١٢] الْآيَةَ .

وَالْعِلْمُ الَّذِي نَشَرَهُ فِي النَّاسِ فَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا** »[2].

وقولُهُ : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة : ١٠٥] ، أَيْ : فَيُخْبِرُكُمْ بِهِ ، وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . **وَهَكَذَا قَالَ هُنَا** : ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أَيْ : الْأَوْفَرَ .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أَيْ : الْمَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أَيْ : خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ وَسَبَبُهُمَا وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ ، ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾[الملك : ٢] ، ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَيَحْسَبُ

(١) صحيح : بمجموع طرقه ، وأخرجه أبو داود (٣٥٢٨) وغيره وانظر أبو داود أيضًا (٣٥٢٩) .
(٢) مسلم (٢٦٧٤) .

ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا خَلَقَ الْبُدَاءَةَ ، هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ، وَهِيَ النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَيْ : مَلَّكَ عِبَادَهُ الْمَال ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قُنْيَةً مُقِيمًا عِنْدَهُمْ ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى بَيْعِهِ ، فَهَذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ مَوَّلَ ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَخْدَمَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَ ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أَفْقَرَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ هُوَ هَذَا النَّجْمُ الْوَقَّادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : ((مِرْزَمُ الْجَوْزَاء)) ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ .

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ هُمْ : قَوْمُ هُودٍ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : عَاد بْن إِرَم بْن سَام بْن نُوح ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] فَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ وَأَقْوَاهُمْ وَأَعْتَاهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦ - ٧] أَيْ : مُتَتَابِعَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : دَمَّرَهُمْ ، فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يَعْنِي : مَدَائِنُ قَوْمِ لُوطٍ ، قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] ، ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أَيْ : فَفِي أَيِّ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي ؟ .

هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾

وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩]

وَالنَّذِيرُ : الْحَذِرُ لِمَا يُعَايِنُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَخْشَى وُقُوعَهُ فِيمَنْ أَنْذَرَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[سبأ : ٤٦] ، وَفِي الْحَدِيثِ ((**أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَان**))[1] أَيْ : الَّذِي أَعْجَلَهُ شِدَّةُ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا ، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَجَاءَهُمْ عُرْيَانًا مُسْرِعًا ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴾ أَيْ : اقْتَرَبَتِ الْقَرِيبَةُ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أَيْ : لَا يَدْفَعُهَا إِذًا مِنْ دُونِ اللهِ أَحَدٌ وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى عِلْمِهَا سِوَاهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَهِّيهِمْ ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ مِنْهُ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا يَفْعَلُ الْمُوقِنُونَ بِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾[الإسراء:١٠٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ **قِيلَ الْمُرَادُ به** : الْغِنَاءُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ سَٰمِدُونَ ﴾ مُعْرِضُونَ ، **وَقِيلَ** : غَافِلُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ** ، وَالْعِبَادَةِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ أَيْ : فَاخْضَعُوا لَهُ وَأَخْلِصُوا وَوَحِّدُوهُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ ، وللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٦٤٨٢) ، ومسلم (٢٢٨٣) .
(٢) البخاري (٤٨٦٢) .

تفسيرُ سُورَةِ اقْتربَتْ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي وَاقِدٍ[1] : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بقاف وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْمَحَافِلِ الْكِبَارِ ؛ لِاشْتِمَالِهِمَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَبَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، وَالتَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ النُّبُوَّاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَرَاغِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ هَكَذَا** » ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[2].

وَعَنْ خَالِدِ بْن عُمَيْرٍ[3] **قَالَ** : خَطَبَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ : فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا ، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا ، فَانْتَقِلُوا مِنْهَا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .
(٢) البخاري (٥٣٠١) ، ومسلم (٢٩٥٠) .
(٣) مسلم (٢٩٦٧) .

فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا مَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا ، وَالله لَتُمْلَؤُنَّهُ أَفَعَجِبْتُمْ ، وَالله لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَام ...)) .

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ : نَزَلْنَا المَدَائِنَ فَكُنَّا مِنْهَا عَلَى فَرْسَخٍ ، فَجَاءَتِ الْجُمُعَةُ فَحَضَرَ أَبِي وَحَضَرتُ مَعَهُ ، فَخَطَبَنَا حُذَيْفَةُ فَقَالَ : أَلَا إِنَّ الله يَقُولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ أَلَا وَإِنَّ السَّاعَةَ قَدِ اقْتَرَبَتْ ، أَلَا وَإِنَّ الْقَمَرَ قَدِ انْشَقَّ ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِفِرَاقٍ ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدًا السِّبَاقُ ، فَقُلْتُ لِأَبِي : أَيَسْتَبِقُ النَّاسُ غَدًا ؟ فَقَالَ : يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَجَاهِلٌ ، إِنَّمَا هُوَ السِّبَاقُ بِالْأَعْمَالِ ، ثُمَّ جَاءَتِ الْجُمُعَةُ الْأُخْرَى ، فَحَضَرْنَا فَخَطَبَ حُذَيْفَةُ فَقَالَ : أَلَا إِنَّ الله ﷻ يَقُولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِفِرَاقٍ ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدًا السِّبَاقُ ، أَلَا وَإِنَّ الْغَايَةَ النَّارُ ، وَالسَّابِقُ مَنْ سَبَقَ إِلَى الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ .

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : ((خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ : الرُّومُ ، وَالدُّخَانُ ، وَاللِّزَامُ ، وَالْبَطْشَةُ ، وَالْقَمَرُ))[1] وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، أَنَّ : انْشِقَاقَ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا[2] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : انْشَقَّ الْقَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ[3].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ شِقَّتَيْنِ ، حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**اشْهَدُوا**))[4].

---

(١) البخاري (٤٧٦٧) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٧) ، ومسلم (٢٨٠٢) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٨) ، ومسلم (٢٨٠٣) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣٦) ، ومسلم (٢٨٠٠) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً ﴾ أَيْ : دَلِيلًا وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا ﴿ يُعْرِضُواْ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقَادُوا لَهُ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ وَيَتْرُكُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أَيْ : وَيَقُولُونَ هَذَا الَّذِي شَاهَدْنَاهُ مِنَ الْحُجَجِ سِحْرٌ سَحَرَنَا بِهِ ، وَمَعْنَى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أَيْ : ذَاهِبٌ ، أَيْ : بَاطِلٌ مُضْمَحِلٌّ لَا دَوَامَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرَتْهُمْ بِهِ آرَاؤُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةِ عَقْلِهِمْ ، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : مَعْنَاهُ : أَنَّ الْخَيْرَ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الْخَيْرِ ، وَالشَّرَّ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الشَّرِّ .

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : مُسْتَقِرٌّ بِأَهْلِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أَيْ : وَاقِعٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قَصَصِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ ، مِمَّا يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أَيْ : مَا فِيهِ وَاعِظٌ لَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وَالتَّمَادِي عَلَى التَّكْذِيبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ أَيْ : فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ هَدَاهُ ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ يَعْنِي : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي النُّذُرُ عَمَّنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ ؟ فَمَنِ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] ، وَكَذَلِكَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَتَوَلَّ يَا مُحَمَّدُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ، أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْهُمْ ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أَيْ : إِلَى شَيْءٍ مُنْكَرٍ فَظِيعٍ ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ بَلْ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ ،

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أَيْ : ذَلِيلَةً أَبْصَارُهُمْ ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ ، وَهِيَ الْقُبُورُ ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ وَسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِجَابَةً لِلدَّاعِي ، جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ فِي الْآفَاقِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ ﴿ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ لَا يُخَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ .

﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أَيْ : يَوْمٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩ - ١٠]

۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قَبْلَ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ أَيْ : صَرَّحُوا لَهُ بِالتَّكْذِيبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أَيْ : اُسْتُطِيرَ جُنُونًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أَيْ : انْتَهَرُوهُ وَزَجَرُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ ، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أَيْ : إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ أَنْتَ لِدِينِكَ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَهُوَ الْكَثِيرُ . ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أَيْ : نَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّى التَّنَانِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ النِّيرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أَيْ : مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أَيْ : أَمْرٍ مُقَدَّرٍ . **وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ كَثِيرٌ ، لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ ، وَلَا مِنَ السَّحَابِ ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَالْتَقَى الْمَاءَانِ

عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .

﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ هِيَ المَسَامِيرُ ، قَالَهُ الأَكْثَرُونَ ، **وَقِيلَ** : الدُّسُرُ : أَضْلَاعُ السَّفِينَةِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ صَدْرُهَا الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ المَوْجُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : بِأَمْرِنَا بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكَلَاءَتِنَا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً لَهُمْ . عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَانْتِصَارًا لِنُوحٍ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَبْقَى اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّ المُرَادَ مِنْ ذَلِكَ جِنْسَ السُّفُنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ - ١٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مَنْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَّعِظُ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ كَانَ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي وَكَذَّبَ رُسُلِي ، وَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ نُذُرِي ، وَكَيْفَ انْتَصَرْتُ لَهُمْ وَأَخَذْتُ لَهُمْ بِالثَّأْرِ ؟ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أَيْ : سَهَّلْنَا لَفْظَهُ ، وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ ، لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] .

قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ يَعْنِي : هَوَّنَّا قِرَاءَتَهُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : يَسَّرْنَا تِلَاوَتَهُ عَلَى الْأَلْسُنِ . **قُلْتُ** : وَمِنْ تَيْسِيرِهِ تَعَالَى عَلَى النَّاسِ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ مَا تَقَدَّمَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ ؟ **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ** : فَهَلْ مِنْ مُنْزَجِرٍ عَنِ المَعَاصِي ؟ **وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيْهِ ؟ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا ، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ نُوحٍ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ ﴿ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدُ ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِمْ ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ عَلَيْهِمْ نَحْسُهُ وَدَمَارُهُ ؛ لأَنَّهُ يَوْمٌ اتَّصَلَ فِيهِ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ بِالأُخْرَوِيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي أَحَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُ حَتَّى تُغَيِّبَهُ عَنِ الأَبْصَارِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَيَسْقُطُ إِلَى الأَرْضِ فَتَثْلَغُ رَأْسُهُ ، فَيَبْقَى جُثَّةً بِلَا رَأْسٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا ، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ يَقُولُونَ : لَقَدْ خِبْنَا وَخَسِرْنَا إِنْ سَلَّمْنَا كُلُّنَا قِيَادَنَا لِوَاحِدٍ مِنَّا ، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِلْقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ دُونِهِمْ ، ثُمَّ رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ فَقَالُوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أَيْ : مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ الْكَذِبِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أَيْ : اِخْتِبَارًا لَهُمْ ، أَخْرَجَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ نَاقَةً عَظِيمَةً عُشَرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ طِبْقَ مَا سَأَلُوا ؛ لِتَكُونَ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي تَصْدِيقِ صَالِحٍ ﷺ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ : ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرْ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أَيْ : يَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ لِلنَّاقَةِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : إِذَا غَابَتْ حَضَرُوا الْمَاءَ ، وَإِذَا جَاءَتْ حَضَرُوا اللَّبَنَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ **قَالَ الْمُفَسِّرُونَ** : هُوَ عَاقِرُ النَّاقَةِ ، وَاسْمُهُ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ ، وَكَانَ أَشْقَى قَوْمِهِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١٢] ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أَيْ : فَجَسَرَ ﴿ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أَيْ : فَعَاقَبْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي ؟ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ أَيْ : فَبَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا كَمَا يَهْمَدُ يَبِيسُ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَالْمُحْتَظِرُ هُوَ الْمَرْعَى بِالصَّحْرَاءِ حِينَ يَبِسَ وَتَحَرَّقَ وَنَسَفَتْهُ الرِّيحُ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : كَانَتِ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حِظَارًا عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي مِنْ يَبِيسِ الشَّوْكِ ، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾

فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ وَخَالَفُوهُ ، وَارْتَكَبُوا الْمَكْرُوهَ مِنْ إِتْيَانِ الذُّكُورِ ؛ وَهِيَ الْفَاحِشَةُ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ هَلَاكًا لَمْ يُهْلِكْهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ .

فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ جِبْرِيلَ عليه السلام بِحَمْلِ مَدَائِنِهِمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا ، وَأُتْبِعَتْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ، وَهِيَ : الْحِجَارَةُ ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ أَيْ : خَرَجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَنَجَوْا مِمَّا أَصَابَ قَوْمَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِلُوطٍ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، حَتَّى وَلَا امْرَأَتُهُ ، أَصَابَهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا ، وَخَرَجَ نَبِيُّ اللهِ لُوطٌ وَبَنَاتٌ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يَمْسَسْهُ سُوءٌ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بَأْسَ اللهِ وَعَذَابَهُ ، فَمَا الْتَفَتُوا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا أَصْغَوْا إِلَيْهِ ، بَلْ شَكُّوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ .

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ ذَلِكَ لَيْلَةَ وَرَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ جِبْرِيلُ ، وَمِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ فِي صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ ، مِحْنَةً مِنَ اللهِ بِهِمْ ، فَأَضَافَهُمْ لُوطٌ وَبَعَثَتِ امْرَأَتُهُ الْعَجُوزُ السُّوءُ إِلَى قَوْمِهَا ، فَأَعْلَمَتْهُمْ بِأَضْيَافِ لُوطٍ ، فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَأَغْلَقَ لُوطٌ دُونَهُمُ الْبَابَ ، فَجَعَلُوا يُحَاوِلُونَ كَسْرَ الْبَابِ ، وَذَلِكَ عَشِيَّةً ، وَلُوطٌ عليه السلام يُدَافِعُهُمْ وَيُمَانِعُهُمْ دُونَ أَضْيَافِهِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يَعْنِي : نِسَاءَهُمْ ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ، ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ [هود : ٧٩] أَيْ : لَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ أَرَبٌ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩]

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْحَالُ وَأَبَوْا إِلَّا الدُّخُولَ ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عليه السلام فَضَرَبَ أَعْيُنَهُمْ بِطَرَفِ جَنَاحِهِ ، فَانْطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ . يُقَالُ : إِنَّهَا غَارَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ عُيُونٌ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَرَجَعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْحِيطَانِ ، وَيَتَوَعَّدُونَ لُوطًا عليه السلام إِلَى الصَّبَاحِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أَيْ: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا انفِكَاكَ لَهُمْ مِنْهُ، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ بِالْبِشَارَةِ إِنْ آمَنُوا، وَالنِّذَارَةِ إِنْ كَفَرُوا، وَأَيَّدَهُمَا بِمُعْجِزَاتٍ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَكَذَّبُوا بِهَا كُلِّهَا، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، أَيْ: فَأَبَادَهُمُ اللهُ وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مُخْبِرًا وَلَا عَيْنًا وَلَا أَثَرًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أَيْ: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ ﴾ يَعْنِي: مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، مِمَّنْ أُهْلِكُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَكُفْرِهِمْ بِالْكُتُبِ، أَأَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ؟ ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَيْ: أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللهِ بَرَاءَةٌ أَنْ لَا يَنَالَكُمْ عَذَابٌ وَلَا نَكَالٌ؟

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أَيْ: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَاصَرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنَّ جَمْعَهُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ مَنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أَيْ سَيَتَفَرَّقُ شَمْلُهُمْ وَيُغْلَبُونَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ «**أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

---

(١) البخاري (٤٨٧٥)، (٤٨٧٧).

وَعَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ قَالَ[1] : إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَتْ : نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَكَّةَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُنَا تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ ، وَسُعُرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالِاضْطِرَابِ فِي الْآرَاءِ ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أَيْ : كَمَا كَانُوا فِي سُعُرٍ وَشَكٍّ وَتَرَدُّدٍ ، أَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ النَّارَ ، وَكَمَا كَانُوا ضُلَّالًا يُسْحَبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ١ - ٣] أَيْ : قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدَرِ اللهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بَرْئِهَا** ، وَرَدُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الثَّابِتَاتِ عَلَى الْفِرْقَةِ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ نَبَغُوا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ ، وَلْنَذْكُرْ هَهُنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

---

(١) البخاري (٤٨٧٦) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] قَالَ : جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدَرِ ، فَنَزَلَتْ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وَعَنْ طَاوُسٍ الْيَمَانِي قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ))[2].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((اِسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ فَإِنْ أَصَابَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، وَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا ، فَإِنَّ ((لَوْ)) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))[3].

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ : ((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ ، جَفَّتُ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتُ الصُّحُفُ))[4].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو[5] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) زَادَ ابْنُ وَهْبٍ ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ ، وَهُوَ إِخْبَارٌ عَنْ نُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوذِ قَدَرِهِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ إِنَّمَا نَأْمُرُ بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِثَانِيَةٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يَعْنِي أَمْثَالَكُمْ ، وَسَلَفَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ بِمَا أَخْزَى اللهُ أُولَئِكَ

---

(١) مسلم (٢٦٥٦) .
(٢) مسلم (٢٦٥٥) .
(٣) مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .
(٤) صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي (٢٥١٦) بنحوه .
(٥) مسلم (٢٦٥٣) .

وَقَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ : ٥٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَيْ : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ أَيْ : مَجْمُوعٌ عَلَيْهِمْ ، وَمُسَطَّرٌ فِي صَحَائِفِهِمْ ، لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أَيْ : بِعَكْسِ مَا الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالسُّعُرِ ، وَالسَّحْبُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أَيْ : فِي دَارِ كَرَامَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَفَضْلِهِ ، وَامْتِنَانِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أَيْ : عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُقَدِّرِهَا ، وَهُوَ مُقْتَدِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا يَطْلُبُونَ وَيُرِيدُونَ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((**الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**))[1] .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((اقْتَرَبَتْ))
وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

(١) صحيح : وقد أخرجه مسلم (١٨٢٧) بنحوه .

تفسيرُ سُورَةِ الرَّحْمنِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

عَنْ زِرٍّ[1] ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابنِ مَسْعُودٍ : كَيْفَ تَعْرِفُ هَذَا الْحَرْفَ : ((مَاءٌ غَيْرُ آسِنٍ)) أَوْ يَاسِنٍ ؟ فَقَالَ : كُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ قَرَأْتَ ؟ قَالَ : إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ أَجْمَعُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ : أَهَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ ، لَا أَبَا لَكَ ؟ قَدْ عَلِمْتُ قَرَائِنَ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَقْرِنُ قَرِينَتَيْنِ قَرِينَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْمُفَصَّلِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مُفَصَّلِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْقُرْآنَ ، وَيَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهْمَهُ عَلَى مَنْ رَحِمَهُ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ** : يَعْنِي : النُّطْقَ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا** : يَعْنِي : الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَقَوْلُ الْحَسَنِ هَهُنَا أَحْسَنُ وَأَقْوَى ؛ لأَنَّ السِّيَاقَ فِي تَعْلِيمِهِ - تَعَالَى - الْقُرْآنَ ، وَهُوَ أَدَاءُ تِلَاوَتِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَيْسِيرِ النُّطْقِ عَلَى الْخَلْقِ ، وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَلْقِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ ، عَلَى اخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَأَنْوَاعِهَا .

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (١/ ٤١٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أَيْ : يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَضْطَرِبُ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس : ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[الأنعام : ٩٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّ الشَّجَرَ مَا قَامَ عَلَى سَاقٍ ، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : النَّجْمُ مَا انْبَسَطَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، يَعْنِي مِنَ النَّبَاتِ ، وَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - **وَقِيلَ** : النَّجْمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ . وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[الحج : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ، يَعْنِي : الْعَدْلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ **وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ أَيْ : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ أَيْ : لَا تَبْخَسُوا الْوَزْنَ بَلْ زِنُوا بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء : ١٨٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أَيْ : كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ وَضَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشَّامِخَاتِ ، لِتَسْتَقِرَّ لِمَا عَلَى وَجْهِهَا مِنَ الْأَنَامِ ، وَهُمُ الْخَلَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ ، فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أَيْ : مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ ؛ لِشَرَفِهِ وَنَفْعِهِ ، رُطَبًا وَيَابِسًا ، وَالْأَكْمَامُ : هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ القِنْو ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ الْعُنْقُودِ فَيَكُونُ بُسْرًا ، ثُمَّ رُطَبًا ، ثُمَّ يَنْضَجُ وَيَتَنَاهَى نَفْعُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ . **وَقِيلَ** : الْأَكْمَامُ : رُفَاتُهَا ، وَهُوَ اللِّيفُ الَّذِي عَلَى عُنُقِ النَّخْلَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ : يَعْنِي : التِّبْنَ . **وَقِيلَ** : ﴿ ٱلْعَصْفِ ﴾ : وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ الَّذِي قُطِعَ رُءُوسُهُ ، فَهُوَ يُسَمَّى الْعَصْفُ إِذَا يَبِسَ . **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ يَعْنِي : الْوَرَق ، **وَقِيلَ** : خُضْرُ الزَّرْعِ ، وَمَعْنَى هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْحَبَّ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا ، لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ ، وَهُوَ : مَا عَلَى السُّنْبُلَةِ ، وَرَيْحَانٌ ، وَهُوَ : الْوَرَقُ الْمُلْتَفُّ عَلَى سَاقِهَا ، **وَقِيلَ** : الْعَصْفُ : الْوَرَقُ أَوَّلَ مَا يُنْبِتُ الزَّرْعُ بَقْلًا ، وَالرَّيْحَانُ : وَالْوَرَقُ ، يَعْنِي : إِذَا أَدْجَنَ وَانْعَقَدَ فِيهِ الْحَبُّ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أَيْ : فَبِأَيِّ الْآلَاءِ يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تُكَذِّبَانِ ؟ أَيْ : النِّعَمُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا ، لَا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا ، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ : اللَّهُمَّ ؛ وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ ، فَلَكَ الْحَمْدُ ، **وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ** : لَا بِأَيِّهَا يَا رَبِّ ، أَيْ : لَا نُكَذِّبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا .

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلْقَهُ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَهُوَ : طَرَفُ لَهَبِهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ مِنْ خَالِصِ النَّارِ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** »[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٩٩٦)

يَعْنِي : مَشْرِقَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَمَغْرِبَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ﴾[المعارج : ٤٠] ، وَذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مَطَالِعِ الشَّمْسِ وَتَنَقُّلِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَبُرُوزِهَا مِنْهُ إِلَى النَّاسِ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾[المزمل: ٩] ، وَهَذَا الْمُرَادُ مِنْهُ جِنْسُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَصَالِحُ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴾ **أَيْ** : أَرْسَلَهُمَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَلۡتَقِيَانِ ﴾ **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : أَيْ مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا ، بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَرْزَخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ الْمِلْحُ وَالْحُلْوُ ، فَالْحُلْوُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ « الْفُرْقَانِ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾[الفرقان : ٥٣] ، **وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا** : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَحْرَيْنِ : بَحْرُ السَّمَاءِ وَبَحْرُ الْأَرْضِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾ **أَيْ** : وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ، وَهُوَ : الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ ، لِئَلَّا يَبْغِيَ هَذَا عَلَى هَذَا ، وَهَذَا عَلَى هَذَا ، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ **أَيْ** : مِنْ مَجْمُوعِهِمَا فَإِذَا وُجِدَ ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا كَفَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، وَالرُّسُلُ إِنَّمَا كَانُوا فِي الْإِنْسِ خَاصَّةً دُونَ الْجِنِّ ، وَقَدْ صَحَّ هَذَا الْإِطْلَاقُ . وَاللُّؤْلُؤُ مَعْرُوفٌ . **وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ** : هُوَ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، **وَقِيلَ** : كِبَارُهُ وَجَيِّدُهُ . **وَقِيلَ** : هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرُ اللَّوْنِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا ﴾[فاطر : ١٢] ، فَاللَّحْمُ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْأُجَاجِ وَالْعَذْبِ ، وَالْحِلْيَةُ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَالِحِ دُونَ الْعَذْبِ . وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْحِلْيَةِ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾، يَعْنِي: السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: مَا رُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَأَةٌ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ يَعْنِي: الْمَخْلُوقَاتُ، **وَقَالَ غَيْرُهُ**: الْمُنْشِئَاتُ بِكَسْرِ الشِّينِ يَعْنِي: الْبَادِئَاتُ ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ أَيْ: كَالْجِبَالِ فِي كِبَرِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ الْمَنْقُولَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، مِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ لِلنَّاسِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْبَضَائِعِ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَمُوتُ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا. **قَالَ قَتَادَةُ**: أَنْبَأَ بِمَا خَلَقَ ثُمَّ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَانٍ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: **يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ**.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَصَدِّقِينَ: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩]

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ **قَالَ**: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ ، وَافْتِقَارُ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ ، وَأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ **قِيلَ** : مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا ، أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا ، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا ، أَوْ يَشْفِيَ سَقِيمًا . **وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ** : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا ، وَيَكْشِفُ كَرْبًا ، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا ، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي حَيًّا ، وَيُمِيتُ مَيِّتًا ، وَيُرَبِّي صَغِيرًا ، وَيَفُكُّ أَسِيرًا ، وَهُوَ مُنْتَهَى حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ وَصَرِيخِهِمْ ، وَمُنْتَهَى شَكْوَاهُمْ .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ قَالَ : وَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَادِ ، وَلَيْسَ بِاللهِ شُغْلٌ ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : سَيُحَاسِبُكُمْ ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، يُقَالُ : لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ وَمَا بِهِ شُغْلٌ ، يَقُولُ : لَآخُذَنَّكَ عَلَى غِرَّتِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ الثَّقَلَانُ : الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : « **يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ** »[1] وَفِي رِوَايَةٍ « **إِلَّا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ** » وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ « **الثَّقَلَانُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ** » ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) البخاري (حديث ١٣٣٨) .

وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : لَا تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ الله وَقَدَرِهِ ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ حُكْمِهِ ، وَلَا النُّفُوذِ عَنْ حُكْمِهِ فِيكُمْ ، أَيْنَمَا ذَهَبْتُمْ أُحِيطَ بِكُمْ ، وَهَذَا فِي مَقَامِ المَحْشَرِ ، المَلَائِكَةُ مُحْدِقَةٌ بِالخَلَائِقِ ، سَبْعُ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الذَّهَابِ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أَيْ : إِلَّا بِأَمْرِ الله ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة ١٠ - ١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٧]

وَلِهَذَا قَالَ . ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ **قِيلَ** : الشُّوَاظُ : هُوَ لَهَبُ النَّارِ ، **وَقِيلَ** : الشُّوَاظُ : الدُّخَانُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ اللَّهِيبُ الأَخْضَرُ المُنْقَطِعُ . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ **قِيلَ** : دُخَانُ النَّارِ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالعَرَبُ تُسَمِّي الدُّخَانَ نُحَاسًا بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِهَا ، وَالقُرَّاءُ مُجْمِعَةٌ عَلَى الضَّمِّ . **وَقِيلَ** : النُّحَاسُ : الصُّفْرُ ، يُذَابُ فَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ سَيْلٌ مِنْ نُحَاسٍ ، **وَالمَعْنَى عَلَى كُلِّ قَوْلٍ** : لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمُ المَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِرْسَالِ اللَّهَبِ مِنَ النَّارِ وَالنُّحَاسِ المُذَابِ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يَوْمَ القِيَامَةِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَاتُ مَعَ

مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق ١ - ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ أَيْ : تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا ، فَتَارَةً حَمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزَرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ ، وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ . ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ **قِيلَ** : تَغَيَّرَ لَوْنُهَا . **وَقِيلَ** : تَكُونُ أَلْوَانًا ، **وَقِيلَ** : كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ ، **وَقِيلَ** : تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدُّهْنِ الذَّائِبِ ، وَذَلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات ٣٥ - ٣٦] ، فَهَذَا فِي حَالٍ ، وَثَمَّ فِي حَالٍ يَسْأَلُ الْخَلَائِقَ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣]

وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قَالَ : قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ ، ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . **وَقِيلَ** : لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟. فَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ . **وَقِيلَ** : لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُجْرِمِينَ بَلْ يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمْ ، وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ . وَكَأَنَّ هَذَا بَعْدَمَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، بَلْ يُقَادُونَ إِلَيْهَا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ** : يَعْرِفُونَهُمْ بِاسْوِدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ . **قُلْتُ** : وَهَذَا كَمَا يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ أَيْ : تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ ، وَيُلْقُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ . ﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا ، هَا هِيَ حَاضِرَةٌ تُشَاهِدُونَهَا عِيَانًا ؛ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ

تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : تَارَةً يُعَذَّبُونَ فِي الْجَحِيمِ ، وَتَارَةً يُسْقَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنُّحَاسِ الْمُذَابِ يُقَطِّعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر ٧١ - ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَانٍ ﴾ أَيْ : حَارٌّ ، قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ ، لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : قَدِ انْتَهَى غَلْيُهُ وَاشْتَدَّ حَرُّهُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : حَاضِرٍ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا ، وَالْحَاضِرُ لَا يُنَافِي أَنَّهُ الْحَارُّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ [الغاشية : ٥] أَيْ : شَدِيدَةِ الْحَرِّ لَا تُسْتَطَاعُ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، يَعْنِي : اسْتِوَاءَهُ وَنُضْجَهُ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أَيْ : حَمِيمٌ حَارٌّ جِدًّا .

وَلَمَّا كَانَ مُعَاقَبَةُ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ ، وَكَانَ إِنْذَارُهُ لَهُمْ عَذَابَهُ وَبَأْسَهُ مِمَّا يَزْجُرُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَالَ مُمْتَنًّا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾

الصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ . يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ بَيْنَ يَدَي الله ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠] ، وَلَمْ يَطْغَ وَلَا آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، فَأَدَّى فَرَائِضَ الله ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ** : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ**

وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ إِلَّا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ))[1] .

وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا ، وَلِهَذَا امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ثُمَّ نَعَتَ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ **فَقَالَ** : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ أَيْ : أَغْصَانٌ نَضِرَةٌ حَسَنَةٌ ، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةً فَائِقَةً ، **وَقِيلَ** : أَنَّ الْأَفْنَانَ أَغْصَانُ الشَّجَرِ ، يَمَسُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ظِلُّ الْأَغْصَانِ عَلَى الْحِيطَانِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ذَوَاتَا أَلْوَانٍ ، **وَقَالَ عَطَاءٌ** : كُلُّ غُصْنٍ يَجْمَعُ فُنُونًا مِنَ الْفَاكِهَةِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ يُنْبِئُ بِسَعَتِهَا وَفَضْلِهَا وَمَزِيَّتِهَا عَلَى مَا سِوَاهَا . ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أَيْ : تَسْرَحَانِ لِسَقْيِ تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا : تَسْنِيمٌ ، وَالْأُخْرَى : السَّلْسَبِيلُ . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَخَيْرٌ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ الْجَنَّةِ ، وَالْمُرَادُ بِالِاتِّكَاءِ هَهُنَا : الِاضْطِجَاعُ ، وَيُقَالُ : الْجُلُوسُ عَلَى صِفَةِ التَّرَبُّعِ ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ، وَهُوَ مَا

---

(١) البخاري (٤٨٧٨) .

غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ ، **وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيّ** : هُوَ الدِّيبَاجُ الْمُغَرَّى بِالذَّهَبِ ، فَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِ الظِّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبِطَانَةِ ، فَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أَيْ : ثَمَرُهُمَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ مَتَى شَاءُوا تَنَاوَلُوهُ ، عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٢٣] ، وَقَالَ : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٤] أَيْ : لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ تَنَاوَلَهَا بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَلَمَّا ذَكَرَ الفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أَيْ : فِي الْفُرُشِ ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أَيْ : بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ ، لَمْ يَطَأْهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ ، **وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الجِنِّ الجَنَّةَ** . ثُمَّ قَالَ يَنْعَتُهُنَّ لِلْخُطَّابِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ ، وَبَيَاضِ المَرْجَانِ ، فَجَعَلُوا المَرْجَانَ هَهُنَا اللُّؤْلُؤَ .

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَاكَرُوا : الرِّجَالُ أَكْثَرُ فِي الجَنَّةِ أَمِ النِّسَاءُ ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَوَلَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ : « **إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى ضَوْءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ ، وَمَا فِي الجَنَّةِ أَعْزَبُ** »(١).

وَعَنْ أَنَسٍ(٢) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدِّهِ** »- يَعْنِي سَوْطَهُ - « **مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا ، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أَيْ : مَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الإِحْسَانَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا

(١) مسلم (٢٨٣٤) .
(٢) البخاري (٢٧٩٦) ، وانظر المسند (٣/ ١٤١) .

ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذُكِرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوِمُهَا عَمَلٌ بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ « **جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا** »[1] فَالْأُولَيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَالْأُخْرَيَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ **أَبُو مُوسَى** : جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَقَالَ **ابْنُ عَبَّاسٍ** : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ مِنْ دُونِهِمَا فِي الدَّرَجِ ، وَقَالَ **ابْنُ زَيْدٍ** : مِنْ دُونِهِمَا فِي الْفَضْلِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى شَرَفِ الْأُولَيَيْنِ عَلَى الْأُخْرَيَيْنِ وُجُوهٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ نَعَتَ الْأُولَيَيْنِ قَبْلَ هَاتَيْنِ ، وَالتَّقْدِيمُ يَدُلُّ عَلَى الاعْتِنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي شَرَفِ التَّقَدُّمِ وَعُلُوِّهِ عَلَى الثَّانِي ، وَقَالَ هُنَاكَ : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ، وَهِيَ الْأَغْصَانُ أَوِ الْفُنُونُ فِي الْمَلَاذِّ ، وَقَالَ **هَهُنَا** : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أَيْ سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ . وَقَالَ **عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ خَضْرَاوَانِ ، وَقَالَ **مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** :

---

(١) البخاري (٤٨٧٨) .

﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ مُمْتَلِئَتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : خَضْرَاوَانِ مِنَ الرِّيِّ نَاعِمَتَانِ ، وَلَا شَكَّ فِي نَضَارَةِ الْأَغْصَانِ عَلَى الْأَشْجَارِ الْمُشْتَبِكَةِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ . وَقَالَ هُنَاكَ : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قِيلَ : أَيْ : فَيَّاضَتَانِ ، وَالْجَرْيُ أَقْوَى مِنَ النَّضْخِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أَيْ : مُمْتَلِئَتَانِ وَلَا تَنْقَطِعَانِ . وَقَالَ هُنَاكَ : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُولَى أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَى فَاكِهَةٍ ، وَهِيَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعُمُّ ، وَلِهَذَا لَيْسَ قَوْلُهُ : ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، كَمَا قَرَّرَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ النَّخْلَ وَالرُّمَّانَ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، **وَقِيلَ** : خَيْرَاتٌ ، جَمْعُ خَيْرَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾ ، وَهُنَاكَ قَالَ : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصَرَتْ طَرْفَهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قُصِرَتْ ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ**)) وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[2] مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ بِهِ وَلَفْظُهُ : ((**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُهُ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سَوَاءً ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

---

(١) البخاري (٣٢٤٣) .

(٢) مسلم (٢٨٣٨) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُتَّكِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : الرَّفْرَفُ : المَحَابِسُ ، **وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ زَيْدٍ** : الرَّفْرَفُ عَلَى السَّرِيرِ ، كَهَيْئَةِ المَحَابِسِ المُتَدَلِّي ، **وَقِيلَ** : ﴿ مُتَّكِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يَعْنِي : الْوَسَائِدَ ، **وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مُتَّكِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ قَالَ : الرَّفْرَفُ : رِيَاضُ الْجَنَّةِ ،

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْعَبْقَرِيُّ : الزَّرَابِيُّ : **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : هِيَ عِتَاقُ الزَّرَابِيِّ ، يَعْنِي : جِيَادَهَا ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : الْعَبْقَرِيُّ : الدِّيبَاجُ ، **وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ ، فَقَالَ : هِيَ بُسُطُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - لَا أَبَا لَكُمْ - فَاطْلُبُوهَا ، **وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ** : العَبْقَرِيُّ : أَحْمَرُ وأَصْفَرُ وأَخْضَرُ . وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ : كُلُّ ثَوْبٍ مُوَشًّى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ ، **وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ** : هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى أَرْضٍ يُعْمَلُ بِهَا الْوَشْيُ ، **وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ** : كُلُّ شَيْءٍ يُسَرُّ مِنَ الرِّجَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُسَمَّى عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيًّا ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُمَرَ : ((**فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ**))[1] ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ، فَصِفَةُ مَرَافِقِ أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَرْفَعُ وَأَعْلَى مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ هُنَاكَ : ﴿ مُتَّكِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَنَعَتَ بَطَائِنَ فُرُشِهِمْ وَسَكَتَ عَنْ ظَهَائِرِهَا ، اِكْتِفَاءً بِمَا مَدَحَ بِهِ الْبَطَائِنَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، **وَتَمَامُ الْخَاتِمَةِ** أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ الصِّفَاتِ المُتَقَدِّمَةِ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فَوَصَفَ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ أَعْلَى المَرَاتِبِ وَالنِّهَايَاتِ كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ[2] ، لَمَّا سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ الْإِيمَانِ ، ثُمَّ الْإِحْسَانِ ، فَهَذِهِ وُجُوهٌ عَدِيدَةٌ فِي تَفْضِيلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ عَلَى هَاتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ ، وَنَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ الْوَهَّابَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْأُولَيَيْنِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أَيْ : هُوَ أَهْلٌ ، أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدَ ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ، **وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ : ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ . **عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ** :

---

(١) البخاري (٣٦٦٤) ، ومسلم (٢٣٩٢) .

(٢) البخاري (حديث ٥٠) ، ومسلم (حديث ٨ ، ٩) .

سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : ((**أَلِظُّوا بِذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**))[1] ، **وَقَالَ الجَوْهَرِيُّ** : أَلَظَّ فُلَانٌ بِفُلَانٍ : إِذَا لَزِمَهُ ، **وَيُقَالُ** : الإِلْظَاظُ هُوَ الإِلْحَاحُ .

قُلْتُ : وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الآخَرِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - وَهُوَ المُدَاوَمَةُ وَاللُّزُومُ وَالإِلْحَاحُ ، وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ ، يَعْنِي : بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**))[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٤/١٧٧) .
(٢) مسلم (٥٩١) .

تفسير سورة الواقعة
وهي مكية

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوٍ مِنْ صَلَاتِكُمُ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخَفَّ مِنْ صَلَاتِكُمْ ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ « **الْوَاقِعَةَ** » وَنَحْوَهَا مِنَ السُّوَرِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

الْوَاقِعَةُ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة : ١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِوُقُوعِهَا - إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهَا - صَارِفٌ يَصْرِفُهَا وَلَا دَافِعٌ يَدْفَعُهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٧] ، وَقَالَ : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج : ١ - ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ٧٣] ، وَمَعْنَى ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَيْسَ فِيهَا مَثْنَوِيَّةٌ وَلَا ارْتِدَادٌ وَلَا رَجْعَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أَيْ : تَخْفِضُ أَقْوَامًا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعِزَّاءَ ، وَتَرْفَعُ آخَرِينَ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَإِنْ

كَانُوا فِي الدُّنْيَا وُضَعَاءَ . **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : تَخْفِضُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ وَتَرْفَعُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَخْفُوضِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أَيْ : حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أَيْ : زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أَيْ : فُتِّتَتْ فَتًّا ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : صَارَتِ الْجِبَالُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ قِيلَ : كَرَهْجِ الْغُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ ، **وَقِيلَ** : **الْهَبَاءُ** : الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَتْ ، يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرَرُ ، فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، **وَقِيلَ** : **الْمُنْبَثُّ** : الَّذِي قَدْ ذَرَتْهُ الرِّيحُ وَبَثَّتْهُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ كَيَبِيسِ الشَّجَرِ الَّذِي تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَأَخَوَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذَهَابِهَا وَتَسْيِيرِهَا وَنَسْفِهَا وَصَيْرُورَتِهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ أَيْ : **يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ** : **قَوْمٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ** : وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْمَنِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَهُمْ جُمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ : وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْسَرِ ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ . **وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ** ﷻ : وَهُمْ أَخَصُّ وَأَحْظَى وَأَقْرَبُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ ، وَهَكَذَا قَسَّمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقْتَ احْتِضَارِهِمْ ، وَهَكَذَا ذَكَرَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ

ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] الْآيَة . وَذَلِكَ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ **قِيلَ** : هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، **وَقِيلَ** : يُوشَعُ ابْنُ نُونٍ سَبَقَ إِلَى مُوسَى ، وَمُؤْمِنُ آلِ « يس » سَبَقَ إِلَى عِيسَى ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَبَقَ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، **وَقِيلَ** : أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أُمِرُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد : ٢١] ، فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَسَبَقَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وَ ﴿ ٱلْآخِرِينَ ﴾ **فَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ : الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ ، وَبِالْآخِرِينَ : هَذِهِ الْأُمَّةُ . وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَاسْتَأْنَسَ بِقَوْلِهِ ﷺ : « **نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[1] ، وَلَمْ يَحْكِ غَيْرَهُ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَهَذَا الَّذِي اِخْتَارَهُ اِبْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا فِيهِ نَظَرٌ ، بَلْ هُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، فَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّبُونَ فِي غَيْرِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَابِلَ مَجْمُوعُ الْأُمَمِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . فَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ الرَّاجِحُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمُزَنِيِّ** : سَمِعْتُ الْحَسَنَ أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فَقَالَ : أَمَّا السَّابِقُونَ فَقَدْ مَضَوْا ، وَلَكِنِ اللَّهُمَّ اِجْعَلْنَا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ .

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ قَالَ : كَانُوا يَقُولُونَ أَوْ يَرْجُونَ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعُمَّ الْآيَةُ جَمِيعَ الْأُمَمِ ، كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسْبِهَا ، وَلِهَذَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**))[(١)].

وَالْغَرَضُ : أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَالْمُقَرَّبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا وَأَعْلَى مَنْزِلَةٍ ، لِشَرَفِ دِينِهَا وَعِظَمِ نَبِيِّهَا ، وَلِهَذَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ[(٢)] وَفِي لَفْظٍ ((**مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا**)) وَفِي آخَرِ ((**مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا**))[(٣)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : مَرْمُولَةٌ بِالذَّهَبِ ، يَعْنِي مَنْسُوجَةٌ بِهِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : مَرْمُولَةٌ بِالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ أَيْ : وُجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أَيْ : مُخَلَّدُونَ عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا يَكْبُرُونَ عَنْهَا وَلَا يَشِيبُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أَمَّا الْأَكْوَابُ

---

(١) البخاري (٣٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) ، ولفظه ((خير الناس قرني ..)) ، وفي لفظ ((خير أمتي قرني ..)).

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

فَهِيَ : الْكِيزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانَ ، وَالْأَبَارِيقُ : الَّتِي جَمَعَتِ الْوَصْفَيْنِ ، وَالْكُؤُوسُ : الهِنَابَاتُ ، وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمْرٍ مِنْ عَيْنٍ جَارِيَةٍ مَعِينٍ ، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقَطِعُ وَتَفْرُغُ ، بَلْ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ .

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أَيْ : لَا تُصَدَّعُ رُءُوسُهُمْ وَلَا تُنْزَفُ عُقُولُهُمْ ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ . وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ . ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أَيْ : وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثِّمَارِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى صِفَةِ التَّخَيُّرِ لَهَا .

عَنْ أَنَسٍ ﷺ[1] **قَالَ** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا ، فَرُبَّمَا رَأَى الرَّجُلُ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ ، فَإِذَا أُثْنَى عَلَيْهِ مَعْرُوفًا كَانَ أَعْجَبُ لِرُؤْيَاهُ إِلَيْهِ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ فَأُخْرِجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً اِنْتَحَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، وَفُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، فَسَمَّتِ اِثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ بَعَثَ سَرِيَّةً قَبْلَ ذَلِكَ ، فَجِيءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طُلْسٌ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُمْ ، فَقِيلَ : اِذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهَرِ الْبَيْدَخِ أَوِ الْبَيْذَخِ ، قَالَ : فَغُمِسُوا فِيهِ ، فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَأَتَوْا بِصَحْفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسْرٌ ، فَأَكَلُوا مِنْ بُسْرِهِ مَا شَاءُوا ، فَمَا يُقَلِّبُونَهَا مِنْ وَجْهٍ إِلَّا أَكَلُوا مِنَ الْفَاكِهَةِ مَا أَرَادُوا ، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ فَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ أَمْرِنَا كَذَا وَكَذَا ، فَأُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَرْأَةَ فَقَالَ : ((**قُصِّي رُؤْيَاكِ**)) فَقَصَّتْهَا ، وَجَعَلَتْ تَقُول : فَجِيءَ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ . كَمَا قَالَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَلَهُمْ فِيهَا حُورٌ عِينٌ . **وَقِرَاءَةُ الْجَرِّ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا** : أَنْ يَكُونَ الْإِعْرَابُ عَلَى الْإِتْبَاعِ بِمَا قَبْلَهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱمْسَحُوا

---

(١) **إسناده صحيح** : أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥ و٢٥٧) .

بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [الإنسان : ٢١] ، **وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي** : أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَطُوفُ بِهِ الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ عَلَيْهِمُ الْحُورُ الْعِينُ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْقُصُورِ ، لَا بَيْنَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، بَلْ فِي الْخِيَامِ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخُدَّامُ بِالْحُورِ الْعِينِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَمْثَلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ الرُّطَبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي ((سُورَةِ الصَّافَّاتِ)) : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات:٤٩] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي ((سُورَةِ الرَّحْمَنِ)) وَصْفُهُنَّ أَيْضًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَتْحَفْنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ . ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴾ أَيْ : لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَاغِيًا ، أَيْ : غَثًّا خَالِيًا عَنِ الْمَعْنَى ، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنًى حَقِيرٍ أَوْ ضَعِيفٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] أَيْ : كَلِمَةً لَاغِيَةً ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أَيْ : وَلَا كَلَامًا فِيهِ قُبْحٌ ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴾ أَيْ : إِلَّا التَّسْلِيمُ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] ، وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ .

وَأَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَآلَ السَّابِقِينَ - وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ - عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ - وَهُمُ الْأَبْرَارُ - **كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ** : أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنْزِلَةٌ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ؟ وَمَا حَالُهُمْ ؟ وَكَيْفَ مَآلُهُمْ ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ الْمُوقَرُ بِالثَّمَرِ ،

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الثَّمَرِ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْعَكْسُ مِنْ هَذَا ، لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَفِيهِ الثَّمَرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ **الطَّلْحُ** : شَجَرٌ عِظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ ، مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ ، وَاحِدَتُهُ طَلْحَةٌ ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمُ الثَّمَرِ ، يُذَكِّرُ بِذَلِكَ قُرَيْشًا ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْجَبُونَ مِنْ وَجٍّ[*] ، وَظِلَالُهُ مِنْ طَلْحٍ وَسِدْرٍ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ : مَصْفُودٌ .

قُلْتُ : عَنْ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ : هَذَا الْحَرْفُ فِي ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قَالَ : « طَلْعٌ مَنْضُودٌ » فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مِنْ صِفَةِ السِّدْرِ ، فَكَأَنَّهُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مَخْضُودٌ ، وَهُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ لَهُ ، وَأَنَّ طَلْعَهُ مَنْضُودٌ ، وَهُوَ كَثْرَةُ ثَمَرِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الْمَوْزُ . ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ ﷺ : « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ به رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ »[2].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ **قَالَ** : « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضْمَرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا** »[3].

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآيَاتُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : ٥٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد : ٣٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : ٤١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : يَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد : ١٥] الْآيَةَ ،

(*) وَجّ : اسم وادٍ بالطائف .

(١) البخاري (٣٢٥٢) ، ومسلم (٢٨٢٦) .

(٢) البخاري (٤٨٨١) ، ومسلم (٢٨٢٦) .

(٣) البخاري (٦٥٥٣) ، ومسلم (٢٨٢٨) .

بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ أَيْ : وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا ﴾ [البقرة : ٢٥] أَيْ : يُشْبِهُ الشَّكْلَ وَلَكِنَّ الطَّعْمَ غَيْرُ الطَّعْمِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي ذِكْرِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ((**فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ ، وَنَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرٍ**))[1] ، وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خُسِفَتِ الشَّمْسُ ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، فَذَكَرَ الصَّلَاةَ وَفِيهِ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ ، قَالَ : ((**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا ، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**))[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ أَيْ : لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا ، بَلْ أُكُلُهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللهِ شَيْءٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهَا عُودٌ وَلَا شَوْكٌ وَلَا بُعْدٌ . ﴿ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴾ أَيْ : عَالِيَةٌ وَطِيئَةٌ نَاعِمَةٌ . ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ جَرَى الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ ، لَكِنْ لَمَّا دَلَّ السِّيَاقُ - وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرُشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يُضَاجَعْنَ فِيهَا - اِكْتَفَى بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص ٣١ : ٣٢] يَعْنِي : الشَّمْسُ عَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ . **قَالَ الْأَخْفَشُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ : أَضْمَرَهُنَّ وَلَمْ يُذْكَرْنَ قَبْلَ ذَلِكَ ، **وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ** : ذُكِرْنَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ۝ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ ﴾ أَيْ : أَعَدْنَاهُنَّ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى بَعْدَمَا كُنَّ عَجَائِزَ رُمْصًا ، صِرْنَ أَبْكَارًا

(١) **صحيح** ، وقد تقدم .

(٢) البخاري (٧٤٨) ، ومسلم (٩٠٧) .

عُرُبًا ، أَيْ : بَعْدَ الثُّيُوبَةِ عُدْنَ أَبْكَارًا ﴿ عُرُبًا ﴾ أي : مُتَحَبِّبَاتٌ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالظَّرَافَةِ وَالْمَلَاحَةِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** أَيْ : غَنِجَاتٍ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي : مُتَحَبِّبَاتٌ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّاقَةِ الضَّبِعَةِ ، هِيَ كَذَلِكَ . **وَقِيلَ** : الْعُرُب : الْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، وَأَزْوَاجُهُنَّ لَهُنَّ عَاشِقُونَ . **وَقِيلَ** : هِيَ حُسْنُ التَّبَعُّلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، **وَقِيلَ** : الْأَتْرَابُ : الْمُسْتَوِيَاتُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أَيْ : فِي الْأَخْلَاقِ الْمُتَوَاخِيَاتُ بَيْنَهُنَّ ، لَيْسَ بَيْنَهُنَّ تَبَاغُضٌ وَلَا تَحَاسُدٌ ، يَعْنِي : لَا كَمَا كُنَّ ضَرَائِرُ مُتَعَادِيَاتٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ الْمُسْتَوِيَاتُ الْأَسْنَانُ ، يَأْتَلِفْنَ جَمِيعًا وَيَلْعَبْنَ جَمِيعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : خُلِقْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ أَوِ ادُّخِرْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، أَوْ زُوِّجْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ فَتَقْدِيرُهُ : أَنْشَأْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَهَذَا تَوْجِيهُ ابْنِ جَرِيرٍ . **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : فِي أَسْنَانِهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ . أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا۟

(١) البخاري (٣٣٢٧) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، فَقَالَ: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ؟ **ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ**: ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾، وَهُوَ: الْهَوَاءُ الْحَارُّ ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾، وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ ظِلُّ الدُّخَانِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤]، **وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا**: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾، وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أَيْ: لَيْسَ طَيِّبَ الْهُبُوبِ وَلَا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أَيْ: وَلَا كَرِيمُ الْمَنْظَرِ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ**: كُلُّ شَرَابٍ لَيْسَ بِعَذْبٍ فَلَيْسَ بِكَرِيم. **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: الْعَرَبُ تَتْبَعُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي النَّفْيِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا الطَّعَامُ لَيْسَ بِطَيِّبٍ وَلَا كَرِيمٍ، هَذَا اللَّحْمُ لَيْسَ بِطَيِّبٍ وَلَا كَرِيمٍ، هَذَا اللَّحْمُ لَيْسَ بِسَمِينٍ وَلَا كَرِيمٍ، وَهَذِهِ الدَّارُ لَيْسَتْ بِنَظِيفَةٍ وَلَا كَرِيمَةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اسْتِحْقَاقَهُمْ لِذَلِكَ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أَيْ: كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُنَعَّمِينَ مُقْبِلِينَ عَلَى لَذَّاتِ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَلْوُونَ عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ. ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ أَيْ: يُصَمِّمُونَ وَلَا يَنْوُونَ تَوْبَةً ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وَهُوَ الْكُفْرُ بِالله، وَجَعْلُ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله ﴿ ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: هو الشِّرْكُ. **وَقِيلَ**: هُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ. ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مُكَذِّبِينَ بِهِ مُسْتَبْعِدِينَ لِوُقُوعِهِ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى**: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ

وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيُجْمَعُونَ إِلَى عَرَصَاتِ القِيَامَةِ ، لَا نُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٥] ؛ **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أَيْ : هُوَ مُوَقَّتٌ بِوَقْتٍ مُحَدَّدٍ ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقْبِضُونَ وَيَسْجُرُونَ حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ ، حَتَّى يَمْلَئُوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ ﴿ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ ، وَهِيَ الإِبِلُ العِطَاشُ ، وَاحِدُهَا : أَهْيَمُ ، وَالأُنْثَى هَيْمَاءُ ، **وَيُقَالُ** : هَائِمٌ وَهَائِمَةٌ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : الهِيمُ : الإِبِلُ : العِطَاشُ الظِّمَاءُ ، **وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ** : الهِيمُ : الإِبِلُ المِرَاضُ ، تَمُصُّ المَاءَ مَصًّا وَلَا تَرْوَى ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الهِيمُ : دَاءٌ يَأْخُذُ الإِبِلَ فَلَا تَرْوَى أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ ، فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرْوَوْنَ مِنَ الحَمِيمِ أَبَدًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ ضِيَافَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ المُؤْمِنِينَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] أَيْ : ضِيَافَةً وَكَرَامَةً .

نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِلْمَعَادِ وَرَادًّا عَلَى المُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالإِلْحَادِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : ١٦] ، وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالاِسْتِبْعَادِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾

أَيْ : نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ بِقَادِرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؟ **فَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ ؟ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ** : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تُقِرُّونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا أَمِ اللهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ ؟ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أَيْ : صَرَفْنَاهُ بَيْنَكُمْ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أَيْ : نُغَيِّرَ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ أَنْشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، فَخَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، فَهَلَّا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى هَذِهِ النَّشْأَةِ وَهِيَ الْبَدَاءَةُ ، قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ الْإِعَادَةُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠]

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِثَارَتُهَا وَالْبَذْرُ فِيهَا ، ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ أَيْ : تُنْبِتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أَيْ : بَلَى نَحْنُ الَّذِي نُقِرُّهُ قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أَيْ : نَحْنُ أَنْبَتْنَاهُ بِلُطْفِنَا وَرَحْمَتِنَا ، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ، أَيْ : لَأَيْبَسْنَاهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا لَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ فِي الْمَقَالَةِ ، تُنَوِّعُونَ كَلَامَكُمْ فَتَقُولُونَ تَارَةً ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أَيْ لَمُلْقَوْنَ ، **وَقِيلَ** : إِنَّا لَمُولَعٌ بِنَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مُعَذَّبُونَ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ مُلْقُونَ لِلشَّرِّ ، أَيْ : بَلْ نَحْنُ مُحَارِفُونَ . قَالَهُ قَتَادَةُ ، أَيْ : لَا يَثْبُتُ لَنَا مَالٌ وَلَا يُنْتِجُ لَنَا رِبْحٌ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا** : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ : مَحْدُودُونَ ، يَعْنِي : لَا حَظَّ لَنَا ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تُعْجِبُونَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تَفْجَعُونَ وَتَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ زَرْعِكُمْ ، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ ، وَهُوَ التَّعَجُّبُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُصِيبُوا فِي مَالِهِمْ ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَقِيلَ : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تَلَاوَمُونَ ، **وقيل** : تَنْدَمُونَ ، وَمَعْنَاهُ : إِمَّا عَلَى مَا أَنْفَقْتُمْ أَوْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ ، **قَالَ الْكِسَائِيُّ** : تَفَكَّهَ مِنَ الْأَضْدَادِ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : تَفَكَّهْتُ ، بِمَعْنَى : تَنَعَّمْتُ ، وَتَفَكَّهْتُ بِمَعْنَى : حَزِنْتُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ يُعْنَى : السَّحَابُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ يَقُولُ : بَلْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أَيْ : زُعَاقًا مُرًّا لَا يَصْلُحُ لِشُرْبٍ وَلَا زَرْعٍ ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، فِي إِنْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذْبًا زُلَالًا ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ - ١١]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أَيْ : تَقْدَحُونَ مِنَ الزِّنَادِ وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ أَيْ : بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مُودَعَةً فِي مَوْضِعِهَا ، وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا : المَرْخُ ، وَالْأُخْرَى : الْعَفَارُ ، إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنِهِمَا شَرَرُ النَّارِ . ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ قِيلَ : أَيْ : تُذَكِّرُ النَّارَ الْكُبْرَى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ** » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ ، فَقَالَ : « **إِنَّهَا قَدْ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا** »(١). وَفِي لَفْظٍ « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : مَعْنَى « الْمُقْوِينَ » الْمُسَافِرِينَ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ يَعْنِي : الْمُسْتَمْتِعِينَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنْ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِيَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ الْجَمِيعُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِلطَّبْخِ وَالِاصْطِلَاءِ وَالْإِضَاءَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، ثُمَّ مِنْ لُطْفِ الله تَعَالَى أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْجَارِ وَخَالِصِ الْحَدِيدِ ، بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ الْمُسَافِرُ مِنْ حَمْلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْنَ ثِيَابِهِ ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَنْزِلِهِ أَخْرَجَ زَنْدَهُ وَأَوْرَى وَأَوْقَدَ نَارَهُ ، فَأَطْبَخَ بِهَا وَاصْطَلَى ، وَاشْتَوَى وَاسْتَأْنَسَ بِهَا ، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الِانْتِفَاعَاتِ ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ الْمُسَافِرُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لَهُ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ : النَّارِ ، وَالْكَلَأِ ، وَالْمَاءِ** »(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ : الْمَاءَ الزُّلَالَ الْعَذْبَ الْبَارِدَ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا كَالْبِحَارِ الْمُغْرِقَةِ ، وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ ، وَجَعَلَ هَذِهِ

(١) البخاري (٣٢٦٥) ، ومسلم (٢٨٤٣) بنحوه .
(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٣٦٤) ، وأبو داود (٣٤٧٧) .

مَنْفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ ، وَزَجْرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ .

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ ﴾

الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ ، **ثُمَّ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ** : « لَا » هَهُنَا زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَيَكُونُ جَوَابُهُ ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَيْسَتْ « لَا » زَائِدَةً لَا مَعْنَى لَهَا ، بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسِمًا بِهِ عَلَى مَنْفِيٍّ ، **كَقَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -** : « لَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ »[1] ، **وَهَكَذَا هَهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ** : لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْقَسَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ، **فَقِيلَ** : أُقْسِمُ ، **وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ** : ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ **فَقِيلَ** : يَعْنِي : نُجُومُ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا فِي السِّنِينَ بَعْدُ . **وَقِيلَ** : مَوَاقِعُ النُّجُومِ : فِي السَّمَاءِ ، **وَيُقَالُ** : مَطَالِعُهَا وَمَشَارِقُهَا ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، **وَعَنْ قَتَادَةَ** : مَوَاقِعُهَا : مَنَازِلُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَّمْتُمُ الْمُقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ لَكِتَابٌ عَظِيمٌ ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ أَيْ : مُعَظَّمٍ ، فِي كِتَابٍ مُعَظَّمٍ مَحْفُوظٍ مُوَقَّرٍ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ ، يَعْنِي : الْمَلَائِكَةَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ .

---

(١) انظر أطرافه في البخاري (٢٧١٣) .

قَالُوا : وَلَفْظُ الْآيَةِ خَبَرٌ وَمَعْنَاهَا الطَّلَبُ ، قَالُوا : وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ : هَهُنَا الْمُصْحَفُ ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ **نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ**(١) . وَاحْتَجُّوا فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ « **أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ** »(٢) .

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ قَالَ : قَرَأْتُ فِي صَحِيفَةٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **وَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ** »(٢) ، وَهَذِهِ وِجَادَةٌ جَيِّدَةٌ قَدْ قَرَأَهَا الزُّهْرِيُّ وَغَيْرُهُ وَمِثْلُ هَذَا يَنْبَغِي الْأَخْذُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ : إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : مُكَذِّبُونَ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ أَيْ : تُرِيدُونَ أَنْ تُمَالِئُوهُمْ فِيهِ وَتَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ . ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَعْنِي : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ بِمَعْنَى شُكْرَكُمْ ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، أَيْ : تُكَذِّبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : مَا مُطِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أَصْبَحَ بَعْضُهُمْ كَافِرًا ، يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » ، إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ(٣) **الْجُهَنِيِّ** قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : « **هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ** ؟ » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « **قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ** » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ**

---

(١) مسلم (١٨٦٩) .

(٢) هذا وذاك منازع في تصحيحها ، والذي أجنح إليه الآن تضعيفهما ، والله أعلم .

(٣) البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١) .

فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ ، يَنْزِلُ الْغَيْثُ ، فَيَقُولُونَ بِكَوْكَبِ كَذَا وَكَذَا »[1].

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أَيْ : الرُّوحُ ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ أَيْ : الْحَلْقَ ، وَذَلِكَ حِينَ الِاحْتِضَارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٢٩-٣٠] ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى الْمُحْتَضَرِ وَمَا يُكَابِدُهُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : بِمَلَائِكَتِنَا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١-٦٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ مَعْنَاهُ : فَهَلَّا تُرْجِعُونَ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ ، وَمَقَرِّهَا مِنَ الْجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي : مُحَاسَبِينَ ، وَقِيلَ : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ ، أَنَّكُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَثُونَ وَتُجْزَوْنَ فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ .

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ،

---

(١) مسلم (٧٢) .

أَوْ يَكُونَ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ، الْجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ أَيْ : الْمُحْتَضَرُ ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وَهُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ الْمُبَاحَاتِ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أَيْ : فَلَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ، وَتُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ : « **أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ أُخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ** ». ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ رَاحَةٌ ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ مُسْتَرَاحَةٌ ، **وَقِيلَ** : الرَّوْحُ : الْفَرَحُ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ صَحِيحَةٌ ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَالِاسْتِرَاحَةِ ، وَالْفَرَحِ ، وَالسُّرُورِ ، وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ ، ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ .

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ** »[١] وَهَذَا إِسْنَادٌ عَظِيمٌ وَمَتْنٌ قَوِيمٌ **وَفِي الصَّحِيحِ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ ، تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ** »[٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ ، تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ : سَلَامٌ لَكَ ، أَيْ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ أَنْتَ إِلَى سَلَامَةٍ ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ** : سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللهِ ، **كَمَا قَالَ عِكْرِمَةُ** : تُسَلِّمُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٥) .

(٢) مسلم (١٨٨٧) عن طريق ابن مسعود ﷺ ، وقد سئل عن هذه الآية ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال (أرواحهم في جوف طير خضر .....) ، فذكر الحديث .

تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[فصلت : ٣٠ - ٣٢] .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : ﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ ﴾ أَيْ : مُسَلَّمٌ لَكَ أَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَأُلْغِيَتْ ((أَنَّ)) وَهُوَ مَعْنَاهَا ، كَمَا تَقُولُ : أَنْتَ مُصَدَّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ : إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ ، وَقَدْ يَكُونُ كَالدُّعَاءِ لَهُ ، كَقَوْلِكَ : سَقْيًا لَكَ مِنَ الرِّجَالِ إِنْ رَفَعْتَ السَّلَامَ فَهُوَ مِنَ الدُّعَاءِ . وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَكَذَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمَالَ إِلَيْهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أَيْ وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضَرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أَيْ فَضِيَافَةٌ ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ، وَهُوَ الْمُذَابُ الَّذِي يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُود ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أَيْ وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْخَبَرَ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا مَحِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهُ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قَالَ : ((**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**)) وَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**))[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**))[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) حسن لشواهده : أخرجه أبو داود (١ / ٥٤٢) وابن ماجة (٨٨٧) ، وأحمد (٤ / ١٥٥) وغيرهم .
(٢) البخاري (٦٤٠٦) ، ومسلم (٢٦٩٤) .

تفسير سورة الحديد
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ . ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ فَيُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ .

عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ[1] قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقُلْتُ : مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي ؟ قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : وَاللهِ لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ لِي : أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ ؟ قَالَ : وَضَحِكَ ، قَالَ : مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ ، قَالَ : حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [يونس : ٩٤]. قَالَ : وَقَالَ لِي : إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ :

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٥١١٠) .

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وَقَدِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَقْوَالُهُمْ عَلَى نَحْوٍ مِنْ بِضْعَةَ عَشَرَ قَوْلًا . قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ يَحْيَى : الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَالْبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا . قَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمِزِّيُّ : يَحْيَى هَذَا هُوَ ابْنُ زِيَادٍ الْفَرَّاءُ لَهُ كِتَابٌ سَمَّاهُ « مَعَانِي الْقُرْآنِ » . وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ ، فَمِنْ ذَلِكَ . فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ : « اللَّهُمَّ ؛ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ . اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ »[1] .

وَعَنْ سَهْلٍ[2] ؛ قَالَ : كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ، ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ ؛ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَمُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ . اللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ » . وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٤٠٤) .

(٢) مسلم (٢٧١٣) .

ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى العَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِنَّ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي ((سُورَةِ الأَعْرَافِ))[1] بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا .

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرٍ ﴿ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا ﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَثِمَارٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مِنَ الأَمْطَارِ وَالثُّلُوجِ وَالْبَرَدِ ، وَالأَقْدَارِ وَالأَحْكَام مَعَ المَلَائِكَةِ الْكِرَام .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا ﴾ أَيْ : مِنَ المَلَائِكَةِ وَالأَعْمَالِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : ((**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ**))[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أَيْ : رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ ، شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ ، وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ فِي الْقِفَارِ ، الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَرَى مَكَانَكُمْ ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . **وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الإِحْسَانِ : ((**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**))[3].

---

(١) الآية رقم (٥٤) .

(٢) مسلم (١٧٩) .

(٣) مسلم (حديث ٨) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : هُوَ المَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] ، وَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ - ١] فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ ، وَأَهْلُهُمَا عَبِيدٌ أَرِقَّاءُ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣ - ٩٥]

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ المَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ إِنْ يَكُنْ عَمِلَ أَحَدُهُمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعِفُهَا إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أَيْ : هُوَ المُتَصَرِّفُ فِي الخَلْقِ ، يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيُقَدِّرُهُمَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَتَارَةً يُطَوِّلُ اللَّيْلَ وَيُقَصِّرُ النَّهَارَ ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ ، وَتَارَةً يَتْرُكُهُمَا مُعْتَدِلَيْنِ .

وَتَارَةً يَكُونُ الْفَصْلُ شِتَاءً ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَيْظًا ثُمَّ خَرِيفًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ السَّرَائِرَ ، وَإِنْ دَقَّتْ خَفِيَتْ .

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، وَالدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَالِاسْتِمْرَارِ وَحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ ، فَأَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسَبَهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُمْ لِتَرْكِهِمُ الْوَاجِبَاتِ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخَلَّفًا عَنْكَ ، فَلَعَلَّ وَارِثَكَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فِيهِ ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ ، أَوْ يَعْصِي اللهَ بِهِ فَتَكُونُ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ؛ قَالَ : انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ **يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ! وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟**[1]. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَزَادَ : « **وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَيُبَيِّنُ لَكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ ؟ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة : ٧]، وَيَعْنِي

---

(١) صحيح، وسيأتي إن شاء الله .

بِذَلِكَ : بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ ، **وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمِيثَاقَ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : حُجَجًا وَاضِحَاتٍ وَدَلَائِلَ بَاهِرَاتٍ - وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَالْآرَاءِ الْمُتَضَادَّةِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي إِنْزَالِهِ الْكُتُبَ وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ النَّاسِ ، وَإِزَاحَةَ الْعِلَلِ وَإِزَالَةَ الشُّبَهِ ، وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ أَزَالَ عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ حَثَّهُمْ أَيْضًا عَلَى الْإِنْفَاقِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَنْفِقُوا وَلَا تَخْشَوْا فَقْرًا وَإِقْلَالًا ، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا ، وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَى ، وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، وَقَالَ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ أَنْفَقَ ، وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفِعْلِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا ، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، **وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا** : فَتْحُ مَكَّةَ . **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا : صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ . وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلُ بِمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ** »[1].

---

(١) البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يَعْنِي الْمُنْفِقِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ ، كُلُّهُمْ لَهُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ فِي تَفَاضُلِ الْجَزَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء : ٩٥] ، وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ** »[1] ، وَإِنَّمَا نَبَّهَ بِهَذَا لِئَلَّا يُهْدَرَ جَانِبُ الْآخَرِ بِمَدْحِ الْأَوَّلِ دُونَ الْآخَرِ ، فَيَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ ذَمَّهُ ، فَلِهَذَا عُطِفَ بِمَدْحِ الْآخَرِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ؛ مَعَ تَفْضِيلِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : فَلِخِبْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ ثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ التَّامِّ ، وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجَهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضِّيقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الله . **وَقِيلَ** : هُوَ النَّفَقَةُ عَلَى الْعِيَالِ ، **وَالصَّحِيحُ** أَنَّهُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ الله بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ ، دَخَلَ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : جَزَاءٌ جَمِيلٌ ، وَرِزْقٌ بَاهِرٌ – وَهُوَ الْجَنَّةُ – يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ الله وَإِنَّ اللهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ** » قَالَ : أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ الله . قَالَ : فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي ، وَلَهُ حَائِطٌ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا . قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ ، فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ . قَالَتْ :

---

(١) مسلم (حديث ٢٦٦٤) .

لَبَّيْكَ . قَالَ : أُخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي ﷻ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : رَبِحَ بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ ، وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ** »[1] ، وَفِي لَفْظٍ « **رُبَّ نَخْلَةٍ مُدَلَّاةٍ عُرُوقُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ** » .

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قَالَ : عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يَتَّقِدُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ قِيلَ : أَيْ : وَبِأَيْمَانِهِمْ كُتُبُهُمْ . كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٧١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ : بُشْرَاكُمُ

---

(١) إسناده صحيح : وأخرجه عبد بن حميد في المنتخب بتحقيقي (١٣٣٢) ، وابن حبان في موارد الظمآن (٢٢٧١) .

الْيَوْمَ جَنَّاتٌ . أَيْ : لَكُمُ الْبِشَارَةُ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ ، وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زُجِرَ .

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ[1] **قَالَ** : خَرَجْنَا عَلَى جِنَازَةٍ فِي بَابِ دِمَشْقَ ، وَمَعَنَا أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ وَأَخَذُوا فِي دَفْنِهَا ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ فِي مَنْزِلٍ تَقْتَسِمُونَ فِيهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَظْعَنُوا مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ ، وَهُوَ هَذَا - يُشِيرُ إِلَى الْقَبْرِ - بَيْتُ الْوَحْدَةِ ، وَبَيْتَ الظُّلْمَةِ ، وَبَيْتُ الدُّودِ ، وَبَيْتُ الضِّيقِ ، إِلَّا مَا وَسَّعَ اللهُ ، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّكُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَتَّى يَغْشَى النَّاسَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ ، فَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ فَيَغْشَى النَّاسَ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ، ثُمَّ يُقْسَمُ النُّورُ فَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ نُورًا ، وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَلَا يُعْطَيَانِ شَيْئًا ، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، فَقَالَ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠]فَلَا يَسْتَضِيءُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِنُورِ الْمُؤْمِنِ ، كَمَا لَا يَسْتَضِيءُ الْأَعْمَى بِبَصَرِ الْبَصِيرِ ، وَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ ، وَهِيَ خُدْعَةُ اللهِ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْمُنَافِقِينَ حَيْثُ قَالَ : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢]، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قُسِمَ فِيهِ النُّورُ فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ ﴿ بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ الْآيَة .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ حَائِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ ، وَهُوَ

---

(١) **موقوف صحيح**: وأخرجه ابن أبي حاتم كما قال ابن كثير رحمه الله .

الصَّحِيحُ . ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : النَّارُ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا . ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ : يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ : أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، نَشْهَدُ مَعَكُمُ الْجُمُعَاتِ ، وَنُصَلِّي مَعَكُمُ الْجَمَاعَاتِ ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بِعَرَفَاتٍ ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمُ الْغَزَوَاتِ ، وَنُؤَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنَافِقِينَ قَائِلِينَ : ﴿ بَلَىٰ ﴾ قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : أَيْ : فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أَيْ : أَخَّرْتُمُ التَّوْبَةَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أَيْ : بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ أَيْ : قُلْتُمْ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، **وَقِيلَ** : غَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَا زِلْتُمْ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أَيْ : الشَّيْطَانُ . **قَالَ قَتَادَةُ** : كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَاللهِ مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ . **وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ** : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا ، أَيْ : بِأَبْدَانٍ لَا نِيَّةَ لَهَا وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي حِيرَةٍ وَشَكٍّ فَكُنْتُمْ تُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : كَانَ الْمُنَافِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءً يُنَاكِحُونَهُمْ وَيَغْشَوْنَهُمْ وَيُعَاشِرُونَهُمْ ، وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا ، وَيُعْطَوْنَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُطْفَأُ النُّورُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذَا بَلَغُوا السُّورَ ، وَيُمَازُ بَيْنَهُمْ حِينَئِذٍ .

وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُنَافِي قَوْلَهُمُ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَنْهُمْ ، حَيْثُ يَقُولُ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾[المدثر ٣٨ - ٤٧] ، فَهَذَا إِنَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ لَهُمْ وَالتَّوْبِيخِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] ، **كَمَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا ﴾ أَيْ : لَوْ جَاءَ أَحَدُكُمُ الْيَوْمَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدِيَ بِهِ مِنْ عَذَابِ الله مَا قُبِلَ مِنْهُ ﴿ مَأْوَنكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أَيْ : هِيَ مَصِيرُكُمْ ، وَإِلَيْهَا مُنْقَلَبُكُمْ ، ﴿ هِيَ مَوْلَنكُمْ ﴾ أَيْ : هِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَى كُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمَا آنَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ ، فَتَفْهَمَهُ وَتَنْقَادَ لَهُ وَتَسْمَعَ لَهُ وَتُطِيعَهُ .

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ **قَالَ** : مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ . إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ[1] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينَ حُمِّلُوا الْكِتَابَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَّلُوا كِتَابَ الله الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُؤْتَفِكَةِ ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ الله ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً ، وَلَا تَلِينَ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَعْمَالِ ، فَقُلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣] أَيْ : فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَسَتْ وَصَارَ مِنْ سَجِيَّتِهِمْ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَرَكُوا الْأَعْمَالَ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا ، وَارْتَكَبُوا مَا نُهُوا عَنْهُ ؛ وَلِهَذَا نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ

---

(١) مسلم (٣٠٢٧) .

يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرْعِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا ، وَيَهْدِي الْحَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا ، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الإِضْلَالِ ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُثِيبُ بِهِ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : دَفَعُوهُ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ أَيْ : يُقَابِلُ لَهُمُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ ، وَمَرْجِعٌ صَالِحٌ وَمَآبٌ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هَذَا تَمَامُ ، الْجُمْلَةِ وَصْفَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هَذِهِ مَفْصُولَةٌ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ، ثُمَّ اِسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَقَالَ : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ

رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ هُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : يَعْنِي الْمُصَدِّقِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا صِنْفَانِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الصِّدِّيقَ أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الشَّهِيدِ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ** » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : « **بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ** »[1] .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فَأَخْبَرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ وَشُهَدَاءُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً فَقَالَ : مَاذَا تُرِيدُونَ ؟ فَقَالُوا : نُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَنُقَاتِلُ فِيكَ فَنُقْتَلُ كَمَا قُتِلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ** »[2] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أَيْ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ أَجْرٌ جَزِيلٌ وَنُورٌ عَظِيمٌ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ بِحَسْبِ مَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لَمَّا ذُكِرَ السُّعَدَاءُ وَمَآلُهُمْ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ وَبَيَّنَ حَالَهُمْ .

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

---

(١) البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣٧) .

(٢) مسلم (١٨٨٧) ، وقد تقدم في سورة الواقعة .

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَهِّنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحَقِّرًا لَهَا ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا زَهْرَةٌ فَانِيَةٌ وَنِعْمَةٌ زَائِلَةٌ فَقَالَ : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ ، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ قُنُوطِ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى : ٢٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أَيْ : يُعْجِبُ الزُّرَّاع نَبَات ذَلِكَ الزَّرْع الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ ، وَكَمَا يُعْجِبُ الزُّرَّاع ذَلِكَ كَذَلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاة الدُّنْيَا الْكُفَّار ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمْيَلَ النَّاسِ إِلَيْهَا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ﴾ أَيْ : يَهِيجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضِرًا ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ حُطَامًا ، أَيْ : يَصِيرُ يَبِسًا مُتَحَطِّمًا ، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَابَّةً ، ثُمَّ تَكْتَهِلُ ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَعُنْفُوَانِ شَبَابِهِ ، غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ بَهِيَّ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ ، فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ وَيَفْقِدُ بَعْضَ قُوَاهُ ، ثُمَّ يَكْبُرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ، ضَعِيفُ الْقُوَى ، قَلِيلُ الْحَرَكَةِ ، يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا وَفَرَاغِهَا لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ

كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ، حَذَّرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَّبَ فِيمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا : إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَان .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أَيْ : هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ ، حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنْ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا ، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ . عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَلْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ** »(1) فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَلِهَذَا حَثَّهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي تُكَفِّرُ عَنْهُ الذُّنُوبَ وَالزَّلَّاتُ ، وَيَحْصُلُ لَهُ الثَّوَابُ وَالدَّرَجَاتُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وَالْمُرَادُ جِنْسَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَهَّلَهُمُ اللهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ . قَالَ : « **وَمَا ذَاكَ ؟** » قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ . قَالَ : « **أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ : تُسَبِّحُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ** » قَالَ : فَرَجَعُوا فَقَالُوا : سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ مَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** »(2).

---

(١) البخاري (٦٤٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ .
(٢) البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْآفَاقِ وَفِي نُفُوسِكُمْ ﴿ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ النَّسَمَةَ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ عَائِدٌ عَلَى النُّفُوسِ ، **وَقِيلَ** : عَائِدٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ ، وَالْأَحْسَنُ عَوْدُهُ عَلَى الْخَلِيقَةِ وَالْبَرِيَّةِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا . كَمَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ **عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ** : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ الْحَسَنِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : سَلْهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ : سُبْحَانَ اللهِ ، وَمَنْ يَشُكُّ فِي هَذَا ؟ كُلُّ مُصِيبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَفِي كِتَابِ اللهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْرَأَ النَّسَمَةَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : هِيَ السُّنُونَ ، يَعْنِي : الْجَدْبَ ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يَقُولُ : الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاضُ ، قَالَ : وَبَلَغَنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدْشُ عُودٍ ، وَلَا نَكْبَةُ قَدَمٍ ، وَلَا خَلَجَانُ عَرَقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ نُفَاةِ الْعِلْمِ السَّابِقِ - قَبَّحَهُمُ اللهُ -. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**قَدَّرَ اللهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَكِتَابَتَهُ لَهَا طِبْقَ مَا يُوجَدُ فِي حِينِهَا ، سَهْلٌ عَلَى اللهِ ﷻ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، لأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ: جَاءَكُمْ. وَيُقْرَأُ «آتَاكُمْ» أَيْ: أَعْطَاكُمْ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ، أَيْ: لَا تَفْخَرُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ، فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللهِ أَشَرًا وَبَطَرًا تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أَيْ: مُخْتَالٌ فِي نَفْسِهِ مُتَكَبِّرٌ ﴿ فَخُورٍ ﴾ أَيْ: عَلَى غَيْرِهِ. **ثُمَّ قَالَ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ أَيْ: يَفْعَلُونَ الْمُنْكَرَ وَيَحُضُّونَ النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أَيْ: عَنْ أَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾، كَمَا قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨]

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ: بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وَهُوَ النَّقْلُ الصِّدْقُ ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، وَهُوَ الْعَدْلُ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالِفَةُ لِلْآرَاءِ السَّقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧]، **وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:** ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ: بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي

لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] أَيْ : صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا تَبَوَّءُوا غُرَفَ الْجَنَّاتِ ، وَالْمَنَازِلِ الْعَالِيَاتِ ، وَالسُّرُرِ الْمَصْفُوفَاتِ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ، أَيْ : وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبَى الْحَقَّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَى إِلَيْهِ السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانٌ وَإِيضَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ ، وَبَيِّنَاتٌ وَدَلَالَاتٌ ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ ، شَرَعَ اللهُ الْهِجْرَةَ وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يَعْنِي : السِّلَاحُ كَالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ وَالسِّنَانِ وَالنِّصَالِ وَالدُّرُوعِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي مَعَايِشِهِمْ كَالسِّكَّةِ وَالْفَأْسِ وَالْقَدُومِ وَالْمِنْشَارِ وَالْإِزْمِيلِ وَالْمِجْرَفَةِ ، وَالْآلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاثَةِ وَالْحِيَاكَةِ وَالطَّبْخِ وَالْخَبْزِ ، وَمَا لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِدُونِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مِنْ نِيَّتِهِ فِي حَمْلِ السِّلَاحِ نُصْرَةَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ، يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ نُوحًا ﷺ لَمْ يُرْسِلْ بَعْدَهُ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، لَمْ يُنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أَرْسَلَ رَسُولًا وَلَا أَوْحَى إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ حَتَّى كَانَ آخِرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ ، وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ ﴿ رَأْفَةً ﴾ أَيْ : رِقَّةً ، وَهِيَ الْخَشْيَةُ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بِالْخَلْقِ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أَيْ : اِبْتَدَعَتْهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مَا شَرَعْنَاهَا وَإِنَّمَا هُمُ الْتَزَمُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللهِ ، **وَالْآخَرُ** : مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمُ اِبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أَيْ : فَمَا قَامُوا بِمَا الْتَزَمُوهُ حَقَّ الْقِيَامِ ، **وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ** : **أَحَدِهِمَا** : الِابْتِدَاعُ فِي دِينِ اللهِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللهُ ، **وَالثَّانِي** : فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا الْتَزَمُوهُ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّهَا قُرْبَةٌ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ** : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ أَمَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، فَلَهُ أَجْرَانِ »[1].

---

(١) البخاري (حديث ٩٧) ، ومسلم (حديث ١٥٤) .

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ . عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ[1] ﷺ قَالَ : « **مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اِسْتَعْمَلَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ، فَقَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا ، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ ، فَقَالَ لَهُمْ : لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا ، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَّوْا الْعَصْرَ ، قَالُوا : مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ ، فَقَالَ : أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ ، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَوْا ، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا ، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ** » **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رَدِّ مَا أَعْطَاهُ اللهُ وَلَا إِعْطَاءِ مَا مَنَعَ الله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أَيْ : لِيَعْلَمَ ، لأَنَّ الْعَرَبَ تَجْعَلُ « لَا » صِلَةً فِي كُلِّ كَلَامٍ دَخَلَ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ جَحْدٌ غَيْرُ مُصَرَّحٍ ، فَالسَّابِقُ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [**الأعراف - ١٢**] ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [**الأنعام - ١٠٩**] ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [**الأنبياء - ٩٥**]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٢٢٦٨) .

تفْسِيرُ سُورَةِ الْمجَادَلَةِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ[1] : الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ أَصْلُ الظِّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا إِذَا ظَاهَرَ أَحَدُهُمْ مِنِ امْرَأَتِهِ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، ثُمَّ فِي الشَّرْعِ كَانَ الظِّهَارُ فِي سَائِرِ الْأَعْضَاءِ قِيَاسًا عَلَى الظَّهْرِ ، وَكَانَ الظِّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا ، فَأَرْخَصَ اللهُ لِهَـٰذِهِ الْأُمَّةِ ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً وَلَمْ يَجْعَلْهُ

(١) سند صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٦ / ٤٦) ، والنسائي (٦ / ١٦٨) ، وابن ماجة (٢٠٦٣) ، والبخاري معلقا (مع الفتح ١٣ / ٢٧٢) .

طَلَاقًا ، كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، هَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : كَانَ الْإِيلَاءُ وَالظِّهَارُ مِنْ طَلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَقَّتَ اللهُ الْإِيلَاءَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَجَعَلَ فِي الظِّهَارِ الْكَفَّارَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي ، أَوْ مِثْلَ أُمِّي ، أَوْ كَظَهْرِ أُمِّي ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَا تَصِيرُ أُمَّهُ بِذَلِكَ ، إِنَّمَا أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أَيْ : كَلَامًا فَاحِشًا بَاطِلًا ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أَيْ : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهَكَذَا أَيْضًا عَمَّا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ اِخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ أَنْ يُمْسِكَهَا بَعْدَ الْمُظَاهَرَةِ زَمَانًا يُمْكِنُهُ أَنْ يُطَلِّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلِّقُ .

وَقَالَ أَحْمَدُ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْجِمَاعِ أَوْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ ، فَلَا لَهُ حَتَّى يُكَفِّرَ بِهَذِهِ الْكَفَّارَةِ .

وقَدْ حُكِيَ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْجِمَاعِ و الْإِمْسَاكِ ، وَعَنْهُ أَنَّهُ الْجِمَاعُ .

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الظِّهَارِ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ ، وَرَفْعُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَمَتَى تظَاهَرَ الرَّجُلُ مِنِ امْرَأَتِهِ فَقَدْ حَرَّمَهَا تَحْرِيمًا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا الْكَفَّارَةُ . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَصْحَابُهُ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ .

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَبِّلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يُكَفِّرَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَيْ : فَإِعْتَاقُ رَقَبَةٍ كَامِلَةٍ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَهَاهُنَا الرَّقَبَةُ مُطْلَقَةٌ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِالْإِيمَانِ ، وَفِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ مُقَيَّدَةٌ بِالْإِيمَانِ ، فَحَمَلَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - مَا أُطْلِقَ هَهُنَا عَلَى مَا قُيِّدَ هُنَاكَ لِاتِّحَادِ الْمُوجِبِ وَهُوَ عِتْقُ الرَّقَبَةِ ، وَاعْتَضَدَ فِي ذَلِكَ بِحديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ فِي قِصَّةِ الْجَارِيَةِ السَّوْدَاءِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : تَزْجُرُونَ بِهِ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) مسلم (حديث ٥٣٧) .

خَبِيرٌ﴾ أَيْ : خَبِيرٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ الْآمِرَةُ بِهَذَا عَلَى التَّرْتِيبِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي قِصَّةِ الَّذِي جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي رَمَضَانَ[1] .

﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيْ : شَرَعْنَا هَذَا لِهَذَا . ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أَيْ : مَحَارِمُهُ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَا الْتَزَمُوا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْبَلَاءِ ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَعَانَدُوا شَرْعَهُ ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : أُهِينُوا وَلُعِنُوا وَأُخْزُوا ، كَمَا فُعِلَ بِمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أَيْ : وَاضِحَاتٍ لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ مُكَابِرٌ ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِ اللهِ وَالِانْقِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لَدَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

(١) انظر البخاري (١٩٣٦) ، ومسلم (١١١١) .

فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أَيْ : ضَبَطَهُ اللهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَمِلُوا ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَخْفَى ، وَلَا يَنْسَى شَيْئًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ ، وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ ، وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ ، حَيْثُ كَانُوا ، وَأَيْنَ كَانُوا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ أَيْ : مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ أَيْ : يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ ، مَعَ عِلْمِ اللهِ وَسَمْعِهِ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[التوبة : ٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف : ٨٠] ، وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ سَمْعُهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ ، وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . **قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ** : اِفْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ : هُمُ الْيَهُودُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أَيْ : يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ **عَنْ عَائِشَةَ**[1] **قَالَتْ** : دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَهُودٌ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَعَلَيْكُمُ السَّامُ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ**)) قُلْت : أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَوَمَا سَمِعْتِ أَقُولُ : وَعَلَيْكُمْ**)) ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ[2] أَنَّهَا قَالَتْ لَهُمْ : عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ وَاللَّعْنَةُ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا**)) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[3] : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ يَهُودِيٌّ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ : ((**هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ ؟**)) قَالُوا : سَلَّمَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : ((**بَلْ قَالَ : سَامٌ عَلَيْكُمْ**)) أَيْ : تُسَامُونَ دِينَكُمْ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**رُدُّوهُ**)) فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ : ((**أَقُلْتَ : سَامٌ عَلَيْكُمْ ؟**)) قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقُولُوا : عَلَيْكَ**)) أَيْ : عَلَيْكَ مَا قُلْتَ ، وَأَصْلُ حَدِيثِ أَنَسٍ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ[4] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُونَ هَذَا ، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيهَامُ السَّلَامِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتْمٌ فِي الْبَاطِنِ ،

---

(١) هذا في الصحيح بنحوه انظر البخاري (٦٠٢٤ ، ٦٢٥٦ ، ٢٩٣٥ ، وغير مصدر) ، ومسلم (٢١٦٥) ، وسبب النزول عند مسلم في بعض طرق الحديث (٢١٦٥) ويبدو لي أن سبب النزول هذا فيه مقال .

(٢) انظر المصادر المشار إليها آنفًا .

(٣) إسناده حسن ، وهو عند الطبري .

(٤) انظر البخاري (٦٩٢٦) .

وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ ؛ لأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُّهُ ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجِلَنَا اللهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أَيْ : جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عمرو[1] أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : سَامٌ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أَيْ : كَمَا يَتَنَاجَى بِهِ الْجَهَلَةُ مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمَنْ مَالأَهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي أَحْصَاهَا عَلَيْكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا .

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ[2] قَالَ : كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابُ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** » .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا النَّجْوَى :

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ١٧٠) .

(٢) البخاري (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨) .

وَهِيَ الْمُسَارَّةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهَا مُؤْمِنٌ سُوءًا ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يَعْنِي : إِنَّمَا يَصْدُر هَذَا مِنَ الْمُتَنَاجِينَ عَنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أَيْ : لِيَسُوءَهُمْ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ الله ، وَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى الله ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ بِإِذْنِ الله . وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَاجِي حَيْثُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَأَذٍّ عَلَى مُؤْمِنٍ .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَيْنَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ**))[١] . وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً ، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ**))[٢].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَآمِرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ وَقُرِئَ ((فِي الْمَجْلِسِ)) ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ((**مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**))[٣] .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ ((**وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**))[٤] ، وَلِهَذَا أَشْبَاهٌ كَثِيرَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ . وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسُ فِيهِ ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا**))[٥].

---

(١) البخاري (٦٢٩٠) ، ومسلم (٢١٨٤) .
(٢) مسلم (٢١٨٣) .
(٣) البخاري (٤٥٠) ، ومسلم (٥٣٣) .
(٤) مسلم (٢٦٩٩) .
(٥) البخاري (٦٢٧٠) ومسلم (٢١٧٧) .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ الْقِيَامِ لِلْوَارِدِ إِذَا جَاءَ ، عَلَى أَقْوَالٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ رَخَّصَ فِي ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِحَدِيثِ ((**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**))[1] ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِحَدِيثِ ((**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**))[2].
وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَّلَ ، فَقَالَ يَجُوزُ عِنْدَ الْقُدُومِ مِنْ سَفَرٍ ، وَلِلْحَاكِمِ فِي مَحَلِّ وِلَايَتِهِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قِصَّةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَقْدَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ حَاكِمًا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَرَآهُ مُقْبِلًا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ : ((**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**))[3] ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَأَمَّا اتِّخَاذُهُ دَيْدَنًا فَإِنَّهُ مِنْ شِعَارِ الْعَجَمِ ، فالصحابة ﷺ لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَا يَقُومُونَ لَهُ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ[4].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[5] : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمْ فَوَجَدَ فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَدَخَلَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ وَرَاءَ النَّاسِ ، وَأَدْبَرَ الثَّالِثُ ذَاهِبًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَبَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا الْأَوَّلُ فَآوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**)) .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أَيْ : انْهَضُوا لِلْقِتَالِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَحَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ ، أَوْ إِذَا أُمِرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَمَزِيَّةٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ ، بَلْ يَجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ

---

(١) البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .
(٢) **صحيح**: وقد أخرجه أحمد (٤ / ٩١ ، ٩٣) وأبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٥٥) .
(٣) تقدم قريبًا .
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ١٣٢) .
(٥) البخاري (٦٦) ومسلم (٢١٧٦) .

الله رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ وَنَشَرَ ذِكْرَهُ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : خَبِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ، وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ ؛ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ ، وَكَانَ عُمَرُ اِسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي ؟ قَالَ : اِسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبْزَى ، قَالَ : وَمَا ابْنُ أَبْزَي ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا ، فَقَالَ عُمَرُ : اِسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ ، قَاضٍ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ « **إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ قَوْمًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ** »[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُنَاجِي رَسُولَ الله ﷺ أَيْ : يُسَارِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُ وَتُزَكِّيهِ ، وَتُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَصْلُحَ لِهَذَا الْمَقَامِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ ﴾ أَيْ : إِلَّا مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ لِفَقْدِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فَمَا أَمَرَ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ أَيْ : أَخَفْتُمْ مِنِ اسْتِمْرَارِ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْكُمْ مِنْ وُجُوبِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فَنَسَخَ وُجُوبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ نَسْخِهَا سِوَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ[2].

(١) مسلم (٨١٧) .

(٢) قد وردت بذلك عدة أسانيد لا يخلو واحد منها من مقال ، ولكنها بمجموعها تُحسن ، والله أعلم .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي مُوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا مَعَهُمْ وَلَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣]، **وَقَالَ هَهُنَا**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يَعْنِي: الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُمَالِئُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ فِي الْبَاطِنِ، ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ وَهُمُ الْيَهُودُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا، وَهِيَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ حَالِهِمِ اللَّعِينِ - عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهُ - فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا جَاءُوا الرَّسُولَ حَلَفُوا بِاللهِ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَ مَا قَالُوهُ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُطَابِقًا، وَلِهَذَا شَهِدَ اللهُ بِكَذِبِهِمْ فِي أَيْمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ لِذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: أَرْصَدَ اللهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَى أَعْمَالِهِمِ السَّيِّئَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكَافِرِينَ وَنُصْحُهُمْ، وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغِشُّهُمْ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَظْهَرُوا الإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقُوا بِالأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ فَظَنَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَاغْتَرَّ بِهِمْ فَحَصَلَ بِهَذَا صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ الله لِبَعْضِ النَّاسِ ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا امْتَهَنُوا مِنَ الْحَلِفِ بِاسْمِ الله الْعَظِيمِ فِي الأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ الْحَانِثَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَأْسًا إِذَا جَاءَهُمْ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ آخِرِهِمْ ، فَلَا يُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : يَحْلِفُونَ بِالله ﷻ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةِ ، كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ؛ لأَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَبُعِثَ عَلَيْهِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ الله كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ ، فَيُجْرُونَ عَلَيْهِمُ الأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : حَلِفُهُمْ ذَلِكَ لِرَبِّهِمْ ﷻ .

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ ذَلِكَ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ فَأَكَّدَ الْخَبَرَ عَنْهُمْ بِالْكَذِبِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي ظِلِّ حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِهِ ، وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَدْ كَادَ يَقْلِصُ عَنْهُمِ الظِّلُّ ، قَالَ : « **إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا أَتَاكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ** » ، فَجَاءَ رَجُلٌ أَزْرَقُ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ : « **عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ؟** » نَفَرٌ دَعَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَدَعَاهُمْ فَحَلَفُوا لَهُ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

وَحَالُ هَؤُلَاءِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٣ - ٢٤]

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (١ / ٢٤٠) والطبري (٣٣٨٠٥) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اِسْتَحْوَذَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ ، حَتَّى أَنْسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ ﷻ ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِمَنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ ، إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ** »[1] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله . ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ الْمُحَادِّينَ للهِ وَرَسُولِهِ ، يَعْنِي : الَّذِينَ هُمْ فِي حَدٍّ وَالشَّرْعُ فِي حَدٍّ ، أَيْ : مُجَانِبُونَ لِلْحَقِّ مُشَاقُّونَ لَهُ ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ وَالْهُدَى فِي نَاحِيَةٍ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَشْقِيَاءِ الْمُبْعَدِينَ الْمَطْرُودِينَ عَنِ الصَّوَابِ الْأَذَلِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ أَيْ : قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي كِتَابِهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدَرِهِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُبَدَّلُ ، بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود : ٤٩] ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٥٤٧) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ - ٥٢] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْغَالِبُ لِأَعْدَائِهِ ، وَهَذَا قَدَرٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُوَادُّونَ الْمُحَادِّينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤]

قُلْتُ : وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حِينَ اسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ فِي أَسَارَى بَدْرٍ[1] فَأَشَارَ الصِّدِّيقُ بِأَنْ يُفَادُوا فَيَكُونُ مَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهِمْ ، وَقَالَ عُمَرُ : لَا أَرَى مَا رَأَى يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ تُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ - قَرِيبٌ لِعُمَرَ - فَأَقْتُلُهُ ، وَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ ، وَتُمَكِّنَ فُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ، لِيَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ .... الْقِصَّةُ بِكَمَالِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مَنِ اتَّصَفَ بِأَنَّهُ لَا يُوَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ ، فَهَذَا مِمَّنْ كَتَبَ اللهُ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ ، أَيْ : كَتَبَ لَهُ السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَزَيَّنَ الْإِيمَانَ فِي بَصِيرَتِهِ ،

---

(١) تقدم ذلك في سورة الأنفال عند تفسير قوله تعالى (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ ....)

قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : قَوَّاهُمْ .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ كُلُّ هَذَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرُ مَرَّةٍ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا سَخِطُوا عَلَى الْقَرَائِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي اللهِ تَعَالَى ، عَوَّضَهُمُ اللهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ حِزْبُ اللهِ ، أَيْ : عِبَادُ اللهِ وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تَنْوِيهٌ بِفَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فِي مُقَابَلَةِ مَا ذُكِرَ عَنْ أُولَئِكَ بِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الحَشْرِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : سُورَةُ الْحَشْرِ ؟ قَالَ : أُنْزِلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ ، وَيُمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ وَيُصَلِّي لَهُ وَيُوَحِّدُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : مَنِيعُ الْجَنَابِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي قَدَرِهِ وَشَرْعِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ . كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ هَادَنَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدًا وَذِمَّةً ، عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلَهُمْ وَلَا يُقَاتِلُوهُ ، فَنَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، فَأَحَلَّ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قَضَاءَهُ الَّذِي لَا يُصَدُّ ، فَأَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) البخاري (٤٨٨٢) .

وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمُ الْحَصِينَةِ الَّتِي مَا طَمِعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَظَنُّوا هُمْ أَنَّهَا مَانِعَتُهُمْ مِنْ بَأْسِ الله ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنَ الله شَيْئًا ، وَجَاءَهُمْ مِنَ الله مَا لَمْ يَكُنْ بِبَالِهِمْ ، وَسَيَّرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ وَأَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى أَذْرِعَاتٍ مِنْ أَعَالِي الشَّامِ - وَهِيَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ - وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى خَيْبَرَ ، وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ إِبِلُهُمْ ، فَكَانُوا يُخَرِّبُونَ مَا فِي بُيُوتِهِمْ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُحْمَلَ مَعَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ أَيْ : تَفَكَّرُوا فِي عَاقِبَةِ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ الله ، وَخَالَفَ رَسُولَهُ وَكَذَّبَ كِتَابَهُ ، كَيْفَ يَحِلُّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ الْمُخْزِي لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي النَّضِيرِ ﴿ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ أَيْ : فِي مُدَّةِ حِصَارِكُمْ لَهُمْ وَقِصَرِهَا - وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ - مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنَعَتِهَا .

﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ أَيْ : جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ الله مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أَيْ : الْخَوْفَ وَالْهَلَعَ وَالْجَزَعَ ، وَكَيْفَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - . ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَبِهِ نَقْضُ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْ سُقُوفِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ وَتَحَمُّلِهَا عَلَى الْإِبِلِ ، وَكَذَا قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقَالَ مُقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ** : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَاتِلُهُمْ ، فَإِذَا ظَهَرَ عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ هَدَمَ حِيطَانَهَا لِيَتَّسِعَ الْمَكَانُ لِلْقِتَالِ ، وَكَانَ الْيَهُودُ إِذَا عَلَوْا مَكَانًا أَوْ غَلَبُوا عَلَى دَرْبٍ أَوْ دَارٍ ، نَقَّبُوا مِنْ أَدْبَارِهَا ثُمَّ حَصَّنُوهَا وَدَرَّبُوهَا ،

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أَيْ: لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْجَلَاءَ - وَهُوَ النَّفْيُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - لَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَذَابٌ آخَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لأَنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، مَعَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ: حَتْمٌ لَازِمٌ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا فَعَلَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُمْ خَالَفُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْبِشَارَةِ، بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ اللِّينُ: نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ وَهُوَ جَيِّدٌ، وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: اللِّينَةُ: أَلْوَانُ التَّمْرِ سِوَى الْعَجْوَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ جَمِيعُ النَّخْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا حَاصَرَهُمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ، وَإِرْهَابًا وَإِرْعَابًا لِقُلُوبِهِمْ، أَيْ: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ، وَمَا تَرَكْتُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ، فَالْجَمِيعُ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ وَرِضَاهُ، وَفِيهِ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ، وَخِزْيٌ لَهُمْ، وَإِرْغَامٌ لأُنُوفِهِمْ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ[2]: حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَسَبَى وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَّنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ: بَنِي قَيْنُقَاعَ وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[3] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي

---

(١) البخاري (٢٣٢٦)، ومسلم (١٧٤٦).
(٢) البخاري (٤٠٢٨) و ومسلم (١٧٦٦).
(٣) البخاري (٤٠٣١)، ومسلم (١٧٤٦).

النَّضِيرِ وَقَطَعَ - وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ - فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِ ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ . وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ ، وَقَطَعَ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ ، وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَـرِيقٌ بِالْبُوَيْـرَةِ مُسْتَطِيرُ

فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُولُ :

أَدَامَ اللهُ ذَلِـكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

سَتَعْلَمُ أَيُّنَـا مِنْهَـا بِنُــزْهٍ ... وَتَعْلَـمُ أَيُّ أَرْضَيْنَا نَضِيرُ

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِمَالِ الْفَيْءِ وَمَا صِفَتُهُ ؟ وَمَا حُكْمُهُ ؟ ، فَالْفَيْءُ : كُلُّ مَالٍ أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِيجَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، كَأَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ هَذِهِ ، فَإِنَّهَا مِمَّا لَمْ يُوجِفُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، أَيْ : لَمْ يُقَاتِلُوا الْأَعْدَاءَ فِيهَا بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُصَاوَلَةِ بَلْ نَزَلَ أُولَئِكَ مِنَ الرُّعْبِ الَّذِي أَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ هَيْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَفَاءَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَلِهَذَا تَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَرَدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ، يَعْنِي : الْإِبِلَ ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَدِيرٌ لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

---

(١) البخاري (٤٠٣٢ ، ٤٨٨٤) ، ومسلم (١٧٤٦) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْبُلْدَانِ الَّتِي تُفْتَحُ هَكَذَا ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا ، فَهَذِهِ مَصَارِفُ أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَوُجُوهِهِ . **عَنْ عُمَرَ** ﷺ **قَالَ** [١]: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ إِلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَالِصَةً ، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَتِهِ . وَقَالَ مَرَّةً : قُوتُ سَنَتِهِ ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ .

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ [٢] **قَالَ** : أَرْسَلَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ حِينَ تَعَالَى النَّهَارُ فَجِئْتُهُ ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى سَرِيرٍ مُفْضِيًا إِلَى رُمَالِهِ ، فَقَالَ حِينَ دَخَلْتُ عَلَيْهِ : يَا مَالِ ، إِنَّهُ قَدْ دَفَّ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ قَوْمِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِشَيْءٍ فَاقْسِمْ فِيهِمْ ، قُلْتُ : لَوْ أَمَرْتَ غَيْرِي بِذَلِكَ ؟ ، فَقَالَ : خُذْهُ ، فَجَاءَهُ يَرْفَأُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا ، ثُمَّ جَاءَهُ يَرْفَأُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : هَلْ لَكَ فِي الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا - يَعْنِي عَلِيًّا - فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرِحْهُمَا ، قَالَ مَالِكُ بْنُ أَوْسٍ : خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا قَدِمَا أُولَئِكَ النَّفَرُ لِذَلِكَ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : اتَّئِدا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أُولَئِكَ الرَّهْطِ ، فَقَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** » قَالُوا : نَعَمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَالْعَبَّاسِ فَقَالَ : أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** » فَقَالَا : نَعَمْ ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ خَصَّ رَسُولَهُ بِخَاصَّةٍ لَمْ يَخُصَّ بِهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ

---

(١) البخاري (٢٩٠٤) ، ومسلم (١٧٥٧) .

(٢) البخاري (٣٠٩٤) ، ومسلم (١٧٥٧) .

وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَكَانَ اللهُ تَعَالَى أَفَاءَ إِلَى رَسُولِهِ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ ، فَوَاللهِ مَا اِسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ ، وَلَا أَحْرَزَهَا دُونَكُمْ ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْخُذُ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَةٍ أَوْ نَفَقَتَهُ وَنَفَقَةَ أَهْلِهِ سَنَةً ، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ أُسْوَةَ المَالِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أُولَئِكَ الرَّهْطِ فَقَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَالْعَبَّاسِ ، فَقَالَ : أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ ؟ قَالَا : نَعَمْ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَجِئْتَ أَنْتَ وَهَذَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَطْلُبُ أَنْتَ مِيرَاثَكَ عَنِ ابْنِ أَخِيكَ ، وَيَطْلُبُ هَذَا مِيرَاثَ اِمْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** » ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ، فَوَلِيَهَا أَبُو بَكْرٍ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ قُلْتُ : أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ فَوَلِّيتُهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَلِيهَا ، فَجِئْتَ أَنْتَ وَهَذَا وَأَنْتُمَا جَمِيعٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ ، فَسَأَلْتُمَانِيهَا ، فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتُمَا فَأَنَا أَدْفَعُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللهِ أَنْ تَلِيَاهَا بِالَّذِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلِيهَا ، فَأَخَذْتُمَاهَا مِنِّي عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ جِئْتُمَانِي لِأَقْضِيَ بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَاللهِ لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَرُدَّاهَا إِلَيَّ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[١] عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ قَالَ : أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ مَالِهِ النَّخَلَاتِ - أَوْ كَمَا شَاءَ اللهُ - حَتَّى فُتِحَتْ عَلَيْهِ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ ، قَالَ : فَجَعَلَ يَرُدُّ بَعْدَ ذَلِكَ ، قَالَ : وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْأَلُهُ الَّذِي كَانَ أَهْلُهُ أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ ، وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ - أَوْ كَمَا شَاءَ اللهُ - قَالَ : فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِيهِنَّ ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ فِي عُنُقِي ، وَجَعَلَتْ تَقُولُ : كَلَّا وَاللهِ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُعْطِيكَهُنَّ وَقَدْ أَعْطَانِيهِنَّ - أَوْ كَمَا قَالَتْ - فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ : « **لَكِ كَذَا وَكَذَا** » قَالَ : وَتَقُولُ : كَلَّا وَاللهِ قَالَ : وَيَقُولُ : « **لَكِ كَذَا وَكَذَا** » قَالَ : وَتَقُولُ : كَلَّا وَاللهِ ، قَالَ : وَيَقُولُ : « **لَكِ كَذَا وَكَذَا** » قَالَ : حَتَّى أَعْطَاهَا

---

(١) البخاري (٤١٢٠) ، ومسلم (١٧٧١) .

حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ : عَشْرَةَ أَمْثَالِهِ - أَوْ قَالَ قَرِيبًا مِنْ عَشْرَةِ أَمْثَالِهِ - أَوْ كَمَا قَالَ .

وَهَذِهِ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ الْمَصَارِفُ الْمَذْكُورَةُ فِي خُمُسِ الْغَنِيمَةِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي ((سُورَةِ الْأَنْفَالِ)) بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، وَللهِ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَيْءِ لِئَلَّا يَبْقَى مَأْكَلَةً يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْآرَاءِ ، وَلَا يَصْرِفُونَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ[1] **قَالَ** : لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ ﷻ. قَالَ : فَبَلَغَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ فِي الْبَيْتِ يُقَالُ لَهَا : أُمُّ يَعْقُوبَ ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ قُلْتَ : كَيْتَ وَكَيْتَ ، قَالَ : مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَفِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، فَقَالَتْ : إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا بَيْنَ لَوْحَيْهِ فَمَا وَجَدْتُهُ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ فَقَدْ وَجَدْتِيهِ ، أَمَا قَرَأْتِ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ قَالَتْ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ ، قَالَتْ : إِنِّي لَأَظُنُّ أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ ، قَالَ : اذْهَبِي فَانْظُرِي ، فَذَهَبَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا ، قَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا لَمْ تُجَامِعْنَا .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[2] **أَيْضًا** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَيْ : اتَّقُوهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ وَنَهَاهُ .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا

---

(١) البخاري (٤٨٨٦) ، ومسلم (٢١٢٥) .

(٢) البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا حَالَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِمَالِ الْفَيْءِ أَنَّهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أَيْ : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَخَالَفُوا قَوْمَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ سَادَاتُ الْمُهَاجِرِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَادِحًا لِلْأَنْصَارِ ، وَمُبَيِّنًا فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ وَعَدَمَ حَسَدِهِمْ ، وَإِيثَارِهِمْ مَعَ الْحَاجَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : سَكَنُوا دَارَ الْهِجْرَةِ مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ .

قَالَ عُمَرُ[1] : وَأُوصِي الْخَلِيفَةَ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ كَرَامَتَهُمْ ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ ، أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ مُسِيئِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ كَرَمِهِمْ وَشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ يُحِبُّونَ الْمُهَاجِرِينَ وَيُوَاسُونَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ . **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؛ قَالَ** : دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْصَارَ أَنْ يَقْطَعَ لَهُمُ الْبَحْرَيْنِ قَالُوا : لَا إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا ، قَالَ : ((**إِمَّا لَا ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ أَثَرَةٌ**))[2].

وَعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ**[3] **قَالَ** : قَالَتِ الْأَنْصَارُ اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ ، قَالَ : لَا ،

---

(١) البخاري (حديث ٣٧٠٠) .
(٢) البخاري (٣٧٩٤) .
(٣) البخاري (٢٣٢٥) .

قَالُوا : أَتَكْفُونَا الْمُؤْنَةَ وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا ﴾ أَيْ : وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَدًا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرُّتْبَةِ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يَعْنِي : الْحَسَدَ ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا ﴾ يَعْنِي : فِيمَا أَعْطَى إِخْوَانَهُمْ . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يَعْنِي : حَاجَةٌ ، أَيْ : يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِيجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَبْدَءُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جَهْدُ الْمُقِلِّ**))[1] ، وَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [**الإنسان : ٨**] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [**البقرة : ١٧٧**] ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ ، وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ ، وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ ﷺ بِجَمِيعِ مَالِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2] : ((**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟**)) ، فَقَالَ ﷺ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَهَذَا الْمَاءُ الَّذِي عُرِضَ عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَاءِ ، فَرَدَّهُ الْآخَرُ إِلَى الثَّالِثِ ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ[3] : أَتَى رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ**)) فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا ، فَقَالَتْ وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ ، قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ ، فَفَعَلَتْ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (١٤٤٩) وغيره .
(٢) **حسن** : أخرجه أبو داود (١٦٧٨) وغيره .
(٣) البخاري (٣٧٩٨) ، ومسلم (٢٠٥٤) .

فَقَالَ : ((**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ ﷻ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ**)) ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**))[1] .

وَعَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ[2] : كُنْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَقُولُ : اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي ، لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : فَقَالَ : إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ ، وَلَمْ أَزْنِ ، وَلَمْ أَفْعَلْ ، وَإِذَا الرَّجُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هَؤُلَاءِ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ فُقَرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ ، ثُمَّ الْأَنْصَارُ ، ثُمَّ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءَةَ ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِآثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ ، وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ ، الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : قَائِلِينَ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أَيْ : بُغْضًا وَحَسَدًا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَ الْإِمَامُ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللهُ - مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ فِي مَالِ الْفَيْءِ نَصِيبٌ ، لِعَدَمِ اتِّصَافِهِ بِمَا مَدَحَ اللهُ بِهِ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِمْ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) مسلم (٢٥٧٨) .

(٢) الطبري أثر (٣٨٨٢) بسند حسن إلى أبي الهياج .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَضْرَابِهِ حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ يَعِدُونَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : لَكَاذِبُونَ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ ، إِمَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ قَوْلًا مِنْ نِيَّتِهِمْ أَنْ لَا يَفُوا لَهُمْ بِهِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ لَا يَقَعُ مِنْهُمُ الَّذِي قَالُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أَيْ : قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ يَعْنِي :

أَنَّهُمْ مِنْ جُبْنِهِمْ وَهَلَعِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجِهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ ، بَلْ إِمَّا فِي حُصُونٍ ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ مُحَاصَرِينَ ، فَيُقَاتِلُونَ لِلدَّفْعِ عَنْهُمْ ضَرُورَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أَيْ : عَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أَيْ : تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحْسَبُهُمْ مُؤْتَلِفِينَ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ غَايَةَ الِاخْتِلَافِ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كَمَثَلِ مَا أَصَابَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقِيلَ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يَعْنِي : يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاعٍ ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِالصَّوَابِ ، فَإِنَّ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ هَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ يَعْنِي : مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي اغْتِرَارِهِمْ بِالَّذِينَ وَعَدُوهُمُ النَّصْرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَوْلُ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ ثُمَّ لَمَّا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ وَجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ تَخَلَّوْا عَنْهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ ، مِثَالُهُمْ فِي هَذَا كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ - الْكُفْرَ ، فَإِذَا دَخَلَ فِيمَا سَوَّلَهُ لَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ وَقَالَ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ هَهُنَا قِصَّةً لِبَعْضِ عُبَّادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ كَالْمِثَالِ لِهَذَا الْمَثَلِ ، لَا أَنَّهَا الْمُرَادَةُ وَحْدَهَا بِالْمَثَلِ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْوَقَائِعِ الْمُشَاكَلَةِ لَهَا .

فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ نَهِيكٍ قَالَ[1] : سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه يَقُولُ : إِنَّ رَاهِبًا تَعَبَّدَ سِتِّينَ سَنَةً ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ أَرَادَهُ فَأَعْيَاهُ ، فَعَمَدَ إِلَى امْرَأَةٍ فَأَجَنَّهَا وَلَهَا إِخْوَةٌ فَقَالَ لِإِخْوَتِهَا عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقَسِّ فَيُدَاوِيهَا ، قَالَ : فَجَاءُوا بِهَا إِلَيْهِ فَدَاوَاهَا ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا عِنْدَهَا إِذْ أَعْجَبَتْهُ ، فَأَتَاهَا فَحَمَلَتْ فَعَمَدَ إِلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، فَجَاءَ إِخْوَتُهَا ،

---

(١) أخرجه الطبري (٣٣٩٠٣) وعبد الله بن نهيك لم يوثقه معتبر فالأثر ضعيف الإسناد .

فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلرَّاهِبِ : أَنَا صَاحِبُكَ ، إِنَّكَ أَعْيَيْتَنِي ، أَنَا صَنَعْتُ هَذَا بِكَ ، فَأَطِعْنِي أُنْجِكَ مِمَّا صَنَعْتُ بِكَ ، فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً ، فَسَجَدَ ، فَلَمَّا سَجَدَ لَهُ قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أَيْ : فَكَانَ عَاقِبَةُ الْآمِرِ بِالْكُفْرِ وَالْفَاعِلِ لَهُ ، وَمَصِيرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

عَنْ جَرِيرٍ قَالَ[1] : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ ، قَالَ : فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ - أَوِ الْعَبَاءِ - مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ ، قَالَ : فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء : ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] ((**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**)) - حَتَّى قَالَ : ((**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**)) قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي**

---

(١) مسلم (حديث ١٠١٧) .

الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمَرَ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زَجَرَ . ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أَيْ : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَانْظُرُوا مَاذَا ادَّخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرْضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تَأْكِيدٌ ثَانٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ . ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَنْسَوْا ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى ، فَيُنْسِيكُمُ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمُ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] فِي آيَاتٍ أُخَرَ دَالَّاتٍ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُكْرِمُ الْأَبْرَارَ وَيُهِينُ الْفُجَّارَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أَيْ : النَّاجُونَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِأَمْرِ الْقُرْآنِ ، وَمُبَيِّنًا عُلُوَّ قَدْرِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَتَصَدَّعُ عِنْدَ سَمَاعِهِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ الْحَقِّ وَالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي غِلْظَتِهِ وَقَسَاوَتِهِ لَوْ فَهِمَ هَذَا الْقُرْآنَ فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ لَخَشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَوْفِ اللهِ ﷻ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ لَا تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَتَخْشَعَ وَتَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَدْ فَهِمْتُمْ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَتَدَبَّرْتُمْ كِتَابَهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَوَاتِرِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا عُمِلَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَقَدْ كَانَ يَوْمَ الْخُطْبَةِ يَقِفُ إِلَى جَانِبِ جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا وُضِعَ الْمِنْبَرُ أَوَّلَ مَا وُضِعَ ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْطُبَ فَجَاوَزَ الْجِذْعَ إِلَى نَحْوِ الْمِنْبَرِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَنَّ الْجِذْعُ ، وَجَعَلَ يَئِنُّ كَمَا يَئِنُّ الصَّبِيُّ الَّذِي يُسَكَّنُ لِمَا كَانَ يُسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ وَالْوَحْيِ عِنْدَهُ ، فَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَعْدَ إِيرَادِهِ : فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْجِذْعِ ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، إِذَا كَانَتِ الْجِبَالُ الصُّمُّ لَوْ سَمِعَتْ كَلَامَ اللهِ وَفَهِمَتْهُ لَخَشَعَتْ وَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَتِهِ ، فَكَيْفَ بِكُمْ وَقَدْ سَمِعْتُمْ وَفَهِمْتُمْ ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد : ٣١] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَيْ : لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤]

---

(١) له عن رسول الله ﷺ طرقٌ في غاية من الكثرة .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ لِلْوُجُودِ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَبَاطِلٌ ، وَأَنَّهُ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمُشَاهَدَاتِ لَنَا وَالْغَائِبَاتِ عَنَّا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ، حَتَّى الذَّرِّ فِي الظُّلُمَاتِ ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الْمُرَادُ : أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ أَيْ : الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِلَا مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ ، ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : الطَّاهِرُ ، **وَقِيلَ** : أَيْ : الْمُبَارَكُ ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ، لِكَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : أَمَّنَ خَلْقَهُ مِنْ أَنْ يَظْلِمَهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَمَّنَ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ حَقٌّ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : صَدَّقَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِيمَانِهِمْ بِهِ .

﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : الشَّاهِدُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، بِمَعْنَى : هُوَ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَ الْأَشْيَاءَ ، فَلَا يُنَالُ جَنَابُهُ لِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا تَلِيقُ الْجَبْرِيَّةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا التَّكَبُّرُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ ((**الْعَظَمَةُ إِزَارِي ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**))(١) ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْجَبَّارُ الَّذِي جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الْجَبَّارُ الْمُصْلِحُ

---

(١) عند مسلم في الصحيح (٢٦٢٠) ((العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته)) .

أُمُورَ خَلْقِهِ ، المُتَصَرِّفُ فِيهِمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : المُتَكَبِّرُ يَعْنِي عَنْ كُلِّ سُوءٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخَلْقُ : التَّقْدِيرُ ، وَالبَرَاءُ : هُوَ الفَرْيُ ، وَهُوَ التَّنْفِيذُ ، وَإِبْرَازُ مَا قَدَّرَهُ وَقَرَّرَهُ إِلَى الوُجُودِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ قَدَّرَ شَيْئًا وَرَتَّبَهُ يَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَإِيجَادِهِ سِوَى اللهِ ﷻ ، قَالَ الشَّاعِرُ يَمْدَحُ آخَرَ :

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ ... وَبَعْضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

أَيْ : أَنْتَ تُنَفِّذُ مَا خَلَقْتَ ، أَيْ : قَدَّرْتَ بِخِلَافِ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ مَا يُرِيدُ ، فَالخَلْقُ : التَّقْدِيرُ ، وَالفَرْيُ : التَّنْفِيذُ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : قَدَّرَ الجَلَّادُ ثُمَّ فَرَى ، أَيْ : قَطَعَ عَلَى مَا قَدَّرَهُ بِحَسَبِ مَا يُرِيدُهُ .

﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُ وَالصُّورَةِ الَّتِي يَخْتَارُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي يُنَفِّذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا ، ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الأَعْرَافِ » وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « إِنَّ للهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ »[1] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الحَشْرِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٧٣٩٢) ، ومسلم (٢٠٦٣) .

تفْسِيرُ سُورَةِ الْممْتحنةِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كَانَ سَبَبُ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، قِصَّةَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاطِبًا هَذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ أَيْضًا ، وَكَانَ لَهُ بِمَكَّةَ أَوْلَادٌ وَمَالٌ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْفُسِهِمْ بَلْ كَانَ حَلِيفًا لِعُثْمَانَ ، فَلَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا نَقَضَ أَهْلُهَا الْعَهْدَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجْهِيزِ لِغَزْوِهِمْ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِمْ خَبَرَنَا » فَعَمَدَ حَاطِبٌ هَذَا فَكَتَبَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، يُعْلِمُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِمْ ، لِيَتَّخِذَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ يَدًا ، فَأَطْلَعَ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْمَرْأَةِ فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهَا ، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ .

عَنْ عَلِيٍّ[1] ﷺ قال : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ فَقَالَ : « انْطَلِقُوا

---

(١) البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا » فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ ، قُلْنَا : أَخْرِجِي الْكِتَابَ ، قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ ، قُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ ، قَالَ : فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ عِقَاصِهَا ، فَأَخَذْنَا الْكِتَابَ ، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ : مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟** » قَالَ : لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ بِمَكَّةَ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي ، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **إِنَّهُ صَدَقَكُمْ** » فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** » وَزَادَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي[1] : فَأَنْزَلَ اللهُ السُّورَةَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ[2] : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبَا مَرْثَدٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ وَقَالَ : « **انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ** » فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُلْنَا : الْكِتَابَ ؟ فَقَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ ، فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا ، فَقُلْنَا : مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا - وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ - فَأَخْرَجَتْهُ ، فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟** » قَالَ حَاطِبٌ : وَاللهِ مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ

---

(١) البخاري (٤٨٩٠) .

(٢) البخاري (٤٢٧٤) .

مَنْ يَدْفَعُ اللهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ ، فَقَالَ : ((**صَدَقَ ، لَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا**)) ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ : ((**أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ** ؟ - فَقَالَ - **لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ** - أَوْ - **قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**)) فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ ، وَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ شَرَعَ اللهُ عَدَاوَتَهُمْ وَمُصَارَمَتَهُمْ ، وَنَهَى أَنْ يُتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَخِلَّاءَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٥١] ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وَلِهَذَا قَبِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُذْرَ حَاطِبٍ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مُصَانَعَةً لِقُرَيْشٍ ؛ لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ وَعَدَمِ مُوَالَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُكُمْ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج : ٤٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ ، فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ

لِرِضَاتِي عَنْكُمْ ، فَلَا تُوَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَنَقًا عَلَيْكُمْ وَسُخْطًا لِدِينِكُمْ . ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ أَيْ : تَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظَّوَاهِرِ ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ ﴾ أَيْ : لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا فِيكُمْ مِنْ أَذًى يَنَالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : وَيَحْرِصُونَ عَلَى أَنْ لَا تَنَالُوا خَيْرًا ، فَهُمْ عَدَاوَتُهُمْ لَكُمْ كَامِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ ، فَكَيْفَ تُوَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : قَرَابَاتُكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ اللهِ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِكُمْ سُوءًا وَنَفْعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ ، وَمَنْ وَافَقَ أَهْلَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيُرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُهُ ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ أَبِي ؟ قَالَ : « فِي النَّارِ » ، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ »[1].

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانَبَتِهِمْ

---

(١) مسلم (حديث ٢٠٣) .

وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ أَيْ : وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أَيْ : بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يَعْنِي : وَقَدْ شُرِعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ ، فَنَحْنُ أَبَدًا نَتَبَرَّأُ مِنكُمْ وَنَبْغَضُكُمْ ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾ أَيْ : إِلَى أَنْ تُوَحِّدُوا اللهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أَيْ : لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، تَتَأَسَّوْنَ بِهَا إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَدْعُونَ لِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٣ - ١١٤] .

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ ، أَيْ : فِي الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، حِينَ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ فَلَجَئُوا إِلَى اللهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : تَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَسَلَّمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْنَاهَا إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أَيْ : الْمَعَادُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ ، فَيَقُولُوا : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتَتِنُوا

بِذَلِكَ ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِحَقٍّ هُمْ عَلَيْهِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقِيلَ** الْمَعْنَى : لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ ، وَاعْفُ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِجَنَابِكَ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ وَشَرْعِكَ وَقَدَرِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَمُسْتَثْنًى مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةَ الْمُثْبَتَةَ هَهُنَا هِيَ الْأُولَى بِعَيْنِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ﴾ تَهْيِيجٌ إِلَى ذَلِكَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَالْمَعَادِ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أَيْ : عَمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : الْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ ، وَهُوَ اللهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَالْحَمِيدُ الْمُسْتَحْمَدُ إِلَى خَلْقِهِ ، أَيْ : هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ أَيْ : مَحَبَّةً بَعْدَ الْبِغْضَةِ ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النَّفْرَةِ ، وَأُلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ ، فَيُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْقَسَاوَةِ ، فَتُصْبِحُ

مُجْتَمِعَةً مُتَّفِقَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْأَنْصَارِ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] الْآيَة ، وَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ؟**))[1]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ - ٦٣]

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَ مَا ... يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ لِلْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُ وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يُعَاوِنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أَيْ : تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : تَعْدِلُوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَتْ : قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُهَا ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكِ**))[2] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي ((سُورَةِ الْحُجُرَاتِ))[3] وَأَوْرَدْنَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ ((**الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَأَهَالِيهِمْ ، وَمَا وُلُّوا**))[4].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن

(١) البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١) .
(٢) البخاري (٥٩٧٨) .
(٣) الآية رقم (٩) .
(٤) **صحيح** : وقد تقدم .

دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمْ بِالعَدَاوَةِ ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، يَنْهَاكُمُ اللهُ ﷻ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مُوَالَاتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الْفَتْحِ »[1] فِي ذِكْرِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَكَانَ فِيهِ : عَلَى أَنْ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، وَفِي رِوَايَةٍ : عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا[2] ، فَعَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُخَصِّصَةً لِلسُّنَّةِ ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ ، وَعَلَى طَرِيقَةِ بَعْضِ السَّلَفِ نَاسِخَةٌ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا جَاءَهُمُ النِّسَاءُ مُهَاجِرَاتٌ أَنْ يَمْتَحِنُوهُنَّ فَإِنْ عَلِمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ .

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ

(١) الآية (٢٥ ، ٢٦) .
(٢) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ كَانَ اِمْتِحَانُهُنَّ أَنْ يَشْهَدْنَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فَاسْأَلُوهُنَّ عَمَّا جَاءَ بِهِنَّ ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ بِهِنَّ غَضَبٌ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ أَوْ سُخْطَةٌ أَوْ غَيْرُهُ وَلَمْ يُؤْمِنَّ ، فَارْجِعُوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : يُقَالُ لَهَا : مَا جَاءَ بِكِ إِلَّا حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ ؟ ، وَمَا جَاءَ بِكِ عِشْقُ رَجُلٍ مِنَّا وَلَا فِرَارٌ مِنْ زَوْجِكِ ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْ مِحْنَتُهُنَّ أَنْ يَسْتَحْلِفْنَ بِاللهِ مَا أَخْرَجَكُنَّ النُّشُوزُ ؟ ، وَمَا أَخْرَجَكُنَّ إِلَّا حُبُّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَحِرْصٌ عَلَيْهِ ؟ ، فَإِذَا قُلْنَ ذَلِكَ قُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يُمْكِنُ الِاطِّلَاعُ عَلَيْهِ يَقِينًا ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي حَرَّمَتِ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ كَانَ جَائِزًا فِي اِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَةَ ، وَلِهَذَا كَانَ أَمْرُ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ[1] زَوْجُ اِبْنَةِ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَقَدْ كَانَتْ مُسْلِمَةً وَهُوَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ بَعَثَتِ اِمْرَأَتُهُ زَيْنَبُ فِي فِدَائِهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ لِأُمِّهَا خَدِيجَةَ ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ لِلْمُسْلِمِينَ : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا » ، فَفَعَلُوا ، فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ اِبْنَتَهُ إِلَيْهِ ، فَوَفَى لَهُ بِذَلِكَ ، وَصَدَقَهُ فِيمَا وَعَدَهُ ، وَبَعَثَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ ، فَأَقَامَتْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، وَكَانَتْ سَنَةَ اِثْنَتَيْنِ إِلَى أَنْ أَسْلَمَ زَوْجُهَا أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ سَنَةَ ثَمَانٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ يَعْنِي : أَزْوَاجَ الْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، اِدْفَعُوا إِلَيْهِمُ الَّذِي غَرِمُوهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَصْدِقَةِ : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ أَصْدُقَتَهُنَّ فَانْكِحُوهُنَّ ، أَيْ : تَزَوَّجُوهُنَّ بِشَرْطِهِ مِنِ اِنْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَالْوَلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ تَحْرِيمٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحُ الْمُشْرِكَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ مَعَهُنَّ .

(١) إسناده يُحسن : والذي فيه فقط عنعنة ابن إسحاق ، ولا أراها تضر هاهنا ، والحديث (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

وَفِي الصَّحِيحِ[1] عَنِ الْمِسْوَرِ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا عَاهَدَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ جَاءَهُ نِسَاءٌ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فَطَلَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ ، تَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ أَيْ : وَطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمُ اللَّاتِي يَذْهَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ إِنْ ذَهَبْنَ ، وَلْيُطَالِبُوا بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي هَاجَرْنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الصُّلْحِ وَاسْتِثْنَاءِ النِّسَاءِ مِنْهُ ، وَالْأَمْرُ بِهَذَا كُلِّهِ هُوَ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ قِيلَ : هَذَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمُ امْرَأَةٌ وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَى زَوْجِهَا شَيْئًا ، فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمُ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِهَا شَيْءٌ ، حَتَّى يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِ الذَّاهِبَةِ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نَفَقَتِهِ عَلَيْهَا .

عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ : أَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ الله فَأَدَّوْا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى نِسَائِهِمْ ، وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُقِرُّوا بِحُكْمِ الله فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فَلَوْ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ امْرَأَةٌ مِنْ أَزْوَاجِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، رَدَّ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى زَوْجِهَا النَّفَقَةَ الَّتِي أَنْفَقَ عَلَيْهَا مِنَ الْعَقِبِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمُ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَرُدُّوهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي آمَنَّ وَهَاجَرْنَ ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَضْلًا ، إِنْ كَانَ بَقِيَ لَهُمْ ، وَالْعَقِبُ مَا كَانَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ حِينَ آمَنَّ وَهَاجَرْنَ .

---

(١) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أَصَبْتُمْ غَنِيمَةً مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ غَيْرِهِمْ ﴿ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ يَعْنِي : مَهْرَ مِثْلِهَا ، وَهَذَا لَا يُنَافِي الأَوَّلَ ؛ لأَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَ الأَوَّلُ فَهُوَ أَوْلَى ، وَإِلَّا فَمِنَ الْغَنَائِمِ اللَّاتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ ، وَهَذَا أَوْسَعُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

عَنْ عَائِشَةَ[1] زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ « قَدْ بَايَعْتُكِ » كَلَامًا ، وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ : « قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ » .

وَعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ قَالَتْ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسَاءٍ لِنُبَايِعَهُ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ ، أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا الْآيَة ، وَقَالَ : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ، وَأَطَقْتُنَّ » قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلَا تُصَافِحُنَا ؟ قَالَ : « إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ »[2].

وَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ[3] قَالَتْ : بَايَعْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْنَا ﴿ لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وَنَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ ، فَقَبَضَتِ امْرَأَةٌ يَدَهَا ، قَالَتْ : أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةٌ فَأُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا ، فَمَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا ، فَانْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَمَا وَفَى مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ غَيْرُهَا ، وَغَيْرُ أُمِّ سُلَيْمٍ امْرَأَةِ مِلْحَانَ .

---

(١) الطبري (٣٣٩٦٠) بسند صحيح ، وانظر البخاري (حديث ٢٧١٣) .

(٢) **إسناده صحيح** : أخرجه أحمد (٦ / ٣٥٧) وغيره .

(٣) البخاري (٤٨٩٢) ، ومسلم (٩٣٦) .

وَلِلْبُخَارِيِّ[1] عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ الْبَيْعَةِ: أَنْ لَا نَنُوحَ، فَمَا وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ غَيْرُ خَمْسِ نِسْوَةٍ: أُمُّ سُلَيْمٍ، وَأُمُّ الْعَلَاءِ، وَابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ، امْرَأَةُ مُعَاذٍ، وَامْرَأَتَانِ، أَوِ ابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ وَامْرَأَةُ مُعَاذٍ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] قَالَ: شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْفِطْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الْخُطْبَةِ، ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدُ، فَنَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلَالٍ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ: «أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ؟»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَتَصَدَّقْنَ»، قَالَ: وَبَسَطَ بِلَالٌ ثَوْبَهُ، فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الْفَتَخَ وَالْخَوَاتِيمَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ[3]: جَاءَتْ أُمَيْمَةُ بِنْتُ رُقَيْقَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تُبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: «أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقِي، وَلَا تَزْنِي، وَلَا تَقْتُلِي وَلَدَكِ، وَلَا تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ يَدَيْكِ وَرِجْلَيْكِ، وَلَا تَنُوحِي، وَلَا تَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى».

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ[4] قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَى النِّسَاءِ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أَيْ: مَنْ جَاءَكَ مِنْهُنَّ

---

(١) البخاري (حديث ١٣٠٦).

(٢) البخاري (حديث ٤٨٩٥).

(٣) سنده حسن: وأخرجه أحمد (٢/ ١٩٦).

(٤) البخاري (حديث ١٨)، ومسلم (حديث ١٧٠٩).

يُبَايِعُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ فَبَايِعْهَا ﴿ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾ أَمْوَالَ النَّاسِ الْأَجَانِبِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مُقَصِّرًا فِي نَفَقَتِهَا فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهَا ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ، عَمَلًا بِحَدِيثِ هِنْدٍ بِنْتِ عُتْبَةَ(١) أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وَفِي حَدِيثِ سَمُرَةَ(٢) ذَكَرَ عُقُوبَةَ الزُّنَاةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي نَارِ الْجَحِيمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ ، وَهَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ ، وَيَعُمُّ قَتْلَهُ وَهُوَ جَنِينٌ ، كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهَلَةِ مِنَ النِّسَاءِ ، تَطْرَحُ نَفْسَهَا لِئَلَّا تَحْبَلَ إِمَّا لِغَرَضٍ فَاسِدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي لَا يُلْحِقْنَ بِأَزْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِمْ . ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يَعْنِي : فِيمَا أَمَرْتَهُنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ وَنَهَيْتَهُنَّ عَنْهُ مِنْ مُنْكَرٍ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قَالَ : إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللهُ لِلنِّسَاءِ . وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : لَمْ يَجْعَلِ اللهُ طَاعَةً لِنَبِيِّهِ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ ، وَالْمَعْرُوفُ طَاعَةٌ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَهُوَ خِيرَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي الْمَعْرُوفِ .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ(٣) : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ » .

---

(١) البخاري (٢٢١١) ، ومسلم (١٧١٤) .

(٢) انظر البخاري (٧٠٤٧) .

(٣) البخاري (١٢٩٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨) ، ومسلم (١٠٣) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[١] عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَرِئٌ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ .

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ - وَقَالَ - النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ** »[٢].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا ، **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ ، مِمَّنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَاسْتَحَقَّ مِنَ الله الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ ، فَكَيْفَ تُوَالُونَهُمْ وَتَتَّخِذُونَهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَخِلَّاءَ ، وَقَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، أَيْ : ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ الله ﷻ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ **فِيهِ قَوْلَانِ** : **أَحَدُهُمَا**، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنْ قَرَابَاتِهِمُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بَعْثًا وَلَا نُشُورًا ، فَقَدِ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: مَعْنَاهُ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ قَالَ : كَمَا يَئِسَ هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (١٢٩٦) ، ومسلم (١٠٤) .

(٢) مسلم (٩٣٤) .

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَام قَالَ : تَذَاكَرْنَا أَيُّكُمْ يَأْتِي رَسُولَ اللهﷺ فَيَسْأَلَهُ : أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله ؟ فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ مِنَّا ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهﷺ إِلَيْنَا رَجُلًا فَجَمَعَنَا ، فَقَرَأَ عَلَيْنَا هَذِهِ السُّورَةَ ، يَعْنِي : سُورَةَ الصَّفِّ كُلَّهَا[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَام أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهﷺ قَالُوا : لَوْ أَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ الله نَسْأَلُهُ عَنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَى الله ﷻ ؟ فَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَّا ، وَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللهﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ رَجُلًا رَجُلًا ، حَتَّى جَمَعَهُمْ ، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ السُّورَةُ سَبَّحَ « الصَّفّ » ، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ : فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهﷺ كُلَّهَا[2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ غَيْرَ مَرةٍ ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ[3].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢) ، والدارمي (٢ / ٢٠٠) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر تفسير سورة الحديد آية رقم (٥٧) .

عِدَةً أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا ، سَوَاءٌ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ عَزْمٌ لِلْمَوْعُودِ أَمْ لَا . وَاحْتَجُّوا أَيْضًا مِنَ السُّنَّةِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[1].

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ فِي الصَّحِيحِ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا »[2] فَذَكَرَ مِنْهُنَّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ ؛ وَلِهَذَا أَكَّدَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيْلِيِّ قَالَ : بَعَثَ أَبُو مُوسَى إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ ، كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ قُرَّاءُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَخِيَارُهُمْ ، وَقَالَ : كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ ، فَأُنْسِينَاهَا ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، فَتُكْتَبُ شَهَادَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ ، فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ، هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِمَحَبَّتِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اصْطَفُّوا مُوَاجِهِينَ لِأَعْدَاءِ اللهِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أَيْ : مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ[3] : كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى صَاحِبِ الْبُنْيَانِ ، كَيْفَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَخْتَلِفَ بُنْيَانُهُ ؟ فَكَذَلِكَ اللهُ ﷻ لَا يَخْتَلِفُ أَمْرُهُ ، وَإِنَّ اللهَ صَفَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ وَصَفَّهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ .

---

(١) البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .
(٢) البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .
(٣) إسناده حسن : الطبري (٣٤٠٥٠) .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أَيْ : لِمَ تُوصِلُونَ الْأَذَى إِلَيَّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ؟ وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ فِيمَا أَصَابَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : «رَحْمَةُ الله عَلَى مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[1] .

وَفِيهِ نَهْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنَالُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يُوصِلُوا إِلَيْهِ أَذًى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب : ٦٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَيْ : فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ ، أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَأَسْكَنَهَا الشَّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخِذْلَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾

---

(١) البخاري (٤٣٣٥ ، ٤٣٣٦) ، ومسلم (١٠٦٢) .

يَعْنِي : التَّوْرَاةَ قَدْ بَشَّرَتْ بِي ، وَأَنَا مِصْدَاقُ مَا أَخْبَرَتْ عَنْهُ ، وَأَنَا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي ، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ .

فَعِيسَى ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَإٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ ، وَهُوَ أَحْمَدُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ لِي أَسْمَاءَ ، أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِهِ الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ**))(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءَ ، مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ : ((**أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ**))(٢).

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ : لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيَتَّبِعُنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ .

عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ . قَالَ : ((**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ**))(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ أَحْمَدُ ، أَيْ : الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي الْأَعْصَارِ الْمُتَقَادِمَةِ ، الْمُنَوَّهُ بِذِكْرِهِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ

---

(١) البخاري (٤٨٩٦) ، ومسلم (٢٣٥٤) .

(٢) مسلم (٢٣٥٥) .

(٣) **صحيح بمجموع طرقه** : أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٢٦٢) ، والحاكم في المستدرك (٢ / ٦٠٠) ، وانظر الطبري (٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ ، ٢٠٧٧ ، ٢٠٧٨) .

الْكَفَرَةُ وَالْمُخَالِفُونَ : ﴿ هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى الله ، وَيَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا وَشُرَكَاءَ ، وَهُوَ يُدْعَى إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أَيْ : يُحَاوِلُونَ أَنْ يَرُدُّوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ بِفِيهِ ، وَكَمَا أَنَّ هَذَا مُسْتَحِيلٌ كَذَلِكَ ذَاكَ مُسْتَحِيلٌ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢ - ٣٣] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي ((سُورَةِ بَرَاءَة)) بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله ﷻ لِيَفْعَلُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا هَـٰذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ

هَذِهِ التِّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبُورُ ، الَّتِي هِيَ مُحَصِّلَةٌ لِلْمَقْصُودِ وَمُزِيلَةٌ لِلْمَحْذُورِ .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا ، وَالْكَدِّ لَهَا وَالتَّصَدِّي لَهَا وَحْدَهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ ، غَفَرْتُ لَكُمُ الزَّلَّاتِ ، وَأَدْخَلْتُكُمُ الْجَنَّاتِ ، وَالْمَسَاكِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَالدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أَيْ : وَأَزِيدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةً تُحِبُّونَهَا وَهِيَ : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ : إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَنَصَرْتُمْ دِينَهُ ، تَكَفَّلَ اللهُ بِنَصْرِكُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ : عَاجِلٌ فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ خَيْرُ الدُّنْيَا مَوْصُولٌ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ ، لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَنَصَرَ اللهَ وَدِينَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارَ اللهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَ قَالَ : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟ أَيْ : مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ ؟ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى ﵇ : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نَحْنُ

أَنْصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ وَمُوَازِرُوكَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا بَعَثَهُمْ دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ : ((مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي))[1] حَتَّى قَيَّضَ اللهُ ﷻ لَهُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، فَبَايَعُوهُ وَوَازَرُوهُ ، وَشَارَطُوه أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفَوْا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا سَمَّاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ الْأَنْصَارَ ، وَصَارَ ذَلِكَ عَلَمًا عَلَيْهِمْ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - وَأَرْضَاهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ أَيْ : لَمَّا بَلَّغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَى قَوْمِهِ ، وَوَازَرَهُ مَنْ وَازَرَهُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، اهْتَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَضَلَّتْ طَائِفَةٌ فَخَرَجَتْ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَجَحَدُوا نُبُوَّتَهُ ، وَرَمَوْهُ وَأُمَّهُ بِالْعَظَائِمِ ، وَهُمُ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ، وَغَلَتْ فِيهِ طَائِفَةٌ مِمَّنِ اتَّبَعَهُ حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَافْتَرَقُوا فِرَقًا وَشِيَعًا ، فَمِنْ قَائِلٍ مِنْهُمْ : إِنَّهُ ابْنُ اللهِ ، وَقَائِلٍ : إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ : الْأَبُ وَالِابْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ ، وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ اللهُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُفَصَّلَةٌ فِي ((سُورَةِ النِّسَاءِ)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أَيْ : نَصَرْنَاهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ فِرَقِ النَّصَارَى ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ[2] : لَمَّا أَرَادَ اللهُ ﷻ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، وَهُمْ فِي بَيْتٍ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً ، فَقَالَ : إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي . قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي ، وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي ؟ قَالَ : فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا ، فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ لَهُ : اجْلِسْ ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ ،

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٣) في حديث طويل بسند حسن .

(٢) إسناده صحيح : الطبري (٣٤٠٦٦) .

فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ : أَنَا . فَقَالَ لَهُ : اجْلِسْ . ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ : نَعَمْ أَنْتَ ذَاكَ . قَالَ : فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى وَرُفِعَ عِيسَى ﷺ مِنْ رَوْزَنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ : وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا شَبِيهَهُ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ ، وَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ ، فَتَفَرَّقُوا فِيهِ ثَلَاثُ فِرَقٍ : فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ اللهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا ابْنُ اللهِ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ ، فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوهَا ، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ يَعْنِي : الطَّائِفَةُ الَّتِي كَفَرَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ عِيسَى ، وَالطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ .

فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ[1] ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((الصَّفِّ)) وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٧٣١١) ، ومسلم (١٩٢١) .

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِسُورَةِ ((الْجُمُعَةِ)) و ((الْمُنَافِقُونَ))[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ نَاطِقِهَا وَجَامِدِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِحُكْمِهِ وَهُوَ ﴿ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ ، أَيْ : الْمُنَزَّهُ عَنِ النَّقَائِصِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرُ مَرَّةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الْأُمِّيُّونَ هُمْ : الْعَرَبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران : ٢٠] ، وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغُ وَآكَدُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف : ٤٤] ، وَهُوَ ذِكْرٌ لِغَيْرِهِمْ

(١) مسلم (٨٧٧) .

يَتَذَكَّرُونَ بِهِ ، وَكَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ لَا يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وَقَوْلَهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْقُرْآنِ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عُمُومِ بَعْثَتِهِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَفْسِيرَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ « الْأَنْعَامِ » بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مِصْدَاقُ إِجَابَةِ اللهِ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، فَبَعَثَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ – عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ وَقَدِ اشْتَدَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ مَقَتَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَيْ : نَزْرًا يَسِيرًا مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ – الْخَلِيلَ ﷺ – فَبَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَقَلَبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَاسْتَبْدَلُوا بِالتَّوْحِيدِ شِرْكًا ، وَبِالْيَقِينِ شَكًّا ، وَابْتَدَعُوا أَشْيَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كُتُبَهُمْ وَحَرَّفُوهَا وَغَيَّرُوهَا وَأَوَّلُوهَا ، فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِشَرْعٍ عَظِيمٍ كَامِلٍ شَامِلٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ ، وَالْبَيَانُ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَالدَّعْوَةُ لَهُمْ إِلَى مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضَا اللهِ عَنْهُمْ ، وَالنَّهْيُ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى النَّارِ وَسَخَطِ اللهِ تَعَالَى ، حَاكِمٌ وَفَاصِلٌ لِجَمِيعِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ . وَجَمَعَ لَهُ تَعَالَى – وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ – جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَلَا يُعْطِيهِ أَحَدًا مِنَ الْآخِرِينَ ، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

ﷺ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قَالُوا : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُمْ حَتَّى سُئِلَ ثَلَاثًا – وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ – فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، ثُمَّ قَالَ : « لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ – أَوْ رَجُلٌ – مِنْ هَؤُلَاءِ »(١) فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ ، وَعَلَى عُمُومِ بَعْثَتِهِ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، لأَنَّهُ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بِفَارِسَ .

وَلِهَذَا كَتَبَ كُتُبَهُ إِلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ وَإِلَى اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قَالَ : هُمُ الْأَعَاجِمُ ، وَكُلُّ مَنْ صَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : ذُو الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ يَعْنِي : مَا أَعْطَاهُ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بِعْثَتِهِ ﷺ إِلَيْهِمْ .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَاةَ وَحُمِّلُوهَا لِلْعَمَلِ بِهَا ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أَيْ : كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حَمَلَ كُتُبًا

---

(١) البخاري (٤٨٩٧) ، ومسلم (٢٥٤٦) .

لَا يَدْرِي مَا فِيهَا فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمْلًا حِسِّيًّا وَلَا يَدْرِي مَا عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أُوتُوهُ ، حَفِظُوهُ لَفْظًا وَلَمْ يَفْهَمُوهُ . وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ بَلْ أَوَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ ؛ لأَنَّ الْحِمَارَ لَا فَهْمَ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ فُهُومٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، **وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الضَّالِّ مِنَ الْفِئَتَيْنِ ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَزْعُمُونَهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِمَا يَعْلَمُونَ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » عَلَى هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ لِلْيَهُودِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٦] ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا الْكَلَامَ هُنَاكَ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى الضُّلَّالِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْ خُصُومِهِمْ ، كَمَا تَقَدَّمَتْ مُبَاهَلَةُ النَّصَارَى فِي « آلِ عِمْرَانَ » : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ، وَمُبَاهَلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ « مَرْيَمَ » ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٥]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ – لَعَنَهُ اللهُ – إِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَآتِيَنَّهُ

حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا ، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا**))(1).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ ((النِّسَاءِ)) : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء : ٧٨]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَابِدِ الْكِبَارِ ، وَفِيهِ كَمُلَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنَ السِّتَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ(2) ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ فِيهَا اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ(3)، كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ .

وَقَدْ كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ : يَوْمُ الْعُرُوبَةِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الْأُمَمَ قَبْلَنَا أُمِرُوا بِهِ فَضَلُّوا عَنْهُ ، وَاخْتَارَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ ، وَاخْتَارَ النَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي ابْتُدِئَ فِيهِ الْخَلْقُ ، وَاخْتَارَ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(4) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا**

---

(١) البخاري (٤٩٥٨) .

(٢) مسلم (٨٥٤) .

(٣) البخاري (٩٣٥) ، ومسلم (٨٥٢) .

(٤) البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥) .

وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ : « أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا ، فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاجْتِمَاعِ لِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اقْصِدُوا وَاعْمِدُوا وَاهْتَمُّوا فِي سَيْرِكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَاهُنَا الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الِاهْتِمَامُ بِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٩] ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - يَقْرَآنِهَا « فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ » فَأَمَّا الْمَشْيُ السَّرِيعُ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَلَا تُسْرِعُوا ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا »(١).

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ : « مَا شَأْنُكُمْ » قَالُوا : اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ ، قَالَ : « فَلَا تَفْعَلُوا ! إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَامْشُوا ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا » .

قَالَ الْحَسَنُ : أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ ، وَلَقَدْ نُهُوا أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَلَكِنْ بِالْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : أَنْ تَسْعَى بِقَلْبِكَ وَعَمَلِكَ وَهُوَ الْمَشْيُ إِلَيْهَا ، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] أَيْ : الْمَشْيَ مَعَهُ .

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَيْهَا ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ »(٢).

(١) البخاري (٦٣٦) ، مسلم (٦٠٢) .
(٢) البخاري (٨٧٧) ، مسلم (٨٤٤) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ** »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **حَقٌّ لله عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ** »[2] .

وَعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ ، وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا** » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ، ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ** »[3].

وَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ ، وَيَتَطَيَّبَ[4] وَيَتَسَوَّكَ وَيَتَنَظَّفَ وَيَتَطَهَّرَ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَقَدِّمِ « **غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ ، وَالسِّوَاكُ وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ** »[5].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابُ النِّمَارِ فَقَالَ : « **مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ** »[6] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا النِّدَاءِ هُوَ النِّدَاءُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ

---

(١) البخاري (٨٧٩) ، مسلم (٨٤٦) .

(٢) البخاري (٨٩٧) ، مسلم (٨٤٩) .

(٣) البخاري (٨٨١) ، ومسلم (٨٥٠) .

(٤) أما المرأة فلا تتطيب عند شهودها الجمعة وكذا المُحرم .

(٥) البخاري (٨٨٠) ، ومسلم (٨٤٦) .

(٦) صحيح : ابن ماجة (١٠٩٦) .

يُفْعَلُ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ الله ﷺ إِذَا خَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَإِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ يُؤَذَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَهَذَا هُوَ المُرَادُ ، فَأَمَّا النِّدَاءُ الأَوَّلُ الَّذِي زَادَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِكَثْرَةِ النَّاسِ ، **كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ**[1] **- رَحِمَهُ الله - عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ** : كَانَ النِّدَاءُ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوَّلُهُ إِذَا جَلَسَ الإِمَامُ عَلَى المِنْبَرِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بَعْدَ زَمَنٍ وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ النِّدَاءَ الثَّانِي عَلَى الزَّوْرَاءِ ، يَعْنِي : يُؤَذَّنُ بِهِ عَلَى الدَّارِ الَّتِي تُسَمَّى الزَّوْرَاءُ ، وَكَانَتْ أَرْفَعَ دَارٍ بِالمَدِينَةِ بِقُرْبِ المَسْجِدِ .

وَإِنَّمَا يُؤْمَرُ بِحُضُورِ الجُمُعَةِ الرِّجَالُ الأَحْرَارُ دُونَ الْعَبِيدِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَيُعْذَرُ المُسَافِرُ وَالمَرِيضُ وَقَيِّمُ المَرِيضِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ أَيْ : اِسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ الله وَاتْرُكُوا الْبَيْعَ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا **اِتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ** عَلَى تَحْرِيمِ الْبَيْعِ بَعْدَ النِّدَاءِ الثَّانِي ، وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَصِحُّ إِذَا تَعَاطَاهُ مُتَعَاطٍ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَظَاهِرُ الآيَةِ عَدَمُ الصِّحَّةِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، وَالله أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ تَرْكُكُمُ الْبَيْعَ وَإِقْبَالُكُمْ إِلَى ذِكْرِ الله وَإِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لَكُمْ ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أَيْ : فُرِغَ مِنْهَا ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي التَّصَرُّفِ بَعْدَ النِّدَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِالاجْتِمَاعِ ، أَذِنَ لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الانْتِشَارِ فِي الأَرْضِ وَالابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ الله ، كَمَا كَانَ عِرَاكُ ابْنُ مَالِكٍ ﷺ إِذَا صَلَّى الجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشِرَائِكُمْ

(١) البخاري (٩١٢) .

وَأَخْذِكُمْ وَإِعْطَائِكُمْ ، اُذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَلَا تُشْغِلُكُمُ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَا كَانَ وَقَعَ مِنَ الانْصِرَافِ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التِّجَارَةِ الَّتِي قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أَيْ : عَلَى الْمِنْبَرِ تَخْطُبُ ، وَزَعَمَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ أَنَّ التِّجَارَةَ كَانَتْ لِدِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ فَانْصَرَفُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوا رَسُولَ الله ﷺ قَائِمًا عَلَى الْمِنْبَرِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ .

عَنْ جَابِرٍ قَالَ[1] : قَدِمَتْ عِيرٌ الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلَتْ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِمَامَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا .

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ[2] : كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُذَكِّرُ النَّاسَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّذِي عِنْدَ الله مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَطَلَبَ الرِّزْقَ فِي وَقْتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ

وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٩٣٦) ، ومسلم (٨٦٣) .

(٢) مسلم (٨٦٢) .

تفسير سورة المنافقون
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ : إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَفَوَّهُونَ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ ، بَلْ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيْ : إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجَهُوكَ بِذَلِكَ ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ ؛ وَلِهَذَا اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ مُخْبِرَةٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ : فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلْخَارِجِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُونَ وَلَا صِدْقَهُ ، وَلِهَذَا كَذَّبَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيْ : اتَّقُوا النَّاسَ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ وَالْحَلْفَانِ الْآثِمَةِ ، لِيُصَدَّقُوا فِيمَا يَقُولُونَ ، فَاغْتَرَّ بِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ جَلِيَّةَ أَمْرِهِمْ ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، فَرُبَّمَا اقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَصَدَّقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ لَا يَأْلُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ خَبَالًا ، فَحَصَلَ بِهَذَا الْقَدْرِ ضَرَرٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ؛ وَلِهَذَا كَانَ

الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ يَقْرَؤُهَا : ((اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً)) أَيْ : تَصْدِيقَهُمُ الظَّاهِرُ جُنَّةً ، أَيْ : تَقِيَّةٌ يَتَّقُونَ بِهِ الْقَتْلَ . وَالْجُمْهُورُ يَقْرَؤُهَا ﴿ أَيْمَـٰنَهُمْ ﴾ جَمْعُ يَمِينٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا قُدِّرَ عَلَيْهِمُ النِّفَاقُ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ ، وَاسْتِبْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : فَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ هُدًى ، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا خَيْرٌ ، فَلَا تَعِي وَلَا تَهْتَدِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ أَيْ : وَكَانُوا أَشْكَالًا حَسَنَةً وَذَوِي فَصَاحَةٍ وَأَلْسِنَةٍ ، إِذَا سَمِعَهُمُ السَّامِعُ يُصْغِي إِلَى قَوْلِهِمْ لِبَلَاغَتِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ وَالْهَلَعِ وَالْجَزَعِ وَالْجُبْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ كَائِنَةٌ أَوْ خَوْفٌ يَعْتَقِدُونَ لِجُبْنِهِمْ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٩] فَهُمْ جَهَامَاتٌ وَصُوَرٌ بِلَا مَعَانٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - : إِنَّهُمْ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أَيْ : صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ ، اسْتِكْبَارًا عَنْ ذَلِكَ ، وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثُمَّ جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ ((بَرَاءَة)) وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِيرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ هُنَالِكَ .

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ؛ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ(١) **قَالَ** : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لَلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**)) وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنُ سَلُولٍ وَقَدْ فَعَلُوهَا : وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قَالَ جَابِرٌ : وَكَانَ الْأَنْصَارُ بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**دَعْهُ ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)) .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ(٢) **قَالَ** : خَرَجْتُ مَعَ عَمِّي فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنَ سَلُولٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي ، فَذَكَرَهُ عَمِّي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَحَدَّثْتُهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللهِ مَا قَالُوا ، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلَهُ قَطُّ ، وَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ ، فَقَالَ عَمِّي : مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَقَتَكَ ؟ قَالَ : حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ قَالَ : فَبَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ**)) .

---

(١) البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) .
(٢) البخاري (٤٩٠٤) ، ومسلم (٢٧٧٢ صـ ٢١٤٠) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ، قَالَ : كَانُوا رِجَالاً أَجْمَلَ شَيْءٍ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغَلَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذَلِكَ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِأَنَّهُ مَنِ الْتَهَى بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا عَمَّا خُلِقَ لَهُ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَخْسَرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فَكُلُّ مُفَرِّطٍ يَنْدَمُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ، وَيَسْأَلُ طُولَ الْمُدَّةِ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا ، لِيَسْتَعْتِبَ وَيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ ، وَهَيْهَاتَ ! كَانَ مَا كَانَ ، وَأَتَى مَا هُوَ آتٍ ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ ، أَمَّا الْكُفَّارُ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُنْظِرُ أَحَدًا بَعْدَ حُلُولِ أَجَلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ بِمَنْ يَكُونُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ وَسُؤَالِهِ مِمَّنْ لَوْ رُدَّ لَعَادَ إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسير سورة التغابن
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ آخِرُ الْمُسَبِّحَاتِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَسْبِيحِ الْمَخْلُوقَاتِ لِبَارِئِهَا وَمَالِكِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ: مَهْمَا أَرَادَ كَانَ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أَيْ: هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيْ: بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أَيْ: أَحْسَنَ أَشْكَالَكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [غافر: ٦٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَائِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : خَبَرُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أَيْ : وَخِيمَ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِيءَ أَفْعَالِهِمْ ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْخِزْيِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُضَافٌ إِلَى هَذَا الدُّنْيَوِيِّ .

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أَيْ : اِسْتَبْعَدُوا أَنْ تَكُونَ الرِّسَالَةُ فِي الْبَشَرِ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ عَلَى يَدَيْ بَشَرٍ مِثْلَهُمْ ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ﴾ أَيْ : كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وَنَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : عَنْهُمْ ﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أَيْ : لَتُخْبَرُنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : بَعْثُكُمْ وَمُجَازَاتُكُمْ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقْسِمَ بِرَبِّهِ ﷻ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ ، فَالْأُولَى : فِي سُورَةِ يُونُسَ ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] ، وَالثَّانِيَةُ : فِي سُورَةِ سَبَأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : ٣] ، وَالثَّالِثَةُ : هِيَ هَذِهِ ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩ - ٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَغْبِنُونَ أَهْلَ النَّارِ ، **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ** : لَا غَبْنَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُدْخَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُذْهَبُ بِأُولَئِكَ إِلَى النَّارِ .

قُلْتُ : وَقَدْ فُسِّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ غَيْرُ مَرَّةٍ .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ الله ، يَعْنِي : عَنْ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ الله ، هَدَى اللهُ قَلْبَهُ ، وَعَوَّضَهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هُدًى فِي قَلْبِهِ ، وَيَقِينًا صَادِقًا ، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يَعْنِي : يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ .

وَعَنْ أَبِي ظَبْيَانَ ؛ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عَلْقَمَةَ فَقُرِئَ عِنْدَهُ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الله فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ . وقيل : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يَعْنِي : يَسْتَرْجِعُ ، يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] . وَفِي الْحَدِيثِ : ((**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**))[1] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ ،

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) .

وَفِعْلُ مَا بِهِ أَمَرَ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : إِنْ نَكَلْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِنَ الْبَلَاغِ ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . قَالَ **الزُّهْرِيُّ** : مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَالْأَوَّلُ خَبَرٌ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَبِ ، أَيْ : وَحِّدُوا الْإِلَهِيَّةَ لَهُ ، وَأَخْلِصُوهَا لَدَيْهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ : إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَدُوُّ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ يُلْتَهَى بِهِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : يَعْنِي عَلَى دِينِكُمْ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ قَالَ : يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى قَطِيعَةِ الرَّحِمِ أَوْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهِ إِلَّا أَنْ يُطِيعَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ فِتْنَةٌ ، أَيْ : اِخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ ؛ لِيَعْلَمَ

مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤]

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ ، فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ** ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، **نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أَيْ : جَهْدُكُمْ وَطَاقَتُكُمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ** »[2].

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ - كَمَا رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ نَاسِخَةٌ لِلَّتِي فِي « آلِ عِمْرَانَ » وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أَيْ : كُونُوا مُنْقَادِينَ لِمَا يَأْمُرُكُمُ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً ، وَلَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَمَّا بِهِ أُمِرْتُمْ ، وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْهُ زُجِرْتُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : وَابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْقِ اللهِ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي

---

(١) سنده حسن: وقد أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٣٥٤) .

(٢) البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) .

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ ((الْحَشْرِ))[1] ، وَذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَمَهْمَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ ، وَنَزَلَ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْقَرْضِ لَهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ((**مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ ظَلُومٍ وَلَا عَدِيمٍ**))[2] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أَيْ : يَجْزِي عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ .

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّغَابُنِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) الآية (٩) .

(٢) مسلم (٧٥٨) .

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلًا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ تَبَعًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

قَدْ وَرَدَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ ثُمَّ رَاجَعَهَا .

وَعَنْ سَالِمٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ[1] أَخْبَرَهُ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَتَغَيَّظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللهُ** ﷻ » هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هَاهُنَا وَمُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ : « **فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ** » .

وَأَمَسُّ لَفْظٍ يُورَدُ هَاهُنَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَيْمَنَ - مَوْلَى عَزَّةَ - يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ ، وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ : كَيْفَ تَرَى فِي الرَّجُلِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا ؟ فَقَالَ : طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ طَلَّقَ امرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لِيُرَاجِعْهَا** » فَرَدَّهَا ، وَقَالَ : « **إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمْسِكْ** » قَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ :

---

(١) البخاري (٥٢٥١) ، (٤٩٠٨) ، وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (١٤٧١) (٣ / ٦٥٩ ، ٦٦٠) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[1].

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قَالَ : الطُّهْرُ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قَالَ : لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ وَلَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ ، وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطَهُرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ الْعِدَّةُ : الطُّهْرُ ، وَالْقُرْءُ : الْحَيْضَةُ ، أَنْ يُطَلِّقَهَا حُبْلَى مُسْتَبِينًا حَمْلُهَا ، وَلَا يُطَلِّقُهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا ، وَلَا يَدْرِي حُبْلَى هِيَ أَمْ لَا .

وَمِنْ هَاهُنَا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَقَسَّمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ وَطَلَاقِ بِدْعَةٍ ، فَطَلَاقُ السُّنَّةِ : أَنْ يُطَلِّقَهَا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ ، أَوْ حَامِلًا قَدِ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا ، وَالْبِدْعِيُّ : هُوَ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ ، وَلَا يَدْرِي أَحَمَلَتْ أَمْ لَا ؟ وَطَلَاقٌ ثَالِثٌ لَا سُنَّةَ فِيهِ وَلَا بِدْعَةَ ، وَهُوَ طَلَاقُ الصَّغِيرَةِ وَالْآيِسَةِ وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا ، وَتَحْرِيرُ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مُسْتَقْصًى فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أَيْ : احْفَظُوهَا وَاعْرِفُوا ابْتِدَاءَهَا وَانْتِهَاءَهَا لِئَلَّا تَطُولَ الْعِدَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَمْتَنِعَ مِنَ الْأَزْوَاجِ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي ذَلِكَ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أَيْ : فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَهَا حَقُّ السُّكْنَى عَلَى الزَّوْجِ مَا دَامَتْ مُعْتَدَّةً مِنْهُ ، فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْرِجَهَا وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَيْضًا الْخُرُوجُ ؛ لِأَنَّهَا مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الزَّوْجِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : لَا يَخْرُجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ إِلَّا أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً مُبَيِّنَةً فَتَخْرُجُ مِنَ الْمَنْزِلِ ، وَالْفَاحِشَةُ الْمُبَيِّنَةُ تَشْمَلُ الزِّنَا ، وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَزَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ بَذَتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ وَآذَتْهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ ، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : شَرَائِعُهُ وَمَحَارِمُهُ ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَخْرُجُ عَنْهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتَمِرُ بِهَا ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أَيْ : بِفِعْلِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبْقَيْنَا الْمُطَلَّقَةَ

---

(١) مسلم في طرف حديث (١٤٧١) .

فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ لَعَلَّ الزَّوْجَ يَنْدَمُ عَلَى طَلَاقِهَا ، وَيَخْلُقُ اللهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَجْعَتَهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ قَالُوا : هِيَ الرَّجْعَةُ ، وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ ، كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى - إِلَى أَنَّهُ لَا تَجِبُ السُّكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ ، وَكَذَا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَاعْتَمَدُوا أَيْضًا عَلَى حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ الْفِهْرِيَّةِ[1] ، حِينَ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أَبُو عَمْرِو بْنِ حَفْصٍ آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ ، وَكَانَ غَائِبًا عَنْهَا بِالْيَمَنِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا بِذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكِيلَهُ بِشَعِيرٍ ، يَعْنِي : نَفَقَةً ، فَتَسَخَّطَتْهُ فَقَالَ : وَاللهِ لَيْسَ لَكِ عَلَيْنَا نَفَقَةٌ ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ** » وَفِي رِوَايَةٍ : « **وَلَا سُكْنَى** » ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ ، ثُمَّ قَالَ : « **تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي ، اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ** » الْحَدِيثُ .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِذَا بَلَغَتِ الْمُعْتَدَّاتُ ﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ أَيْ : شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَمْ تَفْرُغِ الْعِدَّةُ الْكُلِّيَّةُ ، فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَعْزِمَ الزَّوْجُ عَلَى إِمْسَاكِهَا ، وَهُوَ رَجْعَتُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ ، وَالِاسْتِمْرَارِ بِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَهُ ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهَا فِي صُحْبَتِهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى مُفَارَقَتِهَا ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ مُقَابَحَةٍ وَلَا مُشَاتَمَةٍ وَلَا تَعْنِيفٍ ، بَلْ يُطَلِّقُهَا عَلَى وَجْهٍ جَمِيلٍ وَسَبِيلٍ حَسَنٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الرَّجْعَةِ إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَيْهَا .

---

(١) مسلم (حديث ١٤٨٠) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا يَأْتَمِرُ بِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنَّهُ شَرَعَ هَذَا ، وَمَنْ يَخَافُ عِقَابَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ إِلَى وُجُوبِ الْإِشْهَادِ فِي الرَّجْعَةِ كَمَا يَجِبُ عِنْدَهُ فِي اِبْتِدَاءِ النِّكَاحِ ، وَقَدْ قَالَ بِهَذَا طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا يَقُولُ : إِنَّ الرَّجْعَةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِالْقَوْلِ لِيَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، أَيْ : مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يُنْجِيهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ** : ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضَاقَ عَلَى النَّاسِ . **وَقِيلَ** : مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا .

وَقِيلَ: ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أَيْ : مِنْ شُبُهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ مِنْ حَيْثُ يَرْجُو وَلَا يَأْمَلُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**يَا غُلَامُ ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اِسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اِجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اِجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ**

عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : مُنَفِّذُ قَضَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ وَيَشَاؤُهُ ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد : ٨]

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِعِدَّةِ الْآيِسَةِ - وَهِيَ الَّتِي قَدِ انْقَطَعَ عَنْهَا الْمَحِيضُ لِكِبَرِهَا - : أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، عِوَضًا عَنِ الثَّلَاثَةِ قُرُوءٍ فِي حَقِّ مَنْ تَحِيضُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَةُ ((الْبَقَرَةِ)) ، وَكَذَا الصِّغَارُ اللَّائِي لَمْ يَبْلُغْنَ سِنَّ الْحَيْضِ : إِنَّ عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الْآيِسَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ؛وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إِنْ رَأَيْنَ دَمًا وَشَكَكْتُمْ فِي كَوْنِهِ حَيْضًا أَوِ اسْتِحَاضَةً ، وَارْتَبْتُمْ فِيهِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنِ ارْتَبْتُمْ فِي حُكْمِ عِدَّتِهِنْ ، وَلَمْ تَعْرِفُوهُ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَمَنْ كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الطَّلَاقِ أَوِ الْمَوْتِ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ ، فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، كَمَا هُوَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَكَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُمَا ذَهَبَا فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا أَنَّهَا تَعْتَدُّ بِأَبْعَدِ الْأَجَلَيْنِ مِنَ الْوَضْعِ وَالْأَشْهُرِ عَمَلًا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَالَّتِي فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)).

---

(١)صحيح : المسند (١ / ٢٩٣) وقد تقدم .

وَفِي **صَحِيحِ الْبُخَارِي**[1] : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - وَأَبُو هُرَيْرَة جَالِسٌ - فَقَالَ : أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : آخِرُ الْأَجَلَيْنِ . قُلْتُ أَنَا : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا ، قَالَتْ : قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ وَهِيَ حُبْلَى ، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَخُطِبَتْ ، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا .

وَعَنِ **الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ**[2] ؛ أَنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ ، فَلَمْ تَمْكُثْ إِلَّا لَيَالِيَ حَتَّى وَضَعَتْ ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا خُطِبَتْ ، فَاسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ الله ﷺ فِي النِّكَاحِ ، فَأَذِنَ لَهَا أَنْ تُنْكَحَ ، فَنُكِحَتْ .

وَعَنْ **عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ**[3] ؛ أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ ، فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا ، وَعَمَّا قَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ ؟ فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الله يُخْبِرُهُ أَنَّ سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ - وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا - فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكَ فَقَالَ لَهَا : مَالِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً ؟ لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ ، إِنَّكِ وَالله مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ . قَالَتْ سُبَيْعَةُ : فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي ، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِيجِ إِنْ بَدَا لِي .

وَعَنْ **عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ** : مَنْ شَاءَ لَاعَنْتُهُ ، مَا نَزَلَتْ ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إِلَّا بَعْدَ آيَةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا . قَالَ : وَإِذَا وَضَعَتْ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا فَقَدْ حَلَّتْ . يُرِيدُ بِآيَةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا

---

(١) البخاري (٤٩٠٩) ، ومسلم (٣ / ٧٠٥) .

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤ / ٣٢٧) ، انظر البخاري (٥٣٢٠) ، ومسلم (١٤٨٤) .

(٣) انظر مسلم (١٤٨٤) ، النووي (٣ / ٧٠٣) .

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[البقرة : ٢٣٤]

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : بَلَغَ ابْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ يَقُولُ : آخِرُ الْأَجَلَيْنِ ، فَقَالَ : مَنْ شَاءَ لَاعَنْتُهُ ، إِنَّ الَّتِي فِي النِّسَاءِ الْقُصْرَى نَزَلَتْ بَعْدَ الْبَقَرَةِ ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ أَيْ : يُسَهِّلُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُيَسِّرُهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ لَهُ فَرَجًا قَرِيبًا وَمَخْرَجًا عَاجِلًا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : حُكْمُهُ وَشَرْعُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ أَيْ يُذْهِبُ عَنْهُ الْمَحْذُورَ وَيُجْزِلُ لَهُ الثَّوَابَ عَلَى الْعَمَلِ الْيَسِيرِ .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتُهَا فَقَالَ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أَيْ : عِنْدَكُمْ ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : سِعَتِكُمْ ، **حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ** : إِنْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا جَنْبَ بَيْتِكَ فَأَسْكِنْهَا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ **قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ** : يَعْنِي : يُضَاجِرُهَا لِتَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَالِهَا أَوْ تَخْرُجُ مِنْ مَسْكَنِهِ . **وَعَنْ أَبِي الضُّحَى** ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ قَالَ : يُطَلِّقُهَا فَإِذَا بَقِيَ يَوْمَانِ رَاجَعَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ **قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هَذِهِ فِي الْبَائِنِ ، إِنْ كَانَتْ حَامِلًا أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا . قَالُوا : بِدَلِيلِ أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ تَجِبُ نَفَقَتُهَا سَوَاءً كَانَتْ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ

السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي الرَّجْعِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا نُصَّ عَلَى الإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ وَإِنْ كَانَتْ رَجْعِيَّةً ؛ لأَنَّ الْحَمْلَ تَطُولُ مُدَّتُهُ غَالِبًا ، فَاحْتِيجَ إِلَى النَّصِّ عَلَى وُجُوبِ الإِنْفَاقِ إِلَى الْوَضْعِ ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَجِبُ النَّفَقَةُ بِمِقْدَارِ مُدَّةِ الْعِدَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَهُنَّ طَوَالِقُ ، فَقَدْ بِنَّ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ ، وَلَهَا حِينَئِذٍ أَنْ تُرْضِعَ الْوَلَدَ ، وَلَهَا أَنْ تَمْتَنِعَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُغَذِّيَهُ بِاللبَإِ - وَهُوَ بَاكُورَةُ اللَّبَنِ الَّذِي لَا قِوَامَ لِلْمَوْلُودِ غَالِبًا إِلَّا بِهِ - فَإِنْ أَرْضَعَتِ اسْتَحَقَّتْ أُجْرَةَ مِثْلِهَا ، وَلَهَا أَنْ تُعَاقِدَ أَبَاهُ أَوْ وَلِيَّهُ عَلَى مَا يُنْفِقَانِ عَلَيْهِ مِنْ أُجْرَةٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : وَلْتَكُنْ أُمُورُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ وَلَا مُضَارَّةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ أَيْ : وَإِنِ اخْتَلَفَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فَطَلَبَتِ الْمَرْأَةُ فِي أُجْرَةِ الرَّضَاعِ كَثِيرًا وَلَمْ يُجِبْهَا الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ ، أَوْ بَذَلَ الرَّجُلُ قَلِيلًا وَلَمْ تُوَافِقْهُ عَلَيْهِ فَلْيَسْتَرْضِعْ لَهُ غَيْرَهَا ، فَلَوْ رَضِيَتِ الأُمُّ بِمَا اسْتُؤْجِرَتْ بِهِ الأَجْنَبِيَّةُ فَهِيَ أَحَقُّ بِوَلَدِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أَيْ : لِيُنْفِقْ عَلَى الْمَوْلُودِ وَالِدُهُ ، أَوْ وَلِيُّهُ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ، وَعْدٌ مِنْهُ تَعَالَى ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُهُ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ - ٦]

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا

قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ ، وَمُخْبِرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَتْ وَطَغَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَمُتَابَعَةِ رُسُلِهِ ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أَيْ : مُنْكَرًا فَظِيعًا . ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أَيْ : غِبَّ مُخَالَفَتِهَا ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، مَعَ مَا عَجَّلَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : الْأَفْهَامُ الْمُسْتَقِيمَةُ ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : صَدَّقُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ رَّسُولًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ وَمُلَابَسَةٍ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي بَلَّغَ الذِّكْرَ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الصَّوَابُ أَنَّ الرَّسُولَ تَرْجَمَةٌ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي تَفْسِيرًا لَهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِهَا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيَّةً ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] أَيْ : مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى الْوَحْيِ

الَّذِي أَنْزَلَهُ نُورًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى ، كَمَا سَمَّاهُ رُوحًا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرِ مِثْلِ هَذَا غَيْرُ مَرَّةٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أَيْ : سَبْعًا أَيْضًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**))[1] ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : ((**خسفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ**))[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّلَاقِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٢٤٥٢) ، ومسلم (١٦١٠) .

(٢) البخاري (٢٤٥٤) .

تفسيرُ سُورَةِ التحْرِيم
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

اُخْتُلِفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، **فَقِيلَ** : نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مَارِيَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ حَرَّمَهَا ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ الآيَة .

عَنْ أَنَسٍ[1] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى حَرَّمَهَا ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : مَنِ الْمَرْأَتَانِ ؟ قَالَ : عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ ، وَكَانَ بَدْءُ الْحَدِيثِ فِي شَأْنِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ مَارِيَةَ أَصَابَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ فِي نَوْبَتِهَا ، فَوَجِدَتْ حَفْصَةُ ، فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ الله ، لَقَدْ جِئْتَ إِلَيَّ شَيْئًا مَا جِئْتَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَزْوَاجِكَ فِي يَوْمِي ، وَفِي دَوْرِي ، وَعَلَى فِرَاشِي . قَالَ : « أَلَا

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦ / ٤٩٥) .

تَرْضَيْنَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبَهَا ؟ » قَالَتْ : بَلَى . فَحَرَّمَهَا ، وَقَالَ : « لَا تَذْكُرِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ » فَذَكَرَتْهُ لِعَائِشَةَ ، فَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ﴾ الْآيَات .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ[1] أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَقُولُ فِي الْحَرَامِ : يَمِينٌ تُكَفِّرُهَا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] يَعْنِي : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّمَ جَارِيَتَهُ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ فَكَفَّرَ يَمِينَهُ فَصَيَّرَ الْحَرَامَ يَمِينًا .

وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِمَّنْ قَالَ بِوُجُوبِ الْكَفَّارَةِ عَلَى مَنْ حَرَّمَ جَارِيَتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ ، أَوْ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا ، أَوْ مَلْبَسًا ، أَوْ شَيْئًا مِنَ الْمُبَاحَاتِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَطَائِفَةٍ ، وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إِلَى أَنَّهُ لَا تَجِبُ الْكَفَّارَةُ فِيمَا عَدَا الزَّوْجَةِ وَالْجَارِيَةِ ، إِذَا حَرَّمَ عَيْنَيْهِمَا أَوْ أَطْلَقَ التَّحْرِيمَ فِيهِمَا فِي قَوْلِهِ ، فَأَمَّا إِذَا نَوَى بِالتَّحْرِيمِ طَلَاقَ الزَّوْجَةِ أَوْ عِتْقَ الْأَمَةِ ، نَفَذَ فِيهِمَا .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ[2] : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا ، فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتِنَا دَخَلَ عَلَيْهَا ، فَلْتَقُلْ لَهُ : أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ . قَالَ : « لَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا » .

وَأَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ[3] فِي الْأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ ، عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا ، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ ؛ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « لَا ، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ » فَنَزَلَتْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ .

---

(١) البخاري (٤٩١١) ، ومسلم (١٤٧٣) .
(٢) البخاري (٤٩١٢) ، ومسلم (١٤٧٤) .
(٣) البخاري (٦٦٩١) .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ لِقَوْلِهِ : ((**بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا**)) . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى ، عَنْ هِشَامٍ : ((**وَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، فَلَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا**))[1].

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ[2] : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَى وَالْعَسَلَ ، وَكَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الْعَصْرِ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ ، فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ ، فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَاحْتَبَسَ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَحْتَبِسُ ، فَغِرْتُ ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقِيلَ لِي : أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةَ عَسَلٍ ، فَسَقَتِ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُ شَرْبَةً ، فَقُلْتُ : أَمَا وَاللهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ . فَقُلْتُ لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ : إِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ ، فَإِذَا دَنَا مِنْكِ فَقُولِي : أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ : لَا . فَقَوْلِي لَهُ : مَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ : سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ . فَقُولِي : جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ . وَسَأَقُولُ ذَلِكَ ، وَقُولِي لَهُ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ ذَلِكَ ، قَالَتْ : تَقُولُ سَوْدَةُ : فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَامَ عَلَى الْبَابِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُنَادِيَهُ بِمَا أَمَرْتِنِي فَرَقًا مِنْكِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا ، قَالَتْ لَهُ سَوْدَةُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ قَالَ : ((**لَا**)) قَالَتْ : فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ مِنْكَ ؟ قَالَ : ((**سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ**)) قَالَتْ : جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ ، فَلَمَّا دَارَ إِلَيَّ قُلْتُ نَحْوَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا دَارَ إِلَى صَفِيَّةَ قَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا دَارَ إِلَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ ؟ قَالَ : ((**لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ**)) قَالَتْ : تَقُولُ سَوْدَةُ : وَاللهِ لَقَدْ حَرَّمْنَاهُ . قُلْتُ لَهَا : اُسْكُتِي .

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ عَائِشَةُ[3] : وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ ، يَعْنِي : الرِّيحَ الْخَبِيثَةَ ، وَلِهَذَا قُلْنَ لَهُ : أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؛ لِأَنَّ رِيحَهَا فِيهِ شَيْءٌ ، فَلَمَّا قَالَ : ((**بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا**)) قُلْنَ : جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ . أَيْ : رَعَتْ نَحْلُهُ شَجَرَ الْعُرْفُطِ الَّذِي صَمْغُهُ الْمَغَافِيرُ ، فَلِهَذَا ظَهَرَ رِيحُهُ فِي الْعَسَلِ الَّذِي شَرِبْتَهُ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ فِيهِ : أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ ، وَفِي الآخرِ : أَنَّ

(١) البخاري (٤٩١٢) .
(٢) البخاري (٥٢٦٨) .
(٣) مسلم (١٤٨٤) .

زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ هِيَ الَّتِي سَقَتْهُ الْعَسَلَ ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَأَتَا وَتَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ ، وَلَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُمَا سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - هُمَا الْمُتَظَاهِرَتَانِ ، الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] قَالَ : لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حَتَّى حَجَّ عُمَرُ وَحَجَجْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ عُمَرُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ ، فَتَبَرَّزَ ثُمَّ أَتَانِي ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنِ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ فَقَالَ عُمَرُ : وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ - قَالَ الزُّهْرِيُّ : كَرِهَ وَاللهِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكْتُمْهُ - قَالَ : هِيَ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ . قَالَ : ثُمَّ أَخَذَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ قَالَ : كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ ، قَالَ : وَكَانَ مَنْزِلِي فِي دَارِ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي ، قَالَ : فَغَضِبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي ، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي ، فَقَالَتْ : مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ ؟ فَوَاللهِ إِنَّ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ . قَالَ : فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ : أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟! قَالَتْ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . قُلْتُ : قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَ ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ ، فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ ؟ لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا ، وَسَلِينِي مِنْ مَالِي مَا بَدَا لَكِ ، وَلَا يَغُرَّنَّكِ إِنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْكِ - يُرِيدُ عَائِشَةَ - قَالَ : وَكَانَ لِي جَارٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا ، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَقَالَ : وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ

(١) أحمد في المسند (١ / ٣٣) البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) .

غَسَّانَ تُنْعِلُ الْخَيْلَ لِتَغْزُونَا ، فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمًا ثُمَّ أَتَى عِشَاءً ، فَضَرَبَ بَابِي ثُمَّ نَادَانِي ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ : حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ! فَقُلْتُ : وَمَا ذَاكَ ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ ! طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ ، فَقُلْتُ : قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا كَائِنًا . حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الصُّبْحَ شَدَدْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي ثُمَّ نَزَلْتُ ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقُلْتُ : أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ : لَا أَدْرِي ، هُوَ مُعْتَزِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشْرُبَةِ ، فَأَتَيْتُ غُلَامًا لَهُ أَسْوَدَ فَقُلْتُ : اِسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ . فَدَخَلَ الْغُلَامُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ : ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ . فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ الْمِنْبَرَ ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَهْطٌ جُلُوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ ، فَأَتَيْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ : اِسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ . فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ : قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ . فَخَرَجْتُ فَجَلَسْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ فَأَتَيْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ : اِسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ . فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ : قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ . فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا ، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ : اُدْخُلْ قَدْ أَذِنَ لَكَ . فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : وَحَدَّثَنَاهُ يَعْقُوبُ فِي حَدِيثِ صَالِحٍ قَالَ : رِمَالُ حَصِيرٍ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَقُلْتُ : أَطَلَّقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ نِسَاءَكَ ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : « **لَا** » فَقُلْتُ : اللهُ أَكْبَرُ ، وَلَوْ رَأَيْتَنَا يَا رَسُولَ اللهِ وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ ، فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي يَوْمًا فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي ، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي ، فَقَالَتْ : مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ ؟ فَوَاللهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ ، فَقُلْتُ : قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَتْ ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ ، فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ . فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ : لَا يَغُرَّنَّكِ إِنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمَ أَوْ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْكِ ، فَتَبَسَّمَ أُخْرَى ، فَقُلْتُ أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » فَجَلَسْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فِي الْبَيْتِ ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلَّا

أَهَبَةٌ ثَلَاثَةٌ فَقُلْتُ : أُدْعُ اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ ، فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ ، وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ ، فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ : « **أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا** » فَقُلْتُ : اِسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ ، وَكَانَ أَقْسَمَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حَتَّى عَاتَبَهُ اللهُ ﷻ.

وَأَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(١) **مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :** مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ ، عَدَلَ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ ، قَالَ : فَوَقَفْتُ حَتَّى فَرَغَ ، ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ ، وَلِمُسْلِمٍ : مَنِ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ ؟ قَالَ : عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ . ثُمَّ سَاقَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ وَمِنْهُمْ مَنِ اخْتَصَرَهُ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ(٢) : لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ ، دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالحَصَى ، وَيَقُولُونَ : طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالحِجَابِ . فَقُلْتُ : لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ ... فَذَكَرَ الحَدِيثَ فِي دُخُولِهِ عَلَى عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ، وَوَعْظُهُ إِيَّاهُمَا ، إِلَى أَنْ قَالَ : فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ ، فَنَادَيْتُ فَقُلْتُ : يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ – إِلَى أَنْ قَالَ – فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ – وَأَحْمَدُ اللهَ – بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آيَةُ التَّخْيِيرِ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ، ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ

---

(١) البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) .
(٢) مسلم (١٤٧٩) .

ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فَقُلْتُ : أَطَلَّقتهنَّ ؟ قَالَ : « لَا » فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلِّقْ نِسَاءَهُ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء : ٨٣] ، فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ[1] : قَالَ عُمَرُ : اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُنَّ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ وَافَقَ الْقُرْآنَ فِي أَمَاكِنَ ، مِنْهَا فِي نُزُولِ الْحِجَابِ ، وَمِنْهَا فِي أُسَارَى بَدْرٍ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[البقرة : ١٢٥]

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ظَاهِرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أَيْ : صَائِمَاتٌ . ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أَيْ : مِنْهُنَّ ثَيِّبَاتٍ ، وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ ، فَإِنَّ التَّنَوُّعَ يُبْسِطُ النَّفْسَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ **قِيلَ فِي مَعْنَاهَا** : أَدِّبُوهُمْ ، وَعَلِّمُوهُمْ ، **وَقِيلَ** : اِعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللهِ ، وَاتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ ، وَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ ،

(١) البخاري (٤٠٢) .

يُنْجِيكُمُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، **وَقِيلَ** : اِتَّقُوا اللهَ وَأَوْصُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى الله ، **وَقِيلَ** : يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَةِ الله ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ الله ، وَأَنْ يَقُومَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ الله وَيَأْمُرهُمْ بِهِ وَيُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ لله مَعْصِيَةً قَدَعْتَهُمْ عَنْهَا وَزَجَرْتَهَمْ عَنْهَا .

وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ : ((**مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا**))(1).

قَالَ الْفُقَهَاءُ : وَهَكَذَا فِي الصَّوْمِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَمْرِينًا لَهُ عَلَى الْعِبَادَةِ ، لِكَيْ يَبْلُغَ وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَمُجَانَبَةِ المَعَاصِي وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ ، وَاللهُ المُوَفِّقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وَقُودُهَا ، أَيْ : حَطَبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثَثِ بَنِي آدَمَ ﴿ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨].

قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أَيْ : طِبَاعُهُمْ غَلِيظَةٌ ، قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةُ بِالْكَافِرِينَ بِالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ أَيْ : تَرْكِيبُهُمْ فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ وَالْكَثَافَةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُزْعِجِ . ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ تَعَالَى يُبَادِرُوا إِلَيْهِ ، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ لَيْسَ بِهِمْ عَجْزٌ عَنْهُ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّبَانِيَةُ ، عِيَاذًا بِالله مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ ، وَإِنَّمَا تُجْزَوْنَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أَيْ : تَوْبَةً صَادِقَةً جَازِمَةً ، تَمْحُو مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَتَلُمُّ شَعَثَ التَّائِبِ وَتَجْمَعُهُ ، وَتَكُفُّهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَاءَاتِ .

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) صحيح : وأخرجه أبو داود (٤٩٥) ، وانظر أيضًا (٤٩٤) .

تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ قَالَ : يُذْنِبُ الذَّنْبَ ثُمَّ لَا يَرْجِعُ فِيهِ[1].

وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ : هُوَ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَاضِرِ ، وَيَنْدَمُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي ، وَيَعْزِمُ عَلَى أَنْ لَا يَفْعَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ الْحَقُّ لِآدَمِيٍّ رَدَّهُ إِلَيْهِ بِطَرِيقِهِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ** : دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : أَنْتَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **النَّدَمُ تَوْبَةٌ** ؟ » قَالَ : نَعَمْ[2].

وَهَلْ مِنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ الِاسْتِمْرَارُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْمَمَاتِ - كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْأَثَرِ : ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ أَبَدًا ؟ - أَوْ يَكْفِي الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ فِي تَكْفِيرِ الْمَاضِي بِحَيْثُ لَوْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ الذَّنْبُ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ ضَارًّا فِي تَكْفِيرِ مَا تَقَدَّمَ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ : « **التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا** » ؟.

وَلِلْأَوَّلِ أَنْ يَحْتَجَّ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[3] أَيْضًا « **مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ** » فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنَ التَّوْبَةِ ، فَالتَّوْبَةُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ وَ « عَسَى » مِنَ اللهِ مُوجِبَةٌ ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ أَيْ : وَلَا يُخْزِيهِمْ مَعَهُ ، يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هَذَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ طُفِئَ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ

(١) إسناده صحيح: أخرجه الطبري .
(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (١ / ٣٧٦) .
(٣) مسلم (١٢٠) .

ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ، هَؤُلَاءِ بِالسِّلَاحِ وَالْقِتَالِ وَهَؤُلَاءِ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أَيْ : فِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : فِي مُخَالَطَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ لَهُمْ ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ الْإِيمَانُ حَاصِلًا فِي قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ فَقَالَ : ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ أَيْ : نَبِيَّيْنِ رَسُولَيْنِ عِنْدَهُمَا فِي صُحْبَتِهِمَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، يُؤَاكِلَانِهِمَا وَيُضَاجِعَانِهِمَا وَيُعَاشِرَانِهِمَا أَشَدَّ الْعِشْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أَيْ : فِي الْإِيمَانِ ، لَمْ يُوَافِقَاهُمَا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا صَدَّقَاهُمَا فِي الرِّسَالَةِ ، فَلَمْ يُجْدِ ذَلِكَ كُلِّهِ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمَا مَحْذُورًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لِكُفْرِهِمَا ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي : لِلْمَرْأَتَيْنِ ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فِي فَاحِشَةٍ ، بَلْ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مَعْصُومَاتٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ ، لِحُرْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ النُّورِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قَالَ : مَا زَنَتَا ، أَمَّا خِيَانَةُ امْرَأَةِ نُوحٍ فَكَانَتْ تُخْبِرُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَأَمَّا خِيَانَةُ امْرَأَةِ لُوطٍ فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى أَضْيَافِهِ .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَتْ خِيَانَتُهُمَا أَنَّهُمَا كَانَتَا عَلَى عَوْرَتَيْهِمَا ، فَكَانَتِ امْرَأَةُ نُوحٍ تَطَّلِعُ عَلَى سِرِّ نُوحٍ ، فَإِذَا آمَنَ مَعَ نُوحٍ أَحَدٌ أَخْبَرَتِ الْجَبَابِرَةَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ بِهِ ، وَأَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَكَانَتْ إِذَا أَضَافَ لُوطٌ أَحَدًا أَخْبَرَتْ بِهِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّنْ يَعْمَلُ السُّوءَ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ لَا تَضُرُّهُمْ مُخَالَطَةُ الْكَافِرِينَ إِذَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران : ٢٨]

قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ فِرْعَوْنُ أَعْتَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَكْفَرَهُمْ ، فَوَاللهِ مَا ضَرَّ امْرَأَتَهُ كُفْرُ زَوْجِهَا حِينَ أَطَاعَتْ رَبَّهَا ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ ، لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ .

فَقَوْلُهَا : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ **قَالَ الْعُلَمَاءُ** : اِخْتَارَتِ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ ، وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ . ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ أَيْ : خَلِّصْنِي مِنْهُ فَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلِهِ ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أَيْ : حَفِظَتْهُ وَصَانَتْهُ ، وَالْإِحْصَانُ هُوَ : الْعَفَافُ وَالْحُرِّيَّةُ ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أَيْ : بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ ، فَإِنَّ اللهَ بَعَثَهُ إِلَيْهَا فَتَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ ، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفُخَ بِفِيهِ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ فَوَلَجَتْ فِي فَرْجِهَا ، فَكَانَ مِنْهُ الْحَمْلُ بِعِيسَى عليه السلام ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أَيْ : بِقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ وَقَالَ : « **أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ** » . وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ** »[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) أحمد بسند حسن (١ / ٢٩٣) .

(٢) البخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٢٤٣١) .

تفسيرُ سورةِ المُلكِ
وهيَ مكيَّةٌ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ قَالَ : ((**إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**))[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ الكَرِيمَةَ ، وَيُخْبِرُ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَا يَشَاءُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، لِقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ لِيَبْلُوَهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] فَسَمَّى الْحَالَ الْأَوَّلَ - وَهُوَ الْعَدَمُ - مَوْتًا ، وَسَمَّى هَذِهِ النَّشْأَةَ حَيَاةً . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

---

(١) صححه عدد من العلماء : وقد أخرجه أحمد (٢ / ٢٩٩ ، ٣٢١) والترمذي (٢٨٩١) وقال هذا حديث حسن وغيرهما .وفي سنده عباس الجشيمي ولم يوثقه معتبر وله طرق قد يصح بمجموعها ، والله أعلم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أَيْ : خَيْرٌ عَمَلًا ، **كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ** : وَلَمْ يَقُلْ أَكْثَرُ عَمَلًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ المَنِيعُ الْجَنَاب ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَاب ، بَعْدَمَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَزِيزًا هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أَيْ : طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ ، **وَهَلْ هُنَّ مُتَوَاصِلَاتٌ** ، بِمَعْنَى : أَنَّهُنَّ عُلْوِيَّاتٌ بَعْضُهُنَّ عَلَى بَعْضٍ ، **أَوْ مُتَفَاصِلَاتٌ** بَيْنَهُنَّ خَلَاءٌ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ : **أَصَحُّهُمَا الثَّانِي** ، كَمَا دَلَّ ذَلِكَ حَدِيثُ الْإِسْرَاءِ وَغَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ مُصْطَحِبٌ مُسْتَوٍ ، لَيْسَ فِيهِ اِخْتِلَافٌ وَلَا تَنَافُرٌ وَلَا مُخَافَةٌ ، وَلَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ وَلَا خَلَلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أَيْ : أُنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَأَمَّلْهَا ، هَلْ تَرَى فِيهَا عَيْبًا أَوْ نَقْصًا أَوْ خَلَلًا أَوْ فُطُورًا ؟ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أَيْ : شُقُوقٍ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أَيْ : هَلْ تَرَى خَلَلًا يَا اِبْنَ آدَمَ ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ مَرَّتَيْنِ ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ ذَلِيلًا صَاغِرًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : وَهُوَ كَلِيلٌ ، **وَقِيلَ** : الْحَسِيرُ : المُنْقَطِعُ مِنَ الْإِعْيَاءِ ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ** : إِنَّكَ لَوْ كَرَرْتَ الْبَصَرَ - مَهْمَا كَرَرْتَ - لَانْقَلَبَ إِلَيْكَ ، أَيْ : لَرَجَعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴿ خَاسِئًا ﴾ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا أَوْ خَلَلًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أَيْ : كَلِيلٌ ، وَقَدِ اِنْقَطَعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ التَّكَرُّرِ وَلَا يَرَى نَقْصًا ، وَلَمَّا نَفَى عَنْهَا فِي خَلْقِهَا النَّقْصَ بَيَّنَ كَمَالَهَا وَزِينَتَهَا فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾ ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا مِنَ السَّيَّارَاتِ وَالثَّوَابِتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾ ، عَادَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا ﴾ عَلَى جِنْسِ المَصَابِيحِ لَا عَلَى عَيْنِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْمِي بِالْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ، بَلْ بِشُهُبٍ مِنْ دُونِهَا ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لِلشَّيَاطِينِ هَذَا الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي الْأُخْرَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الصَّافَّاتِ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠]

قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّمَا خُلِقَتْ هَذِهِ النُّجُومُ لِثَلَاثِ خِصَالٍ : خَلَقَهَا اللهُ زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا . فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ ، وَأَخْطَأَ حَظَّهُ ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ أَعْتَدْنَا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَآلُ وَالْمُنْقَلَبُ ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا ﴾ ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي : الصِّيَاحَ ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ ، **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : تَغْلِي بِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْحَبُّ الْقَلِيلُ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أَيْ : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَيْهِمْ وَحَنَقِهَا بِهِمْ ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

يَذْكُرُ تَعَالَى عَدْلَهُ فِي خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١] ، وَهَكَذَا عَادُوا

عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ ، فَقَالُوا : ﴿ لَو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَنْتَفِعُ بِهَا أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْحَقِّ ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالِاغْتِرَارِ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنِ النَّاسِ ، فَيَنْكَفُّ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَعَالَى : بِأَنَّهُ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ، أَيْ : تُكَفَّرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ ، وَيُجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ، أَيْ : بِمَا خَطَرَ فِي الْقُلُوبِ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ، أَيْ : أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ ؟ وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : أَلَا يَعْلَمُ اللهُ مَخْلُوقَهُ ؟ وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، لِقَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَّةً سَاكِنَةً لَا تَمِيدَ وَلَا تَضْطَرِبَ ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ ، وَأَنْبَعَ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ ، وَهَيَّأَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أَيْ : فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يُيَسِّرَهُ اللهُ لَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ ، فَالسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا** »[1].

فَأَثْبَتَ لَهَا رَوَاحًا وَغُدُوًّا لِطَلَبِ الرِّزْقِ ، مَعَ تَوَكُّلِهَا عَلَى الله ﷻ وَهُوَ الْمُسَخِّرُ الْمُسَيِّرُ الْمُسَبِّبُ ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ أَطْرَافِهَا وَفِجَاجِهَا وَنَوَاحِيهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ الْجِبَالُ .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِ بَعْضِهِمْ بِهِ ، وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يُعَجِّلُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤٥] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أَيْ : تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَضْطَرِبُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أَيْ : رِيحًا فِيهَا حَصْبَاءُ تَدْمَغُكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٨] ، وَهَكَذَا تَوَعَّدَهُمْ هَهُنَا **بِقَوْلِهِ** : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ إِنْذَارِي ، وَعَاقِبَةَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَكَذَّبَ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ ؟ أَيْ : عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا .

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١ / ٣٠) ، والترمذي (٢٣٤٤) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أَيْ : تَارَةً يَصْفُفْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ ، وَتَارَةً تَجْمَعُ جَنَاحًا ، وَتَنْشُرُ جَنَاحًا ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أَيْ : فِي الْجَوِّ ﴿ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ أَيْ : بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[النحل : ٧٩]

أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَهُ ، يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ نَصْرًا وَرِزْقًا ، مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا اعْتَقَدُوهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مَا أَمَّلُوهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ وَلَا نَاصِرٍ لَكُمْ غَيْرُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ أَيْ : مَنْ هَـٰذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللهُ عَنْكُمْ رِزْقَهُ يَرْزُقُكُمْ بَعْدَهُ ؟ أَيْ : لَا أَحَدَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَنْصُرُ إِلَّا اللهُ ﷻ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَإِفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ

﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أَيْ : فِي مُعَانَدَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَنُفُورٍ عَلَى إِدْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ لَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَالْكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يَمْشِي مُنْكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ ، أَيْ : يَمْشِي مُنْحَنِيًا لَا مُسْتَوِيًا عَلَى وَجْهِهِ ، أَيْ : لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسْلُكُ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ ، بَلْ تَائِهٌ حَائِرٌ ضَالٌّ ، أَهَذَا أَهْدَى ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾ أَيْ : مُنْتَصِبُ الْقَامَةِ ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ بَيِّنٍ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَقِيمٌ وَطَرِيقُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ، هَذَا مَثَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ ، فَالْمُؤْمِنُ يُحْشَرُ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، مُفْضٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : ٢٢ - ٢٦] أَزْوَاجُهُمْ : أَشْبَاهُهُمْ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قِيلَ : يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ فَقَالَ : ((**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ أَيْ : اِبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أَيْ : الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ مَا تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بَثَّكُمْ وَنَشَرَكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لُغَاتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، وَحُلَاكُمْ وَأَشْكَالِكُمْ وَصُوَرِكُمْ ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَيْ : تُجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ .

(١) البخاري (٤٧٦٠) ، ومسلم (٢٨٠٦) ، وأحمد (٣ / ١٦٧) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وُقُوعَهُ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : مَتَى هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ ، مِنَ الِاجْتِمَاعِ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ وَقْتَ ذَلِكَ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ ﷻ ، لَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدَّيْتُهُ إِلَيْكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَشَاهَدَهَا الْكُفَّارُ ، وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا كَذَّبُوا بِهِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الشَّرِّ ، أَيْ : فَأَحَاطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧ - ٤٨] ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : تَسْتَعْجِلُونَ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْجَاحِدِينَ لِنِعَمِهِ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : خَلِّصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ لَا مُنْقِذَ لَكُمْ مِنَ اللهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِهِ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وُقُوعُ مَا تَتَمَنَّوْنَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَسَوَاءٌ عَذَّبَنَا اللهُ أَوْ رَحِمَنَا ، فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نَكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أَيْ : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أَيْ : ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَل ، فَلَا يُنَالُ بِالْفُؤُوسِ الْحِدَادِ ، وَلَا السَّوَاعِدِ الشِّدَادِ ، وَالْغَائِرُ : عَكْسُ النَّابِعِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أَيْ : نَابِعٍ سَائِحٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ فَمِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ أَنْبَعَ لَكُمُ الْمِيَاهَ ، وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّة .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة القلم
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهِجَاءِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ ن ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ ص ﴾ ﴿ ق ﴾ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، وَتَحْرِيرُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ن ﴾ حُوتٌ عَظِيمٌ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمُحِيطِ ، وَهُوَ حَامِلٌ لِلْأَرَضِينَ السَّبْعِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] **قَالَ** : أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ . قَالَ : اُكْتُبْ . قَالَ : وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اُكْتُبِ الْقَدَرَ ، فَجَرَى بِمَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى يَوْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ ، وَرَفَعَ بُخَارَ الْمَاءِ ، فَفُتِقَتْ مِنْهُ السَّمَاءُ ، وَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النُّونِ ، فَاضْطَرَبَ النُّونُ فَمَادَتِ الْأَرْضُ ، فَأُثْبِتَتْ بِالْجِبَالِ ، فَإِنَّهَا لَتَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ .

وَعَنْ أَنَسٍ[2] : أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ، فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ ، قَالَ : إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا نَبِيٌّ ، قَالَ : مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدُ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدُ يَنْزِعُ إِلَى أُمِّهِ ؟ قَالَ : « **أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا** » قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : فَذَاكَ عَدُوُّ

---

(١) صحيح : وأخرجه الطبري (٣٤٥٤٤) والبيهقي في الصفات (٨٠٣) .
(٢) البخاري (٣٣٢٩) ، وأحمد في المسند (٣ / ١٨٩) .

الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، قَالَ : ((أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ)) .

وَعَنْ ثَوْبَانَ[1] أَنَّ حَبْرًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ مَسَائِلَ فَكَانَ مِنْهَا ، أَنْ قَالَ : فَمَا تُحْفَتُهُمْ ؟ يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، قَالَ : ((زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ)) قَالَ : فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى أَثَرِهَا ؟ قَالَ : ((يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا)) قَالَ : فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : ((مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ جِنْسُ الْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٣ - ٥] فَهُوَ قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى ، وَتَنْبِيهٌ لِخَلْقِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وَمَا يَكْتُبُونَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَعْمَلُونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ الَّذِي أَجْرَاهُ اللهُ بِالْقَدَرِ حِينَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ ، وَأَوْرَدُوا فِي ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذِكْرِ الْقَلَمِ مِنْهَا عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اُكْتُبْ ، قَالَ : يَا رَبِّ مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اُكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ))[2].

وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِي كَتَبَ بِهِ الذِّكْرَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أَيْ : يَكْتُبُونَ . ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أَيْ : لَسْتَ - وَللهِ الْحَمْدُ - بِمَجْنُونٍ كَمَا يَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ قَوْمِكَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، فَنَسَبُوكَ فِيهِ إِلَى الْجُنُونِ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أَيْ : بَلْ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَبِيدُ ، عَلَى إِبْلَاغِكَ رِسَالَةَ رَبِّكَ إِلَى الْخَلْقِ ، وَصَبْرِكَ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَمَعْنَى : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

---

(١) مسلم (٣١٥) .

(٢) الطبري (٣٤٥٤٣) ، وله شواهد يصح بها .

أَيْ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : وَإِنَّكَ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ . وَقِيلَ : لَعَلَى أَدَبٍ عَظِيمٍ . عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : أَخْبِرِينِي يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ . فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ [١].

وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ ﷺ صَارَ امْتِثَالُ الْقُرْآنِ أَمْرًا وَنَهْيًا سَجِيَّةً لَهُ ، وَخُلُقًا تَطَبَّعَهُ وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِبِلِّيَّ ، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ ، هَذَا مَعَ مَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ[٢] : خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ أَلَا فَعَلْتَهُ ؟ وَكَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا ، وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَعَنِ الْبَرَاءِ قَالَ[٣] : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالْقَصِيرِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ[٤] : مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرَهُمَا ، حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ ، فَيَكُونُ هُوَ يَنْتَقِمُ للهِ ﷻ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))[٥].

---

(١) مسلم (٧٤٦) .

(٢) انظر البخاري (٦٠٣٨ ، ٦٩١١) ، ومسلم (٢٣٠٩) .

(٣) البخاري (٣٥٤٩) .

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٦ / ٢٣٢) .

(٥) إسناده حسن: وأخرجه أحمد (٢ / ٣٨١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أَيْ : فَسَتَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ وَسَيَعْلَمُ مُخَالِفُوكَ وَمُكَذِّبُوكَ مَنِ الْمَفْتُونُ الضَّالُّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾[القمر : ٢٦] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ : ٢٤] . **وَقِيلَ** : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أَيْ : الْمَجْنُونُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أَيْ : أَوْلَى بِالشَّيْطَانِ ، وَمَعْنَى الْمَفْتُونِ ظَاهِرٌ ، أَيْ : الَّذِي قَدِ افْتَتَنَ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا دَخَلَتِ « الْبَاءُ » فِي قَوْلِهِ : « بِأَيِّكُمْ » لِتَدُلَّ عَلَى تَضْمِينِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ ، وَتَقْدِيرُهُ : فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ ، أَوْ فَسَتُخْبَرُ وَيُخْبَرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ هُوَ الْمُهْتَدِي ، وَيَعْلَمُ الْحِزْبَ الضَّالَّ عَنِ الْحَقِّ .

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦

يَقُولُ تَعَالَى ، كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ وَأَعْطَيْنَاكَ الشَّرْعَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْخُلُقَ الْعَظِيمَ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ **قِيلَ** : لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ تَرْكَنُ إِلَى آلِهَتِهِمْ وَتَتْرُكُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبَ لِضَعْفِهِ وَمَهَانَتِهِ إِنَّمَا يَتَّقِي بِأَيْمَانِهِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي يَجْتَرِئُ بِهَا عَلَى أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا . **قِيلَ** : الْمَهِينُ : الْكَاذِبُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الضَّعِيفُ الْقَلْبُ ، **وَقِيلَ** : كُلُّ حَلَّافٍ مُكَابِرٍ مَهِينٍ ضَعِيفٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ يَعْنِي : الِاغْتِيَابُ ﴿ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ يَعْنِي : الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُحَرِّش بَيْنَهُمْ ، وَيَنْقُلُ الْحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَهِيَ الْحَالِقَةُ ، وَقَدْ

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** »(١) الْحَدِيث .

وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ : مَرَّ رَجُلٌ عَلَى حُذَيْفَةَ فَقِيلَ : إِنَّ هَذَا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأُمَرَاءِ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ أَوْ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أَيْ : يَمْنَعُ مَا عَلَيْهِ وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فِي تَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ ، يَتَجَاوَزُ فِيهَا الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : يَتَنَاوَلُ الْمُحَرَّمَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أَمَّا الْعُتُلُّ فَهُوَ : الْفَظُّ الْغَلِيظُ الصَّحِيحُ الْجَمُوعُ الْمَنُوعُ ، عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ** »(٣) ، **وَقَالَ وَكِيعٌ** : كُلُّ جَوَّاظٍ جَعْظَرِيٍّ مُسْتَكْبِرٍ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عِنْدَ ذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ : « **كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ** »(٤) قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : **الْجَعْظَرِيُّ** : الْفَظُّ الْغَلِيظُ ، **وَالْجَوَّاظُ** : الْجَمُوعُ الْمَنُوعُ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ **الْعُتُلَّ** هُوَ : الْمُصَحَّحُ الْخَلْقِ ، الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَنْكَحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، **وَأَمَّا الزَّنِيمُ** : فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٥) : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلَ زَنَمَةِ الشَّاةِ .

وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا بِالسُّوءِ كَشُهْرَةِ الشَّاةِ ذَاتِ الزَّنَمَةِ مِنْ بَيْنِ أَخَوَاتِهَا ، **وَإِنَّمَا الزَّنِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ** : هُوَ الدَّعِيُّ فِي الْقَوْلِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ

---

(١) البخاري (حديث ٢١٨) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (١١١/ ٢٩٢) .
(٢) البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ / ١٠٥) في كتاب الإيمان من صحيحه .
(٣) البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) .
(٤) سنده حسن : أخرجه أحمد (١ / ١٦٩) .
(٥) البخاري (٤٩١٧) .

الْأَئِمَّةِ ، قَالَ : وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، يَعْنِي يَذُمُّ بَعْضَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قَالَ : الدَّعِيُّ الْفَاحِشُ اللَّئِيمُ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قَالَ : هُوَ الْمُلْصَقُ بِالْقَوْمِ ، لَيْسَ مِنْهُمْ . **وَسُئِلَ عِكْرِمَةُ عَنِ الزَّنِيمِ قَالَ** : هُوَ وَلَدُ الزِّنَا ، وَالْأَقْوَالُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَتَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَهُوَ أَنَّ الزَّنِيمَ هُوَ : الْمَشْهُورُ بِالشَّرِّ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ مِنْ بَيْنَ النَّاسِ ، وَغَالِبًا يَكُونُ دَعِيًّا وَلَدُ زِنًا ، فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مَا لَا يَتَسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا مُقَابَلَةُ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ ، كَفَرَ بِآيَاتِ اللهِ ﷻ ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَزَعَمَ أَنَّهَا كَذِبٌ مَأْخُوذٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ١١ - ٢٥] قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ ، **وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : سَنُبَيِّنُ أَمْرَهُ بَيَانًا وَاضِحًا حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ ، كَمَا لَا تَخْفَى السِّمَةُ عَلَى الْخَرَاطِيمِ ، **وَهَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ شَيْنٌ لَا يُفَارِقُهُ آخِرَ مَا عَلَيْهِ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : سِيمَا عَلَى أَنْفِهِ ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ يُقَاتِلُ يَوْمَ بَدْرٍ فَيُخْطَمُ بِالسَّيْفِ فِي الْقِتَالِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ سَنَسِمُهُۥ ﴾ سِمَةُ أَهْلِ النَّارِ ، يَعْنِي : نُسَوِّدُ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْخُرْطُومِ . حَكَى ذَلِكَ كُلَّهُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَمَالَ إِلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنِ اجْتِمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْجَسِيمَةِ ، وَهُوَ بَعْثُهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمُحَارَبَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أَيْ : اِخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ، وَهِيَ الْبُسْتَانُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيُجَذُّنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا ؛ لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ لِيَتَوَفَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا حَلَفُوا بِهِ ، وَلِهَذَا حَنَّثَهُمُ اللهُ فِي أَيْمَانِهِمْ ،فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أَيْ : أَصَابَتْهَا آفَةٌ سَمَاوِيَّةٌ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أَيْ : كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ ، وَقِيلَ : مِثْلَ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ ، أَيْ : هَشِيمًا يَبِسًا .

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الْجِذَاذِ ، ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أَيْ : تُرِيدُونَ الصِّرَامَ ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أَيْ : يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ .

ثُمَّ فَسَّرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى - مَا كَانُوا يَتَخَافَتُونَ بِهِ ،فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أَيْ :

يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تُمَكِّنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أَيْ : قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ ، **وَقِيلَ** : أَيْ : جَدٍّ ، **وَقِيلَ** : عَلَى غَيْظٍ ﴿ قَـٰدِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ وَيَرُومُونَ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا ، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ قَدِ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّضَارَةِ وَالزَّهْرَةِ وَكَثْرَةِ الثِّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سَوْدَاءَ مُدْلَهِمَّةً لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتُهْنَا عَنْهَا ، ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا هِيَ ، **فَقَالُوا** : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هِيَ هَذِهِ وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حَظَّ لَنَا وَلَا نَصِيبَ .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا تَسْتَثْنُونَ ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، **وَقِيلَ مَعْنَاهُ** : هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ ، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ . **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ ، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴾ أَيْ : يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ الْجِذَاذِ ، فَمَا كَانَ جَوَابُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الِاعْتِرَافُ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾ أَيْ : اِعْتَدَيْنَا وَبَغَيْنَا وَطَغَيْنَا ، وَجَاوَزْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ **قِيلَ** : رَغِبُوا فِي بَدَلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، **وَقِيلَ** : اِحْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ ، وَمَنَعَ حَقَّ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَبَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّقْمَةِ حِينَ عَصَوا اللهَ ﷻ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ ، بَيَّنَ أَنَّ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتُ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ . وَلَا تَفْرُغُ وَلَا يَنْقَضِي نَعِيمُهَا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : أَفَنُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ ، كَلَّا وَرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وِلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ تَظُنُّونَ ذَلِكَ ؟.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَفَبِأَيْدِيكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ بِنَقْلِ الْخَلَفِ عَنِ السَّلَفِ مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدْعُونَهُ ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : أَمَعَكُمْ عُهُودٌ مِنَّا وَمَوَاثِيقُ مُؤَكَّدَةٌ ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُمْ : مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَفِّلُ بِهَذَا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيم ، بَيَّنَ مَتَى ذَلِكَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَاءِ وَالِامْتِحَانِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا** »[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قَالَ : هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمُ كَرْبٍ وَشِدَّةٍ[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكَبُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبُوا بِنَقِيضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَلَمَّا دُعُوا إِلَى السُّجُودِ فِي الدُّنْيَا فَامْتَنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ ، كَذَلِكَ عُوقِبُوا بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ إِذَا تَجَلَّى الرَّبُّ ﷻ فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُدَ ، بَلْ يَعُودُ ظَهْرُ أَحَدِهِمْ طَبَقًا وَاحِدًا ، كُلَّمَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ لِقَفَاهُ عَكْسَ السُّجُودِ ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، أَيْ : دَعْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنْهُ أَنَا أَعْلَمُ بِهِ كَيْفَ أَسْتَدْرِجُهُ ، وَأَمُدُّهُ فِي غَيِّهِ وَأُنْظِرُهُ ، ثُمَّ آخُذُهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ كَرَامَةٌ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِهَانَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤]

(١) البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) .

(٢) صحيح لشواهده : وانظر الطبري (٣٤٦٦٩ ، ٣٤٦٧٠ ، ٣٤٦٧٤ ، ٣٤٦٧٥) .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أَيْ : وَأُؤَخِّرُهُمْ وَأُنْظِرُهُمْ وَأَمُدُّهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي بِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أَيْ : عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رُسُلِي وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ (١) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ، وَالمَعْنَى فِي ذَلِكَ : أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ بِلَا أَجْرٍ تَأْخُذُهُ مِنْهُمْ ، بَلْ تَرْجُو ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ لَكَ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ يَعْنِي : ذَا النُّونِ ، وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى ﵇ ، حِينَ ذَهَبَ مُغَاضِبًا عَلَى قَوْمِهِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ مِنْ رُكُوبِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَالْتِقَامِ الْحُوتِ لَهُ ، وَشُرُودِ الْحُوتِ بِهِ فِي الْبِحَارِ وَظُلُمَاتِ غَمَرَاتِ الْيَمِّ ، وَسَمَاعِهِ تَسْبِيحَ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ لِلْعَلِيِّ الْقَدِيرِ الَّذِي لَا يَرُدُّ مَا أَنْفَذَهُ مِنَ التَّقْدِيرِ ، فَحِينَئِذٍ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] قَالَ اللهُ تَعَالَى :

(١) البخاري (حديث ٤٦٨٦) ، ومسلم (حديث ٢٥٨٣) .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ - ١٤٤] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي : مَكْرُوبٌ .

عَنْ عَبْدِ الله بنِ مسعودٍ[1] قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ لَيُنْفِذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ أَيْ : لَيَعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، بِمَعْنَى : يَحْسُدُونَكَ لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ ، لَوْلَا وِقَايَةُ الله لَكَ وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ بِأَمْرِ الله ﷻ ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمَرْوِيَّةُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَثِيرَةٍ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرِ سَبَقَتِ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**))[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ : ((**أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**)) ، وَيَقُولُ : ((**هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ**))[3].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ[4] قَالَ : مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ : لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولَ الله ﷺ فَقِيلَ لَهُ : أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا قَالَ : ((**مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ ؟**)) قَالُوا : عَامِرَ ابْنَ رَبِيعَةَ . قَالَ : ((**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ؟ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ**)) ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ .

---

(١) البخاري (٣٤١٢) .
(٢) مسلم (١٧١٩) .
(٣) البخاري (٣٣٧١) .
(٤) صحيح : وإن كانت صورته صورة الإرسال ، فله من الطرق ما يثبت به الاتصال وأخرجه أحمد (٣/ ٤٨٦) ومالك في الموطأ (٩٣٩) ، وغيرهم .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : اِشْتَكَيْتَ يَا مُحَمَّدُ ، قَالَ : ((**نَعَمْ**)) قَالَ : ((**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ ، اللهُ يَشْفِيكَ ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**))[1].

وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ[2] : قَالَتْ أَسْمَاءُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ أَيْ : يَزْدَرُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْذُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، أَيْ : لِمَجِيئِهِ بِالْقُرْآنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

آخرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((القَلَمِ)) وَللهِ الحَمْدُ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣ / ٢٨) ، ومسلم (٢١٨٦) .
(٢) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد (٦ / ٤٣٨) .

تفسيرُ سُورَةِ الحاقَّةِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾

« الْحَاقَّةُ » مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لأَنَّ فِيهَا يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ اللهُ أَمْرَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلاكَهُ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ ، وَهِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَسْكَتَتْهُمْ وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي أَسْكَنَتْهُمْ . هَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ : الطَّاغِيَةُ : الصَّيْحَةُ ، وَقِيلَ : الطَّاغِيَةُ : الذُّنُوبُ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ . قَالَ : يَعْنِي : عَاقِرُ النَّاقَةِ .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ ﴾ أَيْ : بَارِدَةٍ ﴿ عَاتِيَةٖ ﴾ أَيْ : شَدِيدَةِ الْهُبُوبِ . قَالَ قَتَادَةُ : عَتَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَقَّبَتْ عَنْ أَفْئِدَتِهِمْ ، وَقِيلَ : ﴿ عَاتِيَةٖ ﴾ عَتَتْ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ وَلَا بَرَكَةٍ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : عَتَتْ عَلَى الْخَزَنَةِ فَخَرَجَتْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أَيْ : سَلَّطَهَا عَلَيْهِمْ ﴿ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا ﴾ أَيْ : كَوَامِلَ مُتَتَابِعَاتٍ مَشَائِيمَ ﴿ حُسُومٗا ﴾ مُتَتَابِعَاتٍ ، وَقِيلَ : مَشَائِيمَ عَلَيْهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ ﴾ [فصلت : ١٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، **قِيلَ** : لأَنَّهَا تَكُونُ فِي عَجُزِ الشِّتَاءِ . ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خَرِبَةٌ ، **وَقِيلَ** : بَالِيَةٌ ، أَيْ : جَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحَدِهِمُ الأَرْضَ فَيَخِرُّ مَيِّتًا عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَيَنْشَرِخُ رَأْسُهُ وَتَبْقَى جُثَّتُهُ هَامِدَةً ، كَأَنَّهَا قَائِمَةُ النَّخْلَةِ إِذَا خَرَّتْ بِلَا أَغْصَانٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ** »[1].

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ أَيْ : هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَقَايَاهُمْ أَوْ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ ؟ بَلْ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُمْ خَلَفًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُۥ ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ ، أَيْ : وَمَنْ عِنْدَهُ مِمَّنْ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقِبْطِ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِفَتْحِهَا ، أَيْ : وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأُمَمِ الْمُشْبِهِينَ لَهُ ، ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ ، وَهُمُ الأُمَمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ ، أَيْ : بِالْفِعْلَةِ الْخَاطِئَةِ وَهِيَ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . **قَالَ الرَّبِيعُ** : ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ أَيْ : بِالْمَعْصِيَةِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : بِالْخَطَايَا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ ، وَهَذَا جِنْسٌ ، أَيْ : كُلٌّ كَذَّبَ رَسُولَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ [ص : ١٤] فَحَقَّ وَعِيدِ ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْجَمِيعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤١] ، وَإِنَّمَا جَاءَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ وَاحِدٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أَيْ : عَظِيمَةً شَدِيدَةً أَلِيمَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أَيْ : زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللهِ وَارْتَفَعَ عَلَى الْوُجُودِ . وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللهِ فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ وَعَمَّ أَهْلَ الأَرْضِ بِالطُّوفَانِ ، إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّتِهِ .

﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ ، أَيْ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جِنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ فِي الْبِحَارِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ ﴾ [الزخرف : ١٢ - ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٢] ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَبْقَى اللهُ السَّفِينَةَ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ أَيْ : وَتَفْهَمُ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَتَذْكُرُهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ . **قِيلَ** : حَافِظَةٌ سَامِعَةٌ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ عَقَلَتْ عَنِ اللهِ فَانْتَفَعَتْ بِمَا سَمِعَتْ مِنْ كِتَابِ اللهِ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، ثُمَّ يُعْقِبُهَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ حِينَ يُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْبَعْثُ وَالنُّشُورُ ، وَهِيَ هَذِهِ النَّفْخَةُ ، وَقَدْ أَكَّدَهَا هَهُنَا بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللهِ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْرَارٍ وَتَأْكِيدٍ ، **وَقَالَ الرَّبِيعُ** : هِيَ النَّفْخَةُ الْأَخِيرَةُ ، وَالظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : فَمُدَّتْ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ أَيْ : قَامَتِ الْقِيَامَةُ ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ، **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : هِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ [النبأ : ١٩]﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ الْمَلَكُ : اِسْمُ جِنْسٍ ، أَيْ : الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَاءِ السَّمَاءِ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : عَلَى مَا لَمْ يَهِ مِنْهَا . أَيْ : حَافَّتِهَا ، **وَقِيلَ** : أَطْرَافِهَا ، **وَقِيلَ** : أَبْوَابِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعَرْشِ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ ، أَوِ الْعَرْش الَّذِي يُوضَعُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو يَقُولُ : حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ مَا بَيْنَ مُوقِ أَحَدِهِمْ إِلَى مُؤَخَّرِ عَيْنِهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، بُعْدُ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ بِخَفْقِ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ** »[1].

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ قَالَ : ثَمَانِيَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أَيْ : تُعْرَضُونَ عَلَى عَالِمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ : ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ أَيْ : خُذُوا اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّنْ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاته حَسَنَاتٍ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ : مَعْنَى ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ أَيْ : هَا اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ وَ « ؤُمُ » زَائِدَةٌ . كَذَا قَالَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا بِمَعْنَى : هَاكُمْ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ[2] حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ حِينَ سُئِلَ عَنِ النَّجْوَى ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **يُدْنِي اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا** ،

(١) إسناده حسن : وهو عند ابن أبي حاتم ، وأخرجه أبو داود أيضًا (٤٧٢٧) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود : ١٨]» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أَيْ : قَدْ كُنْتُ مُوقِنًا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَـذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٤٦]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أَيْ : مَرْضِيَّةٍ ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أَيْ : رَفِيعَةٌ قُصُورُهَا ، حِسَانٌ حُورُهَا ، نَعِيمَةٌ دُورُهَا ، دَائِمٌ حُبُورُهَا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : « **إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** »[١] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أَيْ : قَرِيبَةٌ يَتَنَاوَلُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ . ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفَضُّلًا عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا ، وَإِلَّا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[٢] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ** » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

وَهَـذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ كِتَابَهُ فِي الْعَرَصَاتِ بِشِمَالِهِ ،

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) .

(٢) البخاري (٦٤٦٧) ، مسلم (٢٨١٨) .

فَحِينَئِذٍ يَنْدَمُ غَايَةَ النَّدَمِ، فَيَقُولُ: ﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ يَعْنِي: مَوْتَةً لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا، **وَقَالَ قَتَادَةُ**: تَمَنَّى المَوْتَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِنْهُ.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ أَيْ: لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ الله وَبَأْسَهُ، بَلْ خَلَصَ الأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ، فَعِنْدَهَا يَقُولُ الله ﷻ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أَيْ: يَأْمُرُ الزَّبَانِيَةَ أَنْ تَأْخُذَهُ عُنُقًا مِنَ المَحْشَرِ، فَتَغُلُّهُ، أَيْ: تَضَعُ الأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُصْلِيهِ إِيَّاهَا، أَيْ: تَغْمُرُهُ فِيهَا. ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أَيْ: أَغْمُرُوهُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ **قِيلَ**: بِذِرَاعِ المَلَكِ. ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ **قِيلَ**: تَدْخُلُ فِي إِسْتِهِ ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، ثُمَّ يُنْظَمُونَ فِيهَا كَمَا يُنْظَمُ الجَرَادُ فِي العُودِ حِينَ يُشْوَى. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أَيْ: لَا يَقُومُ بِحَقِّ الله عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ، فَإِنَّ لله عَلَى العِبَادِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَقُّ الإِحْسَانِ وَالمُعَاوَنَةِ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مَنْ يُنْقِذُهُ مِنْ عَذَابِ الله تَعَالَى، لَا حَمِيمٌ، وَهُوَ القَرِيبُ، وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ، وَلَا طَعَامٌ لَهُ هَهُنَا إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. **قَالَ قَتَادَةُ**: هُوَ شَرُّ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ، **وَقِيلَ**: **الغِسْلِينُ**: الدَّمُ وَالمَاءُ يَسِيلُ مِنْ لُحُومِهِمْ، **وَقِيلَ**: **الغِسْلِينُ**: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا

(١) أحمد في المسند (٣/ ١١٧).

تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقْسِمًا لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَمَا غَابَ عَنْهُمْ مِمَّا لَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ عَنْهُمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبَلِّغَ عَنِ الْمُرْسِلِ ؛ وَلِهَذَا أَضَافَهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ إِلَى الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ ، وَهَذَا جِبْرِيلُ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيْ : بِمُتَّهَمٍ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فَأَضَافَهُ اللهُ تَارَةً إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ، وَتَارَةً إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُبَلِّغٌ عَنَ اللهِ مَا اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى مُؤَثِّرَةً فِي هِدَايَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ ، كَمَا أَوْرَدْنَا كَيْفِيَّةَ إِسْلَامِهِ فِي سِيرَتِهِ الْمُفْرَدَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : مُحَمَّدٌ ﷺ، لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا

فَزَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا ، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَنَسَبَهُ إِلَيْنَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ ؛ ولهذا قَالَ : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ؛ لأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ ، وَقِيلَ : لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ نِيَاطُ الْقَلْبِ ، وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ . ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَالمَعْنَى فِي هَذَا : بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ ؛ لأَنَّ اللهَ ﷻ مُقَرِّرٌ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ ، وَمُؤَيِّدٌ لَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّ التَّكْذِيبَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيل : لَنَدَامَةٌ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيْ : وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ بِهِ لَحَسْرَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [الشعراء : ٢٠٠ - ٢٠١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ : ٥٤] ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : الْخَبَرُ الصِّدْقُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الحَاقَّةِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُوَرةِ المَعَارِجِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فِيهِ تَضْمِينٌ دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ « الْبَاءِ » كَأَنَّهُ مُقَدَّرٌ اِسْتَعْجَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[الحج : ٤٧] أَيْ : وَعَذَابُهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قَالَ : النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ ، **وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ** : ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللهِ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، **وَقِيلَ** : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ ﴾ دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .
[الأنفال : ٣٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ جَاءٍ ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ أَيْ : لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهُ ،**وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ذُو الدَّرَجَاتِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ يَعْنِي : الْعُلُوَّ وَالْفَوَاضِلَ ، **وَقِيلَ** : مَعَارِجُ السَّمَاءِ ، **وَقِيلَ** : ذِي الْفَوَاضِلِ وَالنِّعَمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ تَعْرُجُ : تَصْعَدُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ ، **فَقَالَ الْبَعْضُ** : هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يُشْبِهُونَ النَّاسَ وَلَيْسُوا أُنَاسًا .

قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلُ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اِسْمُ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ **فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ** :

أَحَدُهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَسَافَةُ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ، وَهُوَ قَرَارُ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، وَذَلِكَ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، هَذَا اِرْتِفَاعُ الْعَرْشِ عَنِ الْمَرْكَزِ الَّذِي فِي وَسَطِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، وَكَذَلِكَ اِتِّسَاعُ الْعَرْشِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَأَنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، كَمَا ذَكَرَهُ اِبْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتَابِ « صِفَةِ الْعَرْشِ » .

الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مُدَّةُ بَقَاءِ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ هَذَا الْعَالَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ .

الْقَوْلُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ الْيَوْمُ الفَاصِلُ بينَ الدُّنْيا والآخِرَة ، وَهوَ قَولٌ غَرِيبٌ جِدًّا .

الْقَوْلُ الرَّابِعُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ[1] ﷺ : « **مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَائِحُ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ** » ، وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ فِي الْغَنَمِ وَالْإِبِلِ كَمَا تَقَدَّمَ وَفِيهِ : « **الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ : لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ** » إِلَى آخِرِهِ .

عَنِ اِبْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ[2] : سَأَلَ رَجُلٌ اِبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قَالَ : فَاتَّهَمَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ ، فَقَالَ : مَا يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي . قَالَ : هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللهُ ، اللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فِي كِتَابِ اللهِ بِمَا لَا أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ أَيْ : اِصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ

---

(١) مسلم (٩٨٧) .

(٢) **صحيح عن ابن عباس** – رضي الله عنهما – أخرجه الطبري (٣٤٨٦٨) .

وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِبْعَادًا لِوُقُوعِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى : ١٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴾ أَيْ : وُقُوعَ الْعَذَابِ وَقِيَامَ السَّاعَةِ يَرَاهُ الْكَفَرَةُ بَعِيدَ الْوُقُوعِ ، بِمَعْنَى مُسْتَحِيلُ الْوُقُوعِ ، ﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ أَيْ : الْمُؤْمِنُونَ يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ قَرِيبًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَمَدٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﷻ لَكِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : الْعَذَابُ وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ ، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ أَيْ : كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَإِ الْأَحْوَالِ ، فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، **قِيلَ** : يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان : ٣٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤-٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَبِأَعَزِّ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْمَالِ ، وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، أَوْ مِنْ وَلَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حُشَاشَةَ كَبِدِهِ يَوَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ أَنْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ اللهِ بِهِ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ . **قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ** ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قَبِيلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ : أُمِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يَصِفُ النَّارَ ، وَشِدَّةَ حَرِّهَا ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ **قِيلَ** : جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ الْجُلُودُ وَالْهَامُ . **وَقِيلَ** : أَطْرَافُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ نَزَّاعَة لِلشَّوَى ﴾ أَيْ : مَكَارِمُ وَجْهِهِ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ أَيْ : تُقْطَعُ عِظَامُهُ ثُمَّ يُجَدَّدُ خَلْقُهُمْ وَتُبَدَّلُ جُلُودُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أَيْ : تَدْعُو النَّارُ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللهُ لَهَا ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا ، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِسَانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ ﷺ كَانُوا مِمَّنْ ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : كَذَّبَ بِقَلْبِهِ ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أَيْ : جَمَعَ الْمَالَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَأَوْعَاهُ ، أَيْ : أَوْكَاهُ وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النَّفَقَاتِ وَمِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « **لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ** »[1].

۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ

---

(١) البخاري (١٤٣٤) ، ومسلم (١٠٢٩) .

عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ** : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أَيْ : إِذَا أَصَابَهُ الضُّرُّ فَزِعَ وَجَزِعَ وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ ، وَأَيِسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أَيْ : إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ بَخِلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ وَمَنَعَ حَقَّ اللهِ تَعَالَى فِيهَا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ : شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ** »[1] ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أَيْ : الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الذَّمِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَوَفَّقَهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى الْخَيْرِ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَهُ وَهُمُ الْمُصَلُّونَ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ يُحَافِظُونَ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِالدَّوَامِ هَهُنَا : السُّكُونُ وَالْخُشُوعُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-٢] قَالَهُ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ، وَمِنْهُ الْمَاءُ الدَّائِمُ أَيِ : السَّاكِنُ الرَّاكِدُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الَّذِينَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا دَاوَمُوا عَلَيْهِ وَأَثْبَتُوهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ[2] عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ** » ، وَفِي لَفْظٍ : « **مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ** »[3] قَالَتْ : وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا دَاوَمَ عَلَيْهِ وَفِي لَفْظ : أَثْبَتَهُ .

(١) أحمد (٢/ ٣٢٠) .
(٢) البخاري (٥٨٦١) .
(٣) البخاري (حديث ٤٣) ، ومسلم (٧٨٥) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أَيْ : فِي أَمْوَالِهِمْ نَصِيبٌ مُقَرَّرٌ لِذَوِي الحَاجَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الذَّارِيَاتِ »[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : يُوقِنُونَ بِالمَعَادِ وَالحِسَابِ وَالجَزَاءِ ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ وَيَخَافُ الْعِقَابَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ وَجِلُونَ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أَيْ : لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ إِلَّا بِأَمَانٍ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الحَرَامِ فَلَا يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ زِنًا وَلِوَاطٍ ، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الاسْتِمْنَاءِ بِاليَدِ بِهَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ** ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قَالَ فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ القِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ .

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ الأَزْوَاجِ وَالإِمَاءِ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : المُعْتَدُونَ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا أُؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَغْدِرُوا وَهَذِهِ صِفَاتُ المُؤْمِنِينَ ، وَضِدُّهَا صِفَاتُ المُنَافِقِينَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ** »[٢] ، وَفِي رِوَايَةٍ « **إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** »[٣].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ أَيْ : مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا لَا يَزِيدُونَ فِيهَا وَلَا يُنْقِصُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَكْتُمُونَهَا ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[البقرة : ٢٨٣]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا

---

(١) الآية (١٩) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح : وقد تقدم

وَمُسْتَحَبَّاتِهَا ، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ وَاخْتَتَمَهُ بِذِكْرِهَا ، فَدَلَّ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِهَا وَالتَّنْوِيهِ بِشَرَفِهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سَوَاء . وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠-١١]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ : مُكْرَمُونَ بِأَنْوَاعِ الْمَلَاذِّ وَالْمَسَارِّ .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُشَاهِدُونَ لَهُ ، وَلِمَا أَرْسَلَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا أَيَّدَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَارُّونَ مِنْهُ ، مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، شَارِدُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فِرَقًا فِرَقًا ، وَشِيَعًا شِيَعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : ٤٩-٥١] الْآيَة ، وَهَذِهِ مِثْلُهَا ، **فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ نَافِرِينَ مِنْكَ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ وَاحِدُهَا عِزَةٌ ، أَيْ : مُتَفَرِّقِينَ ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ مُهْطِعِينَ ، أَيْ : فِي حَالِ تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ، **كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ** : فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ ، مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ ، مُتَّفِقُونَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْكِتَابِ ، **عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أَيْ : مُتَفَرِّقِينَ يَأْخُذُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا يَقُولُونَ : مَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ ؟ **وَقَالَ قَتَادَةُ** :

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ عَامِدِينَ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أَيْ : فِرَقًا حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَرْغَبُونَ فِي كِتَابِ الله ، وَلَا فِي نَبِيِّهِ ﷺ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ حِلَقٌ ، فَقَالَ : « **مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ** »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ﴾ أَيْ : أَيَطْمَعُ هَؤُلَاءِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ مِنْ فِرَارِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَنِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ . لَا بَلْ مَأْوَاهُم الجَحِيم ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِوُقُوعِ المَعَادِ وَالْعَذَابِ بِهِمُ الَّذِي أَنْكَرُوا كَوْنَهُ ، وَاسْتَبْعَدُوا وُجُودَهُ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِالْبُدَاءَةِ الَّتِي الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنْهَا ، وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهَا ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَنِيِّ الضَّعِيفِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠] ، وَقَالَ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ٥-١٠]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا ، وَسَخَّرَ الْكَوَاكِبَ تَبْدُو مِنْ مَشَارِقِهَا وَتَغِيبُ فِي مَغَارِبِهَا ، **وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ** : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنْ لَا مَعَادَ وَلَا حِسَابَ وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَاقِعٌ وَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا أَتَى بِـ « لَا » فِي ابْتِدَاءِ الْقَسَمِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ نَفْي وَهُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ فِي نَفْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ الله تَعَالَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣]، وَقَالَ

(١) مسلم (حديث ٤٣٠).

تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨١-٨٢] ، **وَقَالَ هَاهُنَا :** ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُعِيدُهُمْ بِأَبْدَانٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ ، فَإِنَّ قُدْرَتَهُ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَيْ : بِعَاجِزِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ٣-٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٠ - ٦١] ، **وَاخْتَارَ ابْنِ جَرِيرٍ** ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : أُمَّةً تُطِيعُنَا ، وَلَا تَعْصِينَا ، وَجَعَلَهَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ الْأُخَرِ عَلَيْهِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : فَسَيَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ وَيَذُوقُونَ وَبَالَهُ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أَيْ : يَقُومُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ ، يَنْهَضُونَ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ، **قِيلَ مَعْنَاهَا :** إِلَى عِلْمٍ يَسْعَوْنَ ، **وَقِيلَ :** إِلَى غَايَةٍ يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ « **نَصْب** » بِفَتْحِ النُّونِ وَإِسْكَانِ الصَّادِ ، وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَنْصُوبِ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ « **نُصُب** » بِضَمِّ النُّونِ وَالصَّادِ ، هُوَ الصَّنَمُ ، أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْقِفِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُهَرْوِلُونَ إِلَى النُّصُبِ إِذَا عَايَنُوهُ يُوفِضُونَ ، يَبْتَدِرُونَ أَيُّهُمْ يَسْتَلِمُهُ أَوَّلُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أَيْ : خَاضِعَةً ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « سَأَلَ سَائِلٌ » وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة نوح
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ آمِرًا لَهُ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بَأْسَ اللهِ قَبْلَ حُلُولِهِ بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا رُفِعَ عَنْهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ : بَيِّنُ النِّذَارَةِ ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَاضِحُهُ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أَيْ : اُتْرُكُوا مَحَارِمَهُ وَاجْتَنِبُوا مَآثِمَهُ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا آمُرُكُمْ بِهِ وَصَدَّقْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، « وَمِنْ » هَهُنَا قِيلَ : إِنَّهَا زَائِدَةٌ ، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ بِزِيَادَتِهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِ الْعَرَبِ : قَدْ كَانَ مِنْ مَطَرٍ ، **وَقِيلَ** : إِنَّهَا بِمَعْنَى « عَنْ » تَقْدِيرُهُ : يَصْفَحُ لَكُمْ عَنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقِيلَ** : إِنَّهَا لِلتَّبْعِيضِ ، أَيْ : يَغْفِرُ لَكُمُ الذُّنُوبَ الْعِظَامَ الَّتِي وَعَدَكُمْ عَلَى ارْتِكَابِكُمْ إِيَّاهَا الِانْتِقَامَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ : يَمُدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ وَيَدْرَأُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي إِنْ لَمْ تَنْزَجِرُوا عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ : أَوْقَعَهُ بِكُمْ ، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الطَّاعَةَ وَالْبِرَّ وَصِلَةَ الرَّحِمِ ، يُزَادُ بِهَا فِي الْعُمُرِ حَقِيقَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ : بَادِرُوا بِالطَّاعَةِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ تَعَالَى بِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يُرَدُّ وَلَا يُمَانَعُ ، فَإِنَّهُ

الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، الْعَزِيزُ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ اشْتَكَى إِلَى رَبِّهِ عز وجل مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، وَمَا بَيَّنَ لِقَوْمِهِ وَوَضَّحَ لَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى الرُّشْدِ وَالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أَيْ : لَمْ أَتْرُكْ دُعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، امْتِثَالًا لِأَمْرِكَ وَابْتِغَاءَ لِطَاعَتِكَ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَيْ : كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْتَرِبُوا مِنَ الْحَقِّ فَرُّوا مِنْهُ وَحَادُوا عَنْهُ ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أَيْ : سَدُّوا آذَانَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا مَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت : ٢٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قِيلَ : تَنَكَّرُوا لَهُ لِئَلَّا يَعْرِفَهُمْ . وَقِيلَ : غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا مَا يَقُولُ : ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أَيْ : اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ الْعَظِيمِ الْفَظِيعِ ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أَيْ : وَاسْتَنْكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ

الْحَقِّ وَالِانْقِيَادِ لَهُ .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أَيْ : جَهْرَةً بَيْنَ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أَيْ : كَلَامًا ظَاهِرًا بِصَوْتٍ عَالٍ ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أَيْ : فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، فَنَوَّعَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ ؛ لِتَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِمْ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أَيْ : ارْجِعُوا إِلَيْهِ ، وَارْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مَهْمَا كَانَتْ فِي الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أَيْ : مُتَوَاصِلَةُ الْأَمْطَارِ ، وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ لِأَجْلِ هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ أَيْ : إِذَا تُبْتُمْ إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ ، كَثُرَ الرِّزْقُ عَلَيْكُمْ ، وَأَسْقَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، وَأَنْبَتَ لَكُمُ الزَّرْعَ ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرْعَ ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، أَيْ : أَعْطَاكُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الثِّمَارِ ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا . هَذَا مَقَامُ الدَّعْوَةِ بِالتَّرْغِيبِ ، ثُمَّ عَدَلَ بِهِمْ إِلَى دَعْوَتِهِمْ بِالتَّرْهِيبِ ، فَقَالَ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أَيْ : عَظَمَةً . أَيْ : لَا تُعَظِّمُونَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ ، أَيْ : لَا تَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أَيْ : وَاحِدَةً فَوْقَ وَاحِدَةٍ ، وَهَلْ هَذَا يُتَلَقَّى مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَقَطْ ؟ أَوْ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ ؟ مِمَّا عُلِمَ مِنَ التَّسْيِيرِ وَالْكُسُوفَاتِ ، فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ السَّيَّارَةَ يَكْسِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَأَدْنَاهَا الْقَمَرُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَهُوَ يَكْسِفُ مَا فَوْقَهُ ، وَعُطَارِدُ فِي الثَّانِيَةِ وَالزُّهَرَةُ فِي الثَّالِثَةِ ، وَالشَّمْسُ فِي الرَّابِعَةِ ، وَالْمِرِّيخُ فِي الْخَامِسَةِ ، وَالْمُشْتَرَى فِي السَّادِسَةِ ، وَزُحَلُ فِي السَّابِعَةِ ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْكَوَاكِبِ - وَهِيَ الثَّوَابِتُ - فَفِي فَلَكٍ ثَامِنٍ يُسَمُّونَهُ فَلَكَ الثَّوَابِتِ . وَالْمُتَشَرِّعُون مِنْهُمْ يَقُولُونَ : هُوَ الْكُرْسِيُّ ، وَالْفَلَكُ

التَّاسِعُ ، وَهُوَ الْأَطْلَسُ ، وَالْأَثِيرُ عِنْدَهُمُ الَّذِي حَرَكَتُهُ عَلَى خِلَافِ حَرَكَةِ سَائِرِ الْأَفْلَاكِ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَرَكَتَهُ مَبْدَأُ الْحَرَكَاتِ ، وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَسَائِرُ الْأَفْلَاكِ عَكْسُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَمَعَهَا يَدُورُ سَائِرُ الْكَوَاكِبِ تَبَعًا ، وَلَكِنْ لِلسَّيَّارَةِ حَرَكَةٌ مُعَاكِسَةٌ لِحَرَكَةِ أَفْلَاكِهَا ، فَإِنَّهَا تَسِيرُ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَكُلٌّ يَقْطَعُ فُلْكَهُ بِحَسَبِهِ ، فَالْقَمَرُ يَقْطَعُ فُلْكَهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ، وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَزُحَلُ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَرَّةً ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ أَفْلَاكِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرَكَةُ الْجَمِيعِ فِي السُّرْعَةِ مُتَنَاسِبَةٌ .

هَذَا مُلَخَّصُ مَا يَقُولُونَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، عَلَى اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ، لَسْنَا بِصَدَدِ بَيَانِهَا ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ أَيْ : فَاوَتَ بَيْنَهُمَا فِي الِاسْتِنَارَةِ ، فَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا أُنْمُوذَجًا عَلَى حِدَةٍ ، لِيُعْرَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا ، وَقَدَّرَ لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا ، وَفَاوَتَ نُورَهُ ، فَتَارَةً يَزْدَادُ حَتَّى يَتَنَاهَى ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَسْتَتِرَ لِيَدُلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[يونس : ٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ هَذَا اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَالْإِتْيَانُ بِهِ هَهُنَا أَحْسَنُ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : إِذَا مُتُّمْ ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ ، كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أَيْ : بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشُّمِّ الشَّامِخَاتِ ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أَيْ : خَلَقَهَا لَكُمْ لِتَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَتَسْلُكُوا فِيهَا أَيْنَ شِئْتُمْ مِنْ نَوَاحِيهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يُنَبِّهُهُمْ بِهِ نُوحٌ ﷺ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَنِعَمَهُ عَلَيْهِمْ ، فِيمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ ، جَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَالْأَرْضَ مِهَادًا ، وَأَوْسَعَ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ رِزْقِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ وَلَا يُشْرِكَ بِهِ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ

لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ وَلَا كُفْءَ وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ ، بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام إِنَّهُ أَنْهَى إِلَيْهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ أَنَّهُ مَعَ الْبَيَانِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ وَالدَّعْوَةُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى التَّرْغِيبِ تَارَةً وَالتَّرْهِيبِ أُخْرَى أَنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَاتَّبَعُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا مِمَّنْ غَفَلَ عَنْ أَمْرِ اللهِ وَمُتِّعَ بِمَالٍ وَأَوْلَادٍ ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ اسْتِدْرَاجٌ وَإِنْظَارٌ لَا إِكْرَامٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ قُرِئَ « وَوَلَدُهُ » بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ ، وَكِلَاهُمَا مُتَقَارِبٌ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ كُبَّارًا ﴾ أَيْ : عَظِيمًا ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ كُبَّارًا ﴾ أَيْ : كَبِيرًا ، **وَالْعَرَبُ تَقُولُ** : أَمْرٌ عَجِيبٌ وَعُجَابٌ وَعُجَّابٌ . وَرَجُلٌ حُسَانٌ وَحُسَّانٌ ، وَجُمَالٌ وَجُمَّالٌ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أَيْ : بِاتِّبَاعِهِمْ فِي تَسْوِيلِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى ، كَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [سبأ : ٣٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا**: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ، وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ . أَمَّا وَدٌّ : فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةَ الْجَنْدَلِ ، وَأَمَّا سُوَاعُ : فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ ، وَأَمَّا يَغُوثُ : فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَأ ، أَمَّا يَعُوقُ : فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ ، وَأَمَّا نَسْر : فَكَانَتْ

لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي كَلَاعٍ ، وَهِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : هَذِهِ أَصْنَامٌ كَانَتْ تُعْبَدُ فِي زَمَنِ نُوحٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ يَعْنِي : الْأَصْنَامُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا ، أَضَلُّوا بِهَا خَلْقًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهَا فِي الْقُرُونِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَسَائِرِ صُنُوفِ بَنِي آدَمَ ، وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ فِي دُعَائِهِ : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم : ٣٥- ٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ دُعَاءٌ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ لِتَمَرُّدِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، كَمَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ ، وَمَلَئِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لِكُلٍّ مِنَ النَّبِيِّينَ فِي قَوْمِهِ ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ .

مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ﴾ وَقُرِئَ ((خَطَايَاهُمْ)) ، ﴿ أُغْرِقُواْ ﴾ أَيْ : مِنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ أَيْ : نُقِلُوا مِنْ تَيَّارِ الْبِحَارِ إِلَى حَرَارَةِ النَّارِ ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعِينٌ وَلَا مُغِيثٌ وَلَا مُجِيرٌ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أَيْ : لَا تَتْرُكْ

عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا دَيَّارًا ، وَهَذِهِ مِنْ صِيَغِ تَأْكِيدِ النَّفْيِ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ دَيَّارًا ﴾ وَاحِدًا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الدَّيَّارُ الَّذِي يَسْكُنُ الدَّارَ . فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فَأَهْلَكَ جَمِيعَ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، حَتَّى وَلَدَ نُوحٍ لِصُلْبِهِ الَّذِي اعْتَزَلَ عَنْ أَبِيهِ ، و ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ أَيْ : إِنَّكَ إِنْ أَبْقَيْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا أَضَلُّوا عِبَادَكَ ، أَيْ : الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أَيْ : فَاجِرًا فِي الْأَعْمَالِ كَافِرَ الْقَلْبِ ، وَذَلِكَ لِخِبْرَتِهِ بِهِمْ ، وَمُكْثِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ **قَالَ الضَّحَّاكُ** : يَعْنِي مَسْجِدِي ، وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ دَعَا لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ مَنْزِلَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دُعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَلِكَ يَعُمُّ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ ؛ وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ اقْتِدَاءً بِنُوحٍ عليه السلام وَبِمَا جَاءَ فِي الْآثَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ **قِيلَ** : إِلَّا هَلَاكًا ، **وَقِيلَ** : إِلَّا خَسَارًا ، أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ نُوحٍ عليه السلام ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسيرُ سُورَةِ الجنِّ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اِسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَانْقَادُوا لَهُ ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أَيْ : إِلَى السَّدَادِ وَالنَّجَاحِ ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ، وَهَذَا المَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩]، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ ، **عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ** : جَدُّ الله : آلَاؤُهُ وَقُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ عَلَى خَلْقِهِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : تَعَالَى جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ وَأَمْرُهُ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أَيْ : تَعَالَى رَبُّنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أَيْ : تَعَالَى عَنِ اِتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ ، أَيْ : قَالَتِ الْجِنُّ : تَنَزَّهَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ – حِينَ أَسْلَمُوا وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ – عَنِ اِتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ .

ثُمَّ قَالُوا : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ سَفِيهُنَا : يَعْنُونَ إِبْلِيسَ ﴿ شَطَطًا ﴾ أَيْ : جَوْرًا . **وَقِيلَ** : ظُلْمًا كَبِيرًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ اِسْمُ جِنْسٍ لِكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ للهِ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ إِسْلَامِهِ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ أَيْ : بَاطِلًا وَزُورًا ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتَمَالَئُونَ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَآمَنَّا بِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا ، أَيْ : إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُوحِشًا مِنَ الْبَرَارِي وَغَيْرِهَا ، كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِشَيْءٍ يَسُوؤُهُمْ ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جِوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخِفَارَتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : خَوْفًا وَإِرْهَابًا وَذُعْرًا حَتَّى بَقُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّذًا بِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أَيْ : إِثْمًا ، وَازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً .

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : كَانَ الْجِنُّ يَفْرَقُونَ مِنَ الْإِنْسِ كَمَا يَفْرَقُ الْإِنْسُ مِنْهُمْ أَوْ أَشَدُّ ، فَكَانَ الْإِنْسُ إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا هَرَبَ الْجِنُّ ، فَيَقُولُ سَيِّدُ الْقَوْمِ : نَعُوذُ بِسَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي ، فَقَالَ الْجِنُّ : نَرَاهُمْ يَفْرَقُونَ مِنَّا كَمَا نَفْرَقُ مِنْهُمْ ، فَدَنَوْا مِنَ الْإِنْسِ فَأَصَابُوهُمْ بِالْخَبَلِ وَالْجُنُونِ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﷻ ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ **قِيلَ** : ﴿ رَهَقًا ﴾ أَيْ : خَوْفًا .

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ أَيْ : لَنْ يَبْعَثَ اللهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ رَسُولًا . قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ .

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا

لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ حِينَ بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ أَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَحُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا ، وَطُرِدَتِ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يَسْتَرِقُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ فَيُلْقُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَهَنَةِ فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ وَيَخْتَلِطُ وَلَا يُدْرَى مَنِ الصَّادِقُ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ الْعَزِيزِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أَيْ : مَنْ يَرُومُ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ الْيَوْمَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا مُرْصَدًا لَهُ ، لَا يَتَخَطَّاهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ ، بَلْ يَمْحَقُهُ وَيُهْلِكُهُ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أَيْ : مَا نَدْرِي هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ ، لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ وَهَذَا مِنْ أَدَبِهِمْ فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ أَسْنَدُوا الشَّرَّ إِلَى غَيْرِ فَاعِلٍ ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ : ((**الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**))[1] ، وَقَدْ كَانَتِ الْكَوَاكِبُ يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِكَثِيرٍ بَلْ فِي الْأَحْيَانِ بَعْدَ الْأَحْيَانِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ ، فَقَالَ : ((**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟**)) ، فَقُلْنَا : كُنَّا نَقُولُ : يُولَدُ عَظِيمٌ ، يَمُوتُ عَظِيمٌ ، فَقَالَ : ((**لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ**))[2] ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

وَقَدْ أَوْرَدْنَاهُ فِي ((سُورَةِ سَبَأ))[3] بِتَمَامِهِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى تَطَلُّبِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ ، فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ ، فَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي حُفِظَتْ مِنْ

---

(١) مسلم (٧٧١) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) الآية (٢٣) .

أَجْلِهِ السَّمَاءُ فَآمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَمَرَّدَ فِي طُغْيَانِهِ مَنْ بَقِيَ ، كَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ فِي « سُورَةِ الْأَحْقَافِ » : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[الأحقاف : ٢٩] الْآيَة .

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْي بِهَا ، هَالَ ذَلِكَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَانْزَعَجُوا لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِخَرَابِ الْعَالَمِ .

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ ذَلِكَ ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أَيْ : طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً وَآرَاءَ مُتَفَرِّقَةً . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أَيْ : مِنَّا الْمُؤْمِنُ وَمِنَّا الْكَافِرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ أَيْ : نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ حَاكِمَةٌ عَلَيْنَا ، وَأَنَّا لَا نُعْجِزُهُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ أَمْعَنَّا فِي الْهَرَبِ ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ ، لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ يَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ .

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ فَلَا يَخَافُ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، أَوْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ ، **كَمَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[طه : ١١٢]

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ أَيْ : مِنَّا الْمُسْلِمُ وَمِنَّا الْقَاسِطُ ، وَهُوَ :

الجَائِرُ عَنِ الحَقِّ النَّاكِبُ عَنْهُ ، بِخِلَافِ المُقْسِطِ فَإِنَّهُ العَادِلُ ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أَيْ : طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أَيْ : وَقُودٌ تُسَعَّرُ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ :

أَحَدِهِمَا : وَأَنْ لَوِ اِسْتَقَامَ القَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الإِسْلَامِ وَعَدَلُوا إِلَيْهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أَيْ : كَثِيرًا ، وَالمُرَادُ بِذَلِكَ سَعَةُ الرِّزْقِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : لِنَخْتَبِرَهُمْ ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ ، مَنْ يَسْتَمِرُّ عَلَى الهِدَايَةِ مِمَّنْ يَرْتَدُّ إِلَى الغِوَايَةِ .

وَالقَوْلُ الثَّانِي : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ الضَّلَالَةِ ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أَيْ : لَأَوْسَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ اِسْتِدْرَاجًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مِجْلَزٍ لَاحِقِ بْنِ حُمَيْدٍ ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ أَيْ : طَرِيقَةِ الضَّلَالَةِ ، وَلَهُ اِتِّجَاهٌ ، وَيَتَأَيَّدُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أَيْ : عَذَابًا مُشِقًّا شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا ، وَقِيلَ : جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ ، وَقِيلَ : بِئْرٌ فِيهَا .

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ

ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ أَنْ يُوَحِّدُوهُ فِي مَحَالِّ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ قَالَ : كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِالله ، فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَحْدَهُ .

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : نَزَلَتْ فِي أَعْضَاءِ السُّجُودِ ، أَيْ : هِيَ لله فَلَا تَسْجُدُوا بِهَا لِغَيْرِهِ . وَذَكَرُوا عِنْدَ هَذَا الْقَوْلِ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : « **أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ ، عَلَى الْجَبْهَةِ** - « أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى أَنْفِهِ »[2] - **وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ **قِيلَ** : لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَرْكَبُونَهُ مِنَ الْحِرْصِ لَمَّا سَمِعُوهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ ، وَدَنَوْا مِنْهُ فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّى أَتَاهُ الرَّسُولُ فَجَعَلَ يُقْرِئُهُ ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن : ١] يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قَالَ : لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي وَأَصْحَابُهُ يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ ، قَالَ : عَجِبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ ، قَالَ : فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، وَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ ، **وَقَالَ الحَسَنُ**[3]: لَمَّا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ : « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** »

(١) البخاري (حديث ٨١٢) ، ومسلم (حديث ٤٩٠) .

(٢) هذه اللفظة مدرجة ليست من قول ابن عباس - رضي الله عنهما - ولكنه من قول من دونه إما طاوس أو عبد الله بن طاوس وعليه فهذه اللفظة - لكونها تفسيرية- لا تقوي على الإلزام بالسجود على الأنف ، والله تعالى أعلم .

(٣) هذا مرسل ، ولكن لعله تفسير من الحسن للآية لا يقصد به أن يكون مسنداً مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ ، كَادَتِ الْعَرَبُ تَلَبَّدُ عَلَيْهِ جَمِيعًا .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قَالَ : تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُمْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ . هَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ : قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آذَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ ، لِيُبْطِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى عَدَاوَتِهِ : ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ، وَعَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غِوَايَتِكُمْ ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللهِ ﷻ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، أَيْ : لَوْ عَصَيْتُهُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَاذِي مِنْ عَذَابِهِ ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ ، **قَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ أَيْ : لَا نَصِيرَ وَلَا مَلْجَأَ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَا وَلِيَّ وَلَا مَوْئِلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : هُوَ مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ...... إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرُنِي مِنْهُ وَيُخَلِّصُنِي إِلَّا إِبْلَاغِي الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللهِ فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾

أَيْ : حَتَّى إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَسَيَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ، هُمْ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوَحِّدُونَ لله تَعَالَى ؟ أَيْ : بَلِ الْمُشْرِكُونَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ الله ﷻ .

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ ، وَلَا يَدْرِي أَقَرِيبٌ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدٌ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ أَيْ : مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا ، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ ، كَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : ((**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ؟**))[1].

وَلَمَّا نَادَاهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ بِصَوْتٍ جَهُورِيٍّ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال : ((**وَيْحَكَ ، إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟**)) قَالَ : أَمَا إِنِّي لَمْ أُعِدَّ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ : ((**فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)) قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[البقرة : ٢٥٥] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا** : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ ، وَإِنَّهُ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا مِمَّا أَطْلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ، وَهَذَا يَعُمُّ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ وَالْبَشَرِيَّ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم مرارًا .

(٢) البخاري (٦١٧١) ، ومسلم (٢٦٣٩) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ أَيْ : يَخْتَصُّهُ بِمَزِيدِ مُعَقِّبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ، وَيُسَاوِقُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ وَحْيِ الله ؛ وَلِهَذا قَالَ : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِّيَعْلَمَ ﴾ إِلَى مَنْ يَعُودُ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهُ عَائِدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، أَيْ : لِيَعْلَمَ بِي اللهُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ عَنِ الله ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ قِيلَ : هِيَ مُعَقِّبَاتٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الشِّرْكِ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى الله ﷻ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَيَحْفَظُ مَا يُبَيِّنُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾[البقرة : ١٤٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾[العنكبوت : ١١] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ ، مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجِنِّ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ التَّزَمُّلَ ، وَهُوَ : التَّغَطِّي فِي اللَّيْلِ ، يَنْهَضُ إِلَى الْقِيَامِ لِرَبِّهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وَكَذَلِكَ كَانَ ﷺ مُمْتَثِلًا مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، وَهَهُنَا بَيَّنَ لَهُ مِقْدَارَ مَا يَقُومُ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ يعني : يَا أَيُّهَا النَّائِمُ . **قَالَ قَتَادَةُ** : الْمُزَّمِّلُ فِي ثِيَابِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاكَ أَنْ تَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ بِزِيَادَةٍ قَلِيلَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ قَلِيلٍ ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أَيْ : اِقْرَأْهُ عَلَى تَمَهُّلٍ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَأُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – : كَانَ يَقْرَأُ السُّورَةَ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ

أَطْوَلِ مِنْهَا .

وَعَنْ أَنَسٍ(١) : أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ : كَانَتْ مَدًّا ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يَمُدُّ بِسْمِ الله ، وَيَمُدُّ الرَّحْمَنَ ، وَيَمُدُّ الرَّحِيمَ .

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**))(٢).

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّرْتِيلِ وَتَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ((**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**))(٣).

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ . فَقَالَ : هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرِنُ بَيْنَهُنَّ ، فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ سُورَتَيْنِ مِنْ آلِ (حم) فِي رَكْعَةٍ(٤).

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ** : أَيْ : الْعَمَلُ بِهِ ، **وَقِيلَ** : ثَقِيلٌ وَقْتِ نُزُولِهِ مِنْ عَظَمَتِهِ ، **كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ** ﷺ : أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي ، فَكَادَتْ تُرَضُّ فَخِذِي .

وَفِي أَوَّلِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ(٥) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : ((**أَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**)) قَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ ، وَجَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ ثَقِيلٌ مِنَ الْوَجْهَيْنِ مَعًا ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوَازِينِ .

---

(١) البخاري (٥٠٤٦) .

(٢) سنده حسن : أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٩٢) ، وأبو داود (٢/ ١٥٣) .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣) ، وأبو داود (٥/ ٣٥٦) ، وغيرهما وله طرق أخر .

(٤) البخاري (حديث ٧٧٥) .

(٥) البخاري (حديث ٢) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : اللَّيْلُ كُلُّهُ نَاشِئَةٌ ، يُقَالُ : نَشَأَ : إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَالْغَرَضُ أَنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ : سَاعَاتُهُ وَأَوْقَاتُهُ ، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ تُسَمَّى نَاشِئَةٌ ، وَهِيَ الآنَاتُ .

وَالمَقْصُودُ : أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ هُوَ أَشَدُّ مُوَاطَأَةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، وَأَجْمَعُ عَلَى التِّلَاوَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أَيْ : أَجْمَعُ لِلْخَاطِرِ فِي أَدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَفَهُّمِهَا مِنْ قِيَامِ النَّهَارِ ؛ لأَنَّهُ وَقْتُ اِنْتِشَارِ النَّاسِ ، وَلَغَطِ الْأَصْوَاتِ ، وَأَوْقَاتِ المَعَاشِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ **قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ** : الْفَرَاغُ وَالنَّوْمُ ، **وَقَالَ آخَرٌ** : فَرَاغًا طَوِيلًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : فَرَاغًا وَبُغْيَةً وَمُنْقَلَبًا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ تَطَوُّعًا كَثِيرًا ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ قَالَ : لِحَوَائِجِكَ ، فَأَفْرِغْ لِدِينِكَ اللَّيْلَ . قَالَ : وَهَذَا حِينَ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنَّ عَلَى عِبَادِهِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا ، وَقَرَأَ ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ اللَّيْلُ نِصْفَهُ أَو ثُلُثَهُ ، ثُمَّ جَاءَ أَمْرٌ أَوْسَعُ وَأَفْسَحُ ، وَضَعَ الفَرِيضَةَ عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ كَمَا قَالَهُ .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ[1] أَنَّهُ طَلَّقَ اِمْرَأَتَهُ ثُمَّ اِرْتَحَلَ إِلَى المَدِينَةِ لِيَبِيعَ عَقَارًا لَهُ بِهَا وَيَجْعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ ، ثُمَّ يُجَاهِدُ الرُّومَ حَتَّى يَمُوتَ فَلَقِيَ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ سِتَّةً أَرَادُوا ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **أَلَيْسَ لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ** ؟ » فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى رَجْعَتِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَتَى اِبْنَ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ عَنِ الوِتْرِ ، فَقَالَ : أَلَا أُنَبِّئُكَ بِأَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِوِتْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : اِئْتِ عَائِشَةَ فَسَلْهَا ثُمَّ اِرْجِعْ إِلَيَّ فَأَخْبِرْنِي

---

(١) مسلم (حديث ٧٤٦) .

بِرَدِّهَا عَلَيْكَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ عَلَى حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحَ فَاسْتَلْحَقْتُهُ إِلَيْهَا ، فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِبِهَا ، إِنِّي نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشِّيعَتَيْنِ شَيْئًا ، فَأَبَتْ فِيهِمَا إِلَّا مُضِيًّا . فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ ، فَجَاءَ مَعِي فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ : حَكِيمٌ ؟ - وَعَرَفَتْهُ - قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ قَالَ : سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ ، قَالَتْ : مَنْ هِشَامٌ ؟ قَالَ : ابْنُ عَامِرٍ ، قَالَ : فَتَرَحَّمَتْ عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ : نِعْمَ الْمَرْءُ كَانَ عَامِرٌ ، قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ ﷺ ؟ قَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ ، قُلْتُ : بَلَى ، قَالَتْ : فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ، ثُمَّ بَدَا لِي قِيَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَتْ : فَإِنَّ اللهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ، ثُمَّ بَدَا لِي وِتْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ فَيَبْعَثُهُ اللهُ لِمَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ ، فَيَتَسَوَّكُ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَاتٍ ، لَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ وَيَدْعُو وَيَسْتَغْفِرُ ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ ، ثُمَّ يُصَلِّي التَّاسِعَةَ فَيَقْعُدُ فَيَحْمَدُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُهُ وَيَدْعُو ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ ، فَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ ، فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ ، فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا ، وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ وَلَا قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ ، فَأَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِهَا ، فَقَالَ : صَدَقَتْ ، أَمَا لَوْ كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهَا لَأَتَيْتُهَا حَتَّى تُشَافِهَنِي مُشَافَهَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أَيْ : أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِهِ وَانْقَطِعْ إِلَيْهِ وَتَفَرَّغْ لِعِبَادَتِهِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾[الشرح : ٧] أَيْ : إِذَا فَرَغْتَ مِنْ مَهَامِّكَ فَانْصَبْ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لِتَكُونَ فَارِغَ الْبَالِ ، قَالَهُ اِبْنُ زَيْدٍ بِمَعْنَاهُ أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أَيْ : أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ . **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : يُقَالُ لِلْعَابِدِ : مُتَبَتِّلٌ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ(١) ، يَعْنِي : الاِنْقِطَاعَ إِلَى الْعِبَادَةِ ، وَتَرْكَ التَّزَوُّجِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَكَمَا أَفْرَدْتَهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرِدْهُ بِالتَّوَكُّلِ ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود : ١٢٣] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة : ٥] وَآيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، فِيهَا الْأَمْرُ بِإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ لله ، وَتَخْصِيصُهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ، وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ وَمُتَوَعِّدًا وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾

---

(١) أحمد في المسند (٣/ ١٥٨) .

أَيْ : دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ الْمُتْرَفِينَ أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ فَإِنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ يُطَالِبُونَ مِنَ الْحُقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أَيْ : رُوَيْدًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً ﴾ ، وَهِيَ الْقُيُودُ ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ ، وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرِمَةُ ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَنْشَبُ فِي الْحَلْقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ أَيْ : تَزَلْزَلُ ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ أَيْ : تَصِيرُ كَكُثْبَانِ الرَّمَلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ حِجَارَةً صَمَّاءَ ، ثُمَّ إِنَّهَا تُنْسَفُ نَسْفًا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبَ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ، أَيْ : وَادِيًا ، وَلَا أَمْتًا . أَيْ : رَابِيَةً ، وَمَعْنَاهُ : لَا شَيْءَ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءَ يَرْتَفِعُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَالْمُرَادُ سَائِرُ النَّاسِ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِكُمْ ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ . ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ أَيْ : شَدِيدًا . أَيْ : فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ فِرْعَوْنَ حَيْثُ أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٥] ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَكُمْ ؛ لِأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ مَعْمُولاً « لِتَتَّقُونَ » ، كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ « فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ؟ » وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولاً « لِكَفَرْتُمْ » فَعَلَى الْأَوَّلِ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمِ هَذَا الْفَزَعِ الْعَظِيمِ إِنْ كَفَرْتُمْ ؟ وَعَلَى الثَّانِي : كَيْفَ يَحْصُلُ لَكُمْ تَقْوَى إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَحَدْتُمُوهُ ؟ وَكِلَاهُمَا مَعْنًى حَسَنٌ ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلَازِلِهِ وَبَلَابِلِهِ وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِآدَمَ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ، فَيَقُولُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ

كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : أَيْ : بِسَبَبِهِ ، مِنْ شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ ، ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴾ أَيْ : كَانَ وَعْدُ هَذَا الْيَوْمِ مَفْعُولًا ، أَيْ : وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ وَكَائِنًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : السُّورَةَ ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : يَتَذَكَّرُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ أَيْ : مِمَّنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى هِدَايَتَهُ ، كَمَا قَيَّدَهُ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أَيْ : تَارَةً هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْمُوَاظَبَةِ عَلَى مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، لِأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : تَارَةً يَعْتَدِلَانِ ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ، أَوْ هَذَا مِنْ هَذَا ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أَيْ : الْفَرْضُ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ بِوَقْتٍ ، أَيْ : وَلَكِنْ

قُومُوا مِنَ اللَّيْلِ مَا تَيَسَّرَ ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أَيْ : بِقِرَاءَتِكَ ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : ١١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذَوُو أَعْذَارٍ فِي تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ ، مِنْ مَرْضَى لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ، وَمُسَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَتَاجِرِ وَآخَرِينَ مَشْغُولِينَ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ بَلِ السُّورَةُ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْقِتَالُ شُرِعَ بَعْدُ ، فَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ بِالْمُغَيَّبَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أَيْ : قُومُوا بِمَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ .

عَنْ أَبِي رَجَاء مُحَمَّدٍ قَالَ : قُلْتُ لِلْحَسَنِ : يَا أَبَا سَعِيدٍ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ قَدِ اسْتَظْهَرَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ ، وَلَا يَقُومُ بِهِ إِنَّمَا يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ ؟ قَالَ : يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ ، لَعَنَ اللهُ ذَاكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ [يوسف : ٦٨] ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩١] قُلْتُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ قَالَ : نَعَمْ وَلَوْ خَمْسُ آيَاتٍ .

وَهَذَا ظَاهِرٌ مِنْ مَذْهَبِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَرَى حَقًّا وَاجِبًا عَلَى حَمَلَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَقُومُوا وَلَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ فِي اللَّيْلِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ نَامَ حَتَّى أَصْبَحَ فَقَالَ : « **ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ** »[1] ، **فَقِيلَ** : مَعْنَاهُ : نَامَ عَنِ الْمَكْتُوبَةِ ، **وَقِيلَ** : عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : أَقِيمُوا صَلَاتَكُمُ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَهَذَا يَدُلُّ لِمَنْ قَالَ : إِنَّ فَرْضَ الزَّكَاةِ نَزَلَ بِمَكَّةَ ، لَكِنَّ مَقَادِيرَ النُّصُبِ وَالْمَخْرَجَ لَمْ تُبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

---

(١) البخاري (٣٢٧٠) ، ومسلم (٧٧٤) .

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتِ الَّذِي كَانَ اللهُ قَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوَّلًا مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا عَلَى أَقْوَالٍ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ : « **خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ** » قَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : « **لَا ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّ اللهَ يُجَازِي عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَرَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُ مَا تُقَدِّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ ، وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَبْقَيْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ ؟** » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ ، قَالَ : « **اِعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** » قَالُوا : مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « **إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ** »[2].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ أَيْ : أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (حديث ٤٦) ، مسلم (حديث ١١) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٦٤٤٢) .

تفسير سورة المدثر
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾

ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ . وَخَالَفَهُ الْجُمْهُورُ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْقُرْآنِ نُزُولًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] ، كَمَا سَيَأْتِي ذَلِكَ هُنَالِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ[1] : سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ قُلْتُ : يَقُولُونَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ عَنْ ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتَ لِي ، فَقَالَ جَابِرٌ : لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا**)) قَالَ : ((**فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا**)) قَالَ : فَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ : ((**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ**

---

(١) البخاري (حديث ٤٩٢٢) ، ومسلم (١٦١) .
(٢) مسلم في طرق (حديث ١٦١) .

السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثَثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَرَبْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُونِي ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إِلَى : ﴿ فَٱهْجُرْ ﴾ - قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَالرُّجْزَ : الْأَوْثَانَ - ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ » هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ[1]، وَهَذَا السِّيَاقُ هُوَ الْمَحْفُوظُ ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ الْوَحْيُ قَبْلَ هَذَا لِقَوْلِهِ : « فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ بِحِرَاءَ » ، وَهُوَ جِبْرِيلُ حِينَ أَتَاهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] ثُمَّ إِنَّهُ حَصَلَ بَعْدَ هَذَا فَتْرَةٌ ، ثُمَّ نَزَلَ الْمَلَكُ بَعْدَ هَذَا .

وَوَجْهُ الْجَمْعِ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ هَذِهِ السُّورَةُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثَثْتُ مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُونِي ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ ، ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ »[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أَيْ : شَمِّرْ عَنْ سَاقِ الْعَزْمِ ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبِهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ ، كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النُّبُوَّةُ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أَيْ : عَظِّمْ .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قَالَ : لَا تَلْبَسْهَا عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَا عَلَى غَدْرَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ :

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قَالَ : فِي كَلَامِ الْعَرَبِ نَقِيُّ الثِّيَابِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَطَهِّرْ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ : عَمَلَكَ

(١) البخاري (حديث ٤) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٥) ، والبخاري (٤٩٢٦) .

فَأَصْلِحْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ : طَهِّرْهَا مِنَ المَعَاصِي ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي الرَّجُلَ إِذَا نَكَثَ وَلَمْ يَفِ بِعَهْدِ الله إِنَّهُ لَمُدَنَّسُ الثِّيَابِ ، وَإِذَا وَفَى وَأَصْلَحَ إِنَّهُ لَمُطَهَّرُ الثِّيَابِ ، وَقِيلَ : لَا تَلْبَسْهَا عَلَى مَعْصِيَةٍ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيه جَمِيلُ

وَقِيلَ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يَعْنِي : لَا تَكُنْ ثِيَابُكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ غَيْرِ طَائِبٍ ، وَقِيلَ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ : اغْسِلْهَا بِالمَاءِ ، وَقَدْ تَشْمَلُ الآيَةُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ طَهَارَةِ الْقَلْبِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُطْلِقُ الثِّيَابَ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ اِمْرُؤُ الْقِيسِ :

أَفَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْرِي فَأَجْمِلِي

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسَلِ

وَقِيلَ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ وَقَلْبَكَ وَنِيَّتَكَ فَطَهِّرْ ﴿ وَٱلرُّجْزَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الأَصْنَامُ ، وَقِيلَ : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أَيْ : اُتْرُكِ المَعْصِيَةَ . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَا يَلْزَمُ تَلَبُّسُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب : ١] ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ لَا تُعْطِ الْعَطِيَّةَ تَلْتَمِسُ أَكْثَرَ مِنْهَا ،

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِكَ عَلَى رَبِّكَ تَسْتَكْثِرُهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَا تَضْعُف أَنْ تَسْتَكْثِرِ مِنَ الخَيْرِ ، قَالَ : تَمْنُن فِي كَلَامِ العَرَبِ تَضْعُف ، وَقَالَ اِبْنُ زَيْدٍ : لَا تَمْنُنْ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى النَّاسِ تَسْتَكْثِرُهُمْ بِهَا تَأْخُذُ عَلَيْهِ عِوَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ ، وَالأَظْهَرُ الْقَوْلُ الأَوَّلُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ : اِجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى أَذَاهُمْ لِوَجْهِ رَبِّكَ ﷻ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : اِصْبِرْ عَلَى عَطِيَّتِكَ لله ﷻ

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ النَّاقُورِ : الصُّورُ . عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ : فَمَا تَأْمُرُنَا

يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : ((**قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدٌ ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ سَهْلٍ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٨] ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ ، أَنَّهُ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ شَهِقَ شَهْقَةً ، ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِهَذَا الْخَبِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَكَفَرَ بِأَنْعُمِ الله وَبَدَّلَهَا كُفْرًا وَقَابَلَهَا بِالْجُحُودِ بِآيَاتِ الله وَالافْتِرَاءِ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَهَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ وَقَدْ عَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ حَيْثُ **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أَيْ : خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَحْدَهُ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، ثُمَّ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى ﴿ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ أَيْ : وَاسِعًا كَثِيرًا ، **قِيلَ** : أَلْفُ دِينَارٍ ، **وَقِيلَ** : مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، **وَقِيلَ** : أَرْضًا يَسْتَغِلُّهَا ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ ذَلِكَ ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لَا يَغِيبُونَ . أَيْ : حُضُورًا عِنْدَهُ لَا يُسَافِرُونَ بِالتِّجَارَاتِ ، بَلْ مَوَالِيهِمْ وَأُجَرَاؤُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ أَبِيهِمْ يَتَمَتَّعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّى بِهِمْ ، وَكَانُوا فيها ذكر : ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** ، **وَمُجَاهِدٌ** : كَانُوا عَشَرَةً ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّعْمَةِ ، وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ

(١) حسن : وقد تقدم .

تَمْهِيدًا ﴾ أَيْ : مَكَّنْتُهُ مِنْ صُنُوفِ الْمَالِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أَيْ : مُعَانِدًا ، وَهُوَ الْكُفْرُ عَلَى نِعَمِهِ بَعْدَ الْعِلْمِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ . أَيْ : مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ ، **قِيلَ** : عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْهَقْنَاهُ صَعُودًا ، أَيْ : قَرَّبْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ لِبُعْدِهِ عَنِ الْإِيمَانِ : لِأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، أَيْ : تَرَوَّى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَفَكَّرَ مَاذَا يَخْتَلِقُ مِنَ الْمَقَالِ ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أَيْ : تَرَوَّى ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أَيْ : أَعَادَ النَّظَرَ وَالتَّرَوِّي ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أَيْ : قَبَضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَّبَ ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أَيْ : كَلَحَ وَكَرِهَ ، وَمِنْهُ قَوْلُ تَوْبَةَ بْنِ الْحُمَيْرِ الشَّاعِرِ :

وَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا صُدُودٌ رَأَيْتُهُ ... وَإِعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَبُسُورُهَا

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أَيْ : صُرِفَ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الِانْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أَيْ : هَذَا سِحْرٌ يَنْقُلُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ قَبْلَهُ وَيَحْكِيهِ عَنْهُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِكَلَامِ اللهِ . **قال اللهُ** ﷻ : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أَيْ : سَأَغْمُرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، **ثم قال** : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ ، وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهَا وَتَفْخِيمٌ ، **ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ** : ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ أَيْ : تَأْكُلُ لُحُومَهُمْ وَعُرُوقَهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَجُلُودَهُمْ ثُمَّ تُبَدَّلُ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ . قَالَهُ ابْنُ بُرَيْدَةَ وَأَبُو سِنَانٍ وَغَيْرُهُمَا .

وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أَيْ : حَرَّاقَةٌ لِلْجِلْدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أَيْ : مِنْ مُقَدَّمِي الزَّبَانِيَةِ عَظِيمٌ خَلْقُهُمْ غَلِيظٌ خُلُقُهُمْ .

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ : خُزَّانَهَا ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أَيْ : زَبَانِيَةً غِلَاظًا شِدَادًا ، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حِينَ ذَكَرُوا عَدَدَ الْخَزَنَةِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَتَغْلِبُونَهُمْ ؟ **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أَيْ شَدِيدِي الْخَلْقِ لَا يُقَاوَمُونَ وَلَا يُغَالَبُونَ . ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أَيْ : إِنَّمَا ذَكَرْنَا عِدَّتَهُمْ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ اخْتِبَارًا مِنَّا لِلنَّاسِ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيْ : يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ حَقٌّ ؛ فَإِنَّهُ نَطَقَ بِمُطَابَقَةِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أَيْ : إِلَى إِيمَانِهِمْ بِمَا يَشْهَدُونَ مِنْ صِدْقِ إِخْبَارِ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا هَهُنَا ؟ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ : مِنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ يَتَأَكَّدُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ أَقْوَامٍ ، وَيَتَزَلْزَلُ عِنْدَ آخَرِينَ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ : مَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ ، كَمَا قَدْ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ وَمِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِيِّينَ ، وَمَنْ شَايَعَهُمْ مِنَ الْمِلَّتَيْنِ الَّذِينَ سَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَأَرَادُوا تَنْزِيلَهَا عَلَى الْعُقُولِ الْعَشَرَةِ وَالنُّفُوسِ التِّسْعَةِ الَّتِي اخْتَرَعُوا دَعْوَاهَا وَعَجَزُوا عَنْ إِقَامَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى مُقْتَضَاهَا ، فَأَفْهِمُوا صَدْرَ الْآيَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِآخِرِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، **وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ الْمَرْوِيِّ فِي الصَّحِيحَيْنِ**(١) ، **وَغَيْرِهِمَا** عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

صِفَةِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : ((**فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أَيْ : النَّارُ الَّتِي وُصِفَتْ ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أَيْ : وَلَّى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ ، أَيْ : أَشْرَقَ ، ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ أَيْ : الْعَظَائِمُ ، يَعْنِي : النَّارُ . قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ .

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ النِّذَارَةَ ، وَيَهْتَدِي لِلْحَقِّ ، أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهَا وَيُوَلِّي وَيَرُدَّهَا .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً أَنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أَيْ : مُعْتَقَلَةٌ بِعَمَلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فَإِنَّهُمْ ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ، وَأُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَائِلِينَ لَهُمْ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ أَيْ : مَا عَبَدْنَا رَبَّنَا وَلَا أَحْسَنَّا إِلَى خَلْقِهِ مِنْ جِنْسِنَا ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ أَيْ : نَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا نَعْلَمُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كُلَّمَا غَوِيَ

غَاوٍ غَوَيْنَا مَعَهُ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ يَعْنِي : المَوْتَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩] ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((أَمَّا هُوَ - يَعْنِي : عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ))[1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ أَيْ : مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ شَافِعٍ فِيهِ ؛ لأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجَعُ إِذَا كَانَ المَحَلُّ قَابِلًا ، فَأَمَّا مَنْ وَافَى اللهَ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّهُ لَهُ النَّارُ لَا مَحَالَةَ خَالِدًا فِيهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ قِبَلَكَ مِمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ مُعْرِضِينَ ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ فِي نِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ ، إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أَيْ : بَلْ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ . قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام : ١٢٤]

فَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهَا ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِوُقُوعِهَا ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ تَذْكِرَةٌ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الإنسان : ٣٠] ، [التكوير : ٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أَيْ : هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ . قَالَهُ قَتَادَةُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

تفسير سورة القيامة
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُنْتَفِيًا جَازَ الْإِتْيَانُ بـ « لا » قَبْلَ الْقَسَمِ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ ، وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هَهُنَا هُوَ : إِثْبَاتُ الْمَعَادِ ، وَالرَّدُّ عَلَى مَا يَزْعُمُهُ الْجَهَلَةُ مِنْ عَدَمِ بَعْثِ الْأَجْسَادِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ** : أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يُقْسِمْ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : بَلْ أَقْسَمَ بِهِمَا جَمِيعًا ، هَكَذَا حَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، **وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ** عَنِ الْحَسَنِ وَالْأَعْرَجِ أَنَّهُمَا قَرَآ « لَأُقْسِمُ » وَهَذَا يُوَجِّهُ قَوْلَ الْحَسَنِ ؛ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ الْقَسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَنَفَى الْقَسَمَ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ .

وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ أَقْسَمَ بِهِمَا جَمِيعًا ، فَأَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَمَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ : **عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ** فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللهِ - مَا نَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ : مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي ؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي ؟ . وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُمًا مَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ . **وَقِيلَ** : هِيَ النَّفْسُ اللَّئُومُ ، **وَقِيلَ** : الْمَذْمُومَةُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** :

﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ الْفَاجِرَةُ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى ، وَالْأَشْبَهُ بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ أَنَّهَا الَّتِي تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَتَنْدَمُ عَلَى مَا فَاتَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيَظُنُّ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى إِعَادَةِ عِظَامِهِ وَجَمْعِهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ أَنْ نَجْعَلَهُ خُفًّا أَوْ حَافِرًا ، وَوَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَنَّهُ - تَعَالَى - لَوْ شَاءَ لَجَعَلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ قَـٰدِرِينَ ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أَيْ : أَيَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّا لَا نَجْمَعُ عِظَامَهُ ؟ بَلَى سَنَجْمَعُهَا ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ، أَيْ : قُدْرَتُنَا صَالِحَةٌ لِجَمْعِهَا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَاهُ أَزْيَدَ مِمَّا كَانَ ، فَتَجْعَلُ بَنَانُهُ - وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِهِ - مُسْتَوِيَةً ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَالزَّجَّاجِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ يَعْنِي : يَمْضِي قُدُمًا . يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَعْمَلُ ثُمَّ أَتُوبُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُقَالُ : هُوَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ بَيْنَ يَدَيِ الْقِيَامَةِ .

وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الَّذِي يُعَجِّلُ الذُّنُوبَ وَيُسَوِّفُ التَّوْبَةَ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْكَافِرُ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ مِنَ الْمُرَادِ ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ** : ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أَيْ : يَقُولُ : مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِبْعَادٍ لِوُقُوعِهِ وَتَكْذِيبٍ لِوُجُودِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٩ - ٣٠]

وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ قَرَأَ أَبُو عَمْرِو ابْنِ الْعَلَاءِ ﴿ بَرِقَ ﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ أَيْ : حَارَ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] أَيْ : بَلْ يَنْظُرُونَ مِنَ الْفَزَعِ هَكَذَا وَهَكَذَا ، لَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ بَصَرٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ . وَقَرَأَ آخَرُونَ : بَرَقَ بِالْفَتْحِ ، وَهُوَ قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ . **وَالْمَقْصُودُ** : أَنَّ الْأَبْصَارَ تَنْبَهِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَخْشَعُ وَتَحَارُ وَتَذِلُّ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ ، وَمِنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ ضَوْؤُهُ ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ **قَالَ**

مُجَاهِدٌ : كُوِّرَا ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ١ - ٢] وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ ((وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أَيْ : إِذَا عَايَنَ ابْنُ آدَمَ هَذِهِ الأَهْوَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَئِذٍ يُرِيدُ أَنْ يَفِرَّ ، وَيَقُولُ : أَيْنَ المَفَرُّ ؟ أَيْ : هَلْ مِنْ مَلْجَإٍ أَوْ مَوْئِلٍ ؟ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ أَيْ : لَا نَجَاةَ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : ٤٧] أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَتَنَكَّرُونَ فِيهِ ، **وَكَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أَيْ : المَرْجِعُ وَالمَصِيرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أَيْ : يُخْبَرُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا ، أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ أَيْ : هُوَ شَهِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ ، عَالِمٌ بِمَا فَعَلَهُ وَلَوِ اعْتَذَرَ وَأَنْكَرَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] أَيْ : يَشْهَدُ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَجَوَارِحُهُ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا فَهُوَ بَصِيرٌ عَلَيْهَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ وَلَوِ اعْتَذَرَ يَوْمَئِذٍ بِبَاطِلٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ حُجَّتَهُ ، قَالَهُ الأَكْثَرُونَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ لَوْ أَلْقَى ثِيَابَهُ ، **وَالصَّحِيحُ** : قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَأَصْحَابِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة : ١٨]

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ الله ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلَقِّيهِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَكِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ إِلَى أَخْذِهِ وَيُسَابِقُ الْمَلَكَ فِي قِرَاءَتِهِ ، فَأَمَرَهُ اللهُ ﷻ إِذَا جَاءَهُ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ ، وَتَكَفَّلَ اللهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ ، وَأَنْ يُيَسِّرَهُ لِأَدَائِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَلْقَاهُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ وَيُفَسِّرَهُ وَيُوَضِّحَهُ . **فَالْحَالَةُ الْأُولَى** : جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ ، **وَالثَّانِيَةُ** : تِلَاوَتُهُ ، **وَالثَّالِثَةُ** : تَفْسِيرُهُ وَإِيضَاحُ مَعْنَاهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أَيْ : بِالْقُرْآنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤]

ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أَيْ : فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أَيْ : أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أَيْ : إِذَا تَلَاهُ عَلَيْكَ الْمَلَكُ عَنِ الله ﷻ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أَيْ : فَاسْتَمِعْ لَهُ ثُمَّ اقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأَكَ ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أَيْ : بَعْدَ حِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ نُبَيِّنُهُ لَكَ وَنُوَضِّحُهُ وَنُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[١] **قَالَ** : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً ، فَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ ، قَالَ : فَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ : جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ ، ثُمَّ تَقْرَأُهُ : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أَيْ : فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمُخَالَفَةِ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . أَنَّهُمْ إِنَّمَا هِمَّتُهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ لَاهُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ مِنَ النَّضَارَةِ ، أَيْ : حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ

---

(١) البخاري (حديث ٥) .

مُشْرِقَةٌ مَسْرُورَةٌ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أَيْ : تَرَاهُ عِيَانًا ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي صَحِيحِهِ : ((**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا**))[1].

وَقَدْ ثَبَتَتْ رُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ لله ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ ، لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنْعُهَا لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ[2] وَأَبِي هُرَيْرَةَ - وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ - أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : ((**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ ؟**)) قَالُوا : لَا ، قَالَ : ((**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ**)) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَرِيرٍ[3] قَالَ : نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَقَالَ : ((**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**)) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[4] عَنْ أَبِي مُوسَى ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى الله ﷻ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**)) .

وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبٍ[5] ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ؛ قَالَ : يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِينَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ وَهِيَ الزِّيَادَةُ**)) ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦]

وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثِهِ : ((**إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ**))[6]

---

(١) حديث رقم (٧٤٣٥) .

(٢) البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد مرفوعًا ، كذلك البخاري (٧٤٣٧) ، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعًا .

(٣) البخاري (٧٤٣٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

(٤) البخاري (٧٤٤٤) ، ومسلم (١٨٠) .

(٥) مسلم (١٨١) ، لكن هذا الحديث قد انتقده الدار قطني على مسلم . رحمهما الله .

(٦) مسلم (١٩١) .

يَعْنِي : فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ فِي الْعَرَصَاتِ وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ . **وَهَذَا بِحَمْدِ الله مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَهُدَاةِ الْأَنَامِ ،** وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين : ١٥] **قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -:** مَا حَجَبَ الْفُجَّارَ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَبْرَارَ يَرَوْنَهُ ﷻ ، ثُمَّ قَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ هَذِهِ وُجُوهُ الْفُجَّارِ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً ، **وَقِيلَ** : كَالِحَةً ، **وَقِيلَ** : تُغَيَّرُ أَلْوَانُهَا . ﴿ تَظُنُّ ﴾ أَيْ : تَسْتَيْقِنَ ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : دَاهِيَةً ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : شَرٌّ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : تَظُنُّ أَنْ سَتَدْخُلَ النَّارَ ، وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران : ١٠٦] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[عبس : ٣٨ - ٤٢] فِي أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالسِّيَاقَاتِ .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الِاحْتِضَارِ وَمَا عِنْدَهَا مِنَ الْأَهْوَالِ - ثَبَّتَنَا اللهُ هُنَاكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ - **فَقَالَ تَعَالَى :** ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ إِنْ جَعَلْنَا ((كَلَّا)) رَادِعَةً ، فَمَعْنَاهَا :

لَسْتَ يَا اِبْنَ آدَمَ هُنَاكَ تَكْذِبُ بِمَا أَخْبَرْتَ بِهِ ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَكَ عِيَانًا . وَإِنْ جَعَلْنَاهَا بِمَعْنَى « حَقًّا » فَظَاهِرٌ ، أَيْ : حَقًّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، أَيْ : أُنْتُزِعَتْ رُوحُكَ مِنْ جَسَدِكَ وَبَلَغَتْ تَرَاقِيكَ . **وَالتَّرَاقِي** : جَمْعُ تَرْقُوَةٍ ، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٨٧] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ وَالتَّرَاقِي : جَمْعُ تَرْقُوَةٍ ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ الْحُلْقُومِ ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ أَيْ : مَنْ رَاقٍ يَرْقِي ؟ **وَقِيلَ** : أَيْ : مِنْ طَبِيبٍ شَافٍ ، **وَقِيلَ** : مَنْ يَرْقَى بِرُوحِهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ؟ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : آخِرُ يَوْمٍ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ ، فَتَلْتَقِي الشِّدَّةُ بِالشِّدَّةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : بَلَاءٌ بِبَلَاءٍ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : هُمَا سَاقَاكَ إِذَا الْتَفَّتَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : مَاتَتْ رِجْلَاهُ فَلَمْ تَحْمِلَاهُ ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَوَّالًا ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْحَسَنِ** : هُوَ لَفُّهُمَا فِي الْكَفَنِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ : النَّاسُ يُجَهِّزُونَ جَسَدَهُ وَالْمَلَائِكَةُ يُجَهِّزُونَ رُوحَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تُرْفَعُ إِلَى السَّمَاوَاتِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : رُدُّوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطَّوِيلِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١ - ٦٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ ، مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالِبِهِ ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ

بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أَيْ : جَذِلًا أَشِرًا بَطِرًا كَسْلَانًا ، لَا هِمَّةَ لَهُ وَلَا عَمَلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق : ١٣ - ١٤] أَيْ : يَرْجِعُ ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق : ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أَيْ : يَخْتَالُ ، **وَقِيلَ** : يَتَبَخْتَرُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ الْمُتَبَخْتِرُ فِي مَشْيِتِهِ ، أَيْ : يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمْشِي هَكَذَا وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وَبَارِئِكَ ، كَمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّهْدِيدِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : ١٥] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ[1] **قَالَ** : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ قَالَ : قَالَهُ[2] رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : لَا يُبْعَثُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، **وَالظَّاهِرُ** أَنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ الْحَالَيْنِ أَيْ : لَيْسَ يُتْرَكُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، وَلَا يُتْرَكُ فِي قَبْرِهِ سُدًى لَا يُبْعَثُ ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مَنْهِيٌّ فِي الدُّنْيَا ، مَحْشُورٌ إِلَى اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا إِثْبَاتُ الْمَعَادِ ، وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبُدَاءَةِ فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً ضَعِيفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، يُمْنَى : يُرَاقُ مِنَ الْأَصْلَابِ فِي

---

(١) صحيح : عن سعيد بن جبير أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٨/٢) .

(٢) أي قاله لأبي جهل ثم نزل به القرآن انظر تفسير عبد الرزاق (٣٤٢٠) وابن أبي حاتم في التفسير (١٩٠٦٩) ، (١٩٠٧٠)

الْأَرْحَامِ ؟.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أَيْ : فَصَارَ عَلَقَةً ، ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ شُكِّلَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ ، فَصَارَ خَلْقًا آخَرَ سَوِيًّا سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى بِإِذْنِ الله وَتَقْدِيرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا هَذَا الذي أَنْشَأَ هَذَا الخَلْقَ السَّوِيَّ مِنَ هِذِه النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ؟ وَتَنَاوُلُ القُدْرَةِ للإِعَادَةِ إِمَّا بِطَرِيقِ الأَوْلَى بالنِّسْبَةِ إِلَى البَدَاءَةِ ، وَإِمَّا مُسَاوِيَةً عَلَى القَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، وَالأَوَّلُ أَشْهَرُ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي « سُورَةِ الرُّوم » بَيَانُهُ وَتَقْرِيرُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ مَرَّ بِهَذِهِ الآيَةِ : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قَالَ سُبْحَانَكَ ، فَبَلَى[1].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) ابن أبي حاتم (١٩٠٧٤) وعبد الرازق في المصنف (٤٠٥١) قلت : قد نقل بعض العلماء الاتفاق على مشروعية ذلك ، انظر تفسير آخر سورة التين (من تتمة أضواء البيان) .

تفسير سورة الإنسان
وهي مكيّة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السَّجْدَة ، وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ أَوْجَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُذْكَرُ ، لِحَقَارَتِهِ ، وَضَعْفِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أَيْ : أَخْلَاطٍ ، وَالْمَشْجُ وَالْمَشِيجُ : الشَّيْءُ الْخَلِيطُ ، بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءُ الرَّجُلِ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ إِذَا اجْتَمَعَا وَاخْتَلَطَا ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدُ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ ، وَحَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَلَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ .

وَهَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْأَمْشَاجُ هُوَ اخْتِلَاطُ مَاءِ الرَّجُلِ بِمَاءِ الْمَرْأَةِ ، ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أَيْ : نَخْتَبِرُهُ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَاله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا يَتَمَكَّنُ بِهِمَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَهُ وَوَضَّحْنَاهُ وَبَصَّرْنَاهُ بِهِ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا :

---

(١) صحيح : وقد تقدم ، وانظر البخاري (٨٩١) ، ومسلم (٨٧٩) .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] ، وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد : ١٠] أَيْ : بَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ « الْهَاءِ » فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ تَقْدِيرُهُ : فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِمَّا شَقِيٌّ وَإِمَّا سَعِيدٌ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا** »[١].

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَرْصَدَهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهِ مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّعِيرِ ، وَهُوَ اللَّهِيبُ وَالْحَرِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[غافر : ٧١ - ٧٢] ، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِهَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ السَّعِيرِ **قَالَ بَعْدَهُ** : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وَقَدْ عُلِمَ مَا فِي الْكَافُورِ مِنَ التَّبْرِيدِ وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّذَاذَةِ فِي الْجَنَّةِ . **قَالَ الْحَسَنُ** : بَرْدُ الْكَافُورِ فِي طِيبِ الزَّنْجَبِيلِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي مُزِجَ لِهَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ مِنَ الْكَافُورِ هُوَ عَيْنٌ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ صِرْفًا بِلَا مَزْجٍ وَيُرْوَوْنَ بِهَا ؛ وَلِهَذَا ضَمَّنَ يَشْرَبَ « يَرْوَى » حَتَّى عَدَّاهُ بِالْبَاءِ ، وَنَصَبَ ﴿ عَيْنًا ﴾

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

عَلَى التَّمْيِيزِ . **قَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذَا الشَّرَابُ فِي طِيبِهِ كَالْكَافُورِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هُوَ مِنْ عَيْنِ كَافُورٍ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِـ ﴿ يَشْرَبُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أَيْ : يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا مِنْ قُصُورِهِمْ وَدُورِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمَحَالِّهِمْ . وَالتَّفْجِيرُ هُوَ الْإِنْبَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء : ٩٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف : ٣٣] . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يَقُودُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ ، **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ** : يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أَيْ : يَتَعَبَّدُونَ لله فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِن الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النَّذْرِ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: ((**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**))[1].

وَيَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَاهُمْ عَنْهَا خِيفَةً مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ ، أَيْ : مُنْتَشِرٌ عَامٌّ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اِسْتَطَارَ وَالله شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى مَلَأَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : اِسْتَطَارَ الصَّدْعُ فِي الزُّجَاجَةِ وَاسْتَطَالَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ **قِيلَ** : عَلَى حُبِّ الله تَعَالَى ، وَجَعَلُوا الضَّمِيرَ عَائِدًا إِلَى الله ﷻ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ .

وَالْأَظْهَرُ : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ ، أَيْ : وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي حَالِ مَحَبَّتِهِمْ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢]

وَفِي الصَّحِيحِ ((**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ**))[2] أَيْ : فِي حَالِ مَحَبَّتِكَ لِلْمَالِ وَحِرْصِكَ عَلَيْهِ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا

---

(١) البخاري (٦٦٩٦) .

(٢) البخاري (١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أَمَّا الْمِسْكِينُ وَالْيَتِيمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَصِفَتُهُمَا ، **وَأَمَّا الْأَسِيرُ** : **فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، **وَقَالَ آخَرُون** : هُوَ الأَسِيرُ عُمُومًا سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ مُشْرِكًا . أَيْ : يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ لِهَؤُلَاءِ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ ، قَائِلِينَ بِلِسَانِ الحَالِ ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : رَجَاءَ ثَوَابِ الله وَرِضَاهُ ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أَيْ : لَا نَطْلُبُ مِنْكُمْ مُجَازَاةً تُكَافِئُونَا بِهَا وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْدَ النَّاسِ .

قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : أَمَا وَالله مَا قَالُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَكِنْ عَلِمَ اللهُ بِهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ لِيَرْغَبَ فِي ذَلِكَ رَاغِبٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نَفْعَلُ هَذَا لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْحَمَنَا وَيَتَلَقَّانَا بِلُطْفِهِ فِي الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَمْطَرِيرِ . **قِيلَ** : ﴿ عَبُوسًا ﴾ ضَيِّقًا ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ طَوِيلًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أَيْ : يَعْبَسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقَطِرَانِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ عَبُوسًا ﴾ الْعَابِسُ الشَّفَتَيْنِ ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ يَقْبِضُ الْوَجْهَ بِالْبُسُورِ ، **وَقِيلَ** : تَعْبِسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنَ الْهَوْلِ ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ تَقْلِيصُ الْجَبِينِ وَمَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْهَوْلِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّجَانُسِ الْبَلِيغِ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أَيْ : آمَنَهُمْ بِمَا خَافُوا مِنْهُ ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَة ﴾ أَيْ : فِي وُجُوهِهِمْ ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أَيْ : فِي قُلُوبِهِمْ .

وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨ - ٣٩] وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ الْوَجْهُ ، **قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ** : ((وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ فِلْقَةُ قَمَرٍ))[1].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: ((دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ مَسْرُورًا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ ...))[2] الْحَدِيث .

---

(١) البخاري (٣٥٥٦) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

(٢) البخاري (٣٥٥٥) ، ومسلم (١٤٥٩) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ أَعْطَاهُمْ وَنَوَّلَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أَيْ : مَنْزِلًا رَحْبًا ، وَعَيْشًا رَغَدًا ، وَلِبَاسًا حَسَنًا .

كَـمْ قَتِيـلٍ شَهْوَةٍ وَأَسِـيرٍ ... أُفٍّ مِنْ مُشْتَهًى خِلَافِ الْجَمِيلِ
شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ تُورِثُهُ الذُّلَّ ... وَتُلْقِيهِ فِي الْبَـلَاءِ الطَّـوِيلِ

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الصَّافَّاتِ » وَذُكِرَ الْخِلَافُ فِي الِاتِّكَاءِ : هَلْ هُوَ الِاضْطِجَاعُ ، أَوِ التَّمَرْفُقِ ، أَوِ التَّرَبُّعِ ، أَوِ التَّمَكُّنِ فِي الْجُلُوسِ ؟، وَأَنَّ الْأَرَائِكَ هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَهُمْ حَرٌّ مُزْعِجٌ ، وَلَا بَرْدٌ مُؤْلِمٌ ، بَلْ هِيَ مِزَاجٌ وَاحِدٌ دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف : ١٠٨]

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا ﴾ أَيْ : قَرِيبَةٌ إِلَيْهِمْ أَغْصَانُهَا ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أَيْ : مَتَى تَعَاطَاهُ دَنَا الْقِطْفُ إِلَيْهِ وَتَدَلَّى مِنْ أَعْلَى غُصْنِهِ ، كَأَنَّهُ سَامِعٌ طَائِعٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥٤] ، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ٢٣] . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ إِنْ قَامَ ارْتَفَعَتْ مَعَهُ بِقَـدْرٍ ، وَإِنْ قَعَدَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَـالَهَا ، وَإِنِ اضْطَجَعَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى

يَنَالهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَذْلِيلاً ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أَيْ : يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخَدَمُ بِأَوَانِي الطَّعَامِ وَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ وَهِيَ الْكِيزَانُ الَّتِي لَا عُرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ فَالأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِخَبَرِ كَانَ ، أَيْ : كَانَتْ قَوَارِيرَ ، والثاني مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ ، أَوْ تَمْيِيزٌ ؛ لأَنَّهُ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : بَيَاضُ الْفِضَّةِ فِي صَفَاءِ الزُّجَاجِ ، وَالْقَوَارِيرُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ زُجَاجٍ ، فَهَذِهِ الأَكْوَابُ هِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَهِيَ مَعَ هَذَا شَفَّافَةٌ يُرَى مَا فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أَيْ : عَلَى قَدْرِ رِيِّهِمْ ، لَا تَزِيدُ عَنْهُ وَلَا تَنْقُصُ ، بَلْ هِيَ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ مُقَدَّرَةٌ بِحَسَبِ رِيِّ صَاحِبِهَا ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الاِعْتِنَاءِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ ، **وَقِيلَ** : عَلَى قَدْرِ أَكُفِّ الْخُدَّامِ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي الْقَوْلَ الأَوَّلَ ، فَإِنَّهَا مُقَدَّرَةٌ فِي الْقَدْرِ وَالرِّيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ أَيْ : وَيُسْقَوْنَ يَعْنِي الأَبْرَارَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الأَكْوَابِ ﴿ كَأْسًا ﴾ أَيْ : خَمْرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ فَتَارَةً يُمْزَجُ لَهُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ ، وَتَارَةً بِالزَّنْجَبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ ، لِيَعْتَدِلَ الأَمْرُ ، وَهَؤُلَاءِ يُمْزَجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً وَمِنْ هَذَا تَارَةً ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا صِرْفًا ، كَمَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان : ٦] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ أَيْ : الزَّنْجَبِيل عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أَيْ : يَطُوفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْخِدْمَةِ وِلْدَانٌ مِنْ وِلْدَانِ الْجَنَّةِ ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُخَلَّدُونَ عَلَيْهَا ، لَا يَتَغَيَّرُونَ عَنْهَا ، لَا تَزِيدُ أَعْمَارُهُمْ عَنْ تِلْكَ السِّنِّ ،

وَمَنْ فَسَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُخَرَّصُونَ فِي آذَانِهِمُ الْأَقْرِطَةَ ، فَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَعْنَى بِذَلِكَ ؛ لأَنَّ الصَّغِيرَ هُوَ الَّذِي يَلِيقُ لَهُ ذَلِكَ دُونَ الْكَبِيرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أَيْ : إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ السَّادَةِ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ ، وَحُسْنِ أَلْوَانِهِمْ وَثِيَابِهِمْ وَحُلِيِّهِمْ ، حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ، وَلَا يَكُونُ فِي التَّشْبِيهِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ، وَلَا فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْثُورِ عَلَى الْمَكَانِ الْحَسَنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ ، أَيْ : وَإِذَا رَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ ثَمَّ ﴾ أَيْ : هُنَاكَ ، يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَسَعَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : مَمْلَكَةً لله هُنَاكَ عَظِيمَةً وَسُلْطَانًا بَاهِرًا .

وَثَبَتَ فِي **الصَّحِيحِ**(1) أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِآخِرِ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ، وَآخِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَيْهَا : ((**إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أَيْ : لِبَاسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا الْحَرِيرُ ، وَمِنْهُ سُنْدُسٌ وَهُوَ رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقُمْصَانِ وَنَحْوِهَا مِمَّا يَلِي أَبْدَانَهُمْ وَالْإِسْتَبْرَقُ مِنْهُ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَهُوَ مِمَّا يَلِي الظَّاهِرَ ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي اللِّبَاسِ .

﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : ٢٣]، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى زِينَةَ الظَّاهِرِ بِالْحَرِيرِ وَالْحُلِيِّ قَالَ بَعْدَهُ ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أَيْ : طَهَّرَ بَوَاطِنَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالْغِلِّ وَالْأَذَى وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَكْرِيمًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أَيْ : جَزَاكُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ .

---

(١) البخاري (٧٥١١) .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا يَمْتَنُّ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَنْزِيلًا ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَكْرَمَكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ، فَاصْبِرْ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُدَبِّرُكَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أَيْ : لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَرَادُوا صَدَّكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، بَلْ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . **فَالْآثِمُ** : هُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، **وَالْكَفُورُ** : هُوَ الْكَافِرُ قَلْبُهُ .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ : أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ١ - ٤]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالِانْصِبَابِ إِلَيْهَا وَتَرْكِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : خَلْقَهُمْ ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : وَإِذَا شِئْنَا بَعَثْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ

فَأَعَدْنَاهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْبُدَاءَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أَيْ : وَإِذَا شِئْنَا أَتَيْنَا بِقَوْمٍ آخَرِينَ ، غَيْرِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾[النساء : ١٣٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[إبراهيم : ١٩ - ٢٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ يَعْنِي هَذِهِ السُّورَةَ تَذْكِرَةٌ ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا ، أَيْ : مَنْ شَاءَ اهْتَدَى بِالْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾[النساء : ٣٩]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَجُرُّ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ فَيُيَسِّرُهَا لَهُ ، وَيُقَيِّضُ لَهُ أَسْبَابَهَا ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْهُدَى ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة المرسلات
وهي مكية

عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ[1] قال : بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنًى ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ ، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا ، إِذْ وثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اقْتُلُوهَا)) فابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا)) .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ[2] : أَنَّ أُمَّ الفَضْلِ سَمِعَتْهُ يَقْرَأُ : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ ، إِنَّهَا لآخِرُ مَا سَمِعْتُ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي المَغْرِبِ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ قَالَ : المَلائِكَةُ ، وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ أَيْضًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ الرُّسُلُ . وَعَنْ أَبِي العُبَيْدَيْنِ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنْ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ قَالَ : الرِّيحُ ، وَكَذَا قَالَ فِي : ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ : إِنَّهَا الرِّيحُ ، وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ هَلْ هِيَ المَلائِكَةُ إِذَا أُرْسِلَتْ بِالعُرْفِ ، أَوْ كَعُرْفِ الفَرَسِ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؟، أَوْ هِيَ

---

(١) البخاري (١٨٣٠) ، ومسلم (٢٢٣٤) .

(٢) البخاري (٧٦٣) ، ومسلم (٤٦٢) .

الرِّيحُ إِذَا هَبَّتْ شَيْئًا فَشَيْئًا ؟ وَقَطَعَ بِأَنَّ ﴿ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ﴾ هِيَ الرِّيَاحُ ، وَتَوَقَّفَ فِي ﴿ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ هَلْ هِيَ المَلَائِكَةُ أَوِ الرِّيحُ ؟ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَالْأَظْهَرُ : أَنَّ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ ﴾ هِيَ الرِّيَاحُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، وَهَكَذَا الْعَاصِفَاتُ هِيَ : الرِّيَاحُ ، يُقَالُ : عَصَفَتِ الرِّيَاحُ إِذَا هَبَّتْ بِتَصْوِيتٍ . وَكَذَا النَّاشِرَاتِ هِيَ : الرِّيَاحُ الَّتِي تَنْشُرُ السَّحَابَ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، كَمَا يَشَاءُ الرَّبُّ ﷺ

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يَعْنِي : المَلَائِكَةُ ، وَلَا خِلَافَ هَاهُنَا ؛ فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللهِ عَلَى الرُّسُلِ ، تَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالْغَيِّ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَتُلْقِي إِلَيْهِمْ وَحْيًا فِيهِ إِعْذَارٌ إِلَى الْخَلْقِ ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ عِقَابَ اللهِ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَقْسَامِ ، أَيْ : مَا وُعِدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ ، وَبَعْثِ الْأَجْسَادِ ، وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَمُجَازَاةِ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ أَيْ : لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ ضَوْؤُهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ٢] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار : ٢] ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ أَيْ : انْفَطَرَتْ وَانْشَقَّتْ ، وَتَدَلَّتْ أَرْجَاؤُهَا ، وَوَهَتْ أَطْرَافُهَا .

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أَيْ : ذُهِبَ بِهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] الْآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ جُمِعَتْ ، **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ أُجِّلَتْ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾

أُوعِدَتْ ، وَكَأَنَّهُ يَجْعَلُهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتِ الرُّسُلُ وَأُرْجِئَ أَمْرُهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٧ - ٤٨] ، وَهُوَ يَوْمُ الْفَصْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ . ثُمَّ قَالَ مُعَظِّمًا لِشَأْنِهِ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ غَدًا .

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفِينَ لِمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : مِمَّنْ أَشْبَهَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ وَمُحْتَجًّا عَلَى الإِعَادَةِ بِالبَدَاءَةِ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أَيْ : ضَعِيفٍ حَقِيرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْبَارِئِ ﷻ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ « يس » فِي حَدِيثِ بُسْرِ بْنِ جِحَاشٍ « **ابْنَ آدَمَ ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟** »[١].

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يَعْنِي : جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحِمِ ، وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ

---

(١) صحيح : وقد تقدم تخريجه في سورة النحل.

وَالمَرْأَةِ ، وَالرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ ، حَافِظٌ لِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ المَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ قِيلَ : كُنًّا ، وَقِيلَ : يُكْفَتُ المَيِّتُ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ وَقِيلَ : بَطْنُهَا لِأَمْوَاتِكُمْ ، وَظَهْرُهَا لِأَحْيَائِكُم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَـٰمِخَـٰتٍ ﴾ يَعْنِي : الجِبَالَ أَرْسَى بِهَا الْأَرْضَ لِئَلَّا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ ﴿ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ أَيْ : عَذْبًا زُلَالًا مِنَ السَّحَابِ ، أَوْ مِمَّا أَنْبَعَهُ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَسْتَمِرُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَكُفْرِهِ .

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْكُفَّارِ المُكَذِّبِينَ بِالمَعَادِ وَالجَزَاءِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴾ يَعْنِي : لَهَبَ النَّارِ إِذَا ارْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ ، فَمِنْ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّ لَهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أَيْ : ظِلُّ الدُّخَانِ المُقَابِلُ لِلَّهَبِ لَا ظَلِيلَ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ، يَعْنِي : وَلَا يَقِيهِمْ حَرَّ اللَّهَبِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أَيْ : يَتَطَايَرُ الشَّرَرُ مِنْ لَهَبِهَا كَالْقَصْرِ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : كَالحُصُونِ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : يَعْنِي : أُصُولَ الشَّجَرِ .

﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ أَيْ : كَالإِبِلِ السُّودِ ، وَقِيلَ : ﴿ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ يَعْنِي : حِبَالَ

السُّفُنِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ قِطَعُ نُحَاسٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ[1] قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قَالَ : كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْخَشَبَةِ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ ، فَنُسَمِّيهِ الْقَصْرَ ﴿ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ حِبَالُ السُّفُنِ تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا ، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَعَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ حَالَاتٌ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ، وَعَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً ؛ لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ يَوْمَئِذٍ .

وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَصْلٍ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ ، وَهَذِهِ مُخَاطَبَةٌ مِنَ الْخَالِقِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَقُولُ لَهُمْ : أَنَّهُ جَمَعَهُمْ بِقُدْرَتِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيْ : إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّصُوا مِنْ قَبْضَتِي ، وَتَنْجُوا مِنْ حُكْمِي فَافْعَلُوا ، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[الرحمن : ٣٣] ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ : ((**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**))[2].

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) البخاري (٤٩٣٣) .

(٢) مسلم (٢٥٧٧) .

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ : إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، أَيْ : بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنْ ظِلِّ الْيَحْمُومِ ، وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ الْمُنْتِنُ ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا خَبَرًا مُسْتَأْنَفًا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا جَزَاؤُنَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ خِطَابٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ ، وَأَمَرَهُمْ أَمْرَ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً ﴾ أَيْ : مُدَّةً قَلِيلَةً قَرِيبَةً قَصِيرَةً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ - ٧٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا أُمِرَ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، امْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَبِأَيِّ كَلَامٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ النبأ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسَاؤُلِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْكَارًا لِوُقُوعِهَا ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ ، يَعْنِي : الْخَبَرُ الْهَائِلُ الْمُفْظِعُ الْبَاهِرُ . **قَالَ قَتَادَةُ ، وَابْنُ زَيْدٍ** : النَّبَأُ الْعَظِيمُ : الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هُوَ الْقُرْآنُ ، وَالأَظْهَرُ الأَوَّلُ لِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يَعْنِي : النَّاسُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ .

ثُمَّ قَالَ مُتَوَعِّدًا لِمُنْكِرِي الْقِيَامَةِ ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ .

ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أَيْ : مُمَهَّدَةً لِلْخَلَائِقِ ، ذَلُولًا لَهُمْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أَيْ جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنَتْ ، وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يَعْنِي : ذَكَرًا وَأُنْثَى يَسْتَمْتِعُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ ،

وَيَحْصُلُ التَّنَاسُلُ بِذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أَيْ : قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ لِتَحْصُلَ الرَّاحَةُ مِنْ كَثْرَةِ التَّرْدَادِ وَالسَّعْيِ فِي المَعَايِشِ فِي عَرَضِ النَّهَارِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَةِ فِي « سُورَةِ الفُرْقَانِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : يَغْشَى النَّاسَ ظَلَامُهُ وَسَوَادُهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٤] ، **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : سَكَنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ مُشْرِقًا نَيِّرًا مُضِيئًا ، لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ ، وَالتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يَعْنِي : السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَتَزْيِينِهَا بِالْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يَعْنِي : الشَّمْسَ المُنِيرَةَ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْءُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ الرِّيحُ . **قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ ، وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ السَّحَابُ . **وَالْأَظْهَرُ** : أَنَّ المُرَادَ بِالْمُعْصِرَاتِ : السَّحَابُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [الروم : ٤٨] أَيْ : مِنْ بَيْنِهِ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ ، وَإِنَّمَا الثَّجُّ : الصَّبُّ المُتَتَابِعُ الْكَثِيرُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ أَيْ : لِنُخْرِجَ بِهَذَا المَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ المُبَارَكِ ﴿ حَبًّا ﴾ يُدَّخَرُ لِلْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أَيْ : خَضِرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا .

﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أَيْ : بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَطُعُومٍ وَرَوَائِحَ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : ﴿ أَلْفَافًا ﴾ مُجْتَمِعَةً ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفَصْلِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَنَّهُ مُؤَقَّتٌ بِأَجَلٍ مَعْدُودٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : زُمَرًا زُمَرًا **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي : تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ(١) : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ** » قَالُوا : أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : « **أَبَيْتُ** » قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ : « **أَبَيْتُ** » قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : « **أَبَيْتُ** » قَالَ : « **ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أَيْ : طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ

---

(١) البخاري (٤٩٣٥) .

كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أَيْ : يُخَيَّلُ إِلَى النَّاظِرِ أَنَّهَا شَيْءٌ ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، بَعْدَ هَذَا تَذْهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أَيْ : مُرْصَدَةً مُعَدَّةً ﴿ لِّلطَّاغِينَ ﴾ ، وَهُمْ : الْمَرَدَةُ الْعُصَاةُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ﴿ مَآبًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعًا وَمُنْقَلَبًا وَمَصِيرًا وَنُزُلًا .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ حَتَّى يُجْتَازَ بِالنَّارِ ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ جَوَازٌ نَجَا وَإِلَّا احْتَبَسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ، وَهِيَ جَمْعُ ((حُقْبٍ)) ، وَهُوَ : الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ . وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهِ ، فَقِيلَ : ثَمَانُونَ سَنَةً ، وَقِيلَ : سَبْعُونَ ، وَقِيلَ : أَرْبَعُونَ . وَقَدْ قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ . رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ، ثُمَّ يُحْدِثُ اللهُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابًا مِنْ شَكْلٍ آخَرَ وَنَوْعٍ آخَرَ ، ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لَا انْقِضَاءَ لَهَا .

وَقَالَ قَتَادَةُ : قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، وَهُوَ : مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، وَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ بَعْدَهُ ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحُقْبَ ثَمَانُونَ سَنَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أَيْ : لَا يَجِدُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا ، لِقُلُوبِهِمْ وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَغَذَّوْنَ بِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : اسْتَثْنَى مِنَ الْبَرْدِ الْحَمِيمَ ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْغَسَّاقَ . فَأَمَّا الْحَمِيمُ : فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وَحُمُوُّهُ . وَالْغَسَّاقُ : هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ ، فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ وَلَا يُوَاجَهُ مِنْ نَتْنِهِ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَفْقَ أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثَمَّ دَارًا يُجَازَوْنَ فِيهَا وَيُحَاسَبُونَ ﴿ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ أَيْ : وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللهِ وَدَلَائِلِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ فَيُقَابِلُونَهَا بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ . ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ أَيْ : تَكْذِيبًا .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾ أَيْ : وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ ، وَكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أَيْ : يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ : ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جِنْسِهِ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعَدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ مُتَنَزَّهًا ، ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ وَهِيَ : الْبَسَاتِينُ مِنَ النَّخِيلِ وَغَيْرِهَا ﴿ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أَيْ : وَحُورًا كَوَاعِبَ ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ أَيْ : نَوَاهِدَ ، يَعْنُونَ أَنَّ ثُدِيَّهُنَّ نَوَاهِدُ لَمْ يَتَدَلَّيْنَ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ ، أَيْ : فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ[1] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ مَمْلُوءَةً مُتَتَابِعَةً ، وَقِيلَ : صَافِيَةً . ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣] أَيْ : لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لَاغٍ عَارٍ عَنِ الْفَائِدَةِ ، وَلَا إِثْمَ كَذِبٌ ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ ، وَكُلُّ كَلَامٍ فِيهَا سَالِمٌ مِنَ النَّقْصِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمُ اللهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أَيْ : كَافِيًا وَافِرًا شَامِلاً

---

(١) الآية (٣٧) .

كَثِيرًا ، تَقُولُ الْعَرَبُ : أَعْطَانِي فَأَحْسَبَنِي ، أَيْ : كَفَانِي . وَمِنْهُ : حَسْبِيَ اللهُ ، أَيْ : اللهُ كَافِي .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى اِبْتِدَاءِ مُخَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود : ١٠٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالرُّوحِ هَاهُنَا ، مَا هُوَ ؟ عَلَى أَقْوَالٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُمْ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ . **الثَّانِي** : هُمْ بَنُو آدَمَ . **الثَّالِثُ** : أَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، عَلَى صُوَرِ بَنِي آدَمَ ، وَلَيْسُوا بِمَلَائِكَةٍ وَلَا بِبَشَرٍ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ . **الرَّابِعُ** : هُوَ جِبْرِيلُ ، وَيُسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤] . **الْخَامِسُ** : أَنَّهُ الْقُرْآنُ . قَالَهُ اِبْنُ زَيْدٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] الْآيَةَ . **وَالسَّادِسُ** : أَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقَدْرِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَتَوَقَّفَ اِبْنُ جَرِيرٍ فَلَمْ يَقْطَعْ بِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا ، وَالْأَشْبَهُ عِنْدَهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُمْ بَنُو آدَمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود : ١٠٥] ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ((**وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ**))(١).

(١) البخاري (٧٤٣٧) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أَيْ : حَقًّا ، وَمِنَ الْحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : الْكَائِنُ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ وَمَنْهَجًا يَمُرُّ بِهِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِتَأَكُّدِ وُقُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا ؛ لأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيْ : يَعْرِضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف : ٤٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أَيْ : يَوَدُّ الْكَافِرُ يَوْمئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تُرَابًا وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ ، وَلَا خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ ، وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللهِ ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ ، قَدْ سُطِّرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ .

وَقِيلَ : إِنَّمَا يَوَدُّ ذَلِكَ حِينَ يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا ، فَيَفْصِلُ بَيْنَهَا بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْتَصُّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ ، فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْحُكْمِ بَيْنَهَا قَالَ لَهَا : كُونِي تُرَابًا فَتَصِيرُ تُرَابًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أَيْ : كُنْتُ حَيَوَانًا فَأَرْجِعُ إِلَى التُّرَابِ ، وَقَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ ، وَوَرَدَ فِيهِ آثَارٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النبأ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة النازعات
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴾ المَلَائِكَةُ ، يَعْنُونَ حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِعُسْرٍ فَتَغْرَقُ فِي نَزْعِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ نِشَاطٍ ، **وَهُوَ قَوْلُهُ** : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴾ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ هِيَ : أَنْفُسُ الْكُفَّارِ تُنْزَعُ ثُمَّ تُنْشَطُ ، ثُمَّ تُغْرَقُ فِي النَّارِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴾ هِيَ المَلَائِكَةُ ، **وَقِيلَ** : المَوْتُ ، وَقِيل : هِيَ النُّجُومُ ، **وقيل** : هِيَ السُّفُنُ ، ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴾ يَعْنِي : المَلَائِكَةَ ؛ **قَالَ الحَسَنُ** : سَبَقَتْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ هِي المَلَائِكَةُ . تُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، يَعْنِي : بِأَمْرِ رَبِّهَا ﷻ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : هُمَا النَّفْخَتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ ، **وَعَنْ مُجَاهِدٍ** أَمَّا الْأُولَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا . ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ فَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ [المزمل : ١٤] ، وَالثَّانِيَةُ : وَهِيَ الرَّادِفَةُ ، فَهِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ يَعْنِي : خَائِفَةٌ . ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ أَيْ : أَبْصَارُ

أَصْحَابِهَا ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَيْهَا لِلْمُلَابَسَةِ ، أَيْ : ذَلِيلَةً حَقِيرَةً مِمَّا عَايَنَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾ يَعْنِي : مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ فِي إِنْكَارِ المَعَادِ ، يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَ الْبَعْثِ بَعْدَ المَصِيرِ إِلَى الْحَافِرَةِ وَهِيَ الْقُبُورُ ، وَبَعْدَ تَمَزُّقِ أَجْسَادِهِمْ وَتَفَتُّتِ عِظَامِهِمْ وَنُخُورِهَا ؛ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ وَقُرِئَ : (نَاخِرَةً) أَيْ : بَالِيَةً . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : وَدَخَلَتِ الرِّيحُ فِيهِ ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الحَافِرَةُ : الحياةُ بَعْدَ المَوْتِ ، **وقَالَ ابنُ زَيْدٍ** : الحَافِرَةُ : النَّارُ ، وَمَا أَكْثَرَ أَسْمَاءَهَا ! هي النَّارُ ، وَالجَحِيمُ ، وَسَقَرُ ، وَجَهَنَّمُ ، والهَاوِيَةُ ، والحَافِرَةُ ، وَلَظَى ، والحُطَمَةُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدَ ، فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْبَعْثِ ، فَإِذَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ ﷻ يَنْظُرُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، **وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : زَجْرَةٌ مِنَ الْغَضَبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ الْأَرْضُ كُلُّهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ وَجْهُ الْأَرْضِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : كَانُوا بِأَسْفَلِهَا فَأُخْرِجُوا إِلَى أَعْلَاهَا ، قَالَ : وَ ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ المَكَانُ الْمُسْتَوِي ، **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ** : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ أَرْضُ الشَّامِ ، **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّهَا الْأَرْضُ وَجْهُهَا الْأَعْلَى .

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ يَقُولُ اللهُ ﷻ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، وَيَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ -١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] ، وَبَرَزَتِ الْأَرْضُ الَّتِي عَلَيْهَا الْجِبَالُ ، وَهِيَ لَا تُعَدُّ مِنْ

هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَهِيَ أَرْضٌ لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ ، وَلَمْ يُهْرَقْ عَلَيْهَا دَمٌ .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ اِبْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَيَّدَهُ اللهُ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَمَعَ هَذَا اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ ، حَتَّى أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ أَيْ : هَلْ سَمِعْتَ بِخَبَرِهِ ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ أَيْ : كَلَّمَهُ نِدَاءً ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ ﴾ أَيْ : الْمُطَهَّرِ ﴿ طُوًى ﴾ ، وَهُوَ اِسْمُ الْوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ ((طه)) ، **فَقَالَ** : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَجَرَّدَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُ : هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسْلَكٍ تُزَكَّى بِهِ . أَيْ : تَسْلَمُ وَتُطِيعُ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : أَدُلَّكَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : فَيَصِيرَ قَلْبُكَ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا ، بَعْدَمَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الْخَيْرِ . ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : فَأَظْهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً ، وَدَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أَيْ : فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَحَاصِلُهُ : أَنَّهُ كَفَرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَنْفَعِلْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بِظَاهِرِهِ ، وَعِلْمُهُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ ؛ لأَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمُ الْقَلْبِ ، وَالْإِيمَانُ عَمَلُهُ ، وَهُوَ الاِنْقِيَادُ لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعُ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةَ

لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أَيْ : فِي قَوْمِهِ ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ : أَيْ : اِنْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ اِنْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : ٤١] ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ أَيْ : الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ كَلِمَتَاهُ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ ، وَقِيلَ : كُفْرُهُ وَعِصْيَانُهُ ، وَالصَّحِيحُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ الْأَوَّلُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ أَيْ : لِمَنْ يَتَّعِظُ وَيَنْزَجِرُ .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى مُنْكِرِي الْبَعْثِ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ بَدْئِهِ ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يَعْنِي : بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ ، بَعِيدَةَ الْفِنَاءِ ، مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ ، مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا ، وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَيِّرًا وَاضِحًا ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : أَنَارَ نَهَارَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ « حم السَّجْدَة » أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ خَلْقِ

السَّمَاءِ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا دُحِيَتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وَدَحْيُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى ، وَشَقَّقَ الْأَنْهَارَ ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْآكَامَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أَيْ : قَرَّرَهَا وَأَثْبَتَهَا وَأَكَّدَهَا فِي أَمَاكِنِهَا ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الرَّءُوفُ بِخَلْقِهِ الرَّحِيمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أَيْ : دَحَا الْأَرْضَ فَأَنْبَعَ عُيُونَهَا ، وَأَظْهَرَ مَكْنُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَأَنْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَثِمَارَهَا ، وَثَبَّتَ جِبَالَهَا لِتَسْتَقِرَّ بِأَهْلِهَا وَيَقَرُّ قَرَارَهَا ، كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعًا لِخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مُدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِي الْأَمَدُ وَيَنْقَضِي الْأَجَلُ .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطِمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْظِعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ : حِينَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر : ٢٣] ، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أَيْ : أُظْهِرَتْ لِلنَّاظِرِينَ فَرَآهَا النَّاسُ عِيَانًا ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : قَدَّمَهَا عَلَى أَمْرِ دِينِهِ وَأُخْرَاهُ

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ : فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَإِنَّ مَطْعَمَهُ مِنَ الزَّقُّومِ وَمَشْرَبَهُ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أَيْ : خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَي اللهِ ﷻ ، وَحُكْمَ اللهِ فِيهِ ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا ، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ : مُنْقَلَبَهُ ، وَمَصِيرَهُ وَمَرْجِعَهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ ، بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ ﷻ فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ : ((**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ ، فَمَنْ خَشِيَ اللهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ ، اتَّبَعَكَ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَالْخَيْبَةُ وَالْخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أَيْ : إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحًى مِنْ يَوْمٍ . أَمَّا عَشِيَّةٌ فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ﴿ أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ النَّازِعَاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطِبُ بَعْضَ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ - وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا - فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ، وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ أَيْ: يَحْصُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أَيْ: يَحْصُلُ لَهُ اتِّعَاظٌ وَانْزِجَارٌ عَنِ الْمَحَارِمِ ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أَيْ: أَمَّا الْغَنِيُّ فَأَنْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلَّهُ يَهْتَدِي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ أَيْ: مَا أَنْتَ بِمُطَالَبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ زَكَاةٌ ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ أَيْ: يَقْصِدُكَ وَيَؤُمُّكَ لِيَهْتَدِيَ بِمَا تَقُولُ لَهُ ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أَيْ: تَتَشَاغَلُ، وَمِنْ هَاهُنَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخُصَّ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، ثُمَّ اللهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ.

عَنْ عَائِشَةَ ؛ قَالَتْ : أُنْزِلَتْ[١] : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ، أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ : أَرْشِدْنِي ، قَالَتْ : وَعِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالَتْ : فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ ، وَيَقُولُ : « أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ » فَيَقُولُ : لَا ، فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ »[٢] ، وَهُوَ الْأَعْمَى الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ ، وَكَانَ يُؤَذِّنُ مَعَ بِلَالٍ . قَالَ سَالِمٌ : وَكَانَ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ ، فَلَمْ يَكُ يُؤَذِّنُ حَتَّى يَقُولَ لَهُ النَّاسُ - حِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى بُزُوغِ الْفَجْرِ - : أَذِّنْ .

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ اللهِ ، وَيُقَالُ : عَمْرُو ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أَيْ : هَذِهِ السُّورَةُ ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاغِ الْعِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَوَضِيعِهِمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ أَيْ : فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْوَحْيِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أَيْ هَذِهِ السُّورَةُ أَوِ الْعِظَةُ ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ بَلْ جَمِيعُ الْقُرْآنِ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . أَيْ : مُعَظَّمَةٍ مُوَقَّرَةٍ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أَيْ : عَالِيَةِ الْقَدْرِ ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّحِيحُ : أَنَّ السَّفَرَةَ الْمَلَائِكَةُ ، وَالسَّفَرَةُ يَعْنِي بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : السَّفِيرُ : الَّذِي يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الصُّلْحِ وَالْخَيْرِ ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ[٣] : ﴿ سَفَرَةٍ ﴾ : الْمَلَائِكَةُ ،

---

(١) صحيح لشواهده : وقد أخرجه الترمذي (٣٣٣١) ، والطبري (٣٠/ ٣٢) ، وغيرهما ، وقد أُعل بالإرسال لكن له شواهد يصح بها .

(٢) البخاري (٦١٧) ، ومسلم (١٠٩٢) .

(٣) البخاري في تفسير سورة عبس قبل حديث رقم (٤٩٣٧) .

وَاحِدُهُمْ سَافِرَةٌ سَفَرْتُ : أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ ، وَجُعِلَتِ الْمَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللهِ تَعَالَى وَتَأْدِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ . ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أَيْ : خَلْقُهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ ، وَأَخْلَاقُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَّةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ .

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**))[1].

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ لُعِنَ الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا لِجِنْسِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ ؛ لِكَثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الِاسْتِبْعَادِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أَيْ : مَا أَشَدُّ كُفْرَهُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَهُ كَافِرًا ؟ أَيْ : مَا حَمَلَهُ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ مَا أَلْعَنَهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا بَدَأَهُ فَقَالَ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أَيْ : قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] أَيْ : بَيَّنَّاهُ لَهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَسَهَّلْنَا عَلَيْهِ عِلْمَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

---

(١) البخاري (٤٩٣٧) ، ومسلم (حديث ٧٩٨) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُم أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أَيْ : إِنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ ﴿ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ ذَا قَبْرٍ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : قَبَرْتُ الرَّجُلَ إِذَا وَلِّي ذَلِكَ مِنْهُ ، وَأَقْبَرَهُ اللهُ ، وَعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّوْرِ ، وَأَعْضَبَهُ اللهُ ، وَبَتَرْتُ ذَنَبَ الْبَعِيرِ وَأَبْتَرَهُ اللهُ : وَطَرَدْتُ عَنِّي فُلَانًا ، وَأَطْرَدَهُ اللهُ . أَيْ : جَعَلَهُ طَرِيدًا ، قَالَ الْأَعْشَى :

لَوْ أَسْنَدْتَ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِها عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أَيْ : بَعَثَهُ بَعْد مَوْتِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ((**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : كَلَّا ، لَيْسَ الْأَمْرُ بِقَوْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ الله عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ يَقُولُ : لَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لِرَبِّهِ ﷻ. وَالَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ ثُم إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أَيْ : بَعَثَهُ ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ حَتَّى تَنْقَضِي الْمُدَّةُ ، وَيَفْرُغُ الْقَدَرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ اللهُ أَنْ سَيُوجَدُ مِنْهُمْ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدَرًا ، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ الله أَنْشَرَ اللهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ .

وَقَالَ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ فِيهِ امْتِنَانٌ ، وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَمَا كَانَتْ عِظَامًا بَالِيَةً وَتُرَابًا مُتَمَزِّقًا ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أَيْ : أَسْكَنَّاهُ فِيهَا فَدَخَلَ فِي تُخُومِهَا ، وَتَخَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الْحَبِّ الْمُودَعِ فِيهَا ، فَنَبَتَ وَارْتَفَعَ ، وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فَالْحَبُّ : كُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنَ الْحُبُوبِ ، وَالْعِنَبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْقَضْبُ هُوَ : الْفِصْفِصَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً ، وَيُقَالُ لَهَا : الْقَتُّ أَيْضًا ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** :

(١) البخاري (٤٨١٤) ، ومسلم (٢٩٥٥) .

الْقَضْبُ : الْعَلَفُ . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أُدْمٌ وَعَصِيرُهُ أُدْمٌ ، وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ ، وَيُدَّهَنُ بِهِ ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا بُسْرًا وَرُطَبًا ، وَتَمْرًا ، وَنِيئًا ، وَمَطْبُوخًا ، وَيُعْتَصَرُ مِنْهُ رُبٌّ وَخَلٌّ ﴿ وَحَدَآئِقَ ﴾ أَيْ : بَسَاتِينَ ﴿ غُلْبًا ﴾ نَخْلٌ غِلَاظٌ كِرَامٌ ، **وَقِيلَ** : الحَدَائِقَ : كُلُّ مَا الْتَفَّ وَاجْتَمَعَ ﴿ غُلْبًا ﴾ الشَّجَرُ الَّذِي يُسْتَظَلُّ بِهِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ غُلْبًا ﴾ أَيْ : طِوَالٌ ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ غُلْبًا ﴾ أَيْ : غِلَاظُ الْأَوْسَاطِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : غِلَاظُ الرِّقَابِ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الرَّجُلِ إِذَا كَانَ غَلِيظَ الرَّقَبَةِ . **قِيلَ** : وَاللهِ إِنَّهُ لَأَغْلَبُ . ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَهُوَ كُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِنَ الثِّمَارِ . الْفَاكِهَةُ : كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا ، وَالْأَبُّ : مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، مِمَّا يَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْحَشِيشُ لِلْبَهَائِمِ : وَالْأَبُّ : الْكَلَأُ ، **وقِيلَ** : الْأَبُّ لِلْبَهَائِمِ كَالْفَاكِهَةِ لِبَنِي آدَمَ . **وَعَنْ عَطَاءٍ** : كُلُّ شَيْءٍ نَبَتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَهُوَ أَبٌّ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : كُلُّ شَيْءٍ أَنْبَتَتْهُ الْأَرْضُ سِوَى الْفَاكِهَةِ فَهُوَ الْأَبُّ .

فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ[1] : عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قَالَ : قَدْ عَرَفْنَا الْفَاكِهَةَ فَمَا الْأَبُّ ؟ فَقَالَ : لَعَمْرُكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ . فَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ، وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ أَنَسٍ بِهِ . وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجِنْسَهُ وَعَيْنَهُ وَإِلَّا فَهُوَ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أَيْ : عِيشَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾

---

(١) قد صح هذا عن عمر ﷺ من عدة وجوه .

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، عَظَّمَهُ اللهُ وَحَذَّرَهُ عِبَادَهُ . **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : لَعَلَّهُ اِسْمٌ لِلنَّفْخَةِ فِي الصُّورِ ، **وَقَالَ الْبَغَوِيُّ** : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ يَعْنِي : صَيْحَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّهَا تَصُخُّ الأَسْمَاعَ ، أَيْ : تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تُصِمُّهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ أَيْ : يَرَاهُ ، وَيَفِرَّ مِنْهُ ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ ؛ لأَنَّ الْهَوْلَ عَظِيمٌ ، وَالْخَطْبَ جَلِيلٌ . **قَالَ قَتَادَةُ** : الْأَحَبُّ فَالْأَحَبُّ ، وَالْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ ، مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أَيْ : هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ . **عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ**[1] **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً مُشَاةً غُرْلًا** » قَالَ : فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ : يَا رَسُولَ اللهِ نَنْظُرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ ؟ قَالَ : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أَوْ قَالَ : « **مَا أَشْغَلَهُ عَنِ النَّظَرِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أَيْ : يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ فَرِيقَيْنِ « وُجُوهٌ مُسْفِرَةٌ » أَيْ : مُسْتَنِيرَةٌ ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أَيْ : مَسْرُورَةٌ فَرِحَةٌ مِنْ سُرُورِ قُلُوبِهِمْ ، قَدْ ظَهَرَ الْبِشْرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أَيْ : يَعْلُوهَا وَتَغْشَاهَا قَتَرَةٌ ، أَيْ : سَوَادٌ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ أَيْ : الْكَفَرَةُ قُلُوبُهُمْ ، الْفَجَرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ عَبَسَ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) صحيح لشواهده : وانظر نحوه في البخاري (٦٥٢٨) ، ومسلم (٢٨٥٩) و غيرهما .

تفسيرُ سُورَةِ التكْوِيرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : أَظْلَمَتْ ، **وَقِيلَ** : ذَهَبَتْ ، **وَقِيلَ** : ذَهَبَ ضَوْؤُهَا ، **وَقِيلَ** : رُمِيَ بِهَا . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّكْوِيرَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ ، وَهُوَ لَفُّهَا عَلَى الرَّأْسِ ، وَكَتَكْوِيرِ الكَارِهِ وَهِيَ جَمْعُ الثِّيَابِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جُمِعَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لُفَّتْ فَرُمِيَ بِهَا ، وَإِذَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضَوْؤُهَا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أَيْ : اِنْتَثَرَتْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار : ٢]، وَأَصْلُ الإِنْكِدَارِ الإِنْصِبَابُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أَيْ : زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ ، فَتُرِكَتِ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ ﴾ عِشَارُ الْإِبِلِ . ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تُرِكَتْ وَسُيِّبَتْ ، وَأَهْمَلَهَا أَهْلُهَا ، **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ** : لَمْ تُحْلَبْ وَلَمْ تُصَرَّ ، تَخَلَّى عَنْهَا أَرْبَابُهَا . **وَقَالَ**

---

(١) البخاري (٣٢٠٠) .

الضَّحَّاكُ : تُرِكَتْ لَا رَاعِيَ لَهَا ، وَالمَعْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ مُتَقَارِبٌ .

وَالمَقْصُودُ أَنَّ الْعِشَارَ مِنَ الإِبِلِ ، وَهِيَ : خِيَارُهَا وَالحَوَامِلُ مِنْهَا الَّتِي قَدْ وَصَلَتْ فِي حَمْلِهَا إِلَى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ ، وَاحِدُهَا : عُشَرَاءُ ، وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ اسْمُهَا حَتَّى تَضَعُ . قَدِ اشْتَغَلَ النَّاسُ عَنْهَا وَعَنْ كَفَالَتِهَا وَالاِنْتِفَاعِ بِهَا ، بَعْدَمَا كَانُوا أَرْغَبَ شَيْءٍ فِيهَا ، بِمَا دَهَمَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْمُفْظِعِ الْهَائِلِ ، وَهُوَ أَمْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَانْعِقَادُ أَسْبَابِهَا ، وَوُقُوعُ مُقَدِّمَاتِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أَيْ : جُمِعَتْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذُّبَابُ ، **وَقِيلَ** : حَشْرُهَا مَوْتُهَا . **وَقِيلَ** : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ اخْتَلَطَتْ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالْأَوْلَى قَوْلُ مَنْ قَالَ : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ جُمِعَتْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص : ١٩] أَيْ : مَجْمُوعَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قَالَ عَلِيٌّ ﷺ لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ : أَيْنَ جَهَنَّمُ ؟ قَالَ : الْبَحْرُ . فَقَالَ : مَا أُرَاهُ إِلَّا صَادِقًا ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور : ٦] « وَإِذَا البِحَارُ سُجِرَتْ » مُخَفَّفَةً . **وَقِيلَ** : ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ أُوقِدَتْ ، **وقِيلَ** : يَبِسَتْ ، **وَقِيلَ** : فُجِّرَتْ ، **وَقِيلَ** : فَاضَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أَيْ : جُمِعَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ هَكَذَا قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ ﴿ سُئِلَتْ ﴾ . **وَالمَوْءُودَةُ** : هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ كَرَاهِيَةَ البَنَاتِ ، فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ تُسْأَلُ المَوْءُودَةُ : عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلِهَا ، فَإِذَا سُئِلَ المَظْلُومُ فَمَا ظَنُّ الظَّالِمِ إِذًا ؟ **وَقِيلَ** : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ أَيْ : سَأَلَتْ ، أَيْ : طَالَبَتْ بِدَمِهَا . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تَتَعَلَّقُ بِالمَوْءُودَةِ .

عَنْ عَائِشَةَ عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ - أُخْتُ عُكَّاشَةَ - قَالَتْ : حَضَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ : « **لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ**

وَفَارِسَ ، فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا » . ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنِ الْعَزْلِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ »[1] وَهُوَ الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قِيلَ : أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، تُمْلِي فِيهَا ، ثُمَّ تُطْوَى ، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : اُجْتُذِبَتْ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : كُشِفَتْ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : تَنْكَشِطُ فَتَذْهَبُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : أُحْمِيَتْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أُوقِدَتْ . قَالَ : وَإِنَّمَا يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي : قُرِّبَتْ إِلَى أَهْلِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ ، أَيْ : إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ حِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَأُحْضِرَ ذَلِكَ لَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣]

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) مسلم (١٤٤٢) .

عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ[1] : صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الصُّبْحَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ .

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْعَرَةَ ، سَمِعْتُ عَلِيًّا وَسُئِلَ عَنْ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ فَقَالَ : هِيَ النُّجُومُ تَخْنَسُ بِالنَّهَارِ وَتَكْنُسُ بِاللَّيْلِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ : إِنَّمَا قِيلَ لِلنُّجُومِ الْخُنَّسُ ، أَيْ : فِي حَالِ طُلُوعِهَا ، ثُمَّ هِيَ جَوَارٍ فِي فَلَكِهَا ، وَفِي حَالِ غَيْبُوبَتِهَا يُقَالُ لَهَا كُنَّسٌ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : أَوَى الظَّبْيُ إِلَى كِنَاسِهِ إِذَا تَغَيَّبَ فِيهِ . **وَقِيلَ** : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ أَيْ : بَقَرُ الْوَحْشِ .

وَعَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ ، مَا هِيَ يَا عَمْرُو ؟ قُلْتُ : الْبَقَرُ ، قَالَ : وَأَنَا أَرَى ذَلِكَ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ قَالَ : الْبَقَرُ تَكْنُسُ إِلَى الظِّلِّ .

وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ هَلْ هُوَ النُّجُومُ ، أَوِ الظِّبَاءُ وَبَقَرُ الْوَحْشِ ؟ قَالَ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إِقْبَالُهُ بِظَلَامِهِ ، وَالْآخَرُ : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ إِذَا أَدْبَرَ ، وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ الْآخِيرَ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أَيْ : أَضَاءَ .

وَعِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ إِذَا أَقْبَلَ ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ أَيْضًا ، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ ، كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١ - ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى : ١ - ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ : إِنَّ لَفْظَةَ ﴿ عَسْعَسَ ﴾ تُسْتَعْمَلُ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ عَلَى وَجْهِ الِاشْتِرَاكِ ، فَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ كُلٌّ مِنْهُمَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إِذَا طَلَعَ .

---

(١) مسلم (٤٧٥) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَبْلِيغُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، أَيْ : مَلَكٌ شَرِيفٌ حَسَنُ الْخَلْقِ بَهِيُّ الْمَنْظَرِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ ﷺ . ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم : ٥ - ٦] أَيْ : شَدِيدُ الْخَلْقِ ، شَدِيدُ الْبَطْشِ وَالْفِعْلِ ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أَيْ : لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللهِ ﷻ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ . ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أَيْ : لَهُ وَجَاهَةٌ ، وَهُوَ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ مُطَاعٌ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى . قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أَيْ : فِي السَّمَاوَاتِ ، يَعْنِي : لَيْسَ مِنْ أَفْنَادِ الْمَلَائِكَةِ ، بَلْ هُوَ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ مُعْتَنًى بِهِ ، انْتُخِبَ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمِينٍ ﴾ صِفَةٌ لِجِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ ، وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا أَنَّ الرَّبَّ ﷻ يُزَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَلَكِيَّ جِبْرِيلَ ، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْبَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يَعْنِي : وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنِ اللهِ ﷻ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : الْبَيِّنُ ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٥ - ١٠] ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ ﷺ .

وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةَ وَهِيَ الْأُولَى ، أَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ - ١٦] فَتِلْكَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ النَّجْمِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أَيْ : وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ بِظَنِينٍ ، أَيْ : بِمُتَّهَمٍ ، وَقِيلَ : أَيْ : بِبَخِيلٍ ، بَلْ يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ .

قَالَ **سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ** : ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ ، أَيْ : مَا هُوَ بِكَاذِبٍ ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ . وَالظَّنِينُ : الْمُتَّهَمُ ، وَالضَّنِينُ : الْبَخِيلُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَانَ الْقُرْآنُ غَيْبًا ، فَأَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ بَلْ نَشَرَهُ وَبَلَّغَهُ وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمَا هَذَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ ، وَلَا يُرِيدُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيْ : فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ كِتَابِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَّعِظُونَ ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ مَنْجَاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ ، وَلَا هِدَايَةَ فِيمَا سِوَاهُ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتِ الْمَشِيئَةُ مَوْكُولَةً إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة الانفطار
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ أَيْ : انْشَقَّتْ ، ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ أَيْ : تَسَاقَطَتْ . ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : فَجَّرَ اللهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اخْتَلَطَ عَذْبُهَا بِمَالِحِهَا . ﴿ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : بُحِثَتْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : تُبَعْثَرُ : تُحَرَّكُ فَيَخْرُجُ مَنْ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَ هَذَا حَصَلَ هَذَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ ، وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، أَيْ : الْعَظِيمِ ، حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ ؟ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : غَرَّهُ - وَاللهِ - جَهْلُهُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ شَيْءٌ مَا غَرَّ ابْنَ آدَمَ ، وَهَذَا الْعَدُوُّ الشَّيْطَانُ . **وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ** : لَوْ قَالَ لِي : مَا غَرَّكَ بِي ؟ لَقُلْتُ : سُتُورُكَ الْمُرْخَاةُ . **وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ** : لَوْ قَالَ لِي ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ لَقُلْتُ : غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ . **قَالَ الْبَغَوِيُّ** : وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْإِشَارَةِ : إِنَّمَا قَالَ : ﴿ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ دُونَ سَائِرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، كَأَنَّهُ لَقَّنَهُ الْإِجَابَةَ ، وَهَذَا الَّذِي تَخَيَّلَهُ هَذَا الْقَائِلُ لَيْسَ بِطَائِلٍ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى بِاسْمِهِ ﴿ ٱلۡكَرِيمِ ﴾

لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ الْكَرِيمُ بِالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَأَعْمَالِ السُّوءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَيْ : مَا غَرَّكَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أَيْ : جَعَلَكَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ .

عَنْ بُسْرِ بْنِ جِحَاشٍ الْقُرَشِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **قَالَ اللهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟** »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فِي أَيِّ شَبَهِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ ، أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ . فِي الصَّحِيحَيْنِ[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ . قَالَ : « **هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟** » قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : « **فَمَا أَلْوَانُهَا ؟** » قَالَ : حُمْرٌ . قَالَ : « **فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ ؟** » قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : « **فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ ؟** » قَالَ : عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ . قَالَ : « **وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ** » .

وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ إِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ قِرْدٍ ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خِنْزِيرٍ ، **وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ** : فِي صُورَةِ كَلْبٍ ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ حِمَارٍ ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خِنْزِيرٍ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ قَالَ : قَادِرٌ وَاللهِ رَبُّنَا عَلَى ذَلِكَ .

وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ : أَنَّ اللهَ ﷻ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلٍ قَبِيحٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْكَرَةِ الْخَلْقِ ، وَلَكِنْ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ وَحِلْمِهِ يَخْلُقُهُ عَلَى شَكْلٍ حَسَنٍ مُسْتَقِيمٍ مُعْتَدِلٍ تَامٍّ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ وَالْهَيْئَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالْمَعَاصِي ، تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم في سورة النحل .

(٢) البخاري (٥٣٠٥) ، ومسلم (١٥٠٠) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يَعْنِي : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةً حَفَظَةً كِرَامًا كَاتِبِينَ فَلَا تُقَابِلُوهُمْ بِالْقَبَائِحِ ، فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ وَهُمُ الَّذِينَ أَطَاعُوا الله ﷻ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِالمَعَاصِي ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُقِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْقِيَامَةِ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، وَلَا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الرَّاحَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ، وَنَذْكُرُ هَاهُنَا حَدِيثَ : « **يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا** »[1] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ « سُورَةِ الشُّعَرَاءِ » وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[غافر : ١٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾[الفرقان : ٢٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[الفاتحة : ٤] قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، وَالْأَمْرُ وَاللهِ الْيَوْمَ للهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الِانْفِطَارِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

تفسيرُ سُورَةِ المُطَفِّفِينَ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَعَنْ هِلَالِ بْنِ طَلْقٍ قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ هَيْئَةً وَأَوْفَاهُمْ كَيْلًا ، أَهْلُ مَكَّةَ أَوْ أَهْلُ المَدِينَةِ ؟ قَالَ : حُقٌّ لَهُمْ ، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وَالمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ هَاهُنَا : الْبَخْسُ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ ، إِمَّا بِالازْدِيَادِ إِنِ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ ، وَإِمَّا بِالنُّقْصَانِ إِنْ قَضَاهُمْ ، ولِهَذَا فَسَّرَ - تَعَالَى - المُطَفِّفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالخَسَارِ وَالهَلَاكِ ، وَهُوَ الوَيْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّاسِ ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أَيْ : يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أَيْ : يُنْقِصُونَ ، وَالأَحْسَنُ أَنْ يُجْعَلَ « كَالُوا » وَ « وَزَنُوا » مُتَعَدِّيًا ، وَيَكُونَ « هُمْ » فِي مَحَلِّ نَصْبٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا ضَمِيرًا مُؤَكِّدًا لِلْمُسْتَتَرِ فِي قَوْلِهِ « كَالُوا » وَ « وَزَنُوا » ، وَيَحْذِفُ المَفْعُولَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ ، وَكِلَاهُمَا مُتَقَارِبٌ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالمِيزَانِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ،

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٩]، وَأَهْلَكَ اللهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ وَدَمَّرَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ فِي الْمِيزَانِ وَالْمِكْيَالِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ أَيْ : أَمَا يَخَافُ أُولَئِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ فِي يَوْمٍ عَظِيمِ الْهَوْلِ ، كَثِيرِ الْفَزَعِ ، جَلِيلِ الْخَطْبِ ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : يَقُومُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ ، حَرِجٍ ضَيِّقٍ ، ضَنْكٍ عَلَى الْمُجْرِمِ ، وَيَغْشَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى مَا تَعْجِزُ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ عَنْهُ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**))[1].

وَعَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ ، حَتَّى تَكُونَ قَدْرَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ ، قَالَ : فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ ، فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا**))[2].

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ

---

(١) البخاري (٤٩٣٨) ، ومسلم (٢٨٦٢) .

(٢) مسلم (حديث ٢٨٦٤) ، وأحمد (٦/ ٣-٤) .

لَفِي سِجِّينٍ – فِعِّيلٌ مِنَ السِّجْنِ – وَهُوَ الضِّيقُ ، كَمَا يُقَالُ : فِسِّيقٌ وَشِرِّيبٌ وَخِمِّيرٌ وَسِكِّيرٌ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرَهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ : ((**يَقُولُ اللهُ** ﷻ **فِي رُوحِ الْكُفَّارِ : اُكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ**))[1].

وَسِجِّينٌ : هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، **وَقِيلَ** : صَخْرَةٌ تَحْتَ السَّابِعَةِ خَضْرَاءُ ، **وَقِيلَ** : بِئْرٌ فِي جَهَنَّمَ . وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيقَ وَالسُّفُولَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾[الفرقان : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى سِجِّينٍ ، أَيْ : مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، لَا يُزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ أَحَدٌ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللهُ مِنَ السِّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿ وَيْلٌ ﴾ الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ ، كَمَا يُقَالُ : وَيْلٌ لِفُلَانٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفُجَّارِ الْكَفَرَةِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِوُقُوعِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ ، مِنْ تَعَاطِي الْحَرَامِ ، وَالْمُجَاوَزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ ، وَالْأَثِيمُ فِي أَقْوَالِهِ : إِنْ حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ ، يُكَذِّبُ بِهِ ، وَيَظُنُّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفرقان : ٥]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ

---

(١) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم الآية (٢٧) .

كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرَّيْنِ الَّذِي قَدْ لَبِسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وَالرَّيْنُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ ، وَالْغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ ، وَالْغَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى** ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ »(١).

وَلَفْظُ النَّسَائِيِّ « **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ ، حَتَّى يَعْمَى الْقَلْبُ فَيَمُوتُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلٌ وَنُزُلُ سِجِّينٍ ، ثُمَّ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ ذَلِكَ مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ .

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ ﷻ يَوْمَئِذٍ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي غَايَةِ الْحُسْنِ ، وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] ، وَكَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ ﷻ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، رُؤْيَةً بِالْأَبْصَارِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجِنَانِ الْفَاخِرَةِ .

قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْحِرْمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَهْلِ النِّيرَانِ ﴿ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّصْغِيرِ وَالتَّحْقِيرِ .

---

(١) سنده حسن : أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) ، والطبري (٣٠٤) ، و غيرهما .

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : حَقًّا ﴿ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ، وَهُمْ بِخِلَافِ الْفُجَّارِ ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُمْ إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَهُوَ بِخِلَافِ سِجِّين .

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ من العُلَماءِ : سِجِّينُ : هِيَ الْأَرْضُ السَّابِعَةُ ، وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ . و ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ هِيَ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقِيلَ : ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةُ . وَفِي رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ ، عَنْهُ : أَعْمَالُهُمْ فِي السَّمَاءِ عِنْدَ الله ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : عِلِّيُّونَ : سَاقُ الْعَرْشِ الْيُمْنَى ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : عِلِّيُّونَ : عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعُلُوِّ ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا أَمْرَهُ وَمُفَخِّمًا شَأْنَهُ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِمَا كُتِبَ لَهُمْ : ﴿ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وَهِيَ : السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ فِي مُلْكِهِمْ ، وَمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقَضِي وَلَا يَبِيدُ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إِلَى الله ﷻ ، وَهَذَا مُقَابِلٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ أُولَئِكَ الْفُجَّارُ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فَذَكَرَ عَنْ هَـٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُبَاحُوْنَ النَّظَرَ إِلَى الله ﷻ وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ وَفُرُشِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، أَيْ : صِفَةَ التَّرَافَةِ وَالْحِشْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالدَّعَـةِ وَالرِّيَاسَةِ ،

مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أَيْ : يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالرَّحِيقُ : مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ أَيْ : خِلْطُهُ مِسْكٌ . وَقِيلَ : عَاقِبَتُهُ مِسْكٌ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ قَالَ : طِيبُهُ مِسْكٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ أَيْ : وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ فَلْيَتَفَاخَرِ الْمُتَفَاخِرُونَ ، وَلْيَتَبَاهَ وَيُكَاثِرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ الْمُسْتَبِقُونَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾[الصافات : ٦١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أَيْ : وَمِزَاجُ هَذَا الرَّحِيقِ الْمَوْصُوفِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، أَيْ : مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ : تَسْنِيمٌ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أَيْ : يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا ، وَتُمْزَجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ ، وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِمْ ، أَيْ : مُحْتَقِرِينَ لَهُمْ ، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ أَيْ : وَإِذَا انْقَلَبَ ، أَيْ : رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَكِهِينَ ، أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ اشْتَغَلُوا بِالْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَحْسُدُونَهُمْ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ أَيْ : لِكَوْنِهِمْ عَلَى غَيْرِ دِينِهِمْ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا بُعِثَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ

حَافِظِينَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَلَا كُلِّفُوا بِهِمْ ؟ فَلِمَ اشْتَغَلُوا بِهِمْ ، وَجَعَلُوهُمْ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨-١١١]

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أَيْ : فِي مُقَابَلَةِ مَا ضَحِكَ بِهِمْ أُولَئِكَ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى اللهِ ﷻ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ زَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ وَلَيْسُوا بِضَالِّينَ ، بَلْ هُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ : هَلْ جُوزِيَ الْكُفَّارُ عَلَى مَا كَانُوا يُقَابِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّنْقِيصِ أَمْ لَا ؟ يَعْنِي : قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة الانشقاق
وهي مكية

عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ فَسَجَدَ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذِهِ السَّجْدَةُ ؟ قَالَ : سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ [1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ [2] قَالَ : سَجَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ وَ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أَيْ : اِسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنَ الانْشِقَاقِ ، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أَيْ : وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرَهُ ؛ لأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أَيْ : بُسِطَتْ ، وَفُرِشَتْ وَوُسِّعَتْ .

---

(١) البخاري (٧٦٦) ، ومسلم (٥٧٨) .

(٢) مسلم (٥٧٨) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أَيْ : أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ، وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أَيْ : سَاعٍ إِلَى رَبِّكَ سَعْيًا ، وَعَامِلٌ عَمَلًا ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلْقَى مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعِيدُ الضَّمِيرَ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : فَمُلَاقٍ رَبَّكَ ، وَمَعْنَاهُ : فَيُجَازِيكَ بِعَمَلِكَ وَيُكَافِئُكَ عَلَى سَعْيِكَ ، وَعَلَى هَذَا فَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَلَازِمٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ إِنَّ كَدْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ لَضَعِيفٌ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكُونَ كَدْحُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ فَلْيَفْعَلْ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا بِلَا تَعْسِيرٍ ، أَيْ : لَا يُحَقَّقُ عَلَيْهِ جَمِيعِ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ ، فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ يَهْلَكُ لَا مَحَالَةَ . عَنْ عَائِشَةَ [١] - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**)) قَالَتْ : فَقُلْتُ : أَلَيْسَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قَالَ : ((**لَيْسَ ذَاكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الْعَرْضُ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : وَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : فَرِحًا مُغْتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ ﷻ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أَيْ : بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، تُثْنَى يَدُهُ إِلَى وَرَائِهِ وَيُعْطَى كِتَابَهُ بِهَا كَذَلِكَ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ أَيْ : خَسَارًا وَهَلَاكًا ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أَيْ : فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْيَسِيرُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أَيْ : كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَالْحَوَرُ : هُوَ الرُّجُوعُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ يَعْنِي : بَلَى سَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا بَدَأَهُ ، وَيُجَازِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ، أَيْ : عَلِيمًا خَبِيرًا .

---

(١) البخاري (٤٩٣٩) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الشَّفَقُ : الْحُمْرَةُ . فَالشَّفَقُ : هُوَ حُمْرَةُ الْأُفُقِ إِمَّا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَإِمَّا بَعْدَ غُرُوبِهَا ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ** »[١].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَقْسَمَ اللهُ بِالنَّهَارِ مُدْبِرًا ، وَبِاللَّيْلِ مُقْبِلًا . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الشَّفَقُ اسْمٌ لِلْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، وَقَالُوا : هُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ . ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وَمَا جَمَعَ ، أَيْ : مِنْ نَجْمٍ وَدَابَّةٍ ، وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يَقُولُ : مَا سَاقَ مِنْ ظُلْمَةٍ ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَأْوَاهُ ، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ إِذَا اجْتَمَعَ وَاسْتَوَى . **قَالَ الْحَسَنُ** : إِذَا اجْتَمَعَ ، إِذَا امْتَلأَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا اسْتَدَارَ ، وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ ، جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ ، وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ[٢] ، وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَنْ يَكُونَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَسْنَدَ هَذَا التَّفْسِيرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، كَأَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ هَذَا مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ : « نَبِيُّكُمْ » مَرْفُوعًا عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ مِنْ « قَالَ » وَهُوَ الْأَظْهَرُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، كَمَا قَالَ أَنَسٌ : لَا يَأْتِي عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ[٣] ﷺ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما **قَالَ**[٤]: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ : يَعْنِي : نَبِيُّكُمْ ﷺ يَقُولُ :

---

(١) مسلم في طرق حديث رقم (٦١٢) .

(٢) البخاري (٤٩٤٠) .

(٣) البخاري (٧٠٦٨) .

(٤) **صحيح** . عن ابن عباس رضي الله عنهما

حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، هَذَا لَفْظُهُ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ . قَالَ هَذَا . يَعْنِي الْمُرَادُ بِهَذَا نَبِيَّكُمْ ﷺ فَيَكُونُ مَرْفُوعًا عَلَى أَنَّ « هَذَا » وَ « نَبِيُّكُمْ » يَكُونَانِ مُبْتَدَأً وَخَبَرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ هُوَ الْمُتَبَادِرُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الرُّوَاةِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ : مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قِرَاءَةُ عُمَرَ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَامَّةِ أَهْلِ مَكَّةَ وَالْكُوفَةِ « لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا » بِفَتْحِ التَّاءِ وَالْبَاءِ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ : لَتَرْكَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ . وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَقِيلَ : حَالًا بَعْدَ حَالٍ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قَالَ : قَوْمٌ كَانُوا فِي الدُّنْيَا خَسِيسٌ أَمْرُهُمْ ، فَارْتَفَعُوا فِي الْآخِرَةِ ، وَآخَرُونَ كَانُوا أَشْرَافًا فِي الدُّنْيَا ، فَاتَّضَعُوا فِي الْآخِرَةِ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، فَطِيمًا بَعْدَمَا كَانَ رَضِيعًا ، وَشَيْخًا بَعْدَمَا كَانَ شَابًّا .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يَقُولُ : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، رَخَاءً بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَشِدَّةً بَعْدَ رَخَاءٍ ، وَغِنًى بَعْدَ فَقْرٍ ، وَفَقْرًا بَعْدَ غِنًى ، وَصِحَّةً بَعْدَ سَقَمٍ ، وَسَقَمًا بَعْدَ صِحَّةٍ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَمَا حَكَى أَقْوَالَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ : وَالصَّوَابُ مِنَ التَّأْوِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : لَتَرْكَبَنَّ أَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَأَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ مُوَجَّهًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - جَمِيعُ النَّاسِ ، وَأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ مِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ أَحْوَالًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ أَيْ : فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؟ وَمَا لَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ وَكَلَامُهُ - وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ - لَا يَسْجُدُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبُ ، وَالْعِنَادُ

وَالْمُخَالَفَةُ لِلْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ بِأَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هَذَا اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، يَعْنِي : لَكِنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، أَيْ : بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قِيلَ : غَيْرُ مَنْقُوصٍ ، وَقِيلَ : غَيْرُ مَحْسُوبٍ ، وَحَاصِلُ قَوْلِهِمَا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ : قَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ عَنْ بَعْضِهِمْ قَدْ أَنْكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَهُ الْمِنَّةُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ حَالٍ وَآنٍ وَلَحْظَةٍ ، وَإِنَّمَا دَخَلُوهَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ، فَلَهُ عَلَيْهِمُ الْمِنَّةُ دَائِمًا سَرْمَدًا ، وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ أَبَدًا ، وَلِهَذَا يُلْهَمُونَ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الإِنْشِقَاقِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة البروج
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ ﴾

يُقْسِمُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَبُرُوجِهَا ، وَهِيَ : النُّجُومُ الْعِظَامُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الفرقان : ٦١]. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا : مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ بُرْجًا ، تَسِيرُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَهْرًا ، وَيَسِيرُ الْقَمَرُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَوْمَيْنِ وَثُلُثًا ، فَذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَنْزِلَةً وَيَسْتَتِرُ لَيْلَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ ، **فَقِيلَ** : ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ وَشَاهِدٖ ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ وَمَشۡهُودٖ ﴾ يَوْمُ عَرَفَةَ . **وَقِيلَ** : الشَّاهِدُ : مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء : ٤١]، وَالْمَشْهُودُ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ [هود : ١٠٣]، **وَقِيلَ** : الشَّاهِدُ : مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْمَشْهُودُ : يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، **وَقِيلَ** : الشَّاهِدُ : الْإِنْسَانُ ، وَالْمَشْهُودُ : يَوْمُ الْجُمُعَةِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ أَيْ : لُعِنَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ ،

وَهِيَ الْحَفِيرُ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا خَبَرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالله ﷻ ، فَقَهَرُوهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ ، فَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُخْدُودًا ، وَأَجَّجُوا فِيهِ نَارًا ، وَأَعَدُّوا لَهَا وَقُودًا يُسَعِّرُونَهَا بِهِ ، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَذَفُوهُمْ فِيهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أَيْ : مُشَاهِدُونَ لِمَا يُفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أَيْ : وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا إِيمَانُهُمْ بِالله الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِجَنَابِهِ ، الْمَنِيعُ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَى عِبَادِهِ هَؤُلَاءِ هَذَا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ، وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ إِنَّهُ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

عَنْ صُهَيْبٍ[١] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ السَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي ، فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأُعَلِّمَهُ السِّحْرَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ ، فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ ، وَقَالَ : مَا حَبَسَكَ ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ ، وَقَالُوا : مَا حَبَسَكَ ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ ، فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ : حَبَسَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ : حَبَسَنِي السَّاحِرُ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا ، فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى الله أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ ؟ قَالَ : فَأَخَذَ حَجَرًا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنَ السَّاحِرِ**

---

(١) مسلم (حديث ٣٠٠٥) .

فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا ، وَمَضَى النَّاسُ فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ ، فَسَمِعَ بِهِ ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ : اِشْفِنِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ ، فَقَالَ : مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ﷻ ، فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ فَدَعَا اللهَ فَشَفَاهُ . ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ فَقَالَ : رَبِّي ، فَقَالَ : أَنَا ؟ قَالَ : لَا ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءَ ؟ قَالَ : مَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ﷻ ، قَالَ : أَنَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَأَتَى بِالرَّاهِبِ ، فَقَالَ : اِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى : اِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ إِلَى الْأَرْضِ . وَقَالَ لِلْغُلَامِ : اِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى ، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا ، وَقَالَ : إِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَدُهْدِهُوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللهُ تَعَالَى ، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ فَقَالَ : إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَغَرِّقُوهُ فِي الْبَحْرِ ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللهُ تَعَالَى . ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي ، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ قُلْ : بِسْمِ اللهِ رَبِّ

الْغُلَام ، فَإِنَّك إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي . فَفَعَلَ ، وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَاهُ ، وَقَالَ : بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَام ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ فَقَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ فِيهَا الْأَخَادِيدُ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ ، وَقَالَ : مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا ، قَالَ : فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ فِيهَا وَيَتَدَافَعُونَ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ : اِصْبِرِي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ أَيْ : حَرَقُوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ أَيْ : لَمْ يُقْلِعُوا عَمَّا فَعَلُوا وَيَنْدَمُوا عَلَى مَا أَسْلَفُوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : اُنْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ، بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْحَرِيقِ وَالْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : إِنَّ بَطْشَهُ وَانْتِقَامَهُ - مِنْ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ - لَشَدِيدٌ عَظِيمٌ قَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أَيْ : مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ يُبْدِئُ الْخَلْقَ وَيُعِيدُهُ كَمَا بَدَأَهُ ، بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ ، وَلَوْ

كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ، وَالْوَدُودُ . قِيلَ : هُوَ الْحَبِيبُ ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ أَيْ : صَاحِبُ الْعَرْشِ الْمُعَظَّمِ الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَ ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ فِيهِ قِرَاءَتَانِ : الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ ﷻ ، وَالْجَرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ ، وَكِلَاهُمَا مَعْنًى صَحِيحٌ . ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَرَادَ فِعْلَهُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ : هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرُدَّهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ ؟ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا أَخَذَ الظَّالِمَ أَخَذَهُ أَخْذًا أَلِيمًا شَدِيدًا ، أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ أَيْ : هُمْ فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرٌ لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ أَيْ : عَظِيمٌ كَرِيمٌ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ أَيْ : هُوَ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة الطارق
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝﴾

يُقْسِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. **قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ**: إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُرَى بِاللَّيْلِ وَيَخْتَفِي بِالنَّهَارِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[1]: نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا، أَيْ: يَأْتِيهِمْ فَجْأَةً بِاللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ **قِيلَ**: الْمُضِيءُ، **وَقِيلَ**: يَثْقُبُ الشَّيَاطِينَ إِذَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا، **وَقِيلَ**: هُوَ مُضِيءٌ وَمُحْرِقٌ لِلشَّيْطَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ حَافِظٌ يَحْرُسُهَا مِنَ الْآفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تَنْبِيهٌ لِلْإِنْسَانِ عَلَى ضَعْفِ أَصْلِهِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، وَإِرْشَادٌ لَهُ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِالْمَعَادِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ

---

(١) البخاري (٥٢٤٤).

أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ يَعْنِي : المَنِيُّ يَخْرُجُ دَفْقًا مِنَ الرَّجُلِ وَمِنَ المَرْأَةِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ بِإِذْنِ اللهِ ﷻ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ يَعْنِي : صُلْبَ الرَّجُلِ وَتَرَائِبَ المَرْأَةِ وَهُوَ صَدْرُهَا . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ صُلْبُ الرَّجُلِ وَتَرَائِبُ المَرْأَةِ ، أَصْفَرُ رَقِيقٌ ، لَا يَكُونُ الْوَلَدُ إِلَّا مِنْهُمَا . **وَقِيلَ** : تَرِيبَةُ المَرْأَةِ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ ، **وَقِيلَ** : التَّرَائِبُ : بَيْنَ ثَدْيَيْهَا ، **وَقِيلَ** : التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ ، **وَعَنْ قَتَادَةَ** ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ مِنْ بَيْنِ صُلْبِهِ وَنَحْرِهِ ، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ **فِيهِ قَوْلَانِ** :

أَحَدُهُمَا : عَلَى رَجْعِ هَذَا المَاءِ الدَّافِقِ إِلَى مَقَرِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ لَقَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُمَا .

وَالقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّهُ عَلَى رَجْعِ هَذَا الْإِنْسَانِ المَخْلُوقِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ - أَيْ : إِعَادَتُهُ وَبَعْثُهُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ - لَقَادِرٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ هَذَا الدَّلِيلَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَالَ بِهِ الضَّحَّاكُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ، أَيْ : تَظْهَرُ وَتَبْدُو ، وَيَبْقَى السِّرُّ عَلَانِيَةً وَالمَكْنُونُ مَشْهُورًا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُۥ ﴾ أَيْ : الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أَيْ : فِي نَفْسِهِ ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ خَارِجٍ مِنْهُ ، أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ أَحَدٌ ذَلِكَ .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ

---

(١) البخاري (٦١٧٧) ، ومسلم (١٧٣٥) .

ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

الرَّجْعُ : قِيلَ : هُوَ المَطَرُ ، وَقِيلَ : هُوَ السَّحَابُ فِيهِ المَطَرُ ، وَعَنْهُ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ تُمْطِرُ ثُمَّ تُمْطِرُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : تَرْجِعُ رِزْقَ الْعِبَادِ كُلَّ عَامٍ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا وَهَلَكَتْ مَوَاشِيهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : تَرْجِعُ نُجُومُهَا وَشَمْسُهَا وَقَمَرُهَا ، يَأْتِينَ مِنْ هَهُنَا ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ النَّبَاتِ . ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ قِيلَ : حَقٌّ ، وَقِيلَ : حُكْمٌ عَدْلٌ . ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ حَقٌّ جِدٌّ .

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أَيْ : يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ الْقُرْآنِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَنْظِرْهُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أَيْ : قَلِيلًا ، أَيْ : وَسَتَرَى مَاذَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّارِقِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة الأعلى
وهي مكية

عن البراء بن عازب قال[1] : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب ابن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ في سور مثلها .

وثبت في الصحيحين[2] أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : ((**هلا صليت بـ سبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى**)) .

وعن النعمان بن بشير[3] أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعًا .

عن أبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبزى[4] ، وعائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ زادت عائشة : والمعوذتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى

---

(١) البخاري (٤٩٤١) .

(٢) البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) .

(٣) مسلم (حديث ٨٧٨) .

(٤) أحمد في المسند (٣/ ٤٠٦) بسند صحيح .

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ ﴾

عَنْ **عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ**(١) لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤] قَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: « **اِجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ** » ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قَالَ : « **اِجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ** » .

وَعَنْ **أَبِي إِسْحَاقَ الهَمْدَانِيِّ** أَنَّ اِبْنَ عَبَّاسٍ كَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ يَقُول : سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ، وَإِذَا قَرَأَ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة : ١]فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٤٠]يَقُول : سُبْحَانَكَ وَبَلَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أَيْ : خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وَسَوَّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ هَدَى الإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠]أَيْ : قَدَّرَ قَدَرًا ، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزُّرُوعِ ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا ، ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى ، وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ بِأَنَّهُ سَيُقْرِئُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أَيْ : نُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ وَأَقْوَالِهِ ، وَنَشْرَعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمْحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا ، لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أَيْ : ذَكِّرْ حَيْثُ

---

(١) **حسن لشواهده** : أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٢) وابن ماجة (٨٨٧) ، وأحمد (٤/ ١٥٥) .

(٢) **صحيح** : وقد تقدم .

تَنفَعُ التَّذْكِرَةُ ، وَمِنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ فَلَا يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ﷺ : حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ(١) ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : سَيَتَّعِظُ بِمَا تُبَلِّغُهُ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللهَ وَيَعْلَمَ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أَيْ : لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيح ، وَلَا يَحْيَى حَيَاةً تَنْفَعُهُ ، بَلْ هِيَ مُضِرَّةٌ عَلَيْهِ ، لأَنَّ بِسَبَبِهَا يَشْعُرُ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ ، وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا أُنَاسٌ يُرِيدُ اللهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ أَنْصَارَهُ فَيُنْبِتُهُمْ - أَوْ قَالَ - يَنْبُتُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاءِ - أَوْ قَالَ : الْحَيَاةِ ، أَوْ قَالَ : الْحَيَوَانِ ، أَوْ قَالَ : نَهْرِ الْجَنَّةِ - فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ** »(٢) قَالَ : وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَمَّا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ ، ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ ، ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ ؟** » قَالَ : فَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ .

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ أَهْلِ النَّارِ : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى .

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ أَيْ : أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي

---

(١) البخاري (١٢٧) .
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٣ / ٥) ، ومسلم (١٨٥) .

أَوْقَاتِهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله وَطَاعَةً لِأَمْرِ الله ، وَامْتِثَالًا لِشَرْعِ الله . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ زَكَّى مَالَهُ ، وَأَرْضَى خَالِقَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، وَتُبَدُّونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : ثَوَابُ الله فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَانِيَةٌ فَانِيَةٌ ، وَالْآخِرَةُ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى ، وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا ، وَيَتْرُكُ الِاهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ سَبِّحْ اِسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قَالَ : كُلُّهَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ، وَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ قَالَ : وَفَّى إِبْرَاهِيمُ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٣٦-٤٢] الْآيَاتُ إِلَى آخِرِهِنَّ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةَ : قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أَيْ : مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ ، وَهَذَا الَّذِي اِخْتَارَهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبِّحْ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنِ النُّعْمَانِ بْن بَشِيرٍ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمِ الْجُمْعَةِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

الْغَاشِيَةُ : مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . لأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ وَتَعُمُّهُمْ . ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ أَيْ : ذَلِيلَةٌ ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : تَخْشَعُ وَلَا يَنْفَعُهَا عَمَلُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أَيْ : قَدْ عَمِلَتْ عَمَلًا كَثِيرًا ، وَنَصِبَتْ فِيهِ ، وَصَلِيَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً . ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أَيْ : حَارَّةً شَدِيدَةَ الْحَرِّ . ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ أَيْ : قَدِ انْتَهَى حَرُّهَا وَغَلَيَانُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ شَجَرٌ مِنَ النَّارِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الزَّقُّومُ ، **وَقِيلَ** : أَنَّهَا الْحِجَارَةُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الشِّبْرِقُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يَعْنِي : لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ ، وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم في أول سورة الأعلى .

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ فَقَالَ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أَيْ : يُعْرَفُ النَّعِيمُ فِيهَا ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعْيِهَا .

وَقَالَ **سُفْيَانُ** : ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا ، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أَيْ : رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أَيْ : لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةَ لَغْوٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم : ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أَيْ : سَارِحَةٌ ، وَهَذِهِ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ ، يَعْنِي : فِيهَا عُيُونٌ جَارِيَاتٌ .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أَيْ : عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةُ الْفُرُشِ مُرْتَفِعَةُ السُّمْكِ ، عَلَيْهَا الْحُورُ الْعِينُ . قَالُوا : فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرُرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يَعْنِي : أَوَانِي الشُّرْبِ مُعَدَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا.

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ النَّمَارِقُ : الْوَسَائِدُ ، ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الزَّرَابِيُّ : الْبُسُطُ ، وَمَعْنَى : مَبْثُوثَةٌ ، أَيْ : هَهُنَا وَهَهُنَا ، لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فَإِنَّهَا خَلْقٌ عَجِيبٌ وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْحَمْلِ الثَّقِيلِ ، وَتَنْقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ ، وَتُؤْكَلُ ، وَيُنْتَفَعُ بِوَبَرِهَا ، وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا ، وَنُبِّهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبُ دَوَابِّهِمْ كَانَتِ الْإِبِلُ ، **وَكَانَ شُرَيْحُ الْقَاضِي يَقُولُ** : أُخْرُجُوا بِنَا حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ

خُلِقَتْ ؟ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ أَيْ : كَيْفَ رَفَعَهَا اللهُ ﷻ عَنِ الْأَرْضِ هَذَا الرَّفْعَ الْعَظِيمَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق : ٦]

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أَيْ : جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً ، قَائِمَةً ثَابِتَةً رَاسِيَةً لِئَلَّا تَمِيدَ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ .

﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهِّدَتْ ؟ فَنَبَّهَ الْبَدَوِيَّ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ ، وَالسَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ ، وَالْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَهُ ، وَالْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهُ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ، وَأَنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ ، وَهَكَذَا أَقْسَمَ ضِمَامٌ فِي سُؤَالِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ .

عَنْ أَنَسٍ(١) قَالَ : كُنَّا نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ ، فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّهُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : « صَدَقَ » قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ قَالَ : « اللهُ » قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟ قَالَ : « اللهُ » قَالَ : فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَالَ : « اللهُ » قَالَ : فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللهُ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا ؟ قَالَ : « صَدَقَ » قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ ، آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا ؟ قَالَ : « صَدَقَ » قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ؟ قَالَ : « صَدَقَ » قَالَ : ثُمَّ وَلَّى ، فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ » .

---

(١) مسلم (حديث ١٢) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٣)

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أَيْ : فَذَكِّرْ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ؛ وَلِهَـذَا قَالَ : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا** : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ .

عَنْ جَابِرٍ[1] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** ﷻ)) ، **ثُمَّ قَرَأَ** : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أَيْ : تَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِهِ ، وَكَفَرَ بِالْحَقِّ بِجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة : ٣١ - ٣٢] ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أَيْ : مَرْجِعُهُمْ وَمُنْقَلَبُهُمْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أَيْ : نَحْنُ نُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَنُجَازِيهِمْ بِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) مسلم في طرق الحديث (٢١) .

تفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أَمَّا الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الصُّبْحُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً ، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِهِ جَمِيعُ النَّهَارِ . وَاللَّيَالِي الْعَشْرُ : الْمُرَادُ بِهَا عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] مَرْفُوعًا ((**مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**)) يَعْنِي : عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ . قَالُوا : وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : ((**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَنَّ الْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ ، لِكَوْنِهِ التَّاسِعَ ، وَأَنَّ الشَّفْعَ يَوْمَ النَّحْرِ لِكَوْنِهِ الْعَاشِرَ . وَعَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قَالَ : الشَّفْعُ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَالوِتْرُ لَيْلَةَ الأَضْحَى .

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٤٣٨) وله لفظ آخر عند البخاري (٩٦٩) : ((**ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه**)) قالوا : ولا الجهاد ! قال : ((**ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء**)) .

وَعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : الشَّفْعُ أَوْسَطُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَالوِتْرُ آخِرُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ .
وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : ((إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اِسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ)) .
وَقِيلَ : الْخَلْقُ كُلُّهُمْ شَفْعٌ ، وَوِتْرٌ ، أَقْسَمَ تَعَالَى بِخَلْقِهِ .
وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قَالَ : اللهُ وِتْرٌ وَاحِدٌ ، وَأَنْتُمْ شَفْعٌ . وَيُقَالُ : الشَّفْعُ صَلَاةُ الْغَدَاةِ ، وَالْوَتْرُ : صَلَاةُ الْمَغْرِبِ . وَقِيلَ : اللهُ الْوَتْرُ ، وَخَلْقُهُ الشَّفْعُ ، الذَّكَرُ وَالأُنْثَى .
وَعَنْ الحَسَنْ : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ هُوَ الْعَدَدُ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ .
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أَيْ : إِذَا ذَهَبَ . ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أَيْ : لِذِي عَقْلٍ وَلُبٍّ وَحِجًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا ؛ لأَنَّهُ يَمْنَعُ الإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ ، وَمِنْهُ حِجْرُ الْبَيْتِ ؛ لأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّائِفَ مِنَ اللُّصُوقِ بِجِدَارِهِ الشَّامِيِّ ، وَمِنْهُ حِجْرُ الْيَمَامَةِ ، وَحَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٢] كُلُّ هَذَا مِنْ قَبِيلٍ وَاحِدٍ ، وَمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ، وَهَذَا الْقَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرَبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ ، الْخَائِفُونَ مِنْهُ ، الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ ، الْخَاشِعُونَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ .
وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عُتَاةً جَبَّارِينَ ، خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ مُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، جَاحِدِينَ لِكُتُبِهِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وَعِبَرًا فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، وَهَؤُلَاءِ عَادٌ الأُولَى ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ . قَالَهُ اِبْنُ إِسْحَاقَ ، وَهُمُ الَّذِينَ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عليه السلام فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

---

[1] صحيح : وقد تقدم أخرجه البخاري (٧٣٩٢) ، ومسلم (٢٠٦٣) والزيادة عند مسلم .

وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ قِصَّتَهُمْ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ؛ لِيَعْتَبِرَ بِمَصْرَعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ، زِيَادَةُ تَعْرِيفٍ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالْأَعْمِدَةِ الشِّدَادِ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ خِلْقَةً وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا ؛ وَلِهَذَا ذَكَّرَهُمْ هُودٌ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أَيْ : الْقَبِيلَةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي بِلَادِهِمْ ، لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعِظَمِ تَرْكِيبِهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ . أَيْ : لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ ، يَعْنِي : فِي زَمَانِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يَعْنِي : يَقْطَعُونَ الصَّخْرَ بِالْوَادِي ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَنْحِتُونَهَا وَيَخْرِقُونَهَا ، وَمِنْهُ يُقَالُ : مُجْتَابِي النِّمَارِ إِذَا خَرَقُوهَا ، وَاجْتَابَ الثَّوْبَ إِذَا فَتَحَهُ ، وَمِنْهُ الْجَيْبُ أَيْضًا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ قِيلَ : الْأَوْتَادُ : الْجُنُودُ الَّذِينَ يَشُدُّونَ لَهُ أَمْرَهُ ، وَيُقَالُ : كَانَ فِرْعَوْنُ يُوَتِّدُ أَيْدِيَهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْتَادٍ مِنْ حَدِيدٍ يُعَلِّقُهُمْ بِهَا . ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ وَالْأَذِيَّةِ لِلنَّاسِ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَحَلَّ بِهِمْ عُقُوبَةً لَا يَرُدُّهَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ يَعْنِي : يَرْصُدُ خَلْقَهُ فِيمَا يَعْمَلُونَ ، وَيُجَازِي كُلًّا

بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَسَيُعْرَضُ الخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ ، وَيُقَابِلُ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَهُوَ المُنَزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ .

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيَخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِكْرَامٌ لَهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] ، وَكَذَلِكَ فِي الجَانِبِ الآخَرِ ، إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِهَانَةٌ لَهُ .

قَالَ اللهُ : ﴿ كَلَّآ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا زَعَمَ ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي المَالَ مَنْ يُحِبّ وَمَنْ لَا يُحِبّ ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَإِنَّمَا المَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فِي كُلٍّ مِنَ الحَالَيْنِ ، إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ يَشْكُرَ اللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يَصْبِرَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِالإِكْرَامِ لَهُ .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ » ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ الوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ[1] .

﴿ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يَعْنِي : لَا يَأْمُرُونَ بِالإِحْسَانِ إِلَى الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ ، وَيَحُثُّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ يَعْنِي : المِيرَاثَ ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أَيْ : مِنْ أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُمْ ، مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ ﴿ وَتُحِبُّونَ

(١) البخاري (٥٣٠٤) ، وأبو داود (٥١٥٠) .

ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أَيْ : كَثِيرًا ، زَادَ بَعْضُهُمْ : فَاحِشًا .

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ ﴾ أَيْ : حَقًّا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أَيْ : وُطِئَتْ وَمُهِّدَتْ وَسُوِّيَتِ الْجِبَالُ ، وَقَامَ الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ يَعْنِي : لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ ، بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بَعْدَمَا يَسْأَلُونَ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُمْ ، حَتَّى تَنْتَهِي النَّوْبَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ : ((**أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا**))[١] فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ، وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ ، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ ((سُبْحَانَ)) فَيَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**))[٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أَيْ : عَمَلَهُ وَمَا كَانَ أَسْلَفَهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أَيْ : وَكَيْفَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ؟ ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) ، وقد أعلَّه الدارقطني - رحمه الله - انظر الإلزامات والتتبع (صـ ٣٢٩) .

لِحَيَاتِي ﴾ يَعْنِي : يَنْدَمُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ المَعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِيًا وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ ازْدَادَ مِنَ الطَّاعَاتِ إِنْ كَانَ طَائِعًا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعْذِيبِ اللهِ مَنْ عَصَاهُ ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوَثْقًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِمْ ﷻ ، وَهَذَا فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالظَّالِمِينَ ، فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، وَهِيَ السَّاكِنَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ ، فَيُقَالُ لَهَا ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أَيْ : إِلَى جِوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أَيْ : فِي نَفْسِهَا ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أَيْ : قَدْ رَضِيَتْ عَنِ اللهِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ أَيْ : فِي جُمْلَتِهِمْ ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الاحْتِضَارِ ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة البلد
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّاكِنِ فِيهَا حَالًّا ، لِيُنَبِّهَ عَلَى عَظَمَةِ قَدْرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قَالَ : أَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : مَا أَصَبْتَ فِيهِ فَهُوَ حَلَال لَكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قَالَ : أَنْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ وَلَا إِثْمٍ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : أَحَلَّهَا اللهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الْمُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ[1] : ((**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**)) ، وَفِي لَفْظٍ ((**فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ فَقُولُوا إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ **قِيلَ** : الْوَلَدُ : الَّذِي يَلِدُ ، وَمَا وَلَدَ : الْعَاقِرُ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ ، **وَقِيلَ** : وَوَالِد هُوَ : آدَمُ ، وَمَا وَلَدَ : ذُرِّيَّتُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ، وَالْكَبَدُ : الاسْتِوَاءُ وَالاسْتِقَامَةُ ، وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا كَقَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا

---

(١) قد تقدم ، أخرجه البخاري (١٨٣٤) ، مسلم (١٣٥٣) .

غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ - ٧] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤]، **وَقِيلَ** : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ نُطْفَة ، ثُمَّ عَلَقَة ، ثُمَّ مُضْغَة يَتَكَبَّدُ فِي الْخَلْقِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف : ١٥]، وَأَرْضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَمَعِيشَتُهُ كُرْهٌ ، فَهُوَ يُكَابِدُ ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ فِي شِدَّةٍ وَطَلَبِ مَعِيشَةٍ ، **وَقِيلَ** : فِي مَشَقَّةٍ . وَاخْتَارَ اِبْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ : مُكَابَدَةُ الْأُمُورِ وَمَشَاقِّهَا . ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : يَعْنِي : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يَأْخُذُ مَالَهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اِبْنُ آدَمَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا الْمَالِ : مِنْ أَيْنَ اِكْتَسَبَهُ ؟ وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ ؟ **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قَالَ : اللهُ ﷻ . ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أَيْ : يَقُولُ اِبْنُ آدَمَ : أَنْفَقْتُ مَالًا لُبَدًا ، أَيْ : كَثِيرًا . ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللهُ ﷻ . ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ أَيْ : يُبْصِرُ بِهِمَا ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أَيْ : يَنْطِقُ بِهِ ، فَيُعَبِّرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ ، وَجَمَالًا لِوَجْهِهِ وَفَمِهِ . ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ** : الْخَيْرُ وَالشَّرُّ . وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٢ - ٣]

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ **قِيلَ** : عَقَبَةٌ فِي جَهَنَّمَ ، **وَقَالَ اِبْنُ زَيْدٍ** : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ ، ثُمَّ بَيَّنَهَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ ﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِالْيَدِ الْيَدَ ، وَبِالرِّجْلِ الرِّجْلَ ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ** » . **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ **ذِي مَجَاعَةٍ** ، وَالسَّغَبُ : هُوَ الْجُوعُ . ﴿ يَتِيمًا ﴾ أَيْ : أَطْعِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَتِيمًا ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أَيْ : ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ .
عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ** »[٢] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أَيْ : **فَقِيرًا مُدْقِعًا لَاصِقًا بِالتُّرَابِ** ، وَهُوَ الدَّقْعَاءُ أَيْضًا . **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ لَهُ . ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ ، **مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ ، مُحْتَسِبٌ** ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[الاسراء : ١٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل : ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أَيْ : كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ ، وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ « **الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ** »[٣] ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : « **لَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ** »[٤] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أَيْ : أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أَيْ : **مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ** ، فَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أَيْ : مُطْبَقَةٌ . أَيْ : مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَلَدِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٢٥١٧) ، ومسلم (١٥٠٩) .
(٢) أحمد في المسند (٤/ ٢١٤) .
(٣) **صحيح لشواهده** : أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠) .
(٤) البخاري (٦٠١٣) ، و مسلم (٢٣١٩) .

تفسير سورة الشمس
وهي مكية

عن جابر[1] أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : ((**هلا صليت بـ** ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ **و** ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ **و** ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟)) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : وَضَوْئِهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَضُحَىٰهَا ﴾ النَّهَارُ كُلُّهُ . ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ تَبِعَهَا . ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أَضَاءَ ، **وَقِيلَ** : إِذَا غَشِيَهَا .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ بِمَعْنَى : وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَا الظُّلْمَةَ ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا . **قُلْتُ** : وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِمَعْنَى ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أَيْ : الْبَسِيطَةَ ، لَكَانَ أَوْلَى ، وَيَصِحُّ تَأْوِيلُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ ، فَكَانَ أَجْوَدَ وَأَقْوَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقِيلَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ يَعْنِي : إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ ، فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ . ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ((مَا)) هَهُنَا مَصْدَرِيَّةٌ ، بِمَعْنَى : وَالسَّمَاءِ وَبِنَائِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى ((مَنْ)) يَعْنِي : وَالسَّمَاءِ وَبَانِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، وَالْبِنَاءُ هُوَ الرَّفْعُ ، كَقَوْلِهِ

(١) البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) .

تَعَالَى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ أَيْ : بِقُوَّةٍ ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ - ٤٨] ، **وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ **قِيلَ** : ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ دَحَاهَا ، **وَقِيلَ** : ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ أَيْ : خَلَقَ فِيهَا . **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : طَحَاهَا : بَسَطَهَا ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيمَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠]

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟**))[١].

وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**يَقُولُ اللهُ ﷻ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**))[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أَيْ : فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا ، أَيْ : بَيَّنَ لَهَا وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ بَيَّنَ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : أَلْهَمَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ .

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : جَعَلَ فِيهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا .

وَعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ[١] **قَالَ** : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ : أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ ، وَيَتَكَادَحُونَ فِيهِ ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ﷺ ، وَأُكِّدَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؟ قُلْتُ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ . قَالَ : فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا ؟ قَالَ : فَفَزِعْتُ مِنْهُ فَزَعًا شَدِيدًا ، قَالَ : قُلْتُ لَهُ : لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ خَلْقُهُ وَمِلْكُ يَدِهِ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . قَالَ : سَدَّدَكَ اللهُ ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِأَخْبُرَ عَقْلَكَ . إِنَّ رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةَ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادَحُونَ ، أَشَيْءٌ

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ﷺ وَأُكِّدَتْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؟ قَالَ : ((**بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ**)) قَالَ : فَفِيمَ نَعْمَلُ ؟ قَالَ : ((**مَنْ كَانَ اللهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى** ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ ، أَيْ : بِطَاعَةِ اللهِ ، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾

[الأعلى : ١٤ - ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أَيْ : دَسَّسَهَا ، أَيْ : أَخْمَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنِ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ المَعَاصِي وَتَرَكَ طَاعَةَ اللهِ ﷻ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللهُ نَفْسَهُ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللهُ نَفْسَهُ .

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا . اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**))(١) قَالَ زَيْدٌ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَاهُنَّ وَنَحْنُ نُعَلِّمُكُمُوهُنَّ .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ : أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ

(١) مسلم (٢٧٢٢) ، وأحمد (٤/ ٣٧١) .

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ أَيْ : أَشْقَى الْقَبِيلَةِ ، وَهُوَ « قِدَار بْنُ سَالِفٍ » عَاقِرُ النَّاقَةِ ، وَهُوَ أُحَيْمِرُ ثَمُودَ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٢٩ - ٣٠] . وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَزِيزًا فِيهِمْ ، شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ ، نَسِيبًا رَئِيسًا مُطَاعًا .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ **انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ** [1] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : صَالِحًا عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : احْذَرُوا نَاقَةَ اللهِ أَنْ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴿ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا ، فَإِنَّ لَهَا شِرْبُ يَوْمٍ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أَيْ : كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ أَيْ : غَضِبَ عَلَيْهِمْ ، فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أَيْ : فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ نَازِلَةً عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ . ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وَقُرِئَ « فَلَا يَخَافُ » ﴿ عُقۡبَٰهَا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَا يَخَافُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشَّمْسِ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٤٩٤٢) ، ومسلم (٢٨٥٥) .

تفسيرُ سورةِ اللَّيْلِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمُعَاذٍ[1] : « **فَهَلَّا صَلَّيْتَ** : بِـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ وَ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

عَنْ عَلْقَمَةَ[2] أَنَّهُ قَدِمَ الشَّامَ ، فَدَخَلَ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي جَلِيسًا صَالِحًا . قَالَ : فَجَلَسَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ . قَالَ : كَيْفَ سَمِعْتَ ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ يَقْرَأُ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ قَالَ عَلْقَمَةُ : « وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى » . فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : لَقَدْ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَمَا زَالَ هَؤُلَاءِ حَتَّى شَكَّكُونِي ، ثُمَّ قَالَ : أَلَمْ يَكُنْ فِيكُمْ صَاحِبُ السَّوَادِ وَصَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، وَالَّذِي أُجِيرَ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : قَدِمَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ ، فَطَلَبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَقْرَأُ عَلَيَّ قِرَاءَةَ عَبْدِ اللهِ ؟ قَالُوا : كُلُّنَا ، قَالَ : أَيُّكُمْ أَحْفَظُ ؟ فَأَشَارُوا إِلَى عَلْقَمَةَ ، فَقَالَ : كَيْفَ سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ قَالَ : وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى . قَالَ أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ هَكَذَا وَهَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ أَنْ أَقْرَأَ ﴿ وَمَا خَلَقَ

---

(١) صحيح : وقد تقدم قريبًا في سورة الشمس .
(٢) البخاري (٤٩٤٣) ومسلم (٨٢٤).

ﭐلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ، وَالله لَا أُتَابِعُهُمْ . هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ(١). وَهَكَذَا قَرَأَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ – وَرَفَعَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ – وَأَمَّا الْجُمْهُورُ فَقَرَءُوا ذَلِكَ كَمَا هُوَ الْمُثْبَتُ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ الْعُثْمَانِيِّ فِي سَائِرِ الْآفَاقِ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، أَيْ : إِذَا غَشِيَ الْخَلِيقَةَ بِظَلَامِهِ ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أَيْ : بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النبأ : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] ، وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ كَانَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًّا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أَيْ : أَعْمَالُ الْعِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ ، فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أَيْ : أَعْطَى مَا أُمِرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَاتَّقَى اللهَ فِي أُمُورِهِ ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِالْمُجَازَاةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : لِلْخَيْرِ ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا ، وَمِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ أَيْ : بِمَا عِنْدَهُ ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أَيْ : بَخِلَ بِمَالِهِ ، وَاسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ ﷻ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أَيْ : لِطَرِيقِ الشَّرِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ يُجَازِي مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ ، وَمَنْ قَصَدَ الشَّرَّ بِالْخِذْلَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرٍ مُقَدَّرٍ ، وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ .

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(٢) ﷺ **قَالَ** : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فِي جِنَازَةٍ فَقَالَ : ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ**)) ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَفَلَا نَتَّكِلُ ؟ فَقَالَ : ((**اعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**)) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ :

---

(١) البخاري (٤٩٤٤) .

(٢) البخاري (٤٩٤٧) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ . **وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ**(١) رضي الله عنه **قَالَ** : كُنَّا فِي جِنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ – أَوْ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ – إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً** » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ الشَّقَاءِ ؟ فَقَالَ : « **أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ** » ، **ثُمَّ قَرَأَ** ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ(٢) **أَنَّهُ قَالَ** : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَنَعْمَلُ لِأَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، أَوْ لِأَمْرٍ نَسْتَأْنِفُهُ ؟ فَقَالَ : « **لِأَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ** » فَقَالَ سُرَاقَةُ : فَفِيمَ الْعَمَلُ إِذًا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ قِيلَ : إِذَا مَاتَ ، وَقِيلَ : إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَصَلَ إِلَى اللهِ ، وَجَعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل : ٩]

---

(١) البخاري (٤٩٤٨) ، ومسلم (٢٦٤٧) .
(٢) مسلم (٢٦٤٨) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِلْكُنَا وَأَنَا الْمُتَصَرِّفُ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أَيْ : تَوَهَّجُ .

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ : ((**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ . أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ . أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**)) حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِالسُّوقِ لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا ، قَالَ : حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ(١).

وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ(٢) : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا ، مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ مَا يُرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا ، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أَيْ : لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ ﴾ أَيْ : بِقَلْبِهِ ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : عَنِ الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ . **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ**(٣) **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى**)) قَالُوا : مَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : ((**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ أَيْ : وَسَيُزَحْزَحُ عَنِ النَّارِ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ، لِيُزَكِّيَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بَذْلُهُ مَالَهُ فِي مُكَافَأَةِ مَنْ أَسْدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ، فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أَيْ : وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٧٢) .

(٢) البخاري (حديث ٦٥٦١) ، ومسلم (٢١٣) .

(٣) البخاري (٧٢٨٠) .

تفسير سورة الضحى
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

عَنِ **الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ** قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا يَقُولُ[1]: اِشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ؛ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ، اِمْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ. وَفِي رِوَايَةِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ سَمِعَ جُنْدُبًا قَالَ: أَبْطَأَ جِبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وُدِّعَ مُحَمَّدٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[2].

وَهَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَى وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاءِ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أَيْ: سَكَنَ فَأَظْلَمَ وَادْلَهَمَّ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ - ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦]

---

(١) البخاري (٤٩٥٠)، مسلم (١٧٩٧).
(٢) البخاري (١١٢٥)، مسلم (١٧٩٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : مَا تَرَكَكَ ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أَيْ : وَمَا أَبْغَضَكَ ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، أَيْ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا إِطْرَاحًا ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ ، وَلَمَّا خُيِّرَ ﷺ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ ، وَبَيْنَ الصَّيْرُورَةِ إِلَى اللهِ ﷻ اِخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ ، وَفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ نَهْرُ الْكَوْثَرِ الَّذِي حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ ، وَطِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَقِيلَ : بَعْدَ أَنْ وُلِدَ ﷺ ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوَقِّرُهُ ، وَيَكُفُّ عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنِ ابْتَعَثَهُ اللهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَّالُهُمْ ، فَاخْتَارَ اللهُ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، كَمَا أَجْرَى اللهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ أَجْمَعِينَ ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ لَهُ وَكَلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَلَّ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ صَغِيرٌ ، ثُمَّ رَجَعَ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أَيْ : كُنْتَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ فَأَغْنَاكَ اللهُ عَمَّنْ

سِوَاهُ ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامَي الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ﷺ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**))[٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**))[٤].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أَيْ : كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللهُ فَلَا تَقْهَرِ الْيَتِيمَ ، أَيْ : لَا تُذِلُّهُ وَتَنْهَرْهُ وَتُهِنْهُ ، وَلَكِنْ أَحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَتَلَطَّفْ بِهِ . ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللهُ ، فَلَا تَنْهَرِ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدِ . **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ** : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أَيْ : فَلَا تَكُنْ جَبَّارًا ، وَلَا مُتَكَبِّرًا ، وَلَا فَحَّاشًا ، وَلَا فَظًّا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللهِ .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللهُ ، فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحى ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(٣) البخاري (٦٤٤٦) ، مسلم (١٠٥١) .

(٤) مسلم (١٠٥٤) .

تفْسِيرُ سُورَةِ ((أَلَمْ نَشْرَحْ))
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يَعْنِي : أَمَا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ ، أَيْ : نَوَّرْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ فَسِيحًا رَحِيبًا وَاسِعًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وَكَمَا شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرْعَهُ فَسِيحًا وَاسِعًا سَمْحًا سَهْلًا لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا إِصْرَ وَلَا ضِيقَ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ شَرَحَ صَدْرَهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ وَاقِعًا ، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاةَ ، فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ شَرْحِ صَدْرِهِ الَّذِي فُعِلَ بِصَدْرِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنَ الشَّرْحِ الْمَعْنَوِيِّ أَيْضًا ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بِمَعْنَى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الْإِنْقَاضُ : الصَّوْتُ ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أَيْ : أَثْقَلَكَ حَمْلُهُ ، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي ((أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)) **وَقَالَ قَتَادَةُ** : رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ . قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ مِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ** ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلم أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ الْيُسْرُ ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ . ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أَيْ : إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عَلَائِقَهَا ، فَانْصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارِغَ الْبَالِ ، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ ﷺ ((لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ))[2] ، وَقَوْلُهُ ﷺ : ((إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ الْعَشَاءُ فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ))[3] ، وَقِيلَ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ يَعْنِي : فِي الدُّعَاءِ ، وَقِيلَ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْجِهَادِ ﴿ فَانْصَبْ ﴾ أَيْ : فِي الْعِبَادَةِ ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ : اِجْعَلْ نِيَّتَكَ وَرَغْبَتَكَ إِلَى اللهِ ﷻ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) إسناده حسن

(٢) مسلم (حديث ٥٦٠)

(٣) البخاري (٥٤٦٣) ، مسلم (٥٥٧) .

تفْسِيرُ سُورَةِ التينِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ[1] : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي سَفَرِهِ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، فَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالتِّينِ : مَسْجِدُ دِمَشْقَ ، **وَقِيلَ** : هِيَ نَفْسُهَا ، **وَقِيلَ** : الْجَبَلُ الَّذِي عِنْدَهَا ، **وَقِيلَ** : هُوَ تِينُكُمْ هَذَا ، ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَعْصِرُونَ .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى عليه السلام ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ .

وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ : هَذِهِ مَحَالٌّ ثَلَاثَةٌ ، بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا ، مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ ، **فَالْأَوَّلُ** : مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام ، **وَالثَّانِي** : طُورُ سِينِينَ ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ ، **وَالثَّالِثُ** : مَكَّةَ ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى

---

(١) البخاري (٧٦٩) ، (٤٩٥٢) ، مسلم (٤٦٤) .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكْلٍ ، مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ ، سَوِيَّ الْأَعْضَاءِ حَسَنَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى النَّارِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِعِ اللهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَمَا حَسُنَ اسْتِثْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ؛ لأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ يُصِيبُ بَعْضَهُمْ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾[العصر : ١ - ٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَيْ : غَيْرُ مَقْطُوعٍ كَمَا تَقَدَّمَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أَيْ : يَا ابْنَ آدَمَ ﴿ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : بِالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ وَقَدْ عَلِمْتَ الْبُدَاءَةَ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبُدَاءَةِ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ هَذَا ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ أَيْ : أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا ؟، وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ ظَلَمَهُ . وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا « **فَإِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ** ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ **فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا** ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ **فَلْيَقُلْ** : بَلَى ، **وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** »[1].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « التِّينِ وَالزَّيْتُونِ » ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) في سنده كلام : لكن نقل بعض العلماء اتفاق المفسرين على العمل به .

تفْسِيرُ سُورَةِ « اقْرَأْ »
وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ[1] : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى فَجَأَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اِقْرَأْ . قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ** ». **قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اِقْرَأْ . فَقُلْتُ** : « **مَا أَنَا بِقَارِئٍ** » ، **فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اِقْرَأْ . فَقُلْتُ** : « **مَا أَنَا بِقَارِئٍ** » ، **فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ** : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ **حَتَّى بَلَغَ** ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قَالَ : فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ ، فَقَالَ : « **زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي** » فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ . فَقَالَ : « **يَا خَدِيجَةُ ؛ مَا لِي ؟** » فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ : « **قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي** » فَقَالَتْ لَهُ : كَلَّا ، أَبْشِرْ فَوَالله لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثُمَّ اِنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ - وَهُوَ اِبْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا - وَكَانَ اِمْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ ، وَكَتَبَ

---

(١) البخاري (حديث ٣) ، مسلم (حديث ١٦٠) .

بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : أَي اِبْنَ عَمٍّ اِسْمَعْ مِنِ اِبْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ وَرَقَةُ : اِبْنَ أَخِي مَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا رَأَى ، فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ** ؟)) فَقَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطٌّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنَا - حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِي نَفْسهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا ، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسَهُ ، فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ .

فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ وَهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللهُ بِهَا الْعِبَادَ ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي اِمْتَازَ بِهِ أَبُو الْبَرِيَّةِ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَالْعِلْمُ تَارَةً يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي اللِّسَانِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَنَانِ ، ذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ . وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ ذُو فَرَحٍ وَأَشَرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ ، إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدِ اسْتَغْنَى وَكَثُرَ مَالُهُ ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَظَهُ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ أَيْ : إِلَى اللهِ الْمَصِيرِ وَالْمَرْجِعِ ، وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَالِكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللهُ - تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ فَوَعَظَهُ اللهُ تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا ، فَقَالَ : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ ، ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ بِقَوْلِهِ ، وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صَلَاتِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أَيْ : أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُتَهَدِّدًا ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أَيْ : لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أَيْ : لَنَسِمَنَّهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يَعْنِي : نَاصِيَةُ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةٌ فِي مَقَالِهَا ، خَاطِئَةٌ فِي أَفْعَالِهَا ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أَيْ : قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ ، أَيْ : لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ، ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ ، وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ : أَحِزْبُنَا أَوْ حِزْبُهُ ؟.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : ((**لَئِنْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**))[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] **قَالَ** : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ، وَلَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) البخاري (٤٩٥٨) .

(٢) مسلم (٢٧٩٧) .

ﷺ : « **لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا** » قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ لَا تُطِعْهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا ، وَصَلِّ حَيْثُ شِئْتَ وَلَا تُبَالِهِ ، فَإِنَّ اللهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ** »[1] وَتَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْجُدُ فِي ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١] وَ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « اقْرَأْ » ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) مسلم في صحيحه (٤٨٢) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم وقد تقدم .

تفسيرُ سورةِ ((لَيْلَة القَدْرِ))
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ المُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[الدخان : ٣] ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[البقرة : ١٨٥]

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ[1] : أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، الَّتِي اخْتَصَّهَا بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

وَالْقَوْلُ بِأَنَّهَا : أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ - لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ - هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ وَهُوَ الصَّوَابُ لَا مَا عَدَاهُ .

وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَعْدِلُ عِبَادَتُهَا عِبَادَةَ أَلْفِ شَهْرٍ ، ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**))[2].

---

(١) وقد صح نحوه عن ابن عباس عند الطبري .
(٢) البخاري (٢٠١٤) .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أَيْ : يَكْثُرُ تَنَزُّلُ المَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا ، وَالمَلَائِكَةُ يَتَنَزَّلُونَ مَعَ تَنَزُّلِ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ ، كَمَا يَتَنَزَّلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِحِلَقِ الذِّكْرِ ، وَيَضَعُونَ أَجْنِحَتَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصِدْقٍ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ : المُرَادُ بِهِ هَهُنَا : جِبْرِيلُ عليه السلام .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ **قِيلَ** : سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، **وَقِيلَ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ **قَالَ** : هِيَ سَالِمَةٌ ، لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا أَوْ يَعْمَلَ فِيهَا أَذًى ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ** : تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ وَتُقَدَّرُ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ عن الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ قَالَ : تُسَلِّمُ المَلَائِكَةُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ المَسَاجِدِ ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ **يَعْنِي** : هِيَ خَيْرٌ كُلُّهَا ، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

فَصْلٌ

ثُمَّ قَدْ قِيلَ : إِنَّهَا تَكُونُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ . **وَقِيلَ** : لَيْلَةَ تِسْعَةَ عَشَرَ **وَقِيلَ** : لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ؛ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ[1] : اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ ، فَقَالَ : « **مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَرْجِعْ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَإِنِّي أُنْسِيتُهَا ، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ وَفِي وِتْرٍ ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ** » وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدًا مِنَ النَّخْلِ ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا ، فَجَاءَتْ قَزَعَةٌ فَمُطِرْنَا ، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ . وَفِي لَفْظٍ : « **مِنْ صُبْحِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٣) ، (٢٠١٨) ، ومسلم (١١٦٧) .

إِحْدَى وَعِشْرِينَ » . قَالَ الشَّافِعِيُّ : وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصَحُّ الرِّوَايَاتِ .

وَقِيلَ : لَيْلَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ ؛ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَهُوَ قَرِيبُ السِّيَاقِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقِيلَ : تَكُونُ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ ؛ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى » فَسَّرَهُ كَثِيرُونَ بِلَيَالِي الْأَوْتَارِ ، وَهُوَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ ، وَحَمَلَهُ آخَرُونَ عَلَى الْأَشْفَاعِ ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقِيلَ : إِنَّهَا تَكُونُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ؛ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ[2] عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ .

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أُبَيٍّ ... فَذَكَرَهُ ، وَفِيهِ فَقَالَ : وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّهَا لَفِي رَمَضَانَ - يَحْلِفُ مَا يَسْتَثْنِي - وَواللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيُّ لَيْلَةِ الْقَدْرِ هِيَ الَّتِي أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقِيَامِهَا ، هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، وَأَمَارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَبِيحَتِهَا بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا .

وَفِي الْبَابِ عَنْ مُعَاوِيَةَ ، وَابْنِ عُمَرَ ، وَابْنِ عَبَّاس ، وَغَيْرِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَهُوَ الْجَادَّةُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَيْضًا .

وَقِيلَ : إِنَّهَا تَكُونُ فِي لَيْلَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ . وَقِيلَ : إِنَّهَا تَكُونُ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ : صَدَرَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ جَوَابًا لِلسَّائِلِ إِذْ قِيلَ لَهُ : أَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الْفُلَانِيَّةِ ؟ يَقُولُ : « نَعَمْ » وَإِنَّمَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ مُعَيَّنَةٌ لَا تَنْتَقِلُ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَنْتَقِلُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ .

---

(١) البخاري (٢٠٢١) ، (٢٠٢٢) .

(٢) مسلم (حديث ٧٦٢) .

وَقَدْ يُسْتَأْنَسُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[١] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْمَنَامِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ** »[٢].

وَفِيهِمَا أَيْضًا[٣] عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ** » .

وَيُحْتَجُّ لِلشَّافِعِيِّ أَنَّهَا لَا تَنْتَقِلُ ، وَأَنَّهَا مُعَيَّنَةٌ مِنَ الشَّهْرِ ، بِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ[٤] عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : « **خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ** » .

وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ : أَنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ مُعَيَّنَةً مُسْتَمِرَّةَ التَّعْيِينِ لَمَا حَصَلَ لَهُمُ الْعِلْمُ بِعَيْنِهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ ، إِذْ لَوْ كَانَتْ تَنْتَقِلُ لَمَا عَلِمُوا تَعْيِينَهَا إِلَّا ذَلِكَ الْعَامَ فَقَطْ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ لِيُعْلِمَهُمْ بِهَا تِلْكَ السَّنَةَ فَقَطْ . وَقَوْلُهُ : « **فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ** » فِيهِ اسْتِئْنَاسٌ لِمَا يُقَالُ : إِنَّ الْمُمَارَاةَ تَقْطَعُ الْفَائِدَةَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ ، وَقَوْلُهُ : « **فَرُفِعَتْ** » أَيْ : رُفِعَ عِلْمُ تَعْيِينِهَا لَكُمْ لَا أَنَّهَا رُفِعَتْ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْوُجُودِ « **فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ** » ، وَقَوْلُهُ : « **وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ** » يَعْنِي : عَدَمَ تَعْيِينِهَا لَكُمْ ، فَإِنَّهَا إِذَا كَانَتْ مُبْهَمَةً اجْتَهَدَ طُلَّابُهَا فِي ابْتِغَائِهَا فِي جَمِيعِ مَحَالِّ رَجَائِهَا ، فَكَانَ أَكْثَرَ لِلْعِبَادَةِ ، بِخِلَافِ مَا إِذَا عَلِمُوا عَيْنَهَا فَإِنَّهَا كَانَتِ الْهِمَمُ تَتَقَاصَرُ عَلَى قِيَامِهَا فَقَطْ ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِبْهَامَهَا لِتَعُمَّ الْعِبَادَةُ جَمِيعَ

---

(١) البخاري (٢٠١٥) ، ومسلم (١١٦٥) .
(٢) البخاري (٢٠١٧) ، ومسلم (١١٦٩) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) البخاري (٢٠٢٣) .

الشَّهْرِ فِي اِبْتِغَائِهَا ، وَيَكُونُ الاِجْتِهَادُ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ أَكْثَرُ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ﷻ ثُمَّ اِعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ(١) .

وَعَنِ اِبْنِ عُمَرَ(٢) : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ(٣) : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ . **وَعَنْهَا**(٤) : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهَا : ((**وَشَدَّ الْمِئْزَرَ**)) ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ : اِعْتِزَالُ النِّسَاءِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الْأَمْرَيْنِ .

وَالْمُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْثَرُ ، وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُ ، ثُمَّ فِي أَوْتَارِهِ أَكْثَرُ . وَالْمُسْتَحَبُّ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ هَذَا الدُّعَاءِ : ((**اللَّهُمَّ ؛ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**)) .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا أَدْعُو ؟ قَالَ : ((**قُولِي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**))(٥).

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدْرِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٢٠٢٦) ، ومسلم (١١٧٢) .
(٢) البخاري (٢٠٢٥) ، ومسلم (١١٧١) .
(٣) البخاري (٢٠٢٤) ، ومسلم (١١٧٤) .
(٤) مسلم (١١٧٥) .
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١ – ١٧٢) وغيره وسنده صحيح لغيره .

تفسير سورة « لم يكن »
وهي مدنية

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ **لأبي بن كعب** : « **إن الله أمرني أن أقرأ عليك** ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ » قال : وسماني لك ؟ قال : « **نعم** » فبكى [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم ، لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعني : منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أي : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ ، ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني : محمدًا ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة ، كقوله : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾[عبس : ١٣ - ١٦]

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ **قال ابن جرير** : أي : في الصحف المطهرة كتب من كتب الله قيمة ، عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ﷻ

---

(١) البخاري (٣٨٠٩) ، ومسلم (٧٩٩) .

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يَذْكُرُ الْقُرْآنَ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الثَّنَاءِ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ مُسْتَقِيمَةٌ مُعْتَدِلَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] **يَعْنِي** : بِذَلِكَ أَهْلَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا ، بَعْدَمَا أَقَامَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ((**إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**[1] ، **كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**)) قَالُوا : وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ : ((**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أَيْ : مُتَحَنِّفِينَ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الْحَنِيفِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أَيْ : الْمِلَّةُ الْقَائِمَةُ الْعَادِلَةُ ، أَوِ الْأُمَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُعْتَدِلَةُ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، كَالزُّهْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي الْإِيمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ .

---

(١) الحديث إلى قوله : ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعون فرقة)) يصح بمجموع طرقه ، أما بعد ذلك فثم نزاع في تصحيحه ، ولمن ضعفه وجه ولمن حسنه وجه ، والله أعلم ، وانظر البحث في ذلك باستفاضة – إن شئت – في الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة باب إخبار النبي ﷺ بافتراق أمته .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ الْفُجَّارِ ، مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْمُشْرِكِينَ الْمُخَالِفِينَ لِكُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ وَأَنْبِيَاءِ اللهِ الْمُرْسَلَةِ ؛ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أَيْ : شَرُّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَأَهَا اللهُ وَذَرَأَهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : بِلَا انْفِصَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ وَمَقَامُ رِضَاهُ عَنْهُمْ أَعْلَى مِمَّا أُوتُوهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ . ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ أَيْ : هَذَا الْجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « لَمْ يَكُنْ » ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الزلْزلَةِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أَيْ : تحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يَعْنِي : أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ المَوْتَى ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١]، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الأنشقاق : ٣ - ٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**تُلْقِي الْأَرْضُ أَفْلاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ : فِي هَذَا قَتَلْتُ ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ : فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي ، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ : فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي ، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ أَيْ : اِسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً ، وَهُوَ مُسْتَقِرٌّ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَيْ : تَقَلَّبَتِ الحَالُ ، فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً ، قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ الله تَعَالَى مَا قَدْ أَعَدَّهُ لَهَا مِنَ الزِّلْزَالِ الَّذِي لَا مَحِيدَ لَهَا عَنْهُ ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَحِينَئِذٍ اِسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا ، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أَيْ : تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أَيْ : أَوْحَى إِلَيْهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُضَمَّنٌ أَذِنَ لَهَا .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٠١٣) .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قَالَ : قَالَ لَهَا رَبُّهَا : قُولِي ، فَقَالَتْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أَيْ : أَمَرَهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أَيْ : يَرْجِعُونَ عَنْ مَوْقِفِ الحِسَابِ ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أَيْ : أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا ، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ، مَأْمُورٍ بِهِ إِلَى الجَنَّةِ ، وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يَتَصَدَّعُونَ أَشْتَاتًا فَلَا يَجْتَمِعُونَ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ فِرَقًا . ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : لِيَعْمَلُوا وَيُجَازَوْا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ : لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله فَأَطَالَ طِيَلَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ، كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ - وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُسْقِيَ بِهِ - كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي رِقَابِهَا ، وَلَا ظُهُورِهَا ، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ » فَسُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الحُمُرِ فَقَالَ : « مَا أَنْزَلَ اللهُ شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ » .

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ عَدِيٍّ مَرْفُوعًا « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »[2] وَلَهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ[3] : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَسْقِي ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ » ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : « يَا نِسَاءَ المُؤْمِنَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ »[4].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « إِذَا زُلْزِلَتْ » وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

(١) البخاري (٤٩٦٢ ، ٤٩٦٣) ، ومسلم (٩٨٧) .
(٢) البخاري حديث (٦٥٤٠) .
(٣) لم أقف عليه في البخاري والذي في مسلم (٢٦٢٦) لفظه « لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ » أما عن المتن المذكور فانظر مسند أحمد (٥/ ٦٣) .
(٤) البخاري (٢٥٦٦) ، ومسلم (١٠٣٠) .

تفْسِيرُ سُورَةِ العَادِيَاتِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

يُقْسِمُ تَعَالَى بِالْخَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَتْ وَضَبَحَتْ ، وَهُوَ : الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الْفَرَسِ حِينَ تَعْدُو ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ يعني : اِصْطِكَاكُ نِعَالِهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارُ ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ يَعْنِي : الْإِغَارَةُ وَقْتُ الصَّبَاحِ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغِيرُ صَبَاحًا ، وَيَتَسَمَّعُ أَذَانًا فَإِنْ سَمِعَ وَإِلَّا أَغَارَ[1].

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ يَعْنِي : غُبَارًا فِي مَكَانِ مُعْتَرَكِ الْخُيُولِ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أَيْ : تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كُلُّهُنَّ جَمْعٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ الْإِبِلُ ، **وَقَالَ عَلِيٌّ** : هِيَ الْإِبِلُ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس** : هِيَ الْخَيْلُ ، فَبَلَغَ عَلِيًّا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : مَا كَانَتْ لَنَا خَيْلٌ يَوْمَ بَدْرٍ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي سَرِيَّةٍ بُعِثَتْ . وَقَالُوا : إِنَّمَا ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ ، فَإِذَا أَوَوْا إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ أَوْرَوْا النِّيرَانَ . **عَنْ عَطَاءٍ** : سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَصِفُ الضَّبْحَ : أَحْ أَحْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ يَعْنِي : إِغَارَةُ الْخَيْلِ صُبْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالَ مَنْ فَسَّرَهَا بِالْإِبِلِ : هُوَ الدَّفْعُ صُبْحًا مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى ، وَقَالُوا كُلُّهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي إِذَا حَلَّتْ فِيهِ أَثَارَتْ بِهِ الْغُبَارُ ، إِمَّا فِي

---

(١) البخاري (٦١٠) .

حَجٍّ أَوْ غَزْوٍ . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ يَعْنِي : جَمْعُ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَمُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ بِذَلِكَ المَكَانِ جَمِيعُهُنَّ ، وَيَكُونُ ﴿ جَمْعًا ﴾ مَنْصُوبًا عَلَى الحَالِ المُؤَكِّدَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ بِنِعَمِ رَبِّهِ لَجَحُودٌ كَفُورٌ ، ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّ اللهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ : وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى كَوْنِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ ، أَيْ : بِلِسَانِ حَالِهِ ، أَيْ : ظَاهِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أَيْ : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ - وَهُوَ المَالُ - لَشَدِيدٌ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ المَعْنَى وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ المَحَبَّةِ لِلْمَالِ ، **وَالثَّانِي** : وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بَخِيلٌ مِنْ مَحَبَّةِ المَالِ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُزَهِّدًا فِي الدُّنْيَا ، وَمُرَغِّبًا فِي الْآخِرَةِ ، وَمُنَبِّهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الحَالِ ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أَيْ : أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : يَعْنِي : أُبْرِزَ وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَ فِي نُفُوسِهِمْ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَعَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ ، وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الجَزَاءِ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وِالعِصْمَةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ القَارِعَةِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَالْحَاقَّةِ ، وَالطَّامَّةِ ، وَالصَّاخَّةِ ، وَالْغَاشِيَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعَظِّمًا وَمُهَوِّلًا لِشَأْنِهَا ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أَيْ : فِي اِنْتِشَارِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، وَذَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ ، مِنْ حِيرَتِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، كَأَنَّهُمْ فَرَاشٌ مَبْثُوثٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ يَعْنِي : قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفُ الْمَنْفُوشُ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الذَّهَابِ وَالتَّمَزُّقِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا يَئُولُ إِلَيْهِ عَمَلُ الْعَامِلِينَ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْإِهَانَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ . ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ فَهُوَ سَاقِطٌ هَاوٍ بِأُمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِأُمِّهِ ، يَعْنِي : دِمَاغُهُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ ﴿ فَأُمُّهُۥ ﴾ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا ، وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ وَهِيَ اِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ . **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْهَاوِيَةِ : أُمُّهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا مَأْوَى لَهُ غَيْرُهَا .

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْهَاوِيَةُ : النَّارُ الَّتِي هِيَ أُمُّهُ ، وَمَأْوَاهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا ، وَقَرَأَ ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أَيْ : حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ ، قَوِيَّةُ اللَّهَبِ وَالسَّعِيرِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((**نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ؛ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ ؟ فَقَالَ : ((**إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا**))[1] .

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٌ فِي الصَّيْفِ ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشِّتَاءِ مِنْ بَرْدِهَا ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا**))[2] .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ((**إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**))[3].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَارِعَةِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٣٢٦٥) ، ومسلم (٢٨٤٣) .
(٢) البخاري (٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) .
(٣) البخاري (٥٣٣) ، ومسلم (٦١٥) .

تفسيرُ سُورَةِ التكاثر
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَشْغَلَكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا ، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمُ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ . **عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ** : كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ يَعْنِي : ((**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ**)) .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ[1] : انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : ((﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ **وَيَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟**)) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَقُولُ الْعَبْدُ : مَالِي مَالِي ، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَى ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ تَصَدَّقَ فَأَمْضَى ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**))[2] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[3] يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**)) .

---

(١) مسلم (٢٩٥٨) .

(٢) مسلم (٢٩٥٩) .

(٣) البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أَيْ : صِرْتُمْ إِلَيْهَا وَدُفِنْتُمْ فِيهَا ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ[1] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ يَعُودُهُ ، فَقَالَ : « **لَا بَأْسَ ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ** » فَقَالَ : قُلْتَ : طَهُورٌ ؟! بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ ، تُزِيرُهُ الْقُبُور ! قَالَ : « **فَنَعَمْ إِذَنْ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أَيْ : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَوَعَّدَهُمْ بِهَذَا الْحَالِ ، وَهُوَ رُؤْيَةُ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ، وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمُعَايَنَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ . ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعَمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] ؓ **قَالَ** : بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ جَالِسَانِ إِذْ جَاءَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « **مَا أَجْلَسَكُمَا هَهُنَا ؟** » قَالَا : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنَا مِنْ بُيُوتِنَا إِلَّا الْجُوعُ قَالَ : « **وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ** » فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَرْأَةُ ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « **أَيْنَ فُلَانٌ ؟** » فَقَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مَاءً ، فَجَاءَ صَاحِبُهُمْ يَحْمِلُ قِرْبَتَهُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا مَا زَارَ الْعِبَادَ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ شَيْءٍ زَارَنِي الْيَوْمَ ، فَعَلَّقَ قِرْبَتَهُ بِكُرَبِ نَخْلَةٍ ، وَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَلَا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ** » فَقَالَ : أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونُوا الَّذِينَ تَخْتَارُونَ

---

(١) البخاري (٣٦١٦) .

(٢) مسلم (٢٠٣٨) .

عَلَى أَعْيُنِكُمْ ، ثُمَّ أَخَذَ الشَّفْرَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**)) فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَأَكَلُوا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هَذَا ، فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ**)) .

وَ**قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : حَتَّى عَنْ شَرْبَةِ عَسَلٍ . وَ**قَالَ مُجَاهِدٌ** : عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا ، وَ**قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : مِنَ النَّعِيمِ الْغَدَاءُ وَالْعَشَاءُ ، وَ**قَالَ أَبُو قِلَابَةَ** : مِنَ النَّعِيمِ أَكْلُ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ بِالْخُبْزِ النَّقِيِّ ، وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ أَشْمَلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**))[1] ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُمْ مُقَصِّرُونَ فِي شُكْرِ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ ، لَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمَا ، وَمَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكَاثُرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٦٤١٢) .

تفسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

الْعَصْرُ : الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ . فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، أَيْ : فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، فَاسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْخُسْرَانِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وَهُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالأَقْدَارِ ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ العَصْرِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سورة وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

الْهَمَّازُ : بِالْقَوْلِ ، وَاللَّمَّازُ : بِالْفِعْلِ ، يَعْنِي : يَزْدَرِي بِالنَّاسِ وَيَنْتَقِصُ بِهِمْ ، وَقِيلَ : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ طَعَّانٌ مِعْيَابٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هَمْزُهُ وَلَمْزُهُ بِلِسَانِهِ وَعَيْنِهِ ، وَيَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ وَيَطْعَنُ عَلَيْهِمْ . ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴾ أَيْ : جَمَعَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَأَحْصَى عَدَدَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ أَيْ : يَظُنُّ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يُخَلِّدُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ وَلَا كَمَا حَسِبَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ أَيْ : لَيُلْقَيَنَّ هَذَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا فَعَدَّدَهُ فِي الْحُطَمَةِ ، وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ صِفَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تُحَطِّمُ مَنْ فِيهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ : تُحْرِقُهُمْ إِلَى الْأَفْئِدَةِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، ثُمَّ يَقُولُ : لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمُ الْعَذَابَ ، ثُمَّ يَبْكِي . ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أَيْ : مُطْبَقَةٌ . ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ يَعْنِي : الْأَبْوَابُ هِيَ الْمَمْدُودَةُ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ، وَقِيلَ : ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ يَعْنِي : الْقُيُودُ الطِّوَالُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَة » وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الفِيْلِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي اِمْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ ، وَرَدَّهُمْ بِشَرِّ خَيْبَةٍ ، وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى ، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِبَعْثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ ، وَلِسَانُ حَالِ الْقُدْرَةِ يَقُولُ : لَمْ نَنْصُرْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلَى الْحَبَشَةِ لِخَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ ، قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاسٍ - وَكَانَ آخِرُ مُلُوكِ حِمْيَرَ ، وَكَانَ مُشْرِكًا - هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ ، وَكَانُوا نَصَارَى ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا ، فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْسُ ذُو ثُعْلُبَانَ ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ - وَكَانَ نَصْرَانِيًّا - فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ ، لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ : أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةُ بْنِ الصَّبَّاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَأَسْلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ ، وَهَلَكَ ذَا نُوَاسٍ غَرِيقًا فِي الْبَحْرِ ،

وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الأَمِيرَانِ : أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةُ ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافًّا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ : إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اِصْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا ، وَلَكِنِ اُبْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الآخَرَ اِسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا ، وَخَلْفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاةٌ ، فَحَمَلَ أَرْيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ وَحَمَلَ عَتْودَةُ مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرْيَاطٍ فَقَتَلَهُ ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا ، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجُزَّ نَاصِيَتَهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ ، وَبِجِرَابٍ فِيهِ مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ : لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبَرَّ قَسَمَهُ ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ ، فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ ، وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ : إِنِّي سَأَبْنِي كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا ، فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ ، رَفِيعَةَ الْبِنَاءِ ، عَالِيَةَ الْفِنَاءِ ، مُزَخْرَفَةَ الأَرْجَاءِ ، سَمَّتْهَا الْعَرَبُ : الْقُلَّيْسُ لِارْتِفَاعِهَا ، لأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قَلَنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنِ اِرْتِفَاعِ بِنَائِهَا ، وَعَزَمَ أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا ، كَمَا يُحَجُّ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا ، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا ، فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا ، فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْحَدَثَ رَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ ، وَقَالُوا لَهُ : إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ ، فَأَقْسَمَ أَبرهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا .

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ : أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَّجُوا فِيهَا نَارًا ، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ فَاحْتَرَقَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ ، فَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لِذَلِكَ ، وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَمٍ ؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا

كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ يُقَالُ لَهُ : مَحْمُودٌ ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ ، وَيُقَالُ : كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ ، وَقِيلَ : اِثْنَا عَشَرَ فِيلًا غَيْرَهُ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ ، وَتُوضَعُ فِي عُنُقِ الْفِيلِ ، ثُمَّ يُزْجَرُ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا ، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمْ الْمُحَاجَبَةَ دُونَ الْبَيْتِ ، وَرَدَّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ : « ذُو نَفْرٍ » فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللهِ وَمَا يُرِيدُهُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ ، فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبرهَةَ فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ ﷻ مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ ، وَأُسِرَ « ذُو نَفْرٍ » فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ ثُمَّ مَضَى لِوَجْهِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمَ اِعْتَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ فِي قَوْمِهِ شَهْرَان وَنَاهِس ، فَقَاتَلُوهُ ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ ، وَأَسَرَ نُفَيْلَ بْنَ حَبِيبٍ ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ ، فَلَمَّا اِقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِمُ الَّذِي عِنْدَهُمُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ ، فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ « أَبَا رِغَالٍ » دَلِيلًا فَلَمَّا اِنْتَهَى أَبْرَهَةُ إِلَى الْمُغَمِّسِ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ نَزَلَ بِهِ ، وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا فَأَخَذُوهُ ، وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهَةَ أَمِيرُ الْمُقَدِّمَةِ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ : « الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ » فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ - فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ - وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حَنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ ، وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ ، فَجَاءَ حَنَاطَةُ فَدُلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ : فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : وَاللهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ ، هَذَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ حَنَاطَةُ : فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ ، فَذَهَبَ مَعَهُ فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَة

أَجَلَّهُ ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَسِيمًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ . وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى الْبِسَاطِ ، وَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ مَا حَاجَتُكَ ؟ فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ : إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي ، فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ : لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي ، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ ، وَتَتْرُكَ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ ، قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ . قَالَ : مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي قَالَ : أَنْتَ وَذَاكَ .

وَيُقَالُ : إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَى أَبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْبَيْتِ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ، وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ ، فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ ، وَالتَّحَصُّنَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ وَيَسْتَنْصِرُونَ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ :

لَاهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ ... رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالُكَ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلْقَةَ الْبَابِ ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ وَذُكِرَ عَنِ ابْنِ سُلَيْمَانَ : أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةً ، لَعَلَّ بَعْضَ الْجَيْشِ يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ - وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا - وَعَبَّأَ جَيْشَهُ ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ : ابْرُكْ مَحْمُودُ ، وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللهِ الْحَرَامِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ ، فَبَرَكَ الْفِيلُ ، وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى ، فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بِالطَّبَرْزِينَ ، وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَهُمْ فِي مَرَاقِهِ فَنَزَعُوهُ بِهَا لِيَقُومَ ،

فَأَبَى ، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ ، وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَاطِيفِ وَالْبَلَسَانِ مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا : حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ ، أَمْثَالُ الْحِمَّصِ وَالْعَدَسِ ، لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ ، هَذَا وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يَقُولُ :

أَيْنَ الْمَفَـرُّ وَالْإِلَـهُ الطَّـالِبُ ... وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذَلِكَ أَيْضًا :

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّـا يَا رُدَيْنَـا ... نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ - وَلَا تَرَيهِ ... لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ - مَا رَأَيْنَا

إِذًا لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي ... وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا

حَمِدْتُ اللهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا ... وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا

فَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ ... كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْأَبَابِيلُ : الْجَمَاعَاتُ ، وَأَمَّا السِّجِّيلُ : الشَّدِيدُ الصُّلْبُ . ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قَالَ : الْفِرَقُ ، وَقِيلَ : أَبَابِيلُ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، **وَقِيلَ** : الْأَبَابِيلُ : الْكَثِيرَةُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : أَبَابِيلُ : شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ ، **وَقِيلَ** : الْأَبَابِيلُ : الْمُخْتَلِفَةُ ، تَأْتِي مِنْ هَهُنَا وَمِنْ هَهُنَا ، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قَالَ : لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ ، وَأَكُفٌّ كَأَكُفِّ الْكِلَابِ . ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طِينٍ فِي حِجَارَةٍ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْنِي : التِّبْنَ

الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ : هَبُّورٌ ، وَالْمَأْكُولُ : الْقَصِيلُ يُجَزُّ لِلدَّوَابِّ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَأَهْلَكَ عَامَّتَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا وَهُوَ جَرِيحٌ ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَتْحِ » أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أَطَلَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ الَّتِي تَهْبِطُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ ، بَرَكَتْ نَاقَتُهُ ، فَزَجَرُوهَا فَأَلَحَّتْ ، فَقَالُوا : خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ ، أَيْ : حَرَنَتْ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ** »[1] ثُمَّ قَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا** » ثُمَّ زَجَرَهَا فَقَامَتْ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « **إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** »[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٢٧٣١) ، (٢٧٣٢) .
(٢) البخاري (١١٢) ، ومسلم (١٣٥٥) .

تفسيرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

هَذِهِ السُّورَةُ مَفْصُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي المُصْحَفِ الإِمَامِ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ؛ لأَنَّ المَعْنَى عِنْدَهُمَا: حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ أَيْ: لِائْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ.

وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي المَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ، لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ، لِكَوْنِهِمْ سُكَّانُ حَرَمِ الله، فَمَنْ عَرَفَهُمْ احْتَرَمَهُمْ، بَلْ مَنْ صُوفِيَ إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ أَمِنَ بِهِمْ، هَذَا حَالُهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شِتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ، وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ فَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ أَنَّ اللَّامَ لَامُ التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: اِعْجَبُوا لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ. قَالَ: وَذَلِكَ لِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُمَا سُورَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ.

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ فَقَالَ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ أَيْ : فَلْيُوَحِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ، كَمَا جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أَيْ : هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ ، وَهُوَ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أَيْ : تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالرُّخْصِ ، فَلْيُفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا يَعْبُدُوا مِنْ دُونِهِ صَنَمًا وَلَا نِدًّا وَلَا وَثَنًا ؛ وَلِهَذَا مَنِ اسْتَجَابَ لِهَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ أَمْنِ الدُّنْيَا وَأَمْنِ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ عَصَاهُ سَلَبَهُمَا مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ - ١١٣]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ)) ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

تفسيرُ السُّورَةِ الَّتِي يُذكَرُ فِيهَا المَاعُونَ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ وَهُوَ المَعَادُ وَالجَزَاءُ وَالثَّوَابُ ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ الْيَتِيمَ وَيَظْلِمُهُ حَقَّهُ ، وَلَا يُطْعِمُهُ وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر : ١٧ - ١٨] يَعْنِي : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يَقُومُ بِأَوَدِهِ وَكِفَايَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَغَيْرُهُ** : يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي السِّرِّ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدِ الْتَزَمُوا بِهَا ، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا ، فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . **وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ** : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي قَالَ : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا ، وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ . وَإِمَّا عَنِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّدَبُّرِ لِمَعَانِيهَا ، فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، لِكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ . وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ نَصِيبُهُ مِنْهَا ، وَكَمُلَ لَهُ النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ ، كَمَا ثَبَتَ

فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**))[1].

فَهَذَا آخِرُ صَلَاةِ الْعَصْرِ الَّتِي هِيَ الْوُسْطَى ، كَمَا ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا ، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهَةٍ ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَنَقَرَهَا نَقْرَ الْغُرَابِ ، لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَا خَشَعَ فِيهَا أَيْضًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ((**لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**)) وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا مُرَاءَاةُ النَّاسِ ، لَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، فَهُوَ كَمَا إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِالْكُلِّيَّةِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ .

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا للهِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ رِيَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أَيْ : لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ ، وَلَا أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ حَتَّى وَلَا بِإِعَارَةِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيُسْتَعَانُ بِهِ ، مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ أَوْلَى وَأَوْلَى . أَمَّا الْمَاعُونُ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ : الزَّكَاةُ . **وَقِيلَ** : هُوَ مَا يَتَعَاوَرُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَأْسِ وَالْقِدْرِ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ يَعْنِي : مَتَاعَ الْبَيْتِ . فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ تَرْكُ الْمُعَاوَنَةِ بِمَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ((**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**))[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ السُّورَةِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) مسلم (حديث٦٢٢) .

(٢) البخاري (٦٠٢١) .

تفْسِيرُ سُوَرةِ الكَوْثَرِ
مَدَنِيَّةٌ ، وَقِيلَ : مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قَدْ وَرَدَ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَهَرِ الْكَوْثَرِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ آنِيَةٌ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ ، عَنْ أَنَسٍ[1] قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، قُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ** » فَقَرَأَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : « **أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ** » ؟ قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « **فَإِنَّهُ نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** ﷻ **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَهُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ** » .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْبَسْمَلَةَ مِنَ السُّورَةِ ، وَأَنَّهَا مُنَزَّلَةٌ مَعَهَا .

فَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ . وَعَنْ أَنَسٍ[2] أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ ، فَإِذَا هُوَ نَهَرٌ يَجْرِي ، وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا ، وَإِذَا حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي فِي تُرْبَتِهِ ، فَإِذَا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ وَإِذَا حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ** » .

---

(١) مسلم (حديث ٤٠٠) .

(٢) **صحيح** : أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[١] قَالَ : لَمَّا عَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ : « أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفَةِ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ » .

عَنْ عَائِشَةَ[٢] - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَ سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قَالَتْ : نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[٣] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ فِي الْكَوْثَرِ : هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ . قَالَ أَبُو بِشْرٍ : قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : فَإِنَّ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالَ سَعِيدٌ : النَّهَرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ .

وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَعُمُّ النَّهَرَ وَغَيْرَهُ ؛ لأَنَّ الْكَوْثَرَ مِنَ الْكَثْرَةِ ، وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهَرُ ، وَمِنْ ذَلِكَ النُّبُوَّةُ وَالْقُرْآنُ ، وَثَوَابُ الآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ : كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهَرُ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ ، فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ صَلاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ وَنَحْرَكَ ، فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وغيره : يَعْنِي بِذَلِكَ نَحْرُ الْبُدْنِ وَنَحْوِهَا ، هَذَا بِخِلافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ السُّجُودِ لِغَيْرِ الله ؛ وَالذَّبْحِ عَلَى اسْمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١]

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وَضْعُ الْيَدِ الْيُمْنَى عَلَى الْيَدِ الْيُسْرَى تَحْتَ النَّحْرِ .

وَقِيلَ : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ يَعْنِي : رَفْعُ الْيَدَيْنِ عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلاةِ ، وَقِيلَ : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ : اسْتَقْبِلْ بِنَحْرِكَ الْقِبْلَةَ . وَكُلُّ هَذِهِ الأَقْوَالِ غَرِيبَةٌ جِدًّا .

---

(١) البخاري (٤٩٦٤) .

(٢) البخاري (٤٩٦٥) .

(٣) البخاري (٤٩٦٦) .

وَالصَّحِيحُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ : **أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّحْرِ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ** ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي يَوْمَ الْعِيدِ ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ : « **مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَنَسَكَ نُسُكَنَا ، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ** » فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنِّي نَسَكْتُ شَاتِي قَبْلَ الصَّلَاةِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ يُشْتَهَى فِيهِ اللَّحْمُ قَالَ : « **شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ** » قَالَ : فَإِنَّ عِنْدِي عَنَاقًا هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتَيْنِ ، أَفَتُجْزِئُ عَنِّي ؟ قَالَ : « **تُجْزِئُكَ ، وَلَا تُجْزِئُ أَحَدًا بَعْدَكَ** »[1] **قَالَ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ قَوْلُ مَنْ قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ : فَاجْعَلْ صَلَاتَكَ كُلَّهَا لِرَبِّكَ خَالِصًا دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ ، وَكَذَلِكَ نَحْرُكَ اجْعَلْهُ لَهُ دُونَ الْأَوْثَانِ ، شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ ، الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ ، وَخَصَّكَ بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ ، وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى : مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَعَطَاءٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أَيْ : إِنَّ مُبْغِضَكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ ، هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقَلُّ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ .

فَالْأَبْتَرُ الَّذِي إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ ، فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ ، وَحَاشَا وَكَلَّا ، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَأَوْجَبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْآبَادِ ، إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَوْثَرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٩٥٥) ، ومسلم (١٩٦١) .

تفْسِيرُ سُورَةِ « قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ »
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنْ جَابِرٍ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةِ وبـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فِي رَكْعَتَي الطَّوَافِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ[2].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ[3] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَهِيَ آمِرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ .

فَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنِ المُوَاجَهُونَ بِهَذَا الخِطَابِ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ .

وَقِيلَ : إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُ سَنَةً ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِمْ

---

(١) مسلم (١٢١٨) .

(٢) مسلم (حديث ٦، ٧) .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤) .

بِالْكُلِّيَّةِ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَـ ((مَا)) هَهُنَا بِمَعْنَى ((مَنْ)) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أَيْ : وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ ، أَيْ : لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا ، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللهَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أَيْ : لَا تَقْتَدُونَ بِأَوَامِرِ اللهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، بَلْ قَدِ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣] فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا هُمْ فِيهِ .

فَإِنَّ الْعَابِدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْبُدُهُ ، وَعِبَادَةٌ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُ يَعْبُدُونَ اللهَ بِمَا شَرَعَهُ ، وَلِهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)) أَيْ : لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللهَ وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ عِبَادَةً لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وَقَالَ : ﴿ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ [الشورى : ١٥]

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : يُقَالُ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الْكُفْرُ ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الْإِسْلَامُ ، وَلَمْ يَقُلْ ((دِينِي)) لِأَنَّ الْآيَاتِ بِالنُّونِ ، فَحَذَفَ الْيَاءَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وَ ﴿ يَشْفِينِ ﴾ **وَقَالَ غَيْرُهُ** : لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ الْآنَ ، وَلَا أُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة : ٦٤] انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ .

وَنَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥- ٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٦- ٧] ، **فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَوَّلُهَا** مَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا .

الثَّانِي : مَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فِي الْمَاضِي ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ مَحْضٌ .

وَثَمَّ قَوْلٌ رَابِعٌ : وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نَفَى الْفِعْلَ ؛ لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ ، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نَفَى قَبُولَهُ لِذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ آكَدُ ، فَكَأَنَّهُ نَفَى الْفِعْلَ وَكَوْنَهُ قَابِلًا لِذَلِكَ ، وَمَعْنَاهُ نَفْيُ الْوُقُوعِ وَنَفْيُ الْإِمْكَانِ الشَّرْعِيِّ أَيْضًا ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ أَيْضًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ)) ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ .

تفسير سورة « إذا جاء نصر الله والفتح »
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ؛ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : يَا ابْنَ عُتْبَةَ ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قَالَ : صَدَقْتَ[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] ؛ قَالَ : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ : لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا ، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّهُ مِمَّنْ عَلِمْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا ، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لِي : أَكَذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ فَقُلْتُ : لَا . فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟ فَقُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ ، قَالَ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : لَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ .

---

(١) مسلم (٣٠٢٤) ، ولفظه : تدري آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعًا ؟ قلت : نعم . ﴿ إذا جاء نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قال : صدقت .

(٢) البخاري (٤٢٩٤) .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي** » يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ(١).

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ(٢) : قَالَتْ عَائِشَةُ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلِ : « **سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ** » وَقَالَ : « **إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي ، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا** ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ .

وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا ، فَإِنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهَا فَتْحَ مَكَّةَ يَقُولُونَ : إِنْ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَلَمْ تَمْضِ سَنَتَانِ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيمَانًا ، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهِرٌ لِلْإِسْلَامِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣) ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ قَالَ : لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَتِ الْأَحْيَاءُ تَتَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهَا فَتْحَ مَكَّةَ يَقُولُونَ : دَعُوهُ وَقَوْمَهُ ، فَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ .. الْحَدِيثَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّصْرِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٤٩٦٨) ، ومسلم (٤٨٤) .
(٢) مسلم (٤٨٤) .
(٣) البخاري (٤٣٠٢) .

تفسيرُ سُورَةِ المَسَدِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبَطْحَاءِ فَصَعِدَ الْجَبَلَ فَنَادَى : « **يَا صَبَاحَاهُ** » فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ : « **أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟** » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ تَبًّا لَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ إِلَى آخِرِهَا .

وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَامَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الْأَوَّلُ دُعَاءٌ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي خَبَرٌ عَنْهُ ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو عُتَيْبَةَ وَإِنَّمَا سُمِّيَ « أَبَا لَهَبٍ » لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ ، وَكَانَ كَثِيرُ الْأَذِيَّةِ لِرَسُولِ الله ﷺ وَالْبِغْضَةِ لَهُ ، وَالِازْدِرَاءِ بِهِ ، وَالتَّنَقُّصِ لَهُ وَلِدِينِهِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أَيْ : خَسِرَتْ وَخَابَتْ ، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ ﴿ وَتَبَّ ﴾ أَيْ : وَقَدْ تَبَّ تَحَقَّقَ خَسَارَتُهُ وَهَلَاكُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : وَلَدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أَيْ : ذَاتَ شَرَرٍ وَلَهِيبٍ وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ ، ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَهِيَ : أُمُّ

---

(١) البخاري (٤٩٧٢) ، مسلم (٢٠٨) .

جَمِيل ، وَاسْمُهَا : أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَتْ عَوْنًا لِزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ ، فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ يَعْنِي : تَحْمِلُ الحَطَبَ فَتَلْقِي عَلَى زَوْجِهَا ، لِيَزْدَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ ، وَهِي مُهَيَّأَةٌ لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ .

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ مِنْ مَسَدِ النَّارِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ كَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، **وَقِيلَ** : كَانَتْ تَضَعُ الشَّوْكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ الله ﷺ . وَاخْتَارَهُ ابنُ جَرِيرٍ . **وَقِيلَ** : كَانَتْ لَهَا قِلَادَةٌ فَاخِرَةٌ ، فَقَالَتْ : لَأُنْفِقَنَّهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ، يَعْنِي فَأَعْقَبَهَا اللهُ مِنْهَا حَبْلًا فِي جِيدِهَا مِنْ مَسَدِ النَّارِ ، **وَقِيلَ** : المَسَدُ : اللِّيفُ ، **وَقِيلَ** : المَسَدُ : سِلْسِلَةٌ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، **وَعَنِ الثَّوْرِيِّ** : هُوَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ ، لَمْ يُقَيِّضْ لَهُمَا أَنْ يُؤْمِنَا وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعْلِنًا ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ المَسَدِ ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة الإخلاص
وهي مكية

عَنْ عَائِشَةَ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : ((**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟**)) فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ**)) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ[2] ؛ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**)) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : ((**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟**)) فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : ((**اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ**))[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ[4] : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أُحْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**)) فَحُشِدَ مَنْ حُشِدَ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثُمَّ دَخَلَ ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**)) إِنِّي لَأَرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**إِنِّي قُلْتُ : سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ، أَلَا وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**)) .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ[5] ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلَّ يَوْمٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟**)) قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، نَحْنُ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَزُ . قَالَ : ((**فَإِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ فَـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثُلُثُ الْقُرْآنِ**)) .

---

(١) البخاري (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣) .
(٢) البخاري (٧٣٧٤) .
(٣) البخاري (٥٠٥١) .
(٤) مسلم (حديث ٨١٢) .
(٥) مسلم (حديث ٨١١) .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ حَبِيبٍ عَنْ أَبِيهِ[1] ؛ قَالَ : أَصَابَنَا عَطَشٌ وَظُلْمَةٌ ، فَانْتَظَرْنَا رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي بِنَا ، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدَيَّ فَقَالَ : « قُلْ » فَسَكَتَ ، قَالَ : « قُلْ » قُلْتُ : مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : «﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ **وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ** » .

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ[2] ﷺ كَانَ إِذَا آوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا وَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

يَعْنِي : هُوَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ ، وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى الله ﷻ لأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ **قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ فِي مَعْنَاهَا : يَعْنِي الَّذِي** يَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ ، **وَقَالَ عُلَمَاءُ آخَرُونَ** : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، سُبْحَانَ الله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . **وَقِيلَ** : هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ ، الْحَيُّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٥) ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب ، وأبو داود (٥٠٨٢) ، والنسائي (٨/ ٢٥٠) .

(٢) البخاري (٥٠١٧) ، ومع الفتح (١/ ٢٠٩، ٤٠٠، في عدة مواضع من صحيحه ، ومسلم في الطب (٣ : ٥) .

الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ ، **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ** : هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ .

وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ لَهُ بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبِّنَا ﷻ هُوَ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ يَعْنِي : لَا صَاحِبَةَ لَهُ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٠١] أَيْ : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨-٩٥] ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ « **لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ** »[١] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ ﷻ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ** »[٢].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (٦٠٩٩) ، مسلم (٢٨٠٤) .
(٢) البخاري (٤٩٧٥) .

تفسير سورة الفلق
وهي مدنية

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ** ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾))[1].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ[2] ؛ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ ، إِذْ قَالَ لِي : ((**يَا عُقْبَةُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟**)) قَالَ فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَهُ . ثُمَّ قَالَ : ((**يَاعُقَيْبُ ، أَلَا تَرْكَبُ ؟**)) قَالَ : فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً ، قَالَ : فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ رَكِبَ ، ثُمَّ قَالَ : ((**يَا عُقَيْبُ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ ؟**)) قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ؛ فَأَقْرَأَنِي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا ، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ : ((**كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقَيْبُ ؛ اِقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ**)) .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ؛ قَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ[3].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ؛ قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**يَا عُقْبَةُ ؛ قُلْ**)) قُلْتُ : مَاذَا أَقُول ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ((**قُلْ**)) قُلْتُ : مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ ، أَرْدِدْهُ عَلَيَّ . فَقَالَ : ((**يَا عُقْبَةُ ؛ قُلْ**)) قُلْتُ : مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : ((**قُلْ**)) فَقُلْتُ : مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فَقَرَأْتُهَا ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : ((**مَا سَأَلَ**

---

(١) مسلم (٨١٤) .
(٢) صحيح لشواهده : وانظر النسائي (٨/ ٢٥٠ – ٢٥١ – ٢٥٢) .
(٣) حسن : أخرجه أبو داود (٢/ ١٨١) ، والنسائي (٣/ ٦٩) .

سَائِلٌ بِمِثْلِهَا ، وَلَا اِسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهَا))[١].

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ عَائِشَةَ[٢] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ ، وَيَنْفُثُ فِي كَفَّيْهِ ، وَيَمْسَحُ بِهِمَا رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ أَيْضًا ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا اِشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ . وَيَنْفُثُ ، فَلَمَّا اِشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الصُّبْحُ . وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، **وَقِيلَ** : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الْخَلْقُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ الْفَلَق ﴾ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمَ ، إِذَا فُتِحَ صَاحَ جَمِيعُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ . **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ ، أَنَّهُ فَلَقَ الصُّبْحَ . وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أَيْ : مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قِيلَ : غَاسِقُ اللَّيْلِ إِذَا وَقَبَ غُرُوبُ الشَّمْسِ ، **وَقَالَ الزُّهْرِيُّ** : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ .

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – : أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ ، وَقَالَ : ((**تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ**))[٣] .

وَفِي رِوَايَةٍ : ((**تَعَوَّذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقَ إِذَا وَقَبَ**))

---

(١) إسناده حسن : أخرجه النسائي (٨/ ٢٥٣) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي (٩/ ٣٠٢) ، وأحمد (٦/ ٦١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧) . وقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح (٨/ ٧٤١) .

قَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ آيَةُ اللَّيْلِ إِذَا وَلَجَ وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَنَا ، لِأَنَّ الْقَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ ، وَلَا يُوجَدُ لَهُ سُلْطَانٌ إِلَّا فِيهِ ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ لَا تُضِيءُ إِلَّا بِاللَّيْلِ ، فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ يَعْنِي : السَّوَاحِرُ إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ فِي الْعُقَدِ . فِي الْحَدِيثِ(١) أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : اِشْتَكَيْتُ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ : ((**نَعَمْ** ، فَقَالَ : **بِسْمِ اللهِ ، أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ ، اللهُ يَشْفِيكَ**)) ، وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شَكْوَاهُ عليه السلام حِينَ سُحِرَ ، ثُمَّ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحُسَّادِ مِنَ الْيَهُودِ فِي رُءُوسِهِمْ ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ ، وَفَضَحَهُمْ وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ، بَلْ كَفَى اللهُ وَشَفَى وَعَافَى .

وَعَنْ عَائِشَةَ(٢) **قَالَتْ** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ ، فَقَالَ : ((**يَا عَائِشَةُ ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ : مَا بَالُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ . قَالَ : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ** - رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفُ الْيَهُودِ كَانَ مُنَافِقًا - وَقَالَ : ((**وَفِيمَ ؟ قَالَ : فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ** . وَقَالَ : **وَأَيْنَ ؟ قَالَ فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ**)) . قَالَتْ : فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ ، فَقَالَ : ((**هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا ، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**)) قَالَ : فَاسْتُخْرِجَ قَالَتْ : فَقُلْتُ : أَفَلَا ؟ أَيْ : تَنَشَّرْتَ ؟ فَقَالَ : ((**أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي ، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا**)) .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ((الْفَلَقِ)) ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ

---

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ١٤/ ١٧٠) .
(٢) البخاري (٥٧٦٥) .

تفسير سورة الناس
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ ﷻ: الرُّبُوبِيَّةُ، وَالْمُلْكُ، وَالْإِلَهِيَّةُ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَمْلُوكَةٌ عَبِيدٌ لَهُ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيذَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جَهْدًا فِي الْخَيَالِ. وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ**» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[1].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ فِي قِصَّةِ زِيَارَةِ صَفِيَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَخُرُوجه مَعَهَا لَيْلًا لِيَرُدَّهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا - أَوْ قَالَ: شَرًّا**»[2].

وَعَنْ رَدِيفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: عَثَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِمَارُهُ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ،**

---

(١) مسلم (٢٨١٤).

(٢) البخاري (مع الفتح ٦٢١٩)، مسلم (٢١٧٥).

وَقَالَ بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِسْمِ الله ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ))[1].

قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ ، فَإِذَا ذَكَرَ الله خَنَسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِبَنِي آدَمَ - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ - أَوْ يَعُمُّ بَنِي آدَمَ وَالْجِنَّ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيبًا ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَقَدِ اسْتُعْمِلَ فِيهِمْ ﴿ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ فَلَا بِدْعَ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ بَيَّنَهُمْ فَقَالَ : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ ؟ وَهَذَا يُقَوِّي القَوْلَ الثَّانِي

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ؛ إِنِّي لَأُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ ، الحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ))[2].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّاسِ ، وَلله الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/ ٢٦٠) ، وأحمد (٥/ ٥٩ ، ٧١) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٢٣٥) ، وأبو داود (٥١١٢) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٠٣٨١